

حركة التابير

حكاية من الأمازون وكرة القدم والأراجيح

Leonardo Poggi

Miki Fossati

Laura Molina

تُرجم عن الإيطالية مع Claude (Anthropic) و Gemini (Google)

La mossa del tapiro: العنوان الأصلي:

الطبعة الإيطالية الأولى: نوفمبر 2014

ISBN الطبعة الإيطالية: 978-88-909172-6-4

صورة الغلاف: Paul B. Jones (أوتاوا، كندا)، <https://www.flickr.com/photos/paulbjones/>

Copyright © 2014, Leonardo Poggi, Varazze; Miki Fossati, Whitstable; Laura Maria Bosi, Calco

هذا الكتاب عمل من الخيال. الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه من نسج خيال المؤلفين أو مستخدمة استخدامًا خياليًا. وأي تشابه مع أشخاص أو أحداث حقيقية فهو محض صدفة.

إلى جميع غير المتَّصل بهم

صفر

هذه القصة لن تنتهي نهاية حسنة، هذا ما أعرفه.

أي طبيعة، وأي انسجام بين الإنسان والكون، وأي استعادة للإيقاعات البدائية، سأموت في هذه الغابة اللعينة، أموت هنا ولن يعرف أحد أبدًا أين انتهى بي المطاف، أي طبيعة، سأموت هنا جوعًا وعطشًا، وكم يستغرق الموت من وقت، المرء يموت عطشًا أولًا، هذا معروف، وما زال عندي من الماء بقدر إصبعين، لكن العناكب، لم يخطر لي أمرها حين كنت أفكر في الطبيعة، لبتة كان جاكوارًا – يا إلهي، لا بد أن هنا جاكوارات – جاكوار أفضل، لكن ليس العناكب، لا أريد أن أموت وقد التهمتني العناكب، إذن فليكن ثعبان، مثل تلك التي كانت جدتي تحدّثني عنها، لا تكاد تتمكّن من قول اسم يسوع المسيح كاملاً حتى تكون ميتًا، ذلك أفضل من العناكب.

نظر حوله، في العشب الكثيف، ليرى إن كان الثعبان قد كمن هناك من قبل. وأخذت أفكاره تتفكّك، الجوع، الإرهاق، العطش. أمسك رأسه بيديه، ومرفقاه على ركبتيه، وربما كان خيرًا له أن يدع نفسه يموت هناك، فماذا كان بوسعه أن يفعل، على أي حال.

”الفصل 1“

1.0

كلّ شيء يعتمد.

«إنها مسألة... قبل أن نحكم علينا أن نأخذ في الحساب خطأ...» قال أنطونيو.

«المنظور» اقترح إدواردو، المدرّب المساعد.

«أجل، هذا. ومن منظورنا نحن يبدو حائط الصد في مكان سيّئ حقًا. لكن المهمّ هو منظور حارس المرمى.»

«تقول هذا؟ أنا أرى أنّ حائط الصد موضوع في مكان سيّئ فعلاً.»

لكن أنطونيو لم يعد يصغي إليه. كانت تسديدة المهاجم الأرضية قد مرّت بجانب حائط الصد دون أن تكلف نفسها حتى إلقاء نظرة عليه، وبدأ أنها متّجهة إلى الزاوية الأرضية عن يسار الحارس. غير أنّ الحارس، الذي لم تكن نقطته القوية تتركز حائط الصد، كان في المقابل واثبًا رشيقيًا، وقد ارتمى في التوقيت الصحيح. في تلك اللحظة، التي ثبّتها أنطونيو مصوّرًا إيّاها في ذهنه، بدا من منظوره هو أنه سينجح في إبعاد الكرة بطرف أصابعه. ومن منظور المهاجم، الذي كان يقفز نافذ الصبر كابتنًا رغبته في الاحتفال، بدا على الأرجح أنّ الكرة ستسكن الشباك. ومن منظور المدرّجات ربما بدا أنّ التسديدة ستنتهي مباشرة على القائم، أو خارجًا.

كلّ شيء يعتمد.

ثم في لحظة ما تنتهي الكرة خارجًا، أو على القائم، أو على أصابع الحارس، أو في الشباك، ولا يعود شيء يعتمد.

1.1 الإذاعة

«أهلاً يا أنطونيو!» حيّاه جواو، بواب الإذاعة: «كيف جرت المباراة؟»

«يعتمد» أجاب أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا، المعروف لدى الجميع ببساطة باسم أنطونيو، دون أن ينتبه حتى إلى مقدار ما أثارتته تلك الإجابة شديدة التوقع من ابتسامة فورية على وجه جواو.

«إن كنت تسألني عن النتيجة، فأنت تعمل في الإذاعة، ومن ثمّ ستعرفها أفضل مني، النتيجة. إذن أنت لا تسألني عن النتيجة، وعندها أقول لك إنّ المباراة سارت على ما يرام: المخططات آتت ثمارها، كان عليك أن ترى وجوه الفتيان حين رأوا أنّ الأخطبوط الهجومي ينجح مرّة بعد مرّة. من جهة أخرى، ما زالت المخططات الدفاعية بحاجة إلى عمل كثير. باختصار، يعتمد على الجهة التي تنظر منها.»

كعاداته دائماً، كان أوّل ما يفعله أنطونيو ما إن يدخل الإذاعة، قبل بدء البرنامج بخمس وعشرين دقيقة كالمعتاد، أن يشغل الحاسوب. وكعاداته دائماً، كان الحاسوب مطفأً. وكان بطيئاً. منذ لحظة ضغطك زرّ التشغيل إلى اللحظة التي يمكنك فيها أن تبدأ استخدامه كانت تمضي أبطىء. وكعاداته دائماً، كان أنطونيو يقضي هذه الأبدية في التفكير: الحاسوب المطفأ هو الاستعارة المثالية لفصولكم إزاء العالم. كانت فكرة قصيرة، سبق لأنطونيو أن صاغها مئات المرات. ومع ذلك، في ذلك الزمن الطويل جداً الفاصل بين التشغيل واللحظة التي يصبح فيها الحاسوب صالحاً للاستخدام، لم يكن أنطونيو يفكر في شيء آخر. لا على نحو هوسي، كما في «كثرة العمل بلا لعب تجعل جاك صبيّاً مملاً» في فيلم «شاينينغ». ولا بصياغات مختلفة في كل مرّة. كلا، كان يضغط الزرّ، ويحدّق في الشاشة، ويفكر في مرّة واحدة بطيئة جداً: الحاسوب المطفأ هو الاستعارة المثالية لفصولكم إزاء العالم.

الشيء الوحيد الذي كان يتغيّر هو الموسيقى التي كانت ترافق هذا الانتظار، موسيقى كان أنطونيو يسمعها شاردّاً، بطرف أذنه، وكانت في كل مرّة مختلفة، لأنّ إيزابيل، مقدّمة البرنامج الذي يسبق برنامجه، كانت قد راهنت نفسها على ألاّ تبثّ المقطوعة نفسها مرّتين أبداً. أبداً.

«وإن أعجبتك؟ لماذا لا تعيد سماعها؟» كان أنطونيو قد سألهَا ذات مرّة.

«أستعيدها بالذاكرة وأسمعها بأذني العقل» أجابته.

ثم كان الحاسوب يشتغل، فيستطيع أنطونيو أن يبدأ الاتصال بالإنترنت. هناك أيضاً كان عليه أن ينتظر، لكنّ نقيق المودم كان يجعل الانتظار أطيب: كان صرير العالم يأتي لاستقباله، بكلّ معلوماته. كان أنطونيو يبدأ جولته المعتادة حول العالم: La Nación، Público، CNN، BBC، El Mundo، Repubblica، Le Monde. كان موهوباً في اللغات: الإنجليزية والإسبانية درسهما في المدرسة، وإذا كنت تتحدّث الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية صارت قراءة الفرنسية والإيطالية ممكنة، غير أنه كان يأسف لأنه لم يدرس قطّ لغة غريبة كالعربية أو الصينية، لأنه كان يدرك أنّ رؤيته للعالم، مهما اتسعت، تظلّ مع ذلك محدودة. كان الحاسوب يحمّل الصفحات ببطء، لكنّ ذلك لم يكن يهّم أنطونيو: كلّما ظهرت الأخبار على الشاشة أخذ يقرأ ويدوّن الملاحظات في دفتره.

وفي ذلك اليوم أيضاً، كما في كل مرّة، بعد عشرين دقيقة وضعت إيزابيل يدها على كتفه، وقالت له «جاء دورك» وتركته وحيداً أمام الميكروفون، بينما كانت تتردّد أغنية أخرى من تلك التي بثّتها إيزابيل للمرّة الأولى والأخيرة في حياتها.

وهو ينظر إليها تبتعد، فكر أنطونيو أنّ هذه العادة، عادة بثّ أغنية مختلفة في كل مرّة، لا بدّ أنها عرّض من أعراض فضول فكري عظيم (لكن من أين تأتي بالأفكار، هذا هو السؤال: الحاسوب مطفأ دائماً). وبمعنى ما، كان التغيير الدائم هو أيضاً مخططاً ثابتاً، وأنطونيو كان يحبّ المخططات.

جلس على المقعد الأخضر الزيتوني، وضبط الميكروفون، وألقى نظرة أخيرة على ملاحظاته، وانتظر أن تخبو نغمات «سموث» لسانتانا وروب توماس، ثم بدأ نشرته العالمية-المحلية.

«طابت أمسيّتكم جميعًا. نبدأ جولتنا الصحفية اليوم، الثالث من نوفمبر 1999، بخبر سيهمّ أصدقاء بار «راينيا دا إنغلتييرا» في جادة الجنرال غورجاو: لم يتبقّ سوى أيام قليلة على الاستفتاء الذي سيختار فيه الأستراليون ما إذا كانوا سيقبّلون تحت حكم إليزابيث الثانية أم لا. للوهلة الأولى يبدو لي الأمر جنونًا، ما رأيكم؟ من البديهي أنهم سيطرّدونها طردًا، ما علاقة ملكة إنجلترا بأستراليا؟ لكنني أفكر بعدها أنّ العالم بحاجة إلى قواعد وقيمينيات، وأنّ أكثر القواعد عبثًا أحيانًا يمنحك اطمئنانًا أكثر من غياب اليقين، وعندها أفكر أنّ الأستراليين ربما، من يدري، سيختارون الإبقاء على الملكة. وأنتم ما رأيكم؟»

كان صوته دافئًا رخيماً، وكان هكذا منذ أن كان فتى، وبعد خجالات المراهقة الأولى من هذا الصوت ظلّ فخورًا به فخراً عظيماً. وفي سنوات عمله الثلاث هذه في الإذاعة، كان قد صقل الطبقة والأسلوب، وصارت تلك الاهتزازات على الدرجات المنخفضة تبتّ فوراً في جميع المستمعين إحساساً بالسرور.

«سكان روا نرويفا، في المقابل، سيسعدهم أن يعرفوا أنه في هذه الأيام، في أوصلو عاصمة النرويج، انعقد اللقاء بين القادة الإسرائيليين والفلسطينيين، وقام رئيس الولايات المتحدة ك्लينتون بدور عريف الحفل. وقد التقى ك्लينتون بعد ذلك أيضاً رئيس الوزراء الروسي الجديد، رجلاً يدعى فلاديمير بوتين. ما رأيكم، أُنكون هذه هي المرّة الموفّقة؟ سلام ومحبة للجميع؟ لا أدري، أنا أنظر إلى صورة باراك وعرفات وهما يتصافحان، والشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو أنّ الصورة نفسها قد التقطها اثنان من هؤلاء السادة الثلاثة قبل سنوات، ولم يتغيّر شيء. لكنّ أهل روا نرويفا قوم يفكّرون بإيجابية، هذا ما أعرفه، ولهذا فلنظّل نأمل.»

توقّف قليلاً وابتسم. لم يكن قطّ واثقاً تماماً من حسّ الفكاهة لديه، لكنّ هذه بدت له طرفة ناجحة، أحسنت يا أنطونيو. نقرة بفأرة الحاسوب، وصفحة تُحمّل بطيئة كعادتها...

«والآن، للأسف، خبر يصيب من قريب سكان حيّ المطار ويصيبنا جميعاً: لقد علّقت أعمال البحث عن ناجين محتملين من رحلة إيجيبت إير 990، التي تعرّضت أمس لحادث مروع قبالة سواحل نانتوكيت، ماساتشوستس. مآسي الطيران تضرب دائماً بقوة مخيلتنا والفكرة التي صنعناها عن أنفسنا باعتبارنا مسيطرين على الطبيعة بواسطة العلم. وتضرب بقسوة أشدّ مدينة مثل مدينتنا، شبه المعزولة تماماً برّاً، والمحتاجة إلى هذا الحدّ إلى الطائرات لتتصل ببقية البلاد. قلوبنا مع أهالي الضحايا.»

كان الصمت الذي تبع ذلك، لمرّة واحدة، الخاتمة الطبيعية لما كان قد فرغ للتوّ من قوله، لا تلك الفترة الفاصلة الغريبة التي كانت تشير عادةً إلى أنّ أنطونيو يواصل مونولوجاً ما داخل رأسه.

«على أيّ حال» استأنف أنطونيو. وكانت طبقة صوته قد هبطت أوكثافاً كاملاً، فازدادت جاذبية: «الحياة صعود وهبوط. أحياناً يكون الهبوط سحيقاً، وأحياناً تتولّى الموسيقى الجميلة مساعدتنا على الصعود من جديد. وحين تكون الموسيقى جميلة، يمكن سماعها مرّتين متتاليتين أيضاً، يا عزيزتي إيزابيل، فربما رسخت في الذاكرة أكثر. إهداء لك، ولكلّ سكان مدينة سانتانا المجاورة: سموث.»

خبت نغمات «سموث» فأطلق أنطونيو العنان للمكالمات الهاتفية. بل: للمكالمة الهاتفية. أجل، لأنّ بعض المخططات في حياته لم يخترها كما اختار غيرها: بعضها بدا ذا معنى كوني، وعن بعضها الآخر كنت تتساءل «لكن لماذا؟». والمكالمة الأولى في البرنامج، دائماً، كانت مكالمات تيريزا.

«أنطونيو، يا لها من كلمات جميلة. حزينة إلى هذا الحدّ لكنها مؤثرة إلى هذا الحدّ. ويا له من اختيار مثالي للموسيقى، دعني أقولها.»

«في الحقيقة هذه المقطوعة اختارتها إيزاب...»

«كان اختياراً موفّقاً جدّاً، صدّقني، كدت أنخرط في البكاء. على كلّ حال، لم أتصل من أجل الحزن، بل من أجل الفرح. اسمع، أنت تعرف أنني لا أعرف شيئاً وأنت أنت من يعلمني أمور العالم بصوتك الجميل، لكنني مع ذلك أردت أن أقول إنّ النرويج وفلسطين وهما تصنعان السلام أخيراً خبر جميل جدّاً، يمنحنا الكثير من الطمأنينة والأمل، وشكراً لأنك حدّثتنا

عنه. أما قصة ملكة أستراليا فلم أفهمها جيدًا، لم أفهم كيف يستطيع شعب أن يقول لملك “لم نعد نريدك”، لكنها تبدو لي مع ذلك أمرًا جميلًا. إلى اللقاء يا أنطونيو، أمسية سعيدة.»

بل بالعكس، ففكر أنطونيو.

«شكرًا يا تيريزا، ولك أمسية سعيدة.»

1.2 المدرسة

في ماكايا بار لكل شيء. هناك بار لمن يعطش، وهناك بار لمن يشعر بالوحدة، وهناك بار لمن يريد العراك. هناك بارات تجهد نفسها لتبدو أنيقة، وبارات سيئة السمعة. ثم كان هناك البار الذي تحت بيت أنطونيو، وفيه تلفاز في الركن يبت دائمًا حدثًا رياضيًا ما، سواء كان بثًا مباشرًا أو مُعادًا.

كان أنطونيو يرتاده لا لأنه يحبّ الشرب، ولا لأنّ لويس النادل يعجبه إعجابًا خاصًا، ذلك الرجل الضخم المتصبّب عرقًا الذي كانت له عادة مزعجة، أن يترك سجائره بالنعناع، المدخنة إلى نصفها، على حافة المنضدة المثلومة، فتتآكل في حلزونات من دخان مزرّق. ولم تكن تُفرحه أيضًا الكايبيرينيا التي كان لويس يعدّها مكثّرًا من الثلج والسكر ليوقّر في الكاشاسا والليم. كان يذهب إلى هناك كثيرًا ببساطة لأنه كان يحبّ مشاهدة المباريات في صحبة، مستغلًا الفرصة ليعرض نظرياته على الرّواد. في ذلك المساء كانت قناة محلية تعيد بثّ مباراة كرة طائرة. وأيّة مباراة! نهائي الدوري العالمي بين إيطاليا وكوبا، الذي جرى قبل بضعة أشهر. جلس أنطونيو إلى المنضدة وطلب جعة، فهي على الأقل لم تكن ممّية.

«انظروا. هل رأيتم الحركة التي قام بها ذلك اللاعب للتوّ، متقاطعًا مع ذاك الآخر؟» قال أنطونيو للغريب الجالس عن يمينه، لكنه كان يخاطب نفسه أكثر من أيّ أحد «أتظنّونها مصادفة؟ لا شيء في الكرة الطائرة مصادفة. ستسألونني: لكن كيف يتسنى لهم في جزء من الألف من الثانية أن يكونوا قد قرّروا كلّ شيء، وأنا أجيبكم أنهم لم يقرّروا أيّ شيء على الإطلاق، كما أنّ المرء لا يقرّر أن يرمي بنفسه على الأرض إذا سمع طلقات مسدّس. بوم! على الأرض. إنها الغريزة.»

كانت الكرة الطائرة دائمًا حبًا كبيرًا لأنطونيو، والمنتخب الإيطالي على وجه الخصوص. كان أطول من المتوسط وموهوبًا بدنيًا، وقد أمضى شبابه متناوبًا بين شبكة وسط الملعب وشباك المرمى. لكنّ الكرة الطائرة رياضة قاسية: عليك أن تكون طويلًا حقًا، أطول بكثير من أنطونيو، ولكي تلعب عليك أن يكون لك كثير من الأصدقاء، ويجب أن يكون الطقس جميلاً، وأن تجد ملعبًا خاليًا. مع كرة القدم الأمر أسهل، واحد مثل أنطونيو كان في وضع أفضل، وكان يكفي صديق واحد لبدء مباراة، حتى تحت المطر.

«لكنّ الاحتماء من الرصاص شيء، ولعب ضربة ثانية مليّمتريّة الدقة في المنطقة الثالثة شيء آخر، كيف يمكن لذلك أن يكون غريزة، ستسألونني» قال أنطونيو مجدّدًا للرجل الجالس عن يمينه، دون أن ينتبه إلى أنّ الذي كان هناك قبل قليل قد قام خلسةً ورحل، وأنّ الغريب الذي كان يشرح له الكرة الطائرة كان شخصًا آخر.

«وأنا أجيبكم أنها تصير غريزة. تحاول، وتحاول، وتعيد المحاولة بكلّ المخططات الممكنة وحتى المستحيل منها، حتى تصير غريزة، حتى يعرفها جسدك كما يعرف أنّ المخطط يقتضي أن تشهق ثم تزفر، ثم تشهق وتزفر من جديد متبّعًا الإيقاع، لكن إذا وصل فجأة، على غير توقّع، جسم غريب: هتشوا! هذه هي الكرة الطائرة: عطسة غريزية في اللحظة المناسبة.»

ألقي عليه الغريب (هو نفسه الذي من قبل؟ أم واحد آخر جديد؟ ومن كان بوسعه أن يعرف، فمعرفة ذلك كانت تستلزم أن ينظر إليهم بأدنى قدر من الانتباه) نظرة حائرة، وهزّ رأسه، وعاد يرتشف كاشاساه.

«وأقول لكم هذا،» في اليوم التالي كان أنطونيو يحدث تلاميذه في المدرسة بينما كانوا يلعبون محاولين تطبيق مخططاته، ولم يكن تدفق أفكار الأمسية الفائتة قد انقطع بعد «وإن بدا لكم الأمر مفاجئًا، فالبرازيل أمة صاعدة. ولن يُظهر صعودنا بجلاء أكثر من سيادتنا في الكرة الطائرة – ألفارو! قلت لك ألف مرّة إنّ المنطقة الأولى تُدافع عنها والقدم اليمنى متقدّمة! – الجميع هناك يظنّون أننا لا نحسن سوى رقص السامبا ولعب كرة القدم، ويمدحوننا على كرة الاستعراض والخيال. بينما الآن، وقد فهمنا أخيرًا كيف يعمل العالم، وما هي المخططات التي تنظّم جوهره، سننتصر في أكثر الرياضات خضوعًا للمخططات – ثبّت ذراعيك في حائط الصديا إنريكي! – كفانا من كلّ هذه المراكز الاربعة. لقد أوصلنا الابتكار لسنوات إلى نصف النهائي، لكن تأتي لحظة لا يكفي فيها الابتكار، لا بدّ من المخططات. وأنا أرى أننا فهمنا ذلك. وأنكم فهمتموه. أراه حين أشاهد مباراة على التلفاز. وحين أذهب إلى القاعة لأشاهد ماكايا. وحين أنظر إليكم – أحسنت يا جورج، هكذا، ممتاز – الوحيدون الذين لم يفهموا بعد هم أهل الاتحاد، وللأسف تركوا بيبيتو يفلت

منهم، يا لها من مصيبة! لكن حين يفهمون، حين يختارون مدرّبًا يتنفّس المخططات، واحدًا مثل برناردينو مثلاً، حسنًا، عندها سيصير على أُمم العالم الأخرى صراع مرير على المركز الثاني.»

«وكرة القدم؟ ستسألوني أنتم» غيّر أنطونيو الموضوع في لمح البصر، داخلًا إلى الملعب ومعه كرة القدم بينما كان تلاميذه ما زالوا يلعبون الكرة الطائرة. لم يعد أحد يستغرب أمره، ولا حتى تلاميذ السنة الأولى في أوّل يوم دراسي، فقد أبلغوا كما ينبغي بوجود أستاذ تربية بدنية مجنون كان يشرع في شرح مخططات كرة الماء بينما يلعب طلابه كرة القدم، ويفرض مباريات كرة طائرة بكرة رغبي، وهكذا دواليك.

«كرة القدم هي الشيء نفسه، لكنها أكثر بعدًا. إنها أدقّ...»

«استعارة، يا أستاذ؟» قاطعه جورج، أفضل تلاميذه.

«أجل، صحيح، أدقّ استعارة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة: أن نناضل معًا من أجل نتيجة، كلُّ بما تسمح به قدراته، أن نضحّي من أجل الآخرين لكن أن نعرف كيف نكون فرديّين، أن نعرف كيف نحتلّ الألم إلى ما وراء الحدود التي يبدو أنّ جسدك يفرضها عليك، أن نفرح معًا بالانتصارات وأن نتعلّم، معًا دائمًا، ألا نياس من الهزائم. لكن انتبهوا جيدًا، قلت: ينبغي. في الحياة، أعرف، لا يعجبني لكني أعرف، هناك متسع كبير للأناية. لكن في كرة القدم لم يعد الأمر كذلك، ولحسن الحظ. وإن لم نفهم ذلك، بل إن لم تفهموه أنتم، فكأس العالم انسّوها حتى عام 2100.»

«لكن يا أستاذ، إذن بماذا نلعب؟ بالكرة الطائرة أم بكرة القدم؟» سأل جورج بجرأة.

لكن أنطونيو كان ينظر إلى الخارج غارقًا في أفكاره ولم يسمع السؤال حتى. كان يرى مخططات الكرة الطائرة تتشابك في ملاعب كرة القدم، ويسمع كلمات جوليو فيلاسكو، المدرّب التاريخي لانتصارات إيطاليا الأولى، ترنّ في رأسه: «الأعداء، لاعبونا بارعون جدًّا في اختلاق الأعذار لأنفسهم»، ويتخيّل فريقًا تكون فيه معاناة الرغبي، أو كرة الماء، محرّك كلِّ لاعب، وحيث يمكن للدقة القاطعة للمخططات أن تمتزج بخيال شعبه، وحيث...

«أستاذ؟» كان جورج يلوّح بيده أمام عينيّ أنطونيو بملامح قلقة بعض الشيء، معيدًا إيّاه دفعة واحدة إلى الأرض.

«نعم؟» أجاب أنطونيو ببعض الارتباك.

«نلعب الكرة الطائرة أم كرة القدم؟»

«يعتمد.»

1.3 الملعب

بعد مغادرة المدرسة، وبعد أن يتغذى كما في كل خميس عند أمه، التي لا تفوت أبداً أن تزوده أيضاً بعلبة من الحلوى «لوجبة العصر»، كان أنطونيو يقطع بدرجته الجادة التي تفصل بين موقف السيارات في ملعب زيراو، متجهاً إلى حصّة التدريب بعد الظهر.

خطّ أصفر وآخر أخضر مرسومان على الأرض يحدّدان منتصف الطريق، ويُشيران قبل كلّ شيء، كما يعرف الجميع في ماكابا، إلى وجود ذلك الخطّ القوي الخيالي الذي هو خطّ الاستواء. خطّ استواء لا يتوقّف أمام شيء: يخلق دون خوف فوق نهر الأمازون، وينطلق سريعاً نحو القارة، ويطعن النصب البشع المقام باسمه أمام مدخل الملعب، ويقفز برشاقة فوق الجدار القديم المحيط الذي تقشّرت زرقته الأصلية بفعل المطر والحرّ وعشرات الأيدي التي تركت عليه كلّ أنواع الكتابات، ويقسم إلى نصفين المدرجات المبنية عام 1990 والقليلة الرّواد منذ ذلك الحين، والأهمّ من ذلك كله أنه يشكر من صمّم الملعب لأنه جعل خطّ منتصف الملعب يمرّ بدقة بين نصفي الكرة الأرضية، جاعلاً من زيراو مكاناً فريداً في العالم.

كان أنطونيو يفضّل دائماً نصف الكرة الجنوبي، وكان يشعر دائماً أنه من الجنوب أكثر، لعلّه بسبب «الجنوب» في «أمريكا الجنوبية»، وكان الجزء الجنوبي من الملعب هو الذي يفضّله دائماً، رغم أنه الأكثر تعرّضاً للشمس: في الجنوب وُضعت دكّة فريق الأرض، وكلّما لعب من ذلك الجانب شعر أنّ فريقه لا يدافع عن منطقة أو عن مرمى فحسب، بل كان نصف الكرة الجنوبي كلّهُ هو المطروح كلّ مرّة على المحكّ، المهّدّ بكرات الخصوم الطويلة، والمعرّض للخطر بضربات الشمال الحرّة. وحتى وهو يقود درّاجته هادئاً غارقاً في أفكاره، كان بالغريزة يسلك الطريق التي خزّبتها ألف حفرة سائراً عكس الاتجاه في المسار الأيسر، الجنوبي بطبيعة الحال.

كانت الطريق المؤدية إلى ملعب زيراو غرفة معادلة الضغط في حياته: كان يدخلها متفادياً السحالي وخُصّل الأعشاب الضارة، ماراً بين الجدران الصفراء والبرتقالية الباهتة للحَيّ الفقير المحيط بالملعب، ويسلكها وهو ما يزال منغمساً في مشكلاته في المدرسة، وفواتيره الغالية دائماً أكثر من اللازم، والنساء المراوغات اللواتي ما يلبثن أن يسأمن منه ومن خطبه الطويلة قبل الأوان دائماً، في عالم كان المال فيه يساوي أكثر من اللازم والعلاقات الإنسانية لم تعد تساوي شيئاً.

لكنّ مشهد الجدار الأزرق للملعب كان يُصِفّي ذهنه بعد ذلك، وفي تلك المئات القليلة من الأمتار التي تفصله عن بوابة الدخول الحديدية كانت حياته اليومية تتطهّر من كلّ فكرة سلبية، وكانت القيم المثالية لكرة القدم تجد طريقها إلى داخله. واللحظة التي كان ينزل فيها متعرّفاً عن درّاجته والمفاتيح جاهزة في يده هي اللحظة التي كان وجوده يبدو له فيها أكمل ما يكون: ها هو أنطونيو، بجلالة قدره، مدرّب نادي ماكابا لكرة القدم، الذي هو في رأسه أهمّ فريق كرة قدم على هذا الكوكب.

حتى الصرير المشؤوم للمفصلات القديمة الصدئة كان سبباً للسعادة، كان الملعب يستقبله بصوته الأجنّس ويقول له «مرحباً». خلف الجدار كان العالم يتغيّر، تتغيّر الألوان وتتغيّر الروائح أيضاً. كانت رائحة غرف الملابس المميزة تلك، والهرمونات الذكورية المنفلتة، تمتزج برائحة جلد عشرات الكرات وبرائحة العشب، النادر جدّاً في الحيّ، النفاذة اللاذعة فوق كلّ ما عداه. كان أنطونيو يحبّ أن يصل مبكراً إلى التدريب، ويحبّ أن يطوف في غرف الملابس حيث كثيراً ما يلتقط الأشياء المنسيّة من فتيان الفرق الأخرى، ويحبّ أن ينقل الكرات ببطء إلى الملعب – في الجزء الجنوبي بطبيعة الحال – وأن يتأمل من بوابة الدخول المدرجات، كتلة واحدة على هيئة شبه منحرف مبنية غرب الملعب.

«للمدرجات الفارغة طاقتها الخاصة» كانت على الأرجح الجملة التي سمع إدواردو، مدرّبه المساعد، أنطونيو يقولها أكثر من غيرها. قيل كلّ تدريب كان مشهد يتكرّر مطابقاً لنفسه: يدخل إدواردو غرفة الملابس فيجد أنطونيو منشغلاً بشأن ما ويسأله: «وصلت مبكراً هكذا؟»

«أحبّ أن أصل مبكراً»، كان أنطونيو يجيب دائماً بالجواب نفسه «للمدرجات الفارغة طاقتها الخاصة.»

«وأية طاقة؟» كان يردّ عليه إدواردو حين يكون في مزاج جدالي، مستنداً إلى دراسته في كلية الفيزياء التي هجرها قبل سنوات «كامنة؟ حركية؟»

سؤال كان أنطونيو يردّ عليه غالبًا بهزّة كتفين، وأحيانًا بـ«خُطبة طويلة» أخرى، هكذا كان إدواردو يسمّي مونولوجات أنطونيو الطويلة: «لا ينبغي أن تتشبّث بمفهوم ضيق للطاقة كهذا الذي يعلّمونه على مقاعد الدراسة. حين تقع في حبّ فتاة جميلة ماذا تشعر في داخلك؟ أليست تلك طاقة؟ وحين تدور الأمور في مجراها الصحيح ويلعب فريقنا جيّدًا، أعرف أنّ هذا لا يحدث كثيرًا، لكنه يحدث أحيانًا، ما الذي يدفعهم؟ رأيت عيونهم؟ أتريد أن تنكر أنّ تلك طاقة؟ كلّ شيء طاقة! كلّ شيء! وأؤكد لك أنّ مدرجات هذا الملعب التائه في أقصى أكثر دول العالم عبثًا، هذه المدرجات لها طاقتها حتى حين تكون فارغة. وأنا واثق أنك لو كففت عن ذلك الموقف العلمي إزاء كلّ الموضوعات لاستطعت أن تحسّ بها أنت أيضًا!»

عند هذه النقطة كانت هزّة كتفي إدواردو شبه واجبة، يتبعها دائمًا تقريبًا ابتسامة، وربّما على الكتف، وقولٌ منه: «كيف يمكنني أن أساعدك يا أنطونيو؟»

1.4 ماكابا

فترات ما بعد الظهر في ماكابا يمكن أن تكون من نوعين: كسولة أو كسولة جدًا.

لا صمت هناك: دائمًا هناك صيحات الطيور، والأطفال يلعبون ويصرخون دون أن يزعجهم أحد حتى في الثانية بعد الظهر. وهناك دائمًا، بعيدًا أو قريبًا، صوت مذياع أو مذياع صغير يبت الموسيقى، دائمًا. في الحافلة، في الحانة، في المطار، في السوق، في الشارع من النوافذ المفتوحة، الموسيقى في كل مكان. الأغنى والأكثر حظًا، وهم للأسف غالبًا أكثر الناس ندالة أيضًا، يغلقون على أنفسهم سياراتهم الكبيرة المحرك، ويشغلون الموسيقى والمكيف على أقصاهما، ويأخذون في الطواف البطيء بالمدينة، ليتفقدوا مناطق نفوذهم أو ببساطة ليهربوا من أنفسهم.

تقع ماكابا في منطقة أمابا، و«أمابا» في لغة التوبي، الشعب الأصلي القديم المنقرض الذي كان يسكن على امتداد الساحل، تعني «موضع المطر». إن حلت بها بين أغسطس وديسمبر، فيما يسميه السكان موسم الغبار، فربما تساءلت عن السبب. الجو حار، حار جدًا، وفترات بعد الظهر كسولة. لا يمطر كثيرًا، وحين يصل رذاذ من المطر يفرح الناس لأن الحر يرخي قيضته لبعض الوقت. لكن ابق في ماكابا حتى نهاية السنة وستفهم لماذا تحمل ذلك الاسم: في موسم الطين يمطر كثيرًا، كثيرًا جدًا. حين يمطر تصير فترات بعد الظهر كسولة جدًا. فترات طويلة، تقطعها قهوة أو غوارانا، يرافقها دق المطر على سطوح البيوت الصفيحية ورائحة النهر التي لا تشبهها رائحة. وتُجبر السيارات المكيفة على البقاء مركونة، لأن الشوارع كثيرًا ما تصير غير سالكة، وتحل محل صحراء الشمس المحرقة صحراء من الطين. صحراء ناقصة مع ذلك، لأن الأطفال، حتى مع المطر، ما لم تكن عاصفة حقيقية، يستطيعون أن يلعبوا كرة القدم.

يلعب تحت المطر أطفال بايرو سنترال، بل يلعبون بالأحذية حتى، بل على العشب أحيانًا. ويلعب تحت المطر أيضًا أطفال بايرو دو لاغوينيو، حيث كان بريتينيو سيئ الذكر، ابن العبيد، في زمن غير بعيد، يجول مسلحًا من الظهر إلى السادسة، فإن وجدك في الشارع رماك في بئر. ويلعب الجميع تحت المطر في بايرو دو تريم حيث مقر نادي إيبيرانغا، ويلعب الكبار والصغار، رغم الماء والطين، على الممرات الخشبية للبيوت القائمة على ركائز في الباشاداس، أفقر أحياء المدينة، حيث لا يكاد يوجد غير كرة القدم والسامبا ممًا يمكن أن يمنح الفرحة (لكن كرة القدم، لحسن الحظ، تمنح منه الكثير). لا أحد في المقابل يلعب في الشارع في حي بيرول، فالجميع هناك جادون أكثر من اللازم، والشوارع مرتبة ولا تغمرها المياه، لا مكان لكرة القدم فيها.

الوحيد الذي يجول بين الظهر والسادسة، في كل طقس، ومنذ ستين سنة، هو ميندونسا، الذي يعرفه الجميع في حي باكوبا ويحترمون على نحو ما. باكوبا تعني «موز»، وبالضبط مقابل موزة يستطيع ميندونسا أن يروي لك قصة أول طائرة وصلت إلى ماكابا. يقول إنه يتذكرها بنفسه، لكن هذا غير صحيح طبعًا، إنما هو مجرد تقليد شفهي ما بعد حديث نقله إليه بعض أقاربه، ربما أبوه.

«كان ذلك في الثامن عشر من مارس 1922، عشيّة صعود القديس يوسف،» يروي ميندونسا بصوته الجهوري «فهبطت طائرة مائية متجهة إلى بوينس آيرس هبوطًا اضطراريًا، تعالوا، اتبعوني...»، ويسلك جادة بارا، التي ليست، رغم اسمها، أكثر من درب موحد، ويصعد حتى القمة. يشير بإصبعه نحو الشرق، ولا يكاد النهر يُرى في الأفق: «هناك، هناك بالضبط.»

تنظر عيناه بعيدًا، حركة مدروسة، يتظاهر أنه يستعيد قصة يتذكرها تمامًا ولا بد أنه رواها مئة ألف مرة.

«كانت السابعة صباحًا والصيادون يعودون إلى أرصفتهم كالمعتاد. فجأة ينكسر صمت الصباح، وينكسر من فوق. ترتفع عيناى إلى السماء وأسمع أحد الصيادين يصرخ "طائرة!" كنت قد سمعت عنها من قبل،» ما أجود كذب ميندونسا «لكنني لم أر واحدة قط.»

يستأنف العجوز: «عجوز خلاسية تأخذ في الصراخ "نهاية العالم! إنها نهاية العالم!"، فيركع الجميع ويبدأون في الاستغفار عن ذنوبهم.»

يبتسم، لعل فكرة المدينة بأكملها راكعة أمام الطائر المعدني الكبير ما تزال تضحكه.

«العجوز مارسيلو، الذي كان الجميع يظنونه مشلولاً، يأخذ في الركض في دوائر وهو ينشد السلام عليك يا مريم؛ وقائد الحرس الوطني ينفجر باكياً ويعترف لزوجته أنه خانها؛ والزوجة تغفر له علناً وسط ابتهاج الحاضرين؛ وأجراس ساو جوزيه تقرع قرع الموتى. وعلى رأس مجموعة الشجعان على الزوارق سيريلو جوزيه سيمويس، سيصل أولاً إلى الطائرة وسيجد الطيارين الألمانيين قلقين من قدوم كل هؤلاء الناس، فالطائرة ما كانت لتحتمل ثقلهم.»

دائماً، عند هذه النقطة من القصة، يتوقّف ميندونسا قليلاً، ويقشّر الموزة ويأكلها ببطء، شاكرًا الهدية على الدوام. موز الباكوبا هو الأحلى، لكن ليس الجميع يعرفون تمييزه.

«تُنقل الطائرة إلى جوار الحصن، وفي ظهيرة اليوم التالي يُنظّم ما يشبه موكباً حقيقياً لزيارتها. تحضر كلّ العائلات الوجيّهة، والسلطات، وكلّ الطبقات الاجتماعية. راهبات مدرسة سانتا ماريا يصطحبن تلاميذهن لرؤية تلك الأعجوبة الفولاذية، والتلاميذ لا يكفّون عن الأسئلة. وألكسندر فاز تافاريس، محافظ المدينة آنذاك، يعلن يومين من الاحتفالات، ولهذا ما زلنا نتذكّرها حتى اليوم.»

وإن سأله أحد مصادفةً عما آلت إليه الطائرة، لاختصر الكلام متضايقاً: «عشرة أيام. عشرة أيام بقيت هنا، ثم وصل الوقود وأقلعت وسط عاصفة.»

لن تعرفوا من ميندونسا أكثر من هذا.

1.5 إيزابيل

كانت تمطر. في نوفمبر، في موسم الغبار، لا تكاد تمطر السماء أبداً، ومع ذلك كانت تمطر.

في أيام كتلك كان يمكن للبار أن يبقى مغلقاً بكلّ أريحية حتى الظهر على الأقل، لأنّ أحداً لا تراوده رغبة في شرب شيء حين تمطر هكذا. لم تكن أنا ماريّا، صاحبة البار، من هذا الرأي، فامتلاك بار كان بالنسبة إليها نوعاً من الرسالة الإلهية: «ماذا كان يقول يسوع المسيح؟ اسقوا العطاشى! لم يقل ابقوا في البيوت في انتظار الشمس، أليس كذلك؟ اسقوا العطاشى!»

كان مطر ذلك الصباح دافئاً، رمادياً، منهمراً، يحمل معه رائحة النهر ويخمد أصوات الشارع، وسيارة نادرة هنا، ومارة نادرين هناك يفرون كاتمين لعناتهم على الطقس: «ما كان ينبغي أن يمطر هكذا في نوفمبر.»

كانت ماريّا إيزابيل باربوزا، زميلة أنطونيو في الإذاعة، واقفة خلف باب البار، تنظر إلى الشارع، وتحدّث نفسها، ونفسها يتكاثف في دائرة تامة على الزجاج. كانت عيناها، من الزرقة الفاتحة حتى تكادان تبدوان بياضين، تتفرسان بفضول غبار المدينة وهو يتحوّل إلى طين، والطين وهو يصير سيلاً يجري مبتعداً نحو النهر، نهر الأمازون الذي كان أهل المدينة جميعاً يسمّونه ببساطة أكثر «النهر».

قفي يا إيزابيل، ابقى بلا حراك.

رغم القميص الفيروزي الخفيف جداً، بلا أكمام، الذي كانت ترتديه ثوباً، كانت إيزابيل تشعر بحرّ شديد. كانت قطرات العرق تتشكّل عند قاعدة عنقها وتندرج بكسل نحو الأسفل على ظهرها الزيتوني لتبقى بعدها محبوسة في ذيل الحصان الطويل لشعرها الفاحم.

ابقي بلا حراك، لا تتنفسى.

كانت حافية، وقد تركت شبشبها خلف صندوق الدفع. باعدت قدميها العاريتين قليلاً بحثاً عن بلاطات أبرد بعض الشيء، واستنشقت بعمق، وأغمضت عينيها.

بلا حراك.

سرعان ما تحوّل دقّ القطرات في رأسها إلى إيقاع سامبا يزداد دقّة، حتى أخذ جسدها يتحرّك من تلقاء نفسه دون أن تكون واعية بذلك. حين يدخل الإيقاع في داخلك تنبثق حرارة تشعّ من أسفل العمود الفقري، ولا شيء يستطيع أن يمنعك من الحركة، الساقان تصيران الإيقاع، والوركان يصيران الإيقاع، ثم لا يعود بالإمكان تمالك الجزء الأعلى من الجسد أيضاً فيبدأ في الحركة. يصير العمود الفقري محرّكاً، محطة طاقة، وكلّما ضخّ الحرارة بقوة ووزّعها في الجسد صارت الرقصة ببساطة «تحدث»، ولم تعد فعلاً واعياً.

كم بقي على الكرنفال؟ أربعة أشهر بعد! كثير! كثير!

كانت إيزابيل ترقص على إيقاع المطر، وهي ترقص كانت تنسى الطين ورائحة الفاكهة الميتة، والفقر وحزن أحياء كثيرة، وتنسى ماكابا ببيوتها التي كثيراً ما تكون مكتنّزة أكثر من اللازم، وتنسى البرازيل كلّها، تنسى كلّ شيء. كانت ترقص حول الطاولات الحديدية الأربع نصف الصدئة، مارةً قرب ثلاجة الثلجات المعطلة منذ ثلاثة أسابيع دون أن يأتي أحد لإصلاحها بعد. ورغم قامتها غير الرشيقة تماماً، كانت تطوف بخفة مدهشة على امتداد منضدة الفولاذ المرصعة بعشرات الانبعاجات الكبيرة والصغيرة، وترسم قوساً طويلاً لتعود أمام الباب. كان الرقص طريقة في السفر، لأنّ السفر كان دائماً حلمها، والتضحيات التي بذلتها لتدرس، لئنهي الجامعة، كانت دائماً تُبذل وفي رأسها كلمة واحدة: السفر. ومع ذلك لم تكن قد خرجت من ماكابا قط. ليس بعد، فكّرت.

وما تزال عيناها مغمضتين، ونفسها اللاهث يكتف البخار على مساحة من الزجاج تتسع شيئاً فشيئاً. كان العرق يسيل على جسدها كله، وكانت تشعر أنَّ القميص قد التصق بالجلد، وتشعر بجسدها تعبره موجات من اللذة. ولم تكن النار في أحشائها قد خمدت بعد، وكان إغراء العودة إلى الرقص شديداً جداً. لم يكن يهمها الحرّ في شيء، كما لا يهم أحدًا في ماكابا، وربما في البرازيل كلها؛ كان يهمها أن تشعر أنها حيّة.

قلنا بلا حراك يا إيزابيل، قلنا بلا حراك.

كان الحوض قد عاد إلى الحركة من قبل حين طغى على إيقاع المطر صوت طرق أكثر انتظاماً، كأنّ أحدًا يرمي كرات مطاطية على الباب، لا، كأنّ أحدًا يطرق!

فتحت إيزابيل عينيها: خلف الباب كان رجل مسنّ ينظر إلى الداخل، مستخدماً يديه كواقٍ للعينين.

«يا سيد أوليفيرا، تفضّل بالدخول!» هتفت إيزابيل فاتحة الباب دفعة واحدة، ومباغتة السيد أوليفيرا حتى كاد يقع ممدداً على البلاط الأبيض.

«المعذرة يا إيزابيل، من الخارج رأيت حركة، ظننتك تمسحين الأرض.»

«أمسح الأرض؟» ابتسمت إيزابيل «ليس تمامًا.»

«لأنني مبّل ولا أودّ أن أوسّخ...»

«لا تقلق يا سيد أوليفيرا، ماذا أقدم لك؟»

«تقدّمين؟ لا، اسمعي، اليوم معي مال، ليس كثيرًا لكن شيئًا ما...»

انقطع السيد أوليفيرا فجأة وهو ينظر إلى جسد الفتاة الذي لم يعد القميص المشبع بالعرق قادرًا على إخفائه، بينما كانت تلتفت حول المنضدة لتأخذ ليكير جوز الهند، المفضّل لديه. يا لها من أوراك ممثلة، يا لها من أرداف متمائلة، يا لها من صبيّة حسناء لعمّها أوليفيرا.

«لا تشغل بالك،» قالت إيزابيل بصوت مستمتع متظاهرةً بأنّها لم تلاحظ شيئاً «تعرف ماذا تقول السيدة أنا ماريا دائماً، أليس كذلك؟ اسقوا العطاشى! أعطشان أنت؟»

«حسنًا... نعم» أجاب أوليفيرا ببعض الارتباك لأنه لم يقدر على حبس نظره.

«إنّ أنا من يقدّم!» ختمت إيزابيل بابتسامة. وبينما كان السيد أوليفيرا يجرّ نفسه نحو أقرب طاولة إلى الواجهة، لم يستطع أن يمنع عينيه من العودة إلى الفتاة التي كانت تملأ حتى الحافة كأسًا من السائل الأبيض، وتحمله بسرعة نحو الطاولة وعلى وجهها ابتسامة جميلة مرسومة دائماً.

لا شيء، فكّر السيد أوليفيرا وقد بقي فاغراً فاه، هذا القميص لا يخفي أي شيء على الإطلاق.

1.6 المباريات المصغرة

كان أنطونيو مدرّب كرة قدم من نوع خاص.

حين كان في الحادية والعشرين من عمره، ذهب جدّه في زيارة لصديق في ريو دي جانيرو وقرّر أن يصطحب معه حفيده أيضًا. كانت تلك أوّل مرّة يغادر فيها أنطونيو ماكابا، وكانت المناسبة من الجسامة بمكان: كانت بطولة العالم للكرة الطائرة، والبرازيل تلعب على أرضها وكانت مرشحة فوق كلّ المرشحين، وصديق الجدّ كان قد وجد، لا أحد يدري كيف، ثلاث تذاكر لمباراة نصف النهائي ضدّ إيطاليا جوليو فيلاسكو، المدرّب الذي لم يكن أنطونيو قد سمع به إلّا سماعًا، والذي سيصير منذ ذلك اليوم مثله الأعلى.

كان السابع والعشرون من أكتوبر 1990، ولن ينساه أنطونيو أبدًا. كانت السعة الرسمية لقاعة ماراكانازينيو سبعة عشر ألف متفرّج، لكنّ أحدًا لم يشكّ في أنّ الحاضرين كانوا اثنين وعشرين ألفًا على الأقل. كان من المفترض أن تبدأ المباراة في الرابعة بعد الظهر، لكنّ المدرجات الملتهبة كانت قد امتلأت عن آخرها منذ الواحدة، وكانت التورسيديا قد بدأت في تسخين الأجواء بموسيقاها ورقصاتها.

كانت البرازيل رائعة: كان هناك ذلك العبقرى ماوريسيو ليما، وكان هناك تاندي، ومارسيلو نيغراو، وجيوفاني غافيو، ما كان لها أن تخسر.

لكنّ هؤلاء الفتية الستة، ذوي الهيئة شبه المتواضعة، المرتدين الأزرق، بقيادة ذلك الرجل الأرجنتيني القصير، كانوا قد أثبتوا للعالم إلى أين يمكن أن يبلغ المرء بتطبيق المخططات حرفيًا، دون التوقّف عن الثقة في فعاليتها حتى حين تخسر الشوط الأول خسارة فادحة، وحتى حين يكون هناك اثنان وعشرون ألف شخص يشجّعون ضدّك.

من تلك التجربة كلّها بقي محفورًا في ذاكرة أنطونيو الصمت الذي حلّ في القاعة بعد آخر ضربة ساحقة للوكيتا، وقبل كلّ شيء الصمت في رأسه، كأنّ دماغه قد أعيد ضبطه من جديد بفعل تلك الهزيمة الصادمة واحتاج إلى دقائق من التعطيل ليتمكن من قبول المستحيل.

فيلاسكو. المسؤول عن المستحيل كان فيلاسكو.

في مراهقته كان أنطونيو قد كاد يلامس مسيرة الاحتراف في كرة القدم: كان نصف جناح ذا قدمين جيدتين وساقين طويلتين. لكنّ الذهاب للعب في فريق من الدرجة الأولى كان سيعني ترك العائلة، وترك ماكابا، وربما القفز إلى حياة لم يكن يريدّها حقًا. فترك الأمر، لكنه واصل اللعب حتى الخامسة والعشرين، حين أجبر على التوقّف بسبب ضربة سيئة (ربما لم تكن بذلك السوء في الحقيقة) تلقّاها خلال مباراة نصف نهائي بطولة أمابا، البطولة التي انتهى فريقه، نادي ماكابا لكرة القدم، إلى خسارتها في النهائي، وقد همس أحدهم أنّ السبب كان غيابه بالضبط.

في السنة التالية كان قد بدأ يدرب: فمنذ زمن كان يرتاد بمواظبة ملعب غليسيريو ماركيز، الملعب الآخر في المدينة، جالسًا في كثير من الأحيان في الصفّ الأوّل، لا يبخل بتعليقاته، بعضها مسرحي للغاية، على كلّ شيء وكلّ أحد طوال المباراة. وفي وقت قصير لفت انتباه مسؤول في ريال أمابا، أحد الفرق المنافسة لنادي ماكابا، فعاقده لتدريب الناشئين.

أخذ أنطونيو هذه المهمة بحسّ كبير بالمسؤولية. بعد أن أمضى مسيرته الكروية كلّها في خلاف مع أساليب وحجج جميع المدربين الذين قابلهم، بمن فيهم مدرّبو المنتخب الوطني الذين كانت مقابلاتهم التلفزيونية تسبّب له في كثير من الأحيان حرقه في المعدة، شعر أنّ هذه هي فرصته الكبرى ليحدث ثورة في مناهج التدريب العالمية، ليمنح كرة القدم المكانة التي تستحقّها في أوليمبوس الفكر.

كان أنطونيو قد درس كثيرًا، وثقّف نفسه ليس في كرة القدم فحسب، بل في طيف واسع من الرياضات: الكرة الطائرة، كرة الماء، كرة السلة، كرة اليد. ولاحظ أنّ ديناميات التدريب يمكن أن تكون مختلفة جدًّا أيضًا، وأنّ الابتكار لا يعني دائمًا تحقيق النتائج. وأخذت تتشكّل فيه فكرة مفادها أنّ مهمّة المدرّب هي أن يجعل لاعبيه واعين بأنّ المدرّب لا

فائدة منه. كان يجب تدريبهم على مواجهة جميع مواقف اللعب بأنفسهم، وكثير منها كان يتطلب ابتكارًا خالصًا لأنه غير قابل للتكرار في التدريب.

وصار نموذجه، بطبيعة الحال، جوليو فيلاسكو.

اعتبارًا من السنة التالية، 1996، قادت هذه التأمّلات كلّها إلى ابتكار أسلوب رأى أنه جديد تمامًا: الأسلوب الذي عمّده بنفسه باسم طريقة «المباريات المصغّرة».

كان الفريق يُقسّم إلى مجموعات، وعلى كلّ مجموعة أن تلعب مباراة مصغّرة ضدّ مجموعة أخرى في جزء محدود من الملعب. والاحتمالات لا نهائية: اللعب اثنين ضدّ أربعة في مستطيل طويل ضيق يمتدّ من مرمى إلى مرمى، أو ستة ضدّ ستة في ملعب مربع صغير ضلعه خمسة أمتار، أو اثنين ضدّ اثنين في ملعب على شكل حرف إل يأخذ الرواق الجانبي ومنطقة مرمى واحدة فقط، أو ثمانية ضدّ سبعة في منطقة الجزاء فقط، وعشرات وعشرات من التوليفات الأخرى. وكانت نتائج كلّ مباراة تسهم في تكوين ترتيب للاعبين يُستخدم في استدعاءات مباريات البطولة.

كانت بداية السنة لفتيان ريال أمابا كارثية. فبعد أن تدربوا بتلك الطريقة فقدوا سريعًا عادة اللعب في الملعب كلّ، وذلك القليل من رؤية اللعب الذي كان لديهم بدا وكأنه تبخّر فجأة: وأخذت الانتقادات تنهال على أنطونيو من كلّ جانب.

ومع ذلك أظهر هذا الأسلوب جانبًا إيجابيًا واحدًا على الأقل فورًا: كان الفتیان يذهبون إلى التدريبات راغبين، لأنهم في الواقع كانوا يلعبون طوال الوقت، موفّرين على أنفسهم كلّ تلك المراحل المملّة من التقنية التي لا تعجب أحدًا أبدًا.

ثم إنّ أنطونيو، وهو يفكر دائمًا في مقاطع من الملعب ذات أشكال اعتباطية، أخذ يطلق أسماء على كثير من مواقف اللعب: «هذه إل كثيفة» كان يقول لأباء لاعبيه الذين كانوا يساعدونه دورًا بعد دور في دور المدكّ، أو الطبيب الرياضي، أو أمين المعدّات، وما إلى ذلك. «المثلث المسطح»، «القطر الكبير»، «المكيس المقلوب»، «الدائرة الزائفة»، «شبه المنحرف الممزّق»، وغيرها الكثير جدًّا من التسميات التي كان أباء الفتیان الحائرون يتظاهرون في كثير من الأحيان بعدم سماعها.

لكنّ أنطونيو لم يكن يفقد عزمته، وسرعان ما أخذت هذه الرطانة تدخل أيضًا في مخاطباته مع اللاعبين: «أندريه، نبدأ بفنجان مقلوب ونرى إن كان بإمكاننا تطوير القطر الكبير. انتبهوا لأنهم كثيرًا ما يلعبون السترة القصيرة ولا يسمحون لنا بعمل البينبول المتناثر، خاصة على اليسار».

لم تكن هذه حججًا يمكن أن تجتذب عطف الإدارة.

لكن بعد أشهر صعبة أخذت ربح مختلفة تهبّ على فريق ناشئي ريال أمابا، ويعود الفضل في ذلك أيضًا إلى أنّ الفتیان، بطريقة المباريات المصغّرة، سرعان ما اعتادوا المباراة، لعبوا كثيرًا وتعلّموا كثيرًا، أكثر بكثير من أقرانهم في الفرق الأخرى.

لم يفز ريال أمابا ببطولة الناشئين في تلك السنة، فالبداية كانت كارثية أكثر من اللازم، لكنّ أنطونيو لفت انتباه الفرق الأخرى أيضًا: لعبه ربما لم يكن الأكثر استعراضًا ولا الأكثر ابتكارًا، لكنه كان بكلّ تأكيد الأكثر فعالية.

والفتیان، بفضل نضارة أعوامهم الخمسة عشر أيضًا، كانوا قد اعتادوا أن يتعرّفوا بأنفسهم على مواقف اللعب المختلفة، وصاروا ماهرين جدًّا في قيادة الخصوم إلى مواقف مجرّبة ومعاد تجريبيها كانوا يشعرون فيها وكأنهم في بيتهم. وكلّما اتسع طيف المباريات المصغّرة الذي كان أنطونيو يرسّخه، انطبقت هذه الفخاخ في المباريات بوتيرة أكبر، وصار الانتصار أكثر إدهاشًا.

«أنتم غرباء لكنكم تفوزون» كانت أجمل مجاملة يمكن أن يسمعها أنطونيو.

1.7 تیریزا

كانت تيريزا أشدَّ فوضى من أن تكون من أصحاب العادات الثابتة. كان هناك مثلاً دكان صغير تحبُّ أن تتسوّق فيه، لكنها في طريق العودة تكتشف أنها لم تشتري البيض، أو دقيق الكسافا، أو القهوة، فتذهب لاستكمال مشترياتها في أول دكان تصادفه. وكانت كثيراً ما تغيّر الطريق إلى العمل، لا لأنها تتعمّد ذلك، بل لأنّ هناك دائماً شيئاً يجذب انتباهها أو شخصاً تسلّم عليه يدفعها إلى الانحراف، أحياناً بمسافة غير قصيرة.

غير أنَّ روتينها اليومي كان قد وجد منذ بعض الوقت نقطة ثابتة: برنامج أنطونيو الإذاعي. لم تكن تعرف لماذا يعجبها إلى هذا الحد، ولا هي في الحقيقة سألت نفسها يوماً: كان يعجبها، وكفى. مهما كان ما تفعله، في السادسة كانت تشغل المذياع وتأخذ الهاتف في يدها، مستعدة للاتصال. ذلك أنه إن كان لكل شخص أرسله الله إلى الأرض موهبة، فموهبة تيريزا كانت أنها تلتقط الخطّ دائماً. كانت بعض صديقاتها الخبيثات يلمّحن إلى أنَّ السبب أنَّ أحدًا لا يتصل بتلك الإذاعة سواها، لكنّ تيريزا كانت تعرف أنَّ الأمر ليس كذلك: كانت موهبتها مهارة حقيقية، تعرفها وتستغلّها منذ سنوات. مرّة، حين أغضبتها تلك الأفعى لويزا أكثر من المعتاد، عادت إلى البيت واتصلت، لمتحن نفسها، ببرنامج «هولا، كريستينا!»، البرنامج فائق الشعبية في فترة بعد الظهر. كان الرضا عظيماً لدرجة أنها بدلاً من أن تحيي كريستينا، أطلقت تيريزا في السَّمَاءة بررررت مدوِّية. ثم اذهبي واطرحي بعدها أنَّ البررررت لم تكن لكريستينا بل لصديقتها لويزا. صديقة، على سبيل المجاز. هه، صديقات كهؤلاء، خسارتهنّ خير من العثور عليهنّ. على أيّ حال، لم تبدُ كريستينا وفريقها مهتمّين كثيراً بالعداوة التاريخية بين تيريزا ولويزا، وقد أثارت البرررررت الكبرى ضجّة لا بأس بها، لكنّ تيريزا رغم ذلك كانت تعتبرها نقطة مضيئة في مسيرتها كمُتصلة هاتفية.

في البيت، قرب السرير، كان هناك مقعد صغير من البلاستيك الأحمر، مُخدَّش كثيرًا لكن أنعشته وسادة من بروكار أخضر وبنيّ مزيف. على المقعد كان ينام بجانبها دفتر على غلافه صورة خنزير صغير ظريف ينتعل جزمة، وجيوني الدمية، هو أيضًا خنزير صغير، كان ملكًا لأمها، ومن يدري، ربما قبلها لجدتها. ولم يكن لكون الغلاف يصوّر خنزيرًا صغيرًا علاقة بجيوني، فتيريزا كانت تبقي دائمًا دفترًا قرب الأرجوحة تكتب عليه أرقام هواتف البرامج التي تتصل بها وبعض الملاحظات لتتذكّر ما تريد قوله. أما الدفتر ذو الخنزير على الغلاف فقد تركه أحدهم في صالون التجميل حيث كانت تغسل الشعر منذ عشرين سنة، ولم يطلبه أحد قطّ. وكانت غرفتها حتى قبل أشهر قليلة ورشة ميكانيكي: ستارة حديدية دوّارة، ونافذة ذات قضبان، وكثير من الزيت على الأرض. الزيت كان قد نُظف كلّ تقريبًا، والستارة الدوّارة رسمها الأصدقاء لتصوّر شمسًا كبيرة مشرقة من الداخل، وشاطئًا عليه نورس سمين جدًا حتى ليبدو أقرب إلى بطريق، من الخارج. أما القضبان فقد بقيت، لا أحد يدري ما قد يحدث. وما عدا الطاولة القديمة المتأرجحة تحت النافذة وموقد الغاز المساوي لها قدمًا، لم تكن الغرفة تحوي الكثير إذا استثنينا أثنى شيئين: تلافازًا قديمًا اضطرت بمشقة إلى تثبيت هوائيه خارج الستارة الدوّارة، ومذياعًا كبيرًا مدمجًا به مسجّل أشرطة قابل للبرمجة، كانت تيريزا تسجّل به جميع البرامج الإذاعية التي تشارك فيها كممتصة. كانت تكدّس الأشرطة في صندوق كرتوني كبير في الركن؛ ومن حين إلى آخر تعيد سماعها، لكنها في الحقيقة كان يكفيها أن تنظر إليها لتضيق في الذكريات. هذا شريط المرّة التي اتصلت فيها بأنطونيو لتتحدّث عن فنزويلا، وهذا هو شريط مداخلتها عن جوائز الأوسكار.

نظرت إلى الساعة، ولاحظت أن برنامج أنطونيو أوشك أن يبدأ، فابتسمت وذهبت لتشغل المذياع. من يدري عما سيتحدثون اليوم. كانت الساعة ساعة الغسق، ساعة من النهار كانت تبعث فيها بعض الرهبة، ولهذا أيضًا كانت تحب صوت أنطونيو الدافئ، الذي كان يأتي ليطرده الحزن وذلك الضرب من الخوف الطبيعيين جدًا في تلك الساعة من اليوم.

خوف تجسّد فجأة حين سمعت صوت خطوات تركض في الشارع خارج الستارة الدوّارة مباشرة. تجمّد إصبعها على بُعد مليّمترات من مفتاح الضوء، لمبة وحيدة معلقة بالسقف بفضل الأسلاك الكهربائية وحدها، ودفعتها غريزتها، على مضض، إلى إطفاء المذياع. وسرعان ما أخذت صرخات آتية من جانبي الشارع كليهما تتلاقى عند بيتها، ووجد الرجل الذي كان قد توقّف خارج الستارة الدوّارة مباشرة نفسه محاصراً. تحرّكت تيريزا ماشية بصمت نحو أبعد ركن في الغرفة وانكمشت جاثية على الأرض. لم تكن الشجارات نادرة في حيّها، لكنها في أغلب الحالات تنتهي بكثير من الشتائم وبضع لكمات أو دفعات. وحتى السكاكين لم تكن نادرة، لكنّ ذلك لم يكن حيّاً غنيّاً ولا يمرّ به الغرباء، ولذلك كانت الشفرات تبقى عادةً رمزاً للمكانة أكثر منها سلاحاً حقيقياً.

لم يدم الشجار طويلاً. صرخات وشتائم كثيرة، وضربتان أو ثلاث ضربات شديدة جداً على الستارة الدوّارة، ثم الخطوات تتلاشى في المساء الذي كان يتحوّل سريعاً إلى ليل. وصوت مخنوق: «النجدة!»، «ليُساعدني أحداً»، لا يتوقّف، «أنجدوني بحق الربّ يسوع المسيح!»، ويضعف أكثر فأكثر: «أنجدوني، أنجدوني...»

لم تكن تيريزا امرأة شجاعة على وجه الخصوص، لكنها كانت لطيفة، وفضولية جداً أيضاً. ألا تستطيع أن ترى، ألا تستطيع أن تعرف ما يحدث على بُعد أمتار منها خلف تلك الستارة الدوّارة المغلقة، كان ببساطة أمراً غير مقبول. انتظرت ما بدا لها زمناً لا نهائياً حتى بدا لها أنها لا تسمع سوى تنفّس خافت. وخُيّل إليها أنها تسمع صوت أمّها، المسكينة: ابتعدي عن المشاكل يا تيريزا، ابتعدي عن الشجارات. كانت محقّة طبعاً، لكنّ تلك المرّة كان الأمر مختلفاً، تلك المرّة كان يحدث أمام بيتها هي بالضبط. أحكمت إغلاق سترتها الصوفية ورفعت الستارة الدوّارة قليلاً، متوقّعة كلّ ما يمكن أن يكون أسوأ. كان رجل ضخم جداً ممدّداً على الرصيف، ينزف بغزارة ويصدر أزيزاً مع كلّ نفّس.

كانت تيريزا قد أمسكت منشفة – لم يكن في البيت ضامادات ولا أدوية، وكانت تلك المنشفة الشيء الوحيد الذي بدا لها نافعاً على نحو ما – وبها أخذت تضغط بحذر على جرح الرجل.

«الهاتف...» همس الرجل على الأرض.

التفتت تيريزا نحو داخل البيت وحدّقت في الهاتف، قريباً لكن ليس بما يكفي لتناوله دون أن تكفّ عن الضغط على الجرح.

«المعذرة يا سيّد... يا سيّدي. كنت أفكّر أنه يمكنني ربما أن أتصل بالمستشفى، لكن إن تركت الضغط، فما رأيك...» أخذت تشرح بارتباك للجريح، لكنه قاطعها، وصوته بالكاد يعلو على الهمس: «في الجيب! في الجيب! هاتفي أنا!»

هاتف جوّال. كانت تيريزا تظنّ أنّ هذه الأجهزة في ماكابا تُحصى على أصابع يد واحدة، والوحيد الذي رأتَه عن قرب كان هاتف صاحبة الصالون التي تعمل عندها – وكانت تشبه أنّ لديها أنشطة أخرى غير التجميل، لتتمكّن من تحمّل كماليات باهظة إلى هذا الحدّ – والذي كان محور مفاوضة طويلة جداً ومضنية جداً مع شركة TIM البرازيل التي استغرقت نحو عام لتسليمه إليها.

«الرقم... ابحتي عن إيناسيو.»

«لا أعرف استخدامه، لا أعرف استخدامه...» تلعثمت تيريزا وهي تفتّش في جيوب الرجل وتلّطّخ يديها وتنوّرتها بدمه. لكنها اكتشفت أنه بسيط جداً. بضغط بعض الأزرار عشوائياً، حتى بيد مرتعشة كيدها، كانت تظهر كتابة تشرح كيفية فتح لوحة المفاتيح، وبضغط الزرّ الأخضر المرسومة عليه سماعة هاتف تصل إلى قائمة، وبضغط السهم نحو الأسفل تنتقل في القائمة، وكان الاسم الثالث بالضبط «إيناسيو»، مكتوباً بأحرف كبيرة كلّها: جرّبت أن تضغط مجدّداً الزرّ ذا السماعة الخضراء، وفعلاً أخذ الهاتف ينبض بالحياة.

«غوستافو، ما الأمر؟ تعرف أنني لا أريدك أن تتصل بي في هذه الساعة...» أجاب صوت عميق أجشّ من الطرف الآخر.

«ألو؟ ألو؟» لم تكن تيريزا تعرف جيداً ماذا تقول «الحقيقة أنّ السيد غوستافو تعرّض للضرب، ربما طعن بالسكين...»

«ومن أنت؟»

«إنه...» تردّدت تيريزا لحظة: «لقد حدث أمام بيتي، في جادة بياوي، إنه على الأرض، ليس بخير، أسرعوا!»

وصلت شاحنة البيك-أب السوداء بلا لوحة بعد أطول خمس دقائق في حياة تيريزا. على الصندوق الخلفي كان أربعة أشخاص ملثمين يحمل كلّ منهم بين ساقيه بندقية، ومن أكتافهم الهزيلة كان يُستشفّ أنهم لا يكادون يتجاوزون سنّ الطفولة. رجل ضخم أصلع كان يقود نزل راکضاً وصفق الباب. ألقي نظرة خبير على جسد غوستافو، ورفع دون أيّ جهد ظاهر، وقذفه على الصندوق الخلفي دون كثير مجاملة. ثم استدار لينظر مباشرة في عيني تيريزا التي ظلّت طوال ذلك الوقت مسمّرة مكانها.

«أنتِ. ما اسمك؟»

«تيريزا...» أجابت بصوت يكاد لا يخرج من فمها.

صعد الرجل الضخم راكضاً إلى البيك-أب وانطلق وإطاراته تصرّ. وفي تلك اللحظة بالذات فكّرت تيريزا، والمنشفة الملطّخة بالدم ما تزال في يدها وهي ترتعش كورقة شجر: يا لها من قوّة! مع هاتف كهذا لن يوقفني أحد بعد اليوم.

1.8 إيناسيو

إيناسيو ألفونسو إمبيريو دي أوليفيرا، المعروف لدى الجميع بالسيد إيناسيو، مثل كثيرين من مواطنيه، لم يكد يغادر ماكابا قط. ومثل الجميع، كان ينسب الأمر إلى العزلة الطرقية شبه التامة للمدينة: القوارب نتنة، والطائرة لا أثق بها. لكن الحقيقة كانت أن العزلة كانت تناسبه، لأن العالم الخارجي لم يكن يهتم في كثير أو قليل: أجل، أستطيع أن أذهب بالسيارة حتى كالسويني، لكن كم مرة تريد أن تراهما، هاتين الصخرتين المصطقتين؟ أجل، بسيارة جيب كان يمكنني أن أذهب إلى غويانا، لكن ما شأني أنا بغويانا؟

لم يكن السيد إيناسيو يؤمن بسوء الحظ، بل كان يؤمن أن حياته مرصودة ومحروسة بعناية من قبل أحدهم هناك في الأعلى، وكما يحدث كثيرًا في البرازيل، كان يرى إلهه مختلطًا على الدوام بذلك العدد الهائل من الطقوس والعلامات التي تؤلف يومه. حين كانت الأمور تسير على ما يرام، وحين كانت تجاراته المشبوهة تثبت أنها أكثر ربحًا من المعتاد، وحين كان زبانية منافسيه يبقون بعيدًا عن رجاله، كان الفضل حتمًا للعداء التي لم يكن يكف عن تعظيم صورتها، أو يسوع، أو في أغلب الأحيان لبعض القديسين. وحين كان شيء ما يسير على غير ما يرام، كتلك السنة التي وصل فيها ذلك الشرطي الجديد نصف الهندي وأخذ يدس أنفه في أعماله، كان خطؤه هو دائمًا: لم يكن يتردد على الكنيسة بما يكفي، أو كانت صورة العداء قد استبدلت مرّات كثيرة للغاية بصور أكثر فتنة بكثير، أو ببساطة أكثر كان قد تجاهل الرسائل التي كان الرب يرسلها إليه بلا انقطاع. في مرّة الشرطي تلك، أمطرت السماء دون انقطاع أكثر من شهر، دون أن تتوقف ولو دقيقة واحدة: كانت تلك إشارة، كان يجب أن يفهمها، كان يلزم أن يذهب ليؤدي كفارة. لكنه لم يفعل، وفي النهاية اضطر إلى أن يأمر بقتل ذلك الشرطي.

كانت هذه الحادثة التي أصابت غوستافو علامة، كان واثقًا من ذلك. كان الله يكلمه باستمرار عبر هذا النوع من العلامات، يفهمه إن كان على الطريق القويم ويفهمه إن كان يخطئ. غير أن الله لم يكن واضحًا على وجه الخصوص، حين كان يخطئ، في بيان ما هو الخطأ في أفعاله. كان يسيطر على نصف المدينة بـ(العنف) سلطة صارمة لكنها عادلة، وكانت له عائلة محترمة بأربعة أبناء (بدناء) مفتولي البنية مثله، وكان يدبر أموره الضريبية في نادٍ محلي لكرة القدم حيث كان ماله يدخل (قذرًا جدًّا) من مصادر شتى ثم يتطهر كأنما بسحر. كان يمكن لله أحيانًا أن يكون معه أوضح: أين أخطأت؟

كان غوستافو، على خلاف رئيسه، مهتمًا بالعالم الخارجي، وكان يود أن يسافر. ولهذا النوع من الغرابة أيضًا كان ذراعه اليمنى الشاب يسحر إيناسيو. كان أحيانًا يشتبه حتى في أنه قد يكون ابنه: ذلك الصبي الذي قبل سنوات طلب بكلّ هذا التبحر أن يعمل لديه كان في عينيه شيء يذكّره بنفسه في ذلك العمر. لم يكن منتبهًا كثيرًا لشؤون عشيقاته ما إن يغادر فراش إحداهن، ولهذا لم يكن الأمر مستبعدًا إطلاقًا. على أي حال، كان غوستافو قد أثبت مرّات ومرّات جدارته ووفاءه، حتى إنه كان الوحيد الذي كان السيد إيناسيو ليأتمنه على حياته. ومن أساء إليه كان رجلًا ميتًا، على هذا ما كان ينبغي أن يشكّ أحد. ومن أنقذه وجب أن يكافأ.

ما الذي كان يفعله غوستافو بعيدًا هكذا عن منطقته لم يكن قد عُرف بدقّة بعد، ففي المستشفى كانوا يبقونه تحت المهدّئات، لكن السيد إيناسيو لم يكن يشكّ في أنه كان ذاهبًا إلى النساء. بل إن معتديه، أولئك الذين سيلقون نهاية سيئة، كان يمكن جدًّا أن يكونوا أقارب الفتاة، أبا وإخوة. من المؤكّد أنه لم يكن ذاهبًا لزيارة هذه المرأة، فكّر إيناسيو ضاحكًا في سرّه، وهو يتفحص التسريحة المنتفشة والقوام غير الرشيق جدًّا للمرأة الواقفة أمامه.

«أنتِ تيريزا أليس ميغينيس؟»

«نعم يا سيدي.»

كان إيناسيو يقرأ من ورقة مُجعّدة مكتوبة بخط اليد، وكانت تيريزا قد بقيت واقفة في انتظار إشارة لتمكّن من الجلوس على الكرسي المواجه للمكتب، إشارة لم تأت.

«تسكنين في جادة بياوي وتعملين في صالون مدام سامويلا؟»

«نعم يا سيدي. المعذرة، لكن هل أنت شرطي من نوع ما؟»

شرطي أو خارج على القانون، في رأس تيريزا كانا تقريبًا الشيء نفسه، غير أنَّ ذلك المكان لم يكن يبدو مركز شرطة. لعلّه محقق خاص؟ كما في الأفلام؟

«شرطي؟ لا، لا. أنا مواطن شريف يريد أن يكافئ سيدة لطيفة على بادرة شجاعة. لقد أنقذت حياة غوستافو، هل كنت تعرفين؟ لولاكِ لكان مات. أنا مدين لكِ بجميل يا سيدتي، يمكنك أن تطلبي منّي ما تشائين.»

«وماذا يعني ما أشاء؟»

خارج على القانون، هكذا قرّرت: الذي يتصرّف هكذا لا يمكن أن يكون سوى خارج على القانون.

«غوستافو كابن لي، وأنا رجل كريم جدًّا، اطلبي منّي ما تشائين.»

بقيت تيريزا ذاهلة. طار فكرها إلى الحديث الذي دار ذلك الصباح مع لويزا، التي نعتتها بالمجنونة المتهوّرة لأنها خاضت خطرًا عظيمًا دون أن تكسب منه شيئًا في المقابل. ثم استعادت بارتعاشة حادثة المساء الفائت، ذلك الرجل الجريح النازف وكيف ساعدته.

«هاتف» قالت كأنها تحدّث نفسها.

«تريدين إجراء مكالمة هاتفية؟» سأل إيناسيو، مُسيئًا فهم كلماتها.

«لا، لا. قلت إنك تستطيع أن تعطيني ما أريد. أنا أريد هاتفًا، مثل هاتف السيد غوستافو.»

«هاتف مثل هاتف السيد غوستافو. أفهم،» فتح إيناسيو دُرجًا وأشار لها أن تقترب «اختاري ما يعجبك. هل من شيء آخر أستطيع فعله لأجلك؟»

ألقت تيريزا نظرة خاطفة داخل الدُرج فرأت أنه يحتوي على عشرة هواتف جوّالة على الأقل، بكلّ الأشكال والألوان. واستنار وجهها حين رأت واحدًا أسود على شكل موزة، شبيهًا إلى هذا الحدّ بذلك المُستخدَم في فيلم الخيال العلمي الجميل الذي شاهدته قبل أشهر قليلة. سألت بعينيها الإذن بأخذه ثم أجابت: «لا، أنا بخير هكذا. على المرء أن يقنع بما لديه.»

1.9 الامتحان الشفهي

لم تكن دروس أنطونيو أبدًا حصصًا عادية للتربية البدنية.

«اليوم امتحان شفهي.»

ارتدى أنطونيو القفازين وتمركز في وسط المرمى. أول من تقدّم إلى نقطة الجزاء كان جواو.

«أين يقع مورايفيلد؟»

«همم... في اسكتلندا؟»

«صحيح.»

سدّد جواو ركلة الجزاء الرخوة المعتادة، التي تصدّى لها أنطونيو دون مشاكل. ولعلّه كان أيضًا لهذا السبب، لا شعوريًا، يوجّه إليه دائمًا أسئلة سهلة.

«لوكاس: قل لي اسم رياضة تُلعب دون حكم.»

«الفريسبي!»

«قريب. لكنّ الرياضة اسمها ألتيميت، للأسف، لا ركلة جزاء.»

رفع جورج يده: «أستاذ!»

«نعم؟»

«في الحقيقة هناك بعض الاتحادات التي تسمّيها ألتيميت فريسبي، وبضعة اتحادات تسمّيها فريسبي. وبما أنكم لم تحدّدوا الدولة، ففي رأيي أنّ إجابة لوكاس كانت صحيحة.»

اضطرّ أنطونيو أن يقرّ لنفسه بالموافقة، وهكذا استطاع لوكاس أن يسدّد ركلة جزائه، مخادعًا إياه وظافرًا بإشارة «زائد» في السجلّ.

«قل لي رياضة لا يجوز فيها لمس الكرة باليدين، يا راؤول.»

كان راؤول، ذلك الأسمر الطويل جدًّا والنحيل كالعود، واحدًا آخر ممن تسديداتهم قابلة للتصدّي: «كرة القدم.»

خلف ظهر راؤول أخذ أكثر زملائه في الصفّ يتضحكون. أمسك جورج رأسه بين يديه. تمتّم أليكساندري «غبي» بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه الجميع.

«كرة القدم يا راؤول؟ حقًّا؟ أحارس المرمى ليس جزءًا من كرة القدم؟»

«المعذرة يا أستاذ، لم أفكر في ذلك...» أجاب راؤول منكسرًا. لا ركلة جزاء له.

كان أليكساندري الفتى صاحب أقوى تسديدة في الصفّ كلّهُ. ومن امتحان إلى امتحان كان يسدّد بقوة متزايدة ليرى أين تقع الحدود التي يضعها الأستاذ. وحين أدرك أنه لا حدود وأنّ كلّ شيء جائز، كما في الدرجة الأولى، أخذ يسدّد قذائف تُرعى المعاصم. ولهذا كان أنطونيو كثيرًا ما يوجّه إليه أسئلة مستغلقة عن قوانين الكيرلنغ، أو عن أسماء

الملاعب في أستراليا، وما شابه. لكن أنطونيو كان ذلك اليوم يشعر أنه في أفضل حالاته، وفكرة التصدي لركلة جزاء جميلة لم تكن تزعجه، وعلى كل حال كانت محاولة تلقين أليكساندري درسًا تستحق العناء.

«قلها أنت يا أليكساندري، رياضة لا يجوز فيها أثناء اللعب لمس الكرة باليدين.»

«التنس!» هتف أليكساندري واثقًا، وكان قد شرع في الاستعداد للجري.

«وكيف يرمون الكرة في الهواء للإرسال؟ بالقدمين؟ بالفم؟»

كان الجميع يتضحكون.

«لكن يا أستاذ، لقد شدّدتهم على عبارة «أثناء اللعب»، كنت أظنّ...»

«الإرسال جزء من اللعب يا أليكساندري. للأسف، لا ركلة جزاء لك اليوم.»

غمغم جورج: «غبي.»

أفلتت من راؤول ضحكة أعلى. التفت إليه أليكساندري وألقى عليه نظرة من نار جعلته يبطأ طئ رأسه فورًا، لكن راؤول لم يكن يهتم، فالأستاذ وجورج كانا قد أوقفوا أليكساندري عند حده.

كان جورج أكثر تلاميذ أنطونيو استعدادًا. لم تكن تسديته عادةً مخيفة، لا لأنه لم تكن لديه القوة لتسديد قذيفة جميلة، بل لأنّ الروح الهزلية كانت تغلب فيه دائمًا. البانينكا، وتلك التي بالرابونا، وبالكعب: مرّة اضطلع على الأرض وسدّ ركلة الجزاء برأسه. على كل حال، كان جورج يستحقّ أسئلة محفزة. لكن أنطونيو كان الآن قد لاحظ ابتسامته الماكرة ولم يستطع مقاومة فضول المعرفة.

«إذن يا جورج، أتريد أن تقولها أنت لنا، ما هي الرياضة التي لا يستطيع فيها أحد أبدًا أن يلمس الكرة بيديه؟»

«الهوكي.»

ودون أن ينتظر موافقة أنطونيو سدّ صاروخًا أرضيًا عن يساره، لم يره أنطونيو إلّا حين صارت الكرة في الشباك.

حين أخذ الجميع فرصتهم جمع أنطونيو الطلاب في نصف دائرة أمامه، من أجل «عبرة الحكاية».

«اليوم أعطانا جورج درسًا جميلًا في أهمية التفكير خارج المخططات.»

«لكن يا أستاذ، قاطعه ألفارو «أنتم تقولون لنا دائمًا إنّ المخططات مهمة للغاية.»

«بكل تأكيد. لكنّ المخططات هي أسس لعبكم، التي يقوم عليها كلّ ما عداها. ثم، بالضبط، هناك كلّ ما عداها. أتظنّون أنّ بيكاسو كان يرسم هكذا دائمًا؟ بيكاسو تعلّم أوّلًا التقنية الكلاسيكية حتى الإتقان، وبعدها فقط أذن لنفسه بقلبها رأسًا على عقب. الشيء نفسه عليكم أنتم أن تفعلوه: تتنقّسون المخططات حتى تتقنوها تمامًا، ثم في اللحظة المناسبة - زاك! - تقلّبونها وتتركون الخصوم مذهولين، فقد كانوا يتوقعون الموناليزا فإذا بهم في وسط الغيرنيكا.»

كان جورج يودّ أن يسأل لماذا كان على الخصوم أصلًا أن يتوقعوا الموناليزا، وهي لم تكن من رسم بيكاسو، لكنه رأى لمرة أنه ليس من المناسب أن يتحدلق، فتمالك نفسه.

«وقبل كلّ شيء،» ختم أنطونيو «ما أتوقعه منكم هو أن تعرفوا كيف تدركون متى يحين وقت اتباع مخطط، ومتى تكون في المقابل لحظة التفكير خارج المخططات. حين تلعبون، حين تمتحنون، حين تصبحون يومًا رياضيين مشاهير. تذكروا الغيرنيكا. وتذكروا أنكم أنتم من يختار أن يبت الأغنية نفسها مرّتين أو ألا يكرّرها أبدًا.»

طَيِّب، وما دخل الأغاني؟ هذا ما لم أفهمه أبداً، فكّر جورج.

1.10 خلل الألفية

مرّة في الأسبوع كان أنطونيو يخصّص ساعة بثّه الإذاعي ليعطي مستمعيه دروسًا في الإنترنت. لم يكن قد درس المعلوماتية قطّ، ولم يكن في بيته حاسوب (لكنه كان ينوي شراء واحد قريبًا)، وقبل أن يبدأ العمل في الإذاعة لم يكن قد استخدم حاسوبًا في حياته. لكنّ الفضول كان في صفّه، وتلك النصف ساعة من الاستخدام قبل البثّ، المتكرّرة مع الوقت، كانت تكفيه وتزيد ليكون «خبير الحواسيب في الإذاعة» (والمقصود بالخبير هنا الوحيد الذي يشغله) وأكثر معارفه ولعًا بالتقنية، باستثناء فيتور طبعًا. كان فيتور مولعًا حقيقيًا بالتقنية، يساعده حين تحصل مشكلة، وقبل كلّ شيء يمرّر إليه التلميحات عن أهمّ المواقع والبرامج إثارة للاهتمام، تلك التي ستصير شائعة في الأشهر التالية، ممّا كان يسمح لأنطونيو أن يبدو ليس مبسّطًا للعلوم فحسب، بل واحدًا يرى بعيدًا أيضًا (داخل الدائرة الضيقة لمن يستمعون إلى برنامجهم، طبعًا).

«اليوم حلقة كبرى، أحذركم. جهّزوا دفاتر ملاحظتكم لأنني أضمن لكم أنكم لن تريدوا نسيان ما سأشرحه لكم. نبدأ بجديد مذهل: برنامج يسمح لكم بتنزيل أيّ أغنية تشاؤون، في أيّ وقت، مجانًا. اسمه نابستر وهو يعمل هكذا: تثبّتونه في حاسوبكم وتخبرونه في أيّ مجلد تحتفظون بموسيقاكم. كلّ المستخدمين الآخرين يفعلون الشيء نفسه، ونابستر يسمح لكم بالبحث في مجلداتهم، في مجلدات حواسيب العالم كلّ! حين تجدون الأغنية التي تهّمكم، نقرة واحدة، وفي غضون عشرين دقيقة تقريبًا تجدونها في حاسوبكم. أدرك أنّ الأمر يبدو لا يُصدّق، لكن لكي أثبت لكم أنه حقيقي سنجري تجربة. أوّل مستمع يتصل يختار مقطوعة على مزاجه، وأنا أبحث عنها، ونرى إن كنا سننجح في سماعها معًا قبل نهاية البثّ.»

«ألو؟»

«أنطونيو؟»

«أهلاً يا تيريزا.»

«أنطونيو، عندي هاتف جديد جميل جدًّا، لو تراه. أتصل بك به، هل يُسمع؟ هل تحسّ بالفرق؟»

لم تكن تيريزا قد استخدمت الحاسوب قطّ، وبالكاد رأت واحدًا من بعيد، كما أخبرته بكلّ براءة، ولم تبدّ رغبة في البدء. لكن، كما سبق أن شرحت مرّات على الهواء مباشرة، ولحرج أنطونيو، كان لأنطونيو صوت جميل إلى درجة أنّ حتى سماع الحديث عن هذه المواضيع المملّة جدًّا كان ممتعًا رغم كلّ شيء.

«إذن، أيّة مقطوعة تريدان أن أبحث عنها؟»

«إبييه، لا أدري. أنا أحبّ كايثانو فيلوسو كثيرًا، لكن ربما في بقية العالم لا يعرفونه. حقًا ستستطيع البحث في حواسيب العالم كله؟»

«نعم يا تيريزا، على ما يبدو نعم.»

«حتى في جامايكا؟»

«نعم.»

«يا إلهي، يا للإثارة. إذن... أقول أغنية جميلة مرحة. «كود يو بي لافد» تنفع؟ لم أفهم كيف ستتصل بحاسوب السيد بوب مارلي وهو ميت منذ زمن. لعلّ أهله؟ على كلّ حال سلّم عليهم مني، وسلامي لك يا أنطونيو العزيز.»

«حسنًا. نضع «كود يو بي لافد» في التنزيل وننتقل في هذه الأثناء إلى الخبر الثاني، الذي للأسف ليس جميلًا بالقدر نفسه، بل هو مقلق جدًّا. سبق أن حدّثتكم بضع مرّات عن خلل الألفية: مشكلة في برامج الحواسيب تجعلها، على ما

يُقال، حين يبدأ العام الجديد، تخط بين 2000 و1900. وما شأننا نحن، ستسألون؟ حين يعود جاري، السيد باستوس، إلى البيت ثملًا ويخلط بين الجمعة والسبت، لا يتغير عندي شيء. لكنني قرأت مقالات شتى يتفق فيها الخبراء على أن كثيرًا من المنشآت القائمة على المعلوماتية قد تُظهر رسائل خطأ وتصل حد التوقف عن العمل. وإن تعطل حاسوبي أنا، فلا بأس. لكن ماذا لو تعطل حاسوب مصرف ونقل المال من حسابكم إلى حسابي؟ أو لو تعطل الحاسوب على متن طائرة، ما الذي يحدث؟ في مقال قرأته اليوم يبدي أحد الخبراء قلقًا شديدًا مما يمكن أن يحدث في بلدان كالهند وباكستان تمتلك ترسانة ذرية، ويقول إنه سيحتفل برأس سنة باكستان أكثر من رأس سنة ريو دي جانيرو، لأن بقاءنا أحياء لنحتفل بالثاني يتوقف على الأول. وأنا أقول: أي عالم هذا الذي بيناه إذا كان علينا أن نخاف أن يتسبب خطأ في حاسوب في قصف نووي؟ على أي حال، الخبراء يبحثون عن حل، هكذا يقولون.»

توقف أنطونيو لبيت الفاصل الموسيقي. وللبقاء في الموضوع وضع «تو سانس إن ذا سانسيت» لبينك فلويد و«راشنز» لستينغ.

«وبما أننا في الكلام على البحث، نعود إلى الأشياء الجميلة وإلى ما تستطيع البشرية أن تكون عليه من ابتكار حين تجد في الأمر. تعرفون حين توقفوني في الشارع وتسألوني من أين أجد كل هذه المعلومات؟» لم يحدث له ذلك إلا مرتين منذ بدأ العمل في الإذاعة، لكن «اثنتين» تبرران استخدام الجمع «حسنًا، من الواضح أنني أستخدم ما يسمى محرك بحث. حتى قبل أيام قليلة كنت أستخدم، مثل الجميع، ألتافيسا أو ياهو، لكنني الآن اكتشفت واحدًا جديدًا. له اسم غريب جدًا: غوغل، ويكتب G O O G L E، وأستطيع أن أضمن لكم أنه قبلة. تكتبون كلمة، ومن عشر نتائج يقدمها، تأكدوا أن سبعا أو ثمانية منها على الأقل لها علاقة ببحثكم. وهو سريع أيضًا. ثم بالتأكيد، تطور الإنترنت سريع لدرجة أنه في السنة المقبلة سيكون هناك على الأرجح واحد أفضل منه، لكن إلى أن يصل، سجلوا هذا الاسم وابدؤوا في استخدامه، لن تندموا.»

تفقد الحاسوب فرأى بابتسامة أن تجربته قد نجحت.

«وهذا كل شيء لليوم. إلى الحلقة المقبلة. لكن قبل أن أذهب: كانت هناك تجربة جارية، لنر أي ثمار آتت.»

أطفأ أنطونيو الميكروفون، وأطلق «كود يو بي لافد»، وودع باكو، فني الصوت، وودع جواو، ومضى راضيًا.

1.11 نادي ماكابا لكرة القدم

السنتان من النجاحات اللتان أعقبنا البداية السيئة مع ناشئي ريال أمابا كانتا قد فتحتا لأنطونيو أبواب العودة إلى نادي ماكابا لكرة القدم، بصفته مدرباً للفريق الأول. لكن الأمور في الفريق الأول سرعان ما صارت صعبة. فالكاريزما التي كان أنطونيو قد نجح بصعوبة في بنائها مع فتية الخامسة عشرة تبخّرت في لحظة مع الكبار، لا سيما أنّ الأمر يتعلق بزملائه السابقين في الفريق. كانت طريقة المباريات المصغرة مكروهة كراهية شديدة على كلّ المستويات، ورتانة أنطونيو لم تكن تجد أذاناً صاغية عند أحد، ولا حتى عند إدواردو. كان إدواردو رجلاً عملياً محباً للأرقام، يقرأ في الإحصاءات مسارات لم يكن أنطونيو يستطيع فهمها ولا يريد.

انتهى الموسم الأول على نحو لا يُذم ولا يُحمد. كان اللاعبون يدبرون أمورهم بأنفسهم في المباراة دون الإصغاء إلى نصائح أنطونيو، ويخضعون للمباريات المصغرة على مضض، لكن دون أن يبلغوا أبداً حدّ التمرّد الحقيقي. في النهاية كانوا يلعبون للمتعة، ولا مال يدور في الأرجاء، وإن فازوا بمباراة هنا أو هناك رغم ذلك المدرب، فهذا يعني أنّ اللاعبين بعض القيمة.

«الطريقة ناجحة»، كان أنطونيو المحبّ يقول لإدواردو «أنتم لا تريدون أن تروا ما هو بديهي بالنسبة إليّ: إنها ناجحة. ماذا تقول لك الإحصاءات؟ ألا تقول لك إننا نتحسن؟»

«الإحصاءات تقول لي إنّ الفتيان يلعبون أفضل رغم طريقة التدريب.»

«كيف تستطيع قول هذا؟ أنا يجب أن أدرب اللاعبين على الاستغناء عني، ألم أقل دائماً إنّ هذه هي غاييتي؟ وهم يتعلّمون جيّداً، هذا كلّ شيء.»

لم تكن الثقة بين المدربين تنمو، وتلك القائمة بين اللاعبين وأنطونيو كانت معدومة، وكان إدواردو يشعر بثقل الفريق كلّ على كتفيه: الفريق في نهاية السنة حلّ خامساً، نصف كارثة.

لكنّ هذا حدث في السنة الأولى. ورغم الاحتكاكات والضغائن، قرّرت الإدارة الإبقاء على أنطونيو سنة أخرى، وتحسّنت الأمور ببطء. لم يعترف أحد علناً أبداً بأنّ طريقة أنطونيو قد أنتت ببعض النفع، لكنّ الفريق في السنة التالية سار فعلاً أفضل من المعتاد، إذ احتلّ المركز الأول في دور المجموعات الأول والثاني في الدور الثاني، ثمّ واصل الفوز في كلّ مواجهات خروج المغلوب حتى بلغ نصف النهائي. وببطء وصل إدواردو إلى تقدير بعض جوانب شخصية أنطونيو، وأيضاً، إلى حدّ ما، ثقافته، وخصوصاً دفعه الدائم نحو الاهتمام والتوثّق والدراسة.

لم يكن سهلاً على أنطونيو أبداً أن يروي لإدواردو ما أعدّه للتدريب. كان يعدّ قائمة بمواقف يرى أنّ الفريق يستطيع فيها أن يحرز الخصوم، أو التي قد يحاول الخصوم فيها إحراج ماكابا، ثم يعرضها على إدواردو لمراجعة أولية.

«اليوم علينا أن نتمرّن على السكة المشقوقة، وبالتأكيد شيئاً من الأخطبوط، وبعض القوارب الصغيرة على اليمين، ولا بدّ أن نجرّب فورتاليزا في حال حدث أن تقدّمنا مبكراً في النتيجة، وربما أيضاً رامّ مجنون أو اثنان.»

«السكة المشقوقة؟» لم يكن إدواردو مرتاحاً تماماً إلى رتانة أنطونيو، بعض الشيء لأنّ أسماء جديدة كانت تولد كلّ أسبوع، وبعض الشيء لأنه لم يكن قد انكبّ حقاً قطّ على دراسة التعريفات كلّها.

«نعم، السكة المشقوقة، الإبعاد الطويل من الحارس مع انطلاق جميع لاعبي الوسط والمهاجمين إلى الأمام.»

لم ينتبه أنطونيو، المنشغل ربما بكيفية تنظيم تقسيم الملاعب المصغرة المختلفة، إلى الملامح الحائرة على وجه إدواردو.

«الإبعاد الطويل؟ تمزح، أليس كذلك؟» كانت نبرة إدواردو قد صارت جدية للغاية لكنّ أنطونيو بدا غير واعٍ بذلك.

«نعم، أي لا. ثم الآن وأنا أفكر فيها، أيضًا شيء من البيرانا.»

«مهلاً يا أنطونيو. الأحد هناك نصف النهائي، صحيح؟ لا أعرف ما مشكلتك مع أدوار نصف النهائي، لكن ماكابا لم يبلغ نصف النهائي منذ ست سنوات. وأنت تريد أن نبذل وقتنا في إبعادات طويلة؟»

«إدواردو، أنت لا تفهم لأنك لا تريد أن تفهم. لكنها ليست مشكلتك وحدك، إنها مشكلة الجميع، حتى السياسيين. ترفضون أن تتحلوا بالشجاعة، أن تحاولوا تجاوز ما اعتدثم عليه، أنتم جميعاً متحصّنون في مواقعكم، لا تريدون حقاً تحقيق نتائج. البقاء على قيد الحياة، هذا ما تريدون فعله، مجرد البقاء. وبذلك تنكرون طبيعة الكائن البشري ذاتها، دفعه الفطري نحو التطور: لقد برمجنا للتطور، لنبحث دائماً عن أشياء جديدة، لنتحسن. أنتم لا تعيشون في هذا الزمن، تعيشون في الماضي.»

«لكن من “أنتم”، عفوًا؟ من يعيش في الماضي؟»

«قلتها هكذا، مجرد كلام. هذا العام تلقى إيبيرانغا ثلاثة أهداف من إبعادات طويلة، فلماذا لا نجربها في التدريب؟ لماذا لا نحاول استغلال ما هو ضعف بين لدى الخصوم؟ ما الذي كان سيحدث لو أن الأمريكيين، مثلاً، في الحرب العالمية الثانية، رفضوا استغلال نقاط ضعف الخصوم؟ أكان يعجبك أن يكون هناك حكم نازي عالمي؟»

«لكن أي نقاط ضعف؟ النازيون؟ ماذا تقول؟»

«وعلى كل حال المشكلة أنكم غير قادرين على أن تتعرفوا على الجدارة وتعطوها قيمتها، تشعرون دائماً بأن من حقكم أن تنتقدوا حتى على أساس حجج قابلة للجدل أو على أساس إعداد أدنى موضوعياً...»

عند كلمة «موضوعياً» كَفَّ إدواردو عن الإصغاء إلى أنطونيو، وألقى نظرة على ملاحظاته، ونظر إلى ساعته، وحاول أن يبقى مشغولاً مرتباً هنا وهناك، وأخيراً حين لم يعد يسمع صوت أنطونيو يرنّ بين عوارض الخرسانة المسلّحة قال: «أنت من يقولها لهم اليوم. أنت من يتحدّث مع الفتيان.»

«إنه الثاني عشر من نوفمبر. أتصدّقون؟ صرنا في الثاني عشر من نوفمبر. بداية بطولة 1999؟ تبدو لي وكأنها بالأمس. ألا تبدو لكم كذلك؟ مررنا بلحظات عظيمة الحماس، ومررنا بلحظات متوسطة، لعبنا جيّداً ولعبنا أقل من الجيد، لكننا هنا.»

كان دانتى ودييغو ينظران إليه، كلٌ منهما متكئاً بكتفه على أحد قائمي باب غرفة الملابس. كانا يدخّنان، كما في كلّ مرّة قبل تدريب أو مباراة، ويتبادلان نظرات تفاهم سريعة يعبران بها عن ملل الاضطرار إلى سماع خطبة جديدة من خطب أنطونيو، التي كانا يعرفانها جيّداً لأنهما كانا زميليه في الفريق لسنوات. وكان داني وريكاردو يربطان ببطء أربطة حذاءيهما الرياضيَّين، مومئين في صمت. أمّا ماوريسيو فتظاهر، بشعره الأشقر الذي لا يُشبه شعر أحد، أنه يبحث عن شيء في حقيبته، وأمسك قارورة مزيل العرق وأعادها إلى إحدى الجيوب، وتأكّد أنّ غطاء سائل الاستحمام الجديد مغلق بإحكام، وتحقّق بعناية من جميع السحابات.

«لقد بلغنا نصف النهائي. الأحد نلعب الموسم بأكمله، كما لعبناه الأحد الفائت وكما لعبناه قبل أحدين. الفرق أننا بعد غدٍ نلعب ضدّ إيبيرانغا.»

«أولئك الأوغاد من إيبيرانغا!» تدخل دانيلو جوزيه، قائد الفريق، مثيراً انفجار ضحك استقبله أنطونيو بنفاد صبر.

«الاحترام يا فتیان، الاحترام. لا يمكننا أن ننزل إلى الملعب ضدّ فريق قويّ كإيبيرانغا دون أن نكرّ لهم الاحترام. الرياضة قبل كلّ شيء مدرسة للحياة، لا يمكننا أن نظنّ دائماً أننا الأفضل في كلّ ما نفعل.»

«لكن يا مدرّب،» كان الصوت ما يزال صوت دانيلو جوزيه «نحن الأفضل!»

«سنرى يا دانيلو، سنرى.»

بينما كان يتحدث، كان أنطونيو يرسم بأقلام الطباشير الملونة على لوح الأردواز الكبير الذي كانت قد طُبعت عليه مسبقًا أربعة ملاعب كرة قدم بالخطوط التي تحدّد ملاعب المباريات المصغّرة.

وحين حان دور رسم مخطط «السكة المشقوقة»، سرت بين اللاعبين متممة. وكان دانييلو جوزيه من جديد من نطق باسم فريقه: «مدرب! هذا المخطط لا نعرفه، ما اسمه؟ الكتاب المسلوق؟ ورق الحمام المقطوع؟»

ملأت الضحكات الأخرى غرفة الملابس.

«لا يهم. في هذه المرحلة الاسم لا يهم. المهم أن تجربوا أنتم موقف اللعب هذا. إيبيرانغا تلقى هذا العام ثلاثة أهداف في هذا الموقف وأنا أريدكم أن تجربوه. يجب أن نكّن الاحترام للخصوم وأن نعرف نقاط ضعفهم، هذان الأمران ليسا متناقضين. فقط بتعلّم التفكير في نقاط ضعف الآخرين نستطيع أن نتعرّف على نقاط ضعفنا ونحسنها.»

«أي موقف يا مدرب؟»

«إبعاد طويل من الحارس وضغط في منطقة الهجوم.»

تبادل الفتیان نظرات بعض الاستسلام وبعض التسلية، وبعضهم لم يكن حتى واثقًا تمامًا أنه فهم جيّدًا. تكاثف الصمت في غرفة الملابس حتى كاد لا أحد يجرؤ على التنفّس. كسر التوتّر دانييلو جوزيه الذي وقف فجأة وخرج من غرفة الملابس متمتمًا: «ذاهب لأتحدّث مع إدواردو»، تبعه على الفور تابعاه إنريكي ولوكاس، ثم شيئًا فشيئًا جميع الآخرين.

وحده ثياغو، أحد أصغرهم سنًا، بقي جالسًا في انتظار التعليمات. كان يضع تقويمًا للأسنان وعصاة على الرأس تجعله يشبه لاعب تنس من الثمانينيات، ويعرض ابتسامة أوحى لأنطونيو بالاشتباه في أنه لم يدرك الموقف إدراكًا كاملاً. بعد لحظات قليلة اقتحم أموري غرفة الملابس ببدة الميكانيكي التي عليه: «المعذرة، المعذرة، تعطلت درّاجتي النارية، المعذرة...»

بقيت الجملة معلّقة في منتصفها حين أدرك أنّ غرفة الملابس فارغة واستوعب أنّ الفتیان الذين رأهم في الخارج على الملعب كانوا جميعهم هناك.

«ماذا حدث؟» سأل بخجل.

«لا شيء،» أجاب أنطونيو «لا شيء. بدّل ملابسك بسرعة فلدينا عمل» ختم خارجًا من الباب.

1.12 نصف النهائي

في صباح الرابع عشر من نوفمبر 1999 شهدت أبواب كنيسة ساو جوزيه ذهابًا وإيابًا غير معتاد. ليس أن الكنيسة كانت تبقى خالية عادةً أيام الأحد، على العكس، لكن ذلك اليوم تقدّم إلى بابها، بدافع الفضول، كثيرون ممّن لم يطؤوا تلك الرعية قطّ.

كان فريق نادي ماكابا لكرة القدم بأكمله مصطفًا أمام المذبح، راکعًا، والكاهن يمرّ ليمنح البركة للجميع، تحت الأنظار البقطة للسيد إيناسيو إمبيريو، الرئيس، والمدرب المساعد إدواردو.

«أين هو؟» سأل إيناسيو شديد الغضب.

«لا أعرف،» أجاب إدواردو «اتصلت به هاتفياً فقال لي إنه سيأتي، لكنه بصراحة لم يبدُ مقتنعًا كثيرًا، تعرف كيف هو أنطونيو.»

«لا، لا أعرف.»

«حسنًا، إنه رجل يصعب إقناعه.»

«على أيّ حال، خير له أن يحضر، فنحن بالتأكيد لا نريد أن تحلّ علينا مصيبة، أليس كذلك؟»

«لا، لا، بالتأكيد لا...» تتمم إدواردو، هو أيضًا دون قناعة كبيرة.

المصيبة التي كان يخشاها السيد إيناسيو كانت قد أعلنت عن نفسها بعد الفجر بقليل على هيئة إعصار مائي مهيب ارتفع على بُعد بضع مئات من الأمتار عن مرفأ ماكابا الصغير، وبقي هناك مهدّدًا نحو ساعة كاملة بينما كانت موجة من الذعر تنتشر كبقعة الزيت في المدينة. «إنه نحس!» كان التعليق الأكثر شيوعًا، وأيضًا «سنموت جميعًا»، أو ببعض المبالغة «إنها نهاية العالم».

الأعاصير المائية ليست نادرة إلى ذلك الحدّ في ماكابا، ففي السنوات النحسة يمكن أن يُرى منها اثنان أو ثلاثة. وما كان يجعل هذا الإعصار المائي مميّزًا هو إصراره: فعادةً، بعد دقائق قليلة، كان الإعصار يتبدّد ويبتعد نحو المحيط. أمّا إعصار ذلك اليوم من نوفمبر فلم يكن يريد أن يرحل: ظلّ هناك يدور رافعًا دوّامات مرعبة، تارة يقترب من الساحل وتارة يعود قليلًا إلى الوراء كأنه يريد السخرية من المواطنين المذعورين.

«يا لها من مصيبة إن هو سقط على بيوتنا!»

«إنه مصيبة في ذاته، حتى لو لم يصب البيوت: ذلك هو سوء الحظّ ينظر إلينا بعينيّ الله!»

وهلّمّ جرًا.

كان أنطونيو قد أمضى ليلة صعبة. بعد أمسية طويلة قضاها يفكّر ويعيد التفكير في مخططات اللعب، كان قد انهار من النعاس بملابسه على أريكة غرفة الجلوس غير المريحة. فاجأه الفجر منكشًّا في وضعية غير طبيعية، وملاحظاته ما تزال مضمومة في يده، وكان الاستيقاظ مصحوبًا بالآلام في الظهر وشعور مزعج في الرأس لم تنجح قهوة ولا دشّ في إبعاده. وكان قد علم بأمر الإعصار المائي من المذيع الذي شغله ليؤنسه وهو يرتّب أوراق الأمسية الفائتة، لكنّ الخبر، ربما لأنه صار منغمسًا في فكرة نصف النهائي، لم يترك فيه أيّ أثر، على الأقلّ حتى مكالمة إدواردو الهاتفية.

«ألو، أنطونيو؟»

«إدواردو! ما الذي يحدث؟»

«ألم تسمع الخبر؟» كان صوت إدواردو مضطرباً على غير عادته.

«خبر؟ أي خبر؟»

«الإعصار المائي، هناك إعصار مائي خارج المرفأ مباشرة، وهو هناك منذ نحو ساعة ولا يريد أن يرحل!»

«لكن هل الأمر يستدعي القلق؟ ماذا تقول السلطات؟ أليس المعتاد أنه بعد قليل يبتعد نحو الشمال الشرقي؟»

«إنه هناك منذ نحو ساعة، أفهمت؟ هذا ليس إعصاراً مائياً عادياً!»

«وما هو إذن؟»

«الجميع هنا يقولون إنها نهاية العالم، علامة شؤم.»

«وأنت تصدّق؟ إدواردو، رجل العلم، يكتشف فجأة أنه خرافي؟»

«لست أنا الخرافي، بل الإعصار المائي هو الذي لا يريد أن يرحل! على كلّ حال، السيد إيناسيو استدعانا جميعاً إلى المقرّ.»

«إلى المقرّ؟ لكنني أحتاج نصف ساعة لأصل إلى هناك، ولأني شيء استدعانا؟»

«من أجل الشؤم. أقصد، لمحاربة الشؤم.»

«وكيف ينوي محاربته، عفواً؟»

«اسمع يا أنطونيو، السيد إيناسيو قال لي أن أقول لك أن تأتي، ثم الأسئلة تطرحها عليه هو، حسناً؟»

بإعادة تركيب القصة بعد وقوعها، لم يكن أحد ليقدر على أن يتذكّر بدقّة من الذي تفوّه بعبارة «لنذهب ونتبارك»، المؤكّد أنّ عيني إيناسيو استنارتا ولم تكن هناك حاجة لتكرارها مرّتين. وفي قرارة نفسه كان إدواردو يعرف جيّداً أنه هو من قالها، ويعرف جيّداً أنه فعل ذلك ليفكّ وضعا كان يزداد توتراً: الرئيس اليائس من النذير المشؤوم، واللاعبون المتردّدون بين أن يأخذوه على محمل الجدّ أم لا، والوقت الذي يمضي دون أن ينحلّ التوتر، وأنطونيو الذي لا يظهر.

من مقرّ ماكابا في جادة فاب إلى كنيسة ساو جوزيه بضع مئات من الأمتار فقط، لكنّ ذلك الموكب الغريب كان مستحيلاً ألا يلفت الأنظار. كان الرابع عشر من نوفمبر أحداً غريباً على سكّان حيّ سانتا ريتا: إعصار مائي مشؤوم تلاه موكب من الذكور البالغين بسرّاويل قصيرة خضراء وقمصان خضراء وبرتقالية، بوجوه مكفّهرة إن لم تكن باكية، متّجه إلى كنيسة صغيرة في وسط المدينة.

كان أنطونيو متردّداً فيما يفعل. لم يكن يريد التغيّب عن دعوة رئيسه، لكنه كان واثقاً أنّ السبب تافه، ثم إنّ مقرّ ماكابا بالدّرجة كان على نصف ساعة من بيته، والذهاب إلى هناك كان سيجعله يفوّت حتماً كلّ تحضير المباراة. وأخيراً كان هناك جرس إنذار يرنّ في أعماق ذهنه، مرّكب من الحروف النارية لكلمة «نصف النهائي».

كان أنطونيو مدرّب دوري، بارعاً في دراسة الخصوم وفي استخدام زمن الموسم الطويل كلّ إجراء التعديلات والتحسينات. أمّا خروج المغلوب، فلا. خلال مباريات خروج المغلوب كانت كلّ شكوكه في نفسه تتجسّد وتصير حقيقة، وكلّما اقترب النهائي ارتعشت ساقيه أكثر.

دور الستة عشر: أوائل الشكوك؛ ربع النهائي: مراجعة نقدية للذات؛ نصف النهائي: شلل. في كلّ مرّة كان دماغه يختبر لحظة التعطّل تلك التي عاشها خلال نصف نهائي بطولة العالم للكرة الطائرة، تلك التي ما كانت البرازيل لتخسرّها، ولكن.

حتى في سنته الأخيرة كلاعب كرة قدم كانت مبارياته الأخيرة نصف نهائي: كان سيفعل أي شيء ليهرب من نفسه، حتى التظاهر، كما حدث، بأن الانزعاج الخفيف في كاحله شيء أخطر بكثير.

بلا ريب كان لأنطونيو بعض المشكلات مع أدوار نصف النهائي.

وإن كان ربع نهائي بطولة 1999 تحديًا سهلًا أكثر من اللازم ليزعزع قناعاته، فإن نصف نهائي الرابع عشر من نوفمبر كان سيكون في المقابل ضد إيبيرانغا، وهو فريق قوي ومتحفظ.

لم يُعرف أبدًا ما إذا كان الذنب يُنسب إلى القرابين، التي كان الكاهن قد أخرجها على عجل من خزانة في السكستيا ولم تكن طازجة تمامًا، أم إلى الخمر الذي كان قد صار خلًا من زمان. الثابت أن فتیان ماكابا خرجوا من البركة متحولين حرفيًا: منهم من كان يمسك بطنه، ومنهم من كانت تنتابه دوخة، ومنهم من وجد بصره قد تعتم. وقد يشم بعضهم في هذا رائحة مؤامرة أكثر منها قوة عقاب إلهي.

ثم كان هناك الغضب المكتوم للسيد إيناسيو الذي كان يعدي الجميع، حتى إدواردو العقلائي أخذ يتساءل إن لم يكن غياب أنطونيو علامة أخرى على قدر ظل منذ زمن طويل لا يكف عن الوقوف في الطريق.

«لماذا»، كان إيناسيو يولول «يتحامل الرب علينا نحن؟ أهل إيبيرانغا يأتون من فافيلاموت فيها الجميع جوعًا؟ وهذا يكفي لجعلهم أحبائه؟ وكأن فتیان سانتا ريتا يسبحون في الذهب! أما من طرق أشرف لتنظيم هذه المواجهة؟ الرب إلهنا أحيانًا لا أفهمه حقًا!»

ما يقرّره القدر قلما يستطيع الإنسان تغييره. وصل أوائل لاعبي ماكابا إلى الملعب حين كان إيبيرانغا كله قد بلغ منتصف الإحماء من قبل؛ وفي أعينهم وفي أمعائهم توقع مفاجئ يستحيل دفعه. دانيلو جوزيه، القائد، الرجل ذو التسديدة «الدقيقة بشكل مربع» كما كان زملاؤه يصفونها مازحين في كثير من الأحيان، كان طريح الفراش. قيل لاحقًا إنه بالكاد وجد الوقت ليعود إلى البيت ويدخل الحمام، حيث سيبقى منحنياً إلى نصفين من الألم طوال المباراة.

كان إيناسيو على وشك أن يقل في الحال أنطونيو، الذي وصل في تلك اللحظة، ولم يؤجل ذلك سوى تدخل إدواردو، مع أن الإقالة بدت عقوبة خفيفة على إساءة لا تُغتفر. أما أنطونيو نفسه، الذي كانت أعصابه قد صارت أكثر هشاشة كلما اقتربت صافرة البداية، فلم يكن ليقدّر على التفكير سوى في كلمة واحدة طوال المباراة: نصف النهائي، نصف النهائي، نصف النهائي.

المباراة؟ نصف نهائي بطولة أمابا لعام 1999، الملعب في ظهيرة الرابع عشر من نوفمبر الملتهبة، شهدت فريق إيبيرانغا شديد القوة شديد التحفظ يجرف من بدا أنهم أشباح نادي ماكابا. أربعة نظيفة مقابل صفر لم تترك مجالاً لأي رد.

«إنها كرة البايلاو (الراقصة) التي تنتصر أخيرًا على من يرى في المخططات، لا في الروح، جوهر أجمل رياضة في العالم» ستكتب غازيتا إسبورتيفا (وعنوانها الفرعي «جريدة الحقيقة») في صباح اليوم التالي.

«إنها لعنة» سيعلق آخرون.

1.13 نهاية البث

ما إن صعد الدرج حتى أدرك أنطونيو أن هناك خطبًا ما: كان الباب مفتوحًا، ومنذ بسطة السلم كانت الفوضى ظاهرة، أوراق مبعثرة، كابلات متشابكة، وحاملة أقلام إيزابيل مقلوبة على الأرض. كان باكو جالسًا على كرسي طاولة المزج الصغير، وقد سُحب إلى وسط الغرفة، ورأسه بين يديه، وبدا أنه لم يسمعه حتى وهو يدخل.

«باكو، ماذا... ماذا حدث بحق الجحيم؟»

«لصوص،» أجابه دون أن ينظر إليه، «لا بد أنهم دخلوا من نافذة الحمام الصغيرة، ربما أسندوا سلمًا إلى سطح المرآب في الأسفل، من يدري. وما همنا كيف دخلوا، على أي حال. لقد أخذوا كل شيء.»

رفع باكو عينيه، وقد لمعتا غضبًا وذهولًا: «كل شيء، كل ما له أدنى قيمة: طاولة المزج، الحاسوب، الميكروفونات، السماعات، المضخّات، كل شيء. حتى ذلك الصندوق من الأسطوانات المدمجة القديمة الذي كان في المخزن منذ سنوات.»

تسمّر أنطونيو في مكانه. أدار نظره في الغرفة التي جُرّدت حرفيًا، لم يبقَ فيها غير الكراسي والمكاتب والخزائن المفتوحة على مصاريبها، والملصقات على الجدار، وبضعة كابلات تركها اللصوص على الأرض.

جاء جواو من الغرفة الأخرى مطرّفًا، يحمل في يد مقبّسًا متعدّدًا وفي الأخرى كيس حلوى فارغًا: «يا لها من كارثة يا أنطونيو، يا لها من كارثة. من يدري متى سنقف على أقدامنا من جديد.»

«إن، إن وقفنا عليها، فهذا ليس مضمونًا أبدًا. بل لنقلها صراحة، لن يحدث ذلك، الإذاعة انتهت، كفى، لا نخدع أنفسنا بأوهام لعينة.»

«هيا يا باكو، لا تقل هذا... سنجد طريقة، سنبحث عن راعٍ...»

لم يجبه باكو حتى، بل اكتفى بحركة ضيق قبل أن يهزّ رأسه ويعيده بين يديه. كانت طاولة المزج، ذلك الصندوق القديم الضخم الذي كان يمسك أجزائه بحبّ بشريط عازل وكابلات من البقايا، بمنزلة ابن له، أو خطيبة، أو كلب. كان فتّي صوت موهوبًا، يتحدّث من حين إلى آخر عن الذهاب ليصنع مستقبله في الولايات المتحدة أو في أوروبا، لكنه كان ينتهي دائمًا بالبقاء هنا، يدللّ إذاعته كما تُدللّ دمية من قماش.

كان أنطونيو يحاول، دون أمل كبير، أن يجد شيئًا يقوله ليواسيه حين دخلت إيزابيل، التي كانت تضيع أيام الأربعماء بعده. بل إنها لم تدخل أصلًا: بقيت متمسّرة على العتبة، وعيناها جاحظتان.

«ل... لصوص...؟» تمتمت، وسقطت حقيبتها من يدها على الأرض.

أجابها جواو، الذي كان يهيم والقابس في يده ولا يدري بوضوح ماذا يفعل بنفسه، بأن فتح ذراعيه يائسًا.

«لكن كان بوسعكم أن تخبروني، أن تتصلوا بالشرطة، لا أدري، أن تفعلوا شيئًا!»

«وصلت قبل ساعة فوجدت هذا يا إيزابيل: لم يتّسع لي الوقت حتى لأفهم ما حدث، ثم وصل باكو...» خفض صوته وأومأ برأسه نحو فتّي الصوت: «لو تعرفين يا إيزابيليتا، لو رأيت كيف فقد صوابه حين أدرك، لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا. خفت أن يرمي بنفسه من النافذة، وأنتِ تحدّثينني عن المكالمات.»

في تلك اللحظة بالذات رنّ الهاتف، فتردّد رنينه في المكان المُفرّغ وأجفلهم جميعًا.

«ألو؟»

«تيريزا؟»

«أنطونيو! ما الذي يحدث؟ منذ عشرين دقيقة وأنا أشغل المذياع ومحطّتك لا تلتقط. خفت في البداية لأنني ظننت أنّ مذياعي تعطل، لكنني جرّبت بعد ذلك محطة أخرى، يا يسوع القدّوس، أيّ برامج يقدّمها الآخرون، لا مجال للمقارنة أبدًا، أتعرف؟ أنتم أفضل إذاعة في ماكابا، أقولها دائمًا للويزا، أمّا هي فتصرّ على ذلك البرنامج الآخر، برنامج ذلك الرجل الذي يتظاهر بأنه ممثّل أمريكي، لا أدري كيف تطيق سماعه.»

«تيريزا، المعذرة، لكن...»

«أوه، ضاع مَنّي الخيط. كنت أقول: ما الذي يحدث؟ لماذا لستم على الهواء؟»

«تيريزا، أخشى أنّ عليك أن تعتادي سماع برنامج لويزا.»

«كيف يعني؟ ماذا تقصد؟»

«أقصد أنّ الإذاعة لم تعد موجودة. لقد سرقوا كلّ شيء.»

أعلنت إيزابيل أنها بحاجة إلى سيجارة، وكان أنطونيو، الذي يدخّن ربما مرّة أو مرّتين في السنة، مصدومًا إلى حدّ أنه قرّر أن يرافقها. جلسا على الرصيف، وإيزابيل لا تكفّ عن هزّ رأسها، والدموع في عينيها، ولا تعرف هي نفسها أهي غاضبة أكثر أم مفجوعة: «يا للخسارة، يا للخسارة... كُنّا نسير على ما يرام... كُنّا نسير على ما يرام فعلاً، أليس كذلك يا أنطونيو؟ كُنّا قد بدأنا نكونَ جمهورًا حقيقيًا، والآن، الآن هذا.»

«لا تكوني هكذا، تبدين مثل باكو، هيّا، أنتِ لستِ متشائمة إلى هذا الحدّ. سنفعل شيئًا، سنجد راعيًا، سترين.»

«طبعًا، راعيًا. كأنّ الرعاة بعوض تطرده من كثرته. وحتى لو افترضنا أننا محظوظون إلى هذا الحدّ، فبين البحث عنه، والعثور عليه، وإعادة تشغيل كلّ شيء، ستمضي أشهر. وبعد خمسة أشهر أو ستة، من سيتذكّرنا من الجمهور؟»

«حسنًا، لكن...»

«لا لكن ولا شيء. إن كان في هذه المدينة القذرة شيء جميل، شيء كنت أحبه حقًا، شيء واحد، فهو إذاعتنا الصغيرة الغبّية هذه. ربما كانت، على قدّها، تؤنس أحدًا، ربما كانت تخفّف عنه مشكلاته لبعض الوقت، ربما كانت لها روح صغيرة مهمّة لهذه المدينة. والآن... لا أدري، لم يبقَ شيء.»

لم يعرف أنطونيو ماذا يقول، لم تكن إيزابيل مخطئة، لكنّ رؤيتها بهذه المرارة كانت تؤلمه. وفجأة، دون أن يدرك ذلك على الإطلاق، سمع نفسه يقول: «حسنًا، الجلوس هنا والتذمّر لا ينفعان كثيرًا. لنذهب ونشرب شيئًا، ونتعشّى في مكان ما: على الأقلّ، إن كان لا بدّ أن نبكي على حالنا، فلنبكِ أمام كأس جعة.»

وكان ما يزال مندهشًا من أنه نطق بتلك الكلمات، فهو في العادة لم يكن مباشرًا إلى هذا الحدّ مع الفتيات، بل على العكس، حين زادت دهشته، إذ نهضت إيزابيل، على غير أيّ توقّع، تنفض الغبار عن سروالها القصير وتقول: «لَمْ لا، موافقة. كانوا قد دعوني إلى مكان ما فرفضت لأنني كنت متأكّدة أنني سأكون على الهواء: فات الأوان على ذلك الآن، لكنني لا أرغب في أن أقضي السهرة وحدي أجترّ أفكارٍ. هيّا بنا. أفي ذهرك مكان؟»

أظلم كلّ شيء في رأس أنطونيو للحظة: كان يتعشّى خارج البيت كلّ مساءً تقريبًا، ومع ذلك لم يخطر بباله مطعم واحد. وبينما كانت إيزابيل تنظر إليه متسائلة، فتشّ في ذاكرته لاهثًا حتى استخرج منها أخيرًا مطعم آرماندينيا: أبعد ما يكون عن الأناقة، لكنّ الطعام فيه جيّد على الأقلّ، وعلى أيّ حال كان المكان الوحيد الذي استطاع أن يفكر فيه.

وهكذا انطلقا، بينما كانت شمس فاترة بلون البابايا تغيب على غبار الرصيف، وعلى شعر إيزابيل المجعد، وعلى باكو المسكين الذي بقي وحده في الغرف الفارغة ينتحب بلا عزاء وهو يداعب الكابل الوحيد الباقي، وعلى فكرة دعوة العشاء تلك، التي بدأ أنطونيو يشك في أنها كانت فكرة جيّدة.

مشيا طويلاً، كنت أظنّ المطعم أقرب، وانتهاز أنطونيو الفرصة ليشرح لإيزابيل بالتفصيل نظرية له، صاغها في تلك اللحظة بالذات، عن أوجه الشبه بين البرامج الإذاعية وبعض الأنشطة الرياضية، ولا سيّما كرة القدم، وعن الطريقة التي يمكن بها لمخطط القارب الصغير بالمجاديف، على سبيل المثال، أن يُطبّق، بعد نقله طبعاً، على إدارة نشرة السادسة.

كانت إيزابيل تمشي شاردة، وكان أنطونيو راضياً جداً لأنها تصغي إليه بكلّ هذا الاهتمام والتركيز، فتاة ذكيّة، لا كذلك الكابيارا العجوز إدواردو، الذي يتظاهر بالتعالي لا لشيء إلا لأنه لا يفهم.

أثار تلامس وركبهما مصادفةً في ذهنه فكرة عابرة عما قد يأتي بعد العشاء. أتدخلين للحظة؟ لم لا، ربما نشرب شيئاً صغيراً آخر معاً، للحظة فقط. اعذري الفوضى، سريري ما يزال غير مرتّب... هيهات، ستوصلها إلى بيتها وتتودّعان وأنتما تتحدّثان عن الإذاعة كصديقين طيّبين وينتهي الأمر هكذا، لا فائدة من التفكير فيه. الأجدر به أن يتذكّر أنه ربما نسي أن يشرح لها جيّداً الفرق بين أن يكون لك مخطط وأن تكون مقيّداً به، وخير له أن يوضّحه لها، ربما بمثال الهوكي، وإلا فقد يبدو لها الحديث ناقصاً.

وبقدر ما كانت إيزابيل صامتة طوال الطريق، صارت ثرثارة حين وصلا أخيراً وجلسا إلى الطاولة. لم تبدُ ملتفتة أبداً إلى ضيق المطعم، ولا إلى جدران المائلة إلى الصفرة، المزيّنة بصور الأوريشاس وبقع الصلصة وصور ممثّلين مقصوفة من الجرائد، تلك الجدران التي لاحظها أنطونيو، بعد كلّ المرّات التي جاء فيها إلى هنا، لأول مرّة، فأخرجته بعض الشيء. أيّ مكان هذا لتدعو إليه فتاة إلى العشاء، يا لك من أحقق، فكر وهو يمرّر خلسةً مندبلاً ورقباً على فورميكا الطاولة ليزيل أثر دهن مجهول الأصل، وهو يرجو ألا تلاحظ صفاء الكؤوس المشكوك فيه، وهو يرجو ألا تسمع تجديف رواد الطاولة المجاورة الفاحش، ثلاثة رجال وثلاث زجاجات كاشاسا.

كان الطعام ممتازاً كالعادة، وإن بدا أنّ إيزابيل لا تنتبه حتى إلى الطعام، كانت تتكلّم بلا توقّف كأنها على الهواء: السياسة، الإذاعة، الصديقات، اليوميات التي تكتبها كلّ مساء، هنا ربما شرد قليلاً، والأسفار، الأسفار قبل كلّ شيء.

«لأنّك ترى يا أنطونيو، أنا لم أسافر قطّ، لكنّ السفر كان دائماً، دائماً حلّمي. أن أتعلم اللغات لأرى العالم، لأعرف أناساً مختلفين. ثم أن ترى أمام عينيك بعض عجائب الطبيعة، والعمارة، أشياء لم ترها إلا في الكتب، لذلك لا أدري ماذا لا أعطي.»

شربت رشفة أخرى من الكابيريّنيا، وقبل أن يتمكّن أنطونيو من الكلام عادت تقول، متحمّسة: «أتعرف، ربما لما حدث سبب، في النهاية. فكّرت في ذلك طوال الطريق، ونحن قادمون إلى هنا، طوال الوقت لم أفكر إلا في هذا: ربما كانت حكاية الإذاعة علامة على أنّ شيئاً ما، أوه، لا تفكر في أمور غيبية، تعرف أنني لست من هذا النوع، لكنني أقول، شيئاً يجعلني أحسّ أنّ الوقت قد حان لتغيّر، لأفعل أشياء مختلفة، لا أدري.»

«حسناً، ما تقولينه جميل جداً... يذكّرني بما كان يقوله صديق لي يملك مركباً شراعياً: "حين تتغيّر الريح عليك أن تغيّر مسارك أنت أيضاً، وإلا انتهيت على الصخور." علقت هذه العبارة في ذهني دائماً لأنّ...»

«بالضبط! هذا هو تماماً، عبارة تقول بالضبط ما أعنيه. انظر، لا أملك فلساً، ولم تعد لديّ حتى الإذاعة، لكن ربما لهذا بالذات، صدّقني، تفتّح في داخلي شيء، حماسة، ثقة بالمستقبل، لا أدري. أنا مقتنعة بأنّ لحظة التحوّل قد جاءت، لحظة حياة جديدة، أنفهم؟»

وأنطونيو، مأخوذاً بذلك الانفجار من المشاعر، وبتلك الحيوية، وبوجنتيها المتقدّتين من الطعام المتبلّ، لمعت في ذهنه فكرة أنّ التفكير قليلاً جداً فيما بعد العشاء قد يجوز، عند هذا الحدّ. كانا قد شربا أكثر من جعة، وصارا في الكأس الثانية من الكابيريّنيا، وهي كلّها حماسة وتورّد، تنظر إليه بعينين مشتعلتين: «أتفهم يا أنطونيو؟»

«طبعًا يا إيزابيليتا، أفهم تمامًا، وأتعرفين، كنت أفكر، أنا أسكن هنا خلفنا مباشرة: يمكننا أن نذهب إلى هناك، ونجلس على راحتنا، ونشرب جعة أخرى... هناك مخططات جديدة يمكننا أن نتحدث عنها...»

أوقفته إيزابيل واضعة يدها على يده: «أنطونيو. اسمع يا أنطونيو: الأفضل ألا نفعل.»

«أقصد، كنت أريد فقط...»

رفعت إيزابيل يدها عن يده، كانت تبتسم لكن عينيها كانتا صافيتين حازمتين: «الأفضل ألا نفعل، قلت لك. نعرف بعضنا منذ زمن طويل، وأنت عزيز عليّ وأحبك أيضًا، لكن، انظر، أنت لست أبدًا جزءًا من خططي. أنت شاب طيب، وأعتبرك صديقًا جيدًا، لكن، باختصار، الأمر يقف عند هذا الحد. لا نعتقد الأمور.»

أحس أنطونيو كأنّ دلوًا من ماء النهر سكب عليه، وأحسّ بوضوح بخيوطه الباردة تسيل على ظهره. كان دائمًا ضعيفًا أمام تلك الفتاة، ودون أن يفكر في الأمر بوعي كامل كان يظنّ أنها هي أيضًا مهتمة به. بطريقة ما، كان يظنّ دائمًا، على نحو غامض، أنّ شيئًا ما سيكون بينهما في يوم من الأيام، في المستقبل، شيئًا صغيرًا. ربما أخطأ التوقيت فحسب، فحاول، متخبطًا بعض الشيء، أن يترك لنفسه طريقًا مفتوحًا: «لا، اعذريني، طبعًا، هذه ليست السهرة المناسبة، الإذاعة وكلّ شيء، كان يومًا غريبًا بعض الشيء. ربما نخرج معًا بعد أيام، نذهب إلى السينما، نتحدث بهدوء عن كلّ شيء، عنّا...»

هذه المرة ضحكت إيزابيل حقًا: «هاهاها، أنطونينو، هيّا، ما هذا الذي تفكر فيه... لم يخطر ببالي قطّ “نحن” آخر غير “نحن” الصداقة: اسمع، أنا آسفة حقًا إن كنت بطريقة ما، لا أدري، جعلتك تظنّ، مع أنني لا أظنّ ذلك، أقسم، إن كنت جعلتك تفكر في شيء آخر. آسفة من كلّ قلبي، وأتمنى لك كلّ الحظ في الدنيا، لكنني حقًا لا أناسبك، أريد أن أرحل من هنا، لديّ مشاريع أخرى... اعذرنني، لست الشخص المناسب أبدًا.»

لم يبقَ ما يُقال، ولم يقل أنطونيو شيئًا حين نهضت لتنصرف، ماسحة على كتفه بلمسة خفيفة.

وظلّت ذكرى بقية السهرة مشوّشة في ذهنه: ليلة رطبة حارة، طاولة من الفورميكا الزرقاء، هو ورفاق الطاولة الثلاثة وزجاجات البينغا التي صارت في الأثناء أربعًا.

1.14 نهاية اللعبة

في موسم الغبار لا يمكن أن يفوت حتى المراقب الأقل انتباهًا هوية أخرى (إلى جانب كرة القدم) محبوبة جدًا بين أطفال المدينة. يكفي أن تتمشي على كورنيش النهر لترى عشرات وعشرات من الطائرات الورقية الزاهية الألوان تنطلق من الشواطئ الصغيرة التي تحته، أكثرها مصنوع في البيت من قشّات الشرب وأكياس النايلون الملونة. يمكن لشارع بيراريو، الكورنيش، المشلول شهوياً من الأمطار الجارفة والمغمور، أحياناً حرفياً، بُنيّ النهر، أن يتحوّل لبضع ساعات إلى واحد من أكثر أماكن الكوكب بهجةً وألواناً.

الريح السائدة هي الشرقية، ريح دافئة هبّوب صديقة الصيّادين وعدوّ الطائرات الورقية: وأنت تمشي على الكورنيش لا تملك إلا أن تلاحظ كم هي أسلاك الكهرباء محشّوة بطائرات ورقية قديمة ممزّقة بقيت عالقة هناك من يدري كم من الزمن. في بعض المواضع تشبه منشآت فتية، فلا يكاد يُعرف البرج أو عمود الإنارة ممّا تراكم عليه من حطام متغصّن، وممّا يحاول اللون به أن يقاوم البُنيّ الحاضر في كلّ مكان.

من الأماكن التي أوقعت فيها أسلاك الكهرباء أكبر عدد من الضحايا مقطع قصير من الكورنيش قرب الحدّ الشمالي لحي بيربيتو وسوكورو، حيث كانت النساء في زمن مضى يذهبن لغسل الثياب في النهر والاستحمام تحت نخيل الكورنيش، بعيداً عن الأعين التي لو صارت فضولية لوجدت نفسها أمام فوهة بندقية صيد تحملها إحداهنّ بالتناوب صوتاً لعفاف الجماعة. هناك يتّسع فجأة ذلك الشاطئ الضيق الموازي للشارع، وهناك تتّفق على اللقاء بنات الحيّ وفتياته ليطلقن، أو ليعلّقن كما قد يقول بعضهم، طائراتهنّ الورقية.

خلف هذا الشاطئ، غير بعيد عن الشارع وغارقاً على غير انسجام في كثافة أشجار الجاكارندا، كان يطلّ مبنى منخفض من طوب مغبرّ بواجهات زجاجية عريضة ليست نظيفة كثيراً على النهر، وكان طابقه الثاني والأخير يضمّ مكتب السيد إيناسيو.

كان الموعد في السابع عشر من نوفمبر في الحادية عشرة صباحاً، لكنّ أنطونيو خرج من البيت قبل الألوان بكثير، فقد كان يوماً جميلاً وكان سيصعد بدرّاجته على الكورنيش نحو الشمال راجياً أن تذيب الشمس أفكاره الكئيبة. الطائرات الورقية في كلّ حيّ تحمل دائماً ألوان الحيّ نفسه: الأصفر والأخضر لحيّ سانتا إينيس حيث كان يسكن أنطونيو؛ الأزرق والأسود للتريم، وهما لونا إيبيرانغا وإنتر أنفسهما، الفريق الأثير لدى بادري فيتوريو غالياني، مؤسس إيبيرانغا؛ الأحمر والأصفر والأخضر، ألوان علم ماكابا الرسمي، لبايرو سنترال؛ الأحمر والأصفر لبيربيتو وسوكورو. وحين صارت أوائل الطائرات الورقية الحمراء والخضراء لحيّ سيدادي نوبا في مرمى البصر أوقف أنطونيو الدراجة ونزل باحثاً عن مكان آمن بما يكفي ليتركها فيه.

أدرك أنه لا يعرف شيئاً عن السيد إيناسيو، لا ما عمله الحقيقي ولا ما حياته خارج كرة القدم. كان بالنسبة إليه، وإلى الجميع، دائماً وفقط السيد إيناسيو، الرئيس. حتى الاستدعاء إلى مكتبه الشخصي لا إلى مقرّ النادي لم يتركه مرتاحاً. لم يحدث قطّ أن انعقد اجتماع مع الإدارة خارج جدران المقرّ، وأنطونيو نفسه لم يكن يعلم أبداً أنّ للسيد إيناسيو هناك على طول النهر مكتباً آخر.

ساعة كاملة قبل الألوان، والطائرات الورقية في السماء كثيرة جداً: كان أنطونيو ينظر إليها مفتوناً، فطفولته التي مضت في ركل كرة لم تكن قد أتاحت له أن يتمتّع كفاية بهذه الروعة. كان هناك صبيان وبنات من كلّ الأعمار، بعضهم ماهر حقاً في قيادتها في الجوّ. في المقابل كان الكبار قليلين جداً، ومن يدقّق النظر فلعلّه لم يكن سواه. جالساً على جدار قصير في عبير النهر الدافئ، كان يراقب سحلية خضراء كبيرة تطارد الذباب، متمسّكاً بأيّ شاغل كي لا يفكر في نصف النهائي الذي خسروه بذلك الشكل المخزي في اليوم السابق. من بعيد اقتربت قامة شابّ بمشية متمائلة. كانت له لحية وشعر طويل، وكانت مشيته شديدة الإيقاع كأنه يرقص. عرفه أنطونيو: كان دوغلاس، لم يره منذ شهور.

«دوغلاس؟ أهذا أنت؟»

«أنطونيو؟ مرحباً! نعم، أنا! يا لها من فرحة أن أراك!»

تعانقا، وتأمل أحدهما الآخر طويلاً، وضحكا.

«ماذا جرى لك؟ صرت نحيلًا، صرت أسمى، صرت...» تردّد أنطونيو لحظة يزن إن كان ذلك سيعدّ إهانة أم لا «...صرت وسيماً!»

«تقصد بالمقارنة مع الفتى البدين الشاحب الذي كنت تعرفه؟»

«حسنًا، نعم، ربما لم تكن بدينًا تمامًا، لكن انظر إلى نفسك! لم تعد أنت حقًا!»

«لا شيء يا أنطونيو، ماذا أقول لك: كنت على طول النهر، في الغابة، بضعة أسابيع، رحلة مع صديقين...» لم يكن أنطونيو يذكر أنه رأى دوغلاس مسرورًا هكذا قطّ: «إنّ هنا على بُعد خطوتين ولا ندرك حتى هذا الغنى. كم مرّة فكّرت في أن تصعده؟ ومع ذلك لا ندرك ما الذي يعنيه حقًا.»

«مرّات لا تُحصى. فكّرت مرّات لا تُحصى في أن أصعد النهر وأستكشفه كما ينبغي، ثمّ لسبب ما لم أفعل قطّ.»

مضت الساعة التي كانت له قبل الموعد سريعًا بين حكايات دوغلاس. الكلمة التي تردّدت أكثر على لسانه كانت «جميل»، وكانت عيناه متلافتين تائهتين في ذكرى لقاءات بأناس وصفهم بأنهم «أكثر صدقًا»، وطبيعة أسرة تصير فجأة أعظم وأعقد من أن تُدرَك إدراكًا تامًا. ساعة، ساعة وخمس دقائق، ساعة وعشر...

«اعذرني يا دوغلاس، عليّ أن أذهب حقًا، ما رأيك أن نلتقي مساءً فتكمل الحكاية لي؟ أريد أن أعرف كلّ شيء في أدق تفاصيله، أيّ طريق سلكت، من رافقتك: أريد أن أعرف كلّ شيء.»

كان السيد إيناسيو في انتظاره جالسًا خلف مكتب خشبي كبير، سيجار مطفأ في فمه، وقميص الكتان الوردي ملتصق بجسده من العرق رغم الريح التي تدخل من النافذة الكبيرة المفتوحة على النهر. على المكتب الصفحات الرياضية من الصحف المحلية، وعليها تعلو دوائر كبيرة بقلم تحديد أحمر حول المقالات التي تتحدث عن مباراة اليوم السابق. كان الضوء الآتي من شاشة حاسوب هائلة - لم يكن أنطونيو يظنّ حتى أنّ شاشات بهذا الحجم موجودة - ينعكس على جلد الرئيس الدهني المبيّض، الذي بدأ الكلام دون تمهيد بتأناة خفيفة لم يكن أنطونيو قد لاحظها فيه قطّ.

لم يكن أنطونيو ليقدر على النظر في وجهه لضرب من الاشمئزاز المفاجئ، وكلّ ما نظرت إليه عيناه كان الطائرات الورقية الزاهية التي كانت تحوم قريبًا، خارج النافذة مباشرة.

«أنطونيو، استدعيتك لأنه تقرّر ألاّ نجدد لك العقد.»

لم يفاجئ الخبر أنطونيو بالطبع: كان ينظر إلى الطائرات الورقية، لا يحرك عضلة.

«لا أنكر أنك في جانب ما قد أحسنت العمل، لكنّ ذلك لم يكف. الفتيان ليسوا راضين، وإدواردو أيضًا ليس راضيًا، لم أكلّمه بعد لكنني أعرف أنه ليس كذلك.»

إدواردو؟ كان أنطونيو يعرف أنّ إدواردو لم يكن متحمسًا، ربما، لكن بينهما كانت علاقة صريحة، ولو كانت ثمة مشكلات لتحذّر إليه عنها. على أيّ حال كان واضحًا أنه لا مجال للنقاش فلم يقل شيئًا.

«لا أريد أن تظنّ أنها مسألة مال، إطلاقًا، بل أردت أن أوّكد لك أنّ راتبك عن نوفمبر سيُدفع لك كالمعتاد.»

لم تكن مسألة مال أيضًا لأنّ «الراتب»، كما كان يسمّيه السيد إيناسيو، كان من الضالة بحيث لم يكن ليكفي حتى لشراء مضخة الدراجة من جديد.

«لكن في الخلاصة، الأمور لا تمشي كما ينبغي يا أنطونيو. طريقتك في التدريب غير أرثوذكسية، لم تُثمر الثمار المرجوة، لسنا راضين.»

كانت إحدى الطائرات الورقية تتبع مسارات أسرة بوجه خاص، بدت دائمًا على وشك السقوط لكنها كانت تستعيد نفسها دائمًا، متبعة بسرعة كبيرة مسارًا على شكل ثمانية ثم تصعد. كان في تلك الطائرة الورقية شدّ داخلي، طاقة. أضحك هذا خاطر أنطونيو، وهي إيماءة فسرها الرئيس على نحو خاطئ تمامًا.

«أراك مستمتعًا، حسنًا. سنعلن الخبر بعد ظهر اليوم قبل التمرين، وإن أردت أن تودّع فتيانك يمكنك أن تأتي: التمرين سيقوده إدواردو الذي سيبقى المدرب الأول حتى نجد بديلًا. آه، وأريد أن تسلم كلّ العتاد: الحقيبة والقمصان والبدلة الرياضية، شكرًا.»

ومرة أخرى ذلك المسار الثماني للطائرة الورقية، ومرة أخرى النجاة في اللحظة الأخيرة.

«إنن يا أنطونيو؟ أليس لديك شيء تقول؟»

«آه، يا سيد إيناسيو، عندي أشياء كثيرة أقولها. يمكنني أن أتحدث عن فتياي وعمّا كانوا عليه هذه السنة من سوء، مجموعة من اللاعبين الضعفاء جدًّا لم ينقذها سوى تنظيمي لطريقة اللعب. يمكنني أن أتحدث عن إدارة قصيرة النظر كانت أشجع خطواتها أن أخذت اللاعبين إلى الكنيسة ليتسمّموا قبل نصف نهائي. يمكنني أن أتحدث عن الحزن الذي كنت أشعر به وأنا أرى مدرّجاتنا خالية دائمًا، والمدرّجات نفسها بعينها ممتلئة دائمًا حين كان يلعب إيبيرانغا. لكنني لست هكذا. تريد إبعادي؟ أنفهم ذلك، خسرنا نصف النهائي وأنا أتحمل المسؤولية كلّها. لكن لعلّ ثمة شيئًا واحدًا أريد أن أقوله لكم. لن تفوزوا. لن تفوزوا أبدًا بعد الآن. ما دامت حضرتك رئيس النادي يا سيد إيناسيو، فيمكنكم أن تأتوا حتى بمدرب الميراس، مثلًا، وبلاعب مثل كاتو أو رولاندو، ولن تفوزوا مع ذلك أبدًا بعد الآن.»

«أنطونيو، أنطونيو، يا لها من ضغينة. إن أردت أن تصير مدربًا ناجحًا عليك أن تتعلّم أن تضع المسائل الشخصية جانبًا، أتدري؟ ثم أريد أن أقول لك شيئًا آخر، وأريد أن أقوله لك أنت وحدك: السنة المقبلة لن يقام الدوري. انتهت الأموال، زيراو يُغلق ومع السلامة. أترى كم أنت قصير النظر؟ أترى أنك لا تفكر إلّا في ماكابا بينما نحن في وسط أزمة أكبر بكثير منك ومني؟»

«لكن يا سيادة الرئيس، هل حضرتك متأكّد ممّا تقول؟ ما الذي يعنيه أنّ زيراو يُغلق؟»

«يعني أنّ المدرّجات، رغم أنها بُنيت منذ أقلّ من عشر سنوات، آخذة في الانهيار ولا مال لإصلاحها، ويعني أنّ خمسة فرق في ماكابا لن يعود لها ملعب تتمرّن فيه، ويعني أننا ربما نتمكّن من اللعب في كأس ما من كؤوس شمال البرازيل لكن لا أكثر.»

«سيصلحونه. زيراو مهمّ أكثر من اللازم لهذه المدينة، سيجدون السبيل.»

«ما زلت تحبّ أن تعيش في عالم الأحلام، أليس كذلك؟»

نهض أنطونيو دفعة واحدة، نزع دبّوس نادي ماكابا لكرة القدم الذي كان مثبتًا على قميصه وأسقطه بضجيج على المكتب، وخرج من المكتب بخطوات مضبوطة، ونزل الدرجات واحدة واحدة بتؤدة مسرحية حتى بلغ الشارع. كاد وهج شمس الظهيرة يعميه.

في السماء، الطائرة الورقية التي كان يتبعها ببصره حتى قبل دقائق فقدت فجأة ارتفاعها وذهبت لتتشابك في أسلاك الكهرباء تحت نافذة السيد إيناسيو تمامًا، ذاهبة لتؤنس طائرات ورقية أخرى باللون نفسه كانت قد لقيت المصير نفسه فيما مضى.

1.15 النهر

كان أنطونيو واقفًا على إحدى دعامات الفورتاليزا ويفكر في الانتحار. كان يحدث له بين الحين والآخر أن يتأمل فيه، بوصفه إمكانًا نظريًا منقطع الصلة تمامًا بالواقع. من قبيل: لو جاء طبيب بمصل الخلود وأراد أن يحقنك به، ماذا كنت ستفعل؟ كنت سأخذ هراوة وأضربه حتى الموت، هذا ما كنت سأفعله. أما إن لم أنجح، فسأقتل نفسي دون أن أفكر لحظة. الخلود، مهزلة.

في مَرَات أخرى كان قد فكر في الانتحار بوصفه حلًا محتملًا لمشكلاته. أنا متأخر عن فواتير الكهرباء؟ حسنًا، لو انتحرت لما عادت مشكلة. عليّ أن أجري تلك المكالمات الهاتفية التي لا رغبة لي فيها إطلاقًا؟ الأمر نفسه. لكن في كل مرة بعينها كان واضحًا له - منذ البداية، منذ «لو» - أنه لم يكن يأخذ هذه الفرضية بعين الاعتبار حقًا. وفي كل مرة كانت الخاطرة التالية: ما الذي قد يكون سببًا يجعلني أفكر فيها حقًا؟ ثم كان يساوره شعور غامض بالخجل لأنه ربط فكرة الانتحار بخواطر بهذه التفاهة، وعمومًا كان ذهنه يبدأ في الشرود، يبدأ في التفكير في طرق مبتكرة للانتحار، وبعد خمس دقائق كان قد صار يفكر في شيء آخر كليًا.

في تلك المرة أيضًا لم يكن يفكر حقًا في أن ينتحر. لكنه كان يفكر في وحدته ولعلّه في إيزابيل، كان يفكر في الإذاعة، يفكر في الحواسيب المصابة بالخلل ولعلّه في نهاية العالم، يفكر في نصف النهائي وفي نصف النهائي الآخر، يفكر في الجدار الأزرق لملاعبه المحبوب. ثم سقطت خاطرته على طيار رحلة إيجيبث إير. كم ينبغي أن تكون تغييسًا لتريد الانتحار، وكم ينبغي أن تكون في سوء بالغ لتفعلها حقًا، وكم ينبغي أن تكون تغييسًا تعاسة لا تُتخيل لتفعلها وتأخذ معك مئة شخص. لكن كيف يصل المرء إلى هذا؟ كيف بحق الجحيم يصل المرء إلى أن ينتهي هكذا؟ وتخيّل لو أنّ الطيار كان قد راودته فكرة الانتحار من قبل، وحيّدًا في غرفته، ونجح أحد أحبائه في ثنيه عنها. في إنقاذه. تخيّل المفارقة الملعونة. لعلّ الأفضل أن تنتحر في الحال، أول مرة تخطر لك.

ثم، شيئًا فشيئًا، أخذ يشرد تلك المرة أيضًا. عاد إلى الجوانب العملية للانتحار وفكر، كعادته، أنه لو كان عليه أن يفعلها لاختار النهر. وكان النهر هو ما صرف انتباهه، بلونه العجيب، اللون الوحيد الممكن لنهر جدير بهذا الاسم: البُنيّ.

عاد بذكرته طفلًا، أول مرة وُضعوا فيها في المدرسة أمام خريطة: «معلّمتي! ما هذه الخطوط الزرقاء؟»

«تلك هي الأنهار. وهذا المرسوم هنا هو نهر الأمازون.»

«الأنهار؟ يظهر أنّ من رسمها لم يرَ نهرًا قطّ!»

الضحكات المجلجلة. والمعلّمة، بصبر، تشرح أنّ لون النهر لون خاص، ناشئ عن خصائص تجعله شبه فريد في العالم، لكنّ الأنهار الأخرى عمومًا زرقاء حقًا أو زرقاء داكنة، مثل البحر إلى حدّ ما: «ثمّة أغنية أيضًا تتحدث عن نهر أوروبي جميل: “الدانوب الأزرق”، سأسمعكم إياها يومًا ما.»

ثم قفزة إلى الأمام، أنطونيو شابًا، لأوّل مرة أمام حاسوب موصول بالإنترنت. أصدقاؤه كلّهم يبحثون عن بامبلا أندرسون وهو يكتب «صور الدانوب». والذهول أوّلًا ثمّ الضحكات بعد، حين رأى أنّ الدانوب الأزرق هو أيضًا بُنيّ. صور التيمز، نقرة: بُنيّ. النيل: بُنيّ. المسيسيبي: بُنيّ. هاهاها، يا لكم من ملاعين يا رسامي الخرائط، وأنا الذي صدّقتكم طوال هذا الزمن، أنتم والمعلّمة. لكنّ نقرات أخرى بعد ذلك كانت تعرض صورًا لأنهار زرقاء، بل بدا في بعض الصور أنّ الدانوب والنيل والآخرين أنفسهم زرقاء. لعلّ الأمر كان يتعلّق باللقطة، بمواضع النهر؟ ومن ثمّ العينان المشدوهتان، البديهة، البحث السريع والتأكيد: كانت توجد صور (وكم منها!) لنهر الأمازون تُظهره أزرق، زرقعة عميقة جدًّا. وإذا فكر في الأمر، كان بديهيًا، لكنّه إذ كان أمام عينيه دائمًا لم يكن قد توقف عنده متأملًا ولا مرة واحدة في أكثر من خمسة وعشرين عامًا: كان النهر أكثر تنوعًا بكثير ممّا كان يظنّ، وكان يخبئ له كثيرًا من المفاجآت.

في تلك المرة البعيدة كان قد أطفأ الحاسوب على مضض، ووعد نفسه أنه سينطلق قريبًا بحثًا عنها، عن تلك المفاجآت؛ لكنّ الشهور مضت ثمّ السنين، والمدرسة، والحرّ، والإذاعة، والمطر، وكرة القدم... والنهر ظلّ يجري نحوه دون أن يُبادهل ذلك ولو مرة واحدة.

1.16 الرحيل

كانت إيزابيل، المنحدرة من أسرة ميسورة نسبياً وكان والداها سيدفعان لها عن طيب خاطر نفقات الدراسة الجامعية، قد اختارت بدافع كبرياتها الشخصي أن تدفعها بنفسها، عاملة في بار أنا ماريا. أما الإذاعة فكانت تخصص لها وقتها بدافع الشغف المحض. لكن الدراسة الآن قد انتهت، ولم تعد هناك حتى ذريعة الإذاعة، التي لعلها ماتت إلى الأبد: كان لا بد من تقرير ما تفعله «حين تكبر». ولعل جزءاً من أن تكبر كان أن تتعلم أن تضع كبرياءك جانباً.

«أبي، فكرت في الأمر: قرّرت أن أقبل عرضك الكريم بأن تدفع لي نفقات دراستي في المدرسة الدولية للترجمة الفورية في نيويورك.»

«يسرني ذلك يا إيزابيلينا العزيزة. ومتى كنتِ تنوين السفر؟»

«بعد غد، إن كان ذلك يناسبك يا أبي. أودّ أن أبدأ من الفصل الدراسي المقبل.»

«أرى أنك عملتِ على الكبرياء. يسرني ذلك. ثمّ لعلنا نعمل قليلاً على الاندفاع أيضاً، ها؟ لكنني مسرور جداً من أجلك.»

وصلت إيزابيل أمام باب الرقم 1630 في الشارع الستين في بروكلين بعد أن غابت الشمس بوقت طويل. سبع درجات كانت تؤدّي إلى بيت صغير من طوب فاتح مغمور في اصفرار مصابيح الشارع، وحقيبتها الضخمة ذات العجلات ما كانت لتدخل قطّ دون معونة أحد. كان الجرس عالماً، وكانت هي أشدّ تعباً من أن تقرر حتى على الزجاج المصنفر. كانت قد سافرت أربعاً وعشرين ساعة متواصلة، فلوصول إلى نيويورك من ماكابا كان عليها التوغّل في أقصى جنوب البرازيل، أولاً إلى برازيليا ثمّ إلى ساو باولو، وعندها فقط نقلتها أخيراً طائرة كبيرة لشركة يو إس إيروايز إلى وجهتها.

من تلك الساعات الأربع والعشرين كانت تحتفظ بذكرى مشوّشة: الانتظارات في طوابير طويلة على نحو عبثي قبل كلّ شيء، كلمة «Aliens» في مطار نيويورك، الأشياء البشعة التي أكلتها على الطائرة، عبارة «\$ 8.000» المطبوعة على التذكرة، الإنجليزية التي كانت تسمعها ولا تفهمها (أنا متخرّجة في اللغات، اللعنة!)، الناس، كمّ من البشر مجتمعين بدا يسلبها أنفاسها، خوف الإقلاع الأوّل الذي ما لبث أن قهره الفضول والمتعة الجديدة للطيران، للارتفاع وشقّ الغيوم، ابتسامات جيرانها في المقاعد عند الوصول إلى نيويورك، المنظر الأسر للمدينة من نافذة الطائرة أولاً ثمّ من سيارة الأجرة، ولا سيّما البرجين التوأمين الهائلين اللذين كان يمكن رؤيتهما حقاً من كلّ زاوية من المدينة.

كانت تلك أوّل رحلة حقيقية لها. خلال الساعات العشر والنصف من الطيران بين ساو باولو والتفّاحة الكبيرة كان قد سنج لها أخيراً أن تكتب يوميات سفر حقيقية، ومن قلمها خرج نهر هادر: دفتر كامل اشترته للمناسبة في مطار برازيليا امتلاً بسطور متلاصقة جداً ورسومات مترددة. كانت قد قرّرت بسرعة إلى ذلك الحدّ، ووافق بابا بسرعة إلى ذلك الحدّ (أكان يريد التخلص منّي؟ فكرت ضاحكة) بحيث لم تتح الفرصة لأن تشعر بشيء من الانفعال: بالكاد وقت إبلاغ أنا ماريا، صاحبة البار، وإجراء مكالمة إلى الإذاعة لإخبار أحدهم، وحزم الحقائب. كانت المدرسة تقبل التسجيل بشرط البدء عند العودة من عطلة «ميد تيرم» في 19 نوفمبر. كانت تتذكّر بخجل المكالمة شبه الهزلية لأمانة السرّ التي لم تكن تفهم فيها ولا تقدر على أن تُفهم، فأين هي من المترجمين الفوريين والمترجمين!

البرودة – ولم يكن عليها سوى معطف خفيف أخفّ من اللازم – هي من منحها الشجاعة أو القوة لتطرق الباب. كان البيت لابنة عمّ من الدرجة الثالثة لوالدها كانت قد انتقلت مع أسرتها قبل عقود، وأنجبت عدداً غير محدّد من الأبناء، وفقدت زوجها، وكانت الآن تنعم بمعاشها الذي ليس بالضئيل كثيراً مؤجرة الطابق العلوي من ذلك البيت الصغير التائه في جنوب المدينة الكبرى حيث كان الكوريون والصينيون والإيطاليون والبرازيليون والبولنديون واليهود الأرثوذكس يتقاسمون بسلام إلى حدّ ما كلّ سنتيمتر مربع قابل للبناء والسكن.

المرأة المرتدية السواد التي فتحت الباب كان لها أنف معقوف هائل يزّين وجهها ويجعلها تشبه نسراً أو، بالأحرى، غراباً. بدأت تكلمها بما كان من وجهة نظرها برتغالية، لغة لم تكن تمارسها منذ ثلاثين عاماً على الأقلّ، وكان من لباقة إيزابيل أن تظاهرت بأنها تفهم. دلّتها السيدة العجوز على الطريق في الدّرج الشديد الانحدار المؤدّي إلى الشقة العلوية، التي كانت تأتي منها موسيقى وعطر طيّب لشيء لم تقدر إيزابيل على تمييزه.

الله يعطي الجوز لمن لا أسنان له كانت تيريزا تفكر وهي تمسك هاتفها الجوال الجديد. كانت قد أمضت نصف الأيام الفاتئة تدرس باجتهاد دليل استعماله، والنصف الآخر تتباهى به أمام لويزا. أما في الساعة التي كانت تتصل فيها بأنطونيو عادةً، فقد كان ينتابها شعور بالكآبة. أتراني سأعتاد حقاً أن أتصل ببرنامج ذلك البغاء الأشعث؟

وزنت الهاتف في يدها من جديد، فتحت الغطاء وأغلقتة بقطعة وهي تشعر أنها البطلة الثانية في ذلك الفيلم، أخذت نفساً عميقاً وضغطت الرقم.

«ألو؟»

«حسنًا... السيد إيناسيو؟ أنا تيريزا، أذكركني؟ أنا تلك السيدة، سيدة الهاتف.»

«أي سيدة هاتف...»

«التي ساعدت غوستافو. بالمناسبة، كيف حاله؟»

«صار أفضل، شكرًا. يتعافى جيّدًا، وقد بدأ بالفعل إعادة التأهي...»

«يسعدني ذلك،» قاطعته تيريزا، التي لم تكن تحتل أن تبقى طويلًا دون كلام وإلا تلاشت في نفحة هواء كل تلك العزيمة التي كانت قد جمعتها بأعجوبة، «أعتذر عن الإزعاج، لكنني كنت أعيد التفكير فيما قلته لي حين التقينا. أتذكر؟»

«مممم، نعم...»

«حسنًا، لقد أهديتني هذا الهاتف الجميل وسأظلّ ممتنة لك إلى الأبد، لكنك قلت إنه قليل وإنّ بإمكانني أن أطلب ما أشاء. حسنًا، خطر لي شيء آخر أرغب فيه.»

«لنسمع، لنسمع» شجّعها إيناسيو، مستمتعًا وشبه مبهور بتلك الوقاحة.

«حسنًا، أتعرف إذاعة نوبا أميزادي؟ قبل أيام تعرّضت لسرقة، سرقوا كل شيء، والإذاعة الآن مغلقة. حسنًا، كما تعلم، أودّ أن تُفتح من جديد.»

«هاها، تصوّبين عاليًا يا سيدة تيريزا،» ضحك إيناسيو الذي كان اللقاء قد عاد إلى ذهنه في تلك الأثناء «أذكر أنّك قلت لي إنّ على المرء في الحياة أن يعرف القناعة.»

«ما زلت أرى ذلك، يا سيد إيناسيو،» قالت تيريزا مستنعدةً بأخر قطرات مخزونها من الشجاعة والجرأة، «لكن أحيانًا يجب أيضًا أن نعرف المغامرة. من لا يغامر لا يفوز.»

على الجانب الآخر من المدينة تقريبًا، كان أنطونيو ممدّدًا على مضجعه منشغلًا بالنظر إلى السقف، وقد تشكّلت في داخله قناعة صلبة. الرحيل. يجب أن أرحل. كانت حكايات دوغلاس عن تجواله في غابة الأمازون تتردّد في رأسه، ولم تكن المرارة التي يشعر بها إزاء كيفية انتهاء موسم كرة القدم والسرقة التي تعرّضت لها الإذاعة تزيدها إلا ضخامةً وتجعلها أقرب، تكاد تكون في متناول اليد. لكن كان هناك غير ذلك. في اليوم السابق كان قد وصل إلى الإذاعة ليقمّ الوضع ويقرّر كيف يواصل، ولم تكن إيزابيل هناك.

«رحلت» قال جواو، وقد بدا منكسرًا جدًّا.

«رحلت؟ وإلى أين؟ كيف؟» لم يكن أنطونيو يتوقّع ذلك إطلاقًا.

«ذهبت إلى نيويورك، لا أعرف أكثر من ذلك، رحلت بالأمس.»

«إلى نيويورك؟ جواو، لا تمزح معي، هذا غير ممكن...»

«أنطونيو، لا أمزح معك: أقول لك إنها ذهبت، قالت إنَّ الوقت قد حان للتغيير، إنها اتخذت قرارًا سريعًا لكنّه صائب لتذهب للدراسة. لا أعرف شيئًا غير ذلك.»

عاد إلى البيت يقود درّاجته ببطء، وكانت رائحة النهر شديدة جدًّا في الهواء الرطب، تكاد تكون عفونةً حلوة لثمار. بدت واجهات البيوت وكأنّ ضوء الشمس الغاربة قد بلّلتها، رماديةً ومائلةً إلى الاصفرار وورديّة كرسّم مائيّ رديء. وكان أنطونيو ما يزال في أذنيه ذلك الصمّ الذي كان يعني إعادة ضبط كاملة، جديدة، للدماغ. لقد رحلت إيزابيل. في الآونة الأخيرة كانت قد صارت حضورًا ثابتًا، وانتهت إلى أن تكون جزءًا من مشهده الداخلي، وكان غيابها يثقل أكثر ممّا كان مستعدًّا للاعتراف به لنفسه. أحتاج إلى إجازة: غدًا أتّصل بالمدرسة وأخذ أسبوعين، فالعام الدراسي قد انتهى على أيّ حال، وأنا لم آخذ إجازة قط، أتراهم لن يمنحوني إياها؟

امتلاً سقفه بالألوان، بالوجوه، بالنكهات، بالأصوات. أخذ الهاتف وضغط الرقم الذي كان دوغلاس قد تركه له.

«ألو، دوغلاس؟»

«أنطونيو؟»

«مرحبًا، نعم، أنا. قرّرت أن أذهب في جولة إلى الأمازون، وأردت أن أسألك أن تعطيني بعض النصائح، أن تشرح لي جيّدًا أيّ جولة قمتَ بها وكيف ذهبتَ إلى هناك.»

«متى نلتقي؟»

«حالا أيضًا إن أردت.»

”الفصل 2“

2.1 الماء

مونتي دورادو، بارا. القرية، إن شئنا تسميتها كذلك، لم تكن سوى تجمع بسيط من الأكواخ ملتفة حول ساحة صغيرة عارية تهيمن عليها بناية استعمارية متواضعة تجثم الغابة خلفها، وكانت تضم مكتب بريد متناهي الصغر بأبهى الخشبي المنزلق نصف مُسدل، وبوزادا (نُزلاً) ناعسةً مصاريغها نصف مغلقة.

حول عمود البيلورينيو كان يلعب خمسة أو ستة أطفال وكلاب، لكن ما عدا ذلك، ما إن ابتعد الحافلة اللاهثة الذي حمل أنطونيو إلى هناك وتوارى في الأزقة الأشخاص القلائل الذين نزلوا معه، حتى بدت القرية خالية. كان ذلك السلام راحةً بعد رحلة بدت لا تنتهي، منحشراً بين نساء وأمتعة وأطفال يصرخون وعجائز يثرثرن بلا توقّف، ومذيع السائق بأعلى صوته يزعق أغنيةً خفيفة بعد أغنية.

وكانت راحةً قبل كلّ شيء بعد الأيام السابقة، حين كانت رغبته في الابتعاد لبعض الوقت عن حياته المعتادة قد أحبطت بسبب الحشود، والضجيج، وكثافة الناس والسائحين الذين يزدحمون في المدن على طول النهر.

الجولات المنظمة لمشاهدة آكلات النمل أو لتذوق الجاكاريه (القاطور)، على قوارب مكتظة بأمركيين وأوروبيين يصوّرون كلّ بغاء كأنه الأخير في العالم، محاطين بأطفال يحاولون بيعهم المثلجات والفاكهة اللزجة، لم تكن ما توقعه من الأمازون. المتاجر، والطاولات الصغيرة التي يشرب عندها العجائز كاشاسا في حرارة العصر، والسيارات، والمذيعات الصغيرة، والنسور الضجرة فوق بقايا خضار السوق، والشباب غائمي العيون الذين يتفحصون ساعات السائحين، ومؤخرات الفتيات المستديرة وهنّ يخبطن بالشباب ضاحكات فيما بينهنّ، كلّ ذلك كان مماثلاً لما في مدينته.

كان قد زار، كما يقتضي الواجب، سانتاريم وماناوس، لكن بدا له أنه غيّر الحيّ فحسب، لا أكثر. لم تكن تلك هي الأمازون التي تخيلها مراراً، ومن المؤكد أنه لم يكن ليستطيع هناك أن يعيد ربط خيوط أفكاره وحياته منغمساً في الطبيعة، ولا كانت رحلة كهذه لتعيده إلى البيت متحمساً، متجدداً، أغنى.

وبعد أن صار على طريق عودة مخيبة للآمال، توقّف في ألميريم، متردداً بين أن يهمل كلّ شيء ويرجع إلى شقته ذات الغرفتين في الطابق الأول، وبين أن يصدّق كتيباً إعلانياً آخر يعد برحلات رائعة لاكتشاف جماليات النهر: الدلافين الوردية النادرة جداً! الأناكوندا الخطيرة جداً! ملقّى النهرين، مياه لا تمتزج لكيلومترات!

وبينما كان يتمشّى حائراً في شوارع المدينة الملتهبة، دفعه وابل مطريّ هائل إلى الاحتماء راکضاً داخل محطة للحافلات. في انتظار أن يتوقّف المطر تسكّع يحتسي فنجان الكافيزينيو، رامياً نظرة شاردة إلى الجدران المغطاة بملصقات ومنشورات متراكبة تعلن عن مثلجات وعروض مسرحية وتخفيضات على المنظّفات ومدارس للسامبا وخبيرات تجميل كثيرات الوعود، حتى وقعت عينه على لوح المواعيد. فيما بدا، كانت تنطلق من هناك خطوط ثانوية تماماً، تربط، برحلات متباعدة، بلداتٍ في الداخل لم تكن أسماؤها تعني له شيئاً. أخذت فكرة تشقّ طريقها في رأسه، فاقترب من شبّاك التذاكر حيث كان رجل صغير بسرّوال قصير وشبشب يقرأ جريدة رياضية ويدسّ أصابعه في أنفه.

«اسمع لحظة، رأيت أنّ هناك حافلة تذهب إلى مونتي دورادو ومكتوب بين قوسين “نهر جاري”: هل يعني هذا أنّ القرية على النهر، صحيح؟»

«إن كان مكتوباً هكذا، فلا بدّ أن يكون هكذا، أليس كذلك؟»

«هه هه هه، نعم، بالتأكيد، بالتأكيد. لكن، في رأيك، حين نصل إلى هناك هل من إمكانية لإيجاد قارب، لاستئجاره أعني، لنصعد نهر جاري قليلاً؟»

أخرج الرجل الصغير إصبعه من أنفه، تأمله ملياً، ثم رفع كتفيه راضياً وقال بابتسامة عريضة: «حسناً، النهر هناك، ولا بدّ من قارب ما، وإلا فلماذا بنوا الرصيف إذن؟»

«صحيح، لست مخطئًا. حسنًا، أعطني إذن تذكرة. الحافلة تنطلق غدًا في التاسعة، أليس كذلك؟»

«مكتوب هكذا، الأربعاء والجمعة في التاسعة، فما دام الغد أربعاء فسيكون كذلك، أليس كذلك؟ ثم تاسعة، تاسعة ونصف، أحيانًا إن كان هناك الكثير ليُشحن تبلغ العاشرة، الحادية عشرة، من يدري. لكن إن جئت في التاسعة فاطمئن، خذ أيضًا المقعد الأمامي ففيه هواء أكثر. ثلاثون ريالًا.»

كان قرارًا اتَّخذه في لحظة اندفاع: شعر أنطونيو فجأة بحماسة تغمره، وبسعادة لم يعرفها منذ أن رحل. كفى اتِّباع مسارات منظَّمة، تلك المعدَّة سلَّمًا للسائحين، كفى مغامرات زائفة في غابة مستأنسة، سأذهب الآن لحسابي الخاص، آخذ غرفة صغيرة جميلة في مونتي دورادو وأجد فتى يأخذني في النهر نحو الداخل، كفى كتيِّبات، لقد حان وقت كسر المخططات، إنها رحلتي أنا ومنذ الآن سأُنظِّمها بنفسِي.

خلف البيوت الأربعة التي كانت تُكوِّن مونتي دورادو الناعسة لم يجد صعوبة في العثور على الرصيف، مجرد مرسي من ألواح يبرز ثلاثة أمتار لا تكاد تتَم فوق النهر المخضّر. مسحوبة إلى اليابسة على طول الشاطئ كانت هناك ستّة أو سبعة قوارب خشبية صغيرة بحجم أحواض الاستحمام، من عتاد الصيادين، ورابية إلى المرسى قاربان بمحرك فحسب، ليسا أكبر بكثير لكنهما مزودان بما يشبه قمرة قيادة وبغطاء بلاستيكيّ مشدود ليظلّ سطح السفينة. أحدهما كان عتيقًا جدًّا ويميل ميلاً ظاهرًا إلى جانب، وعلى الآخر كان رجل ذو شعر كثّ منفوش بلون الحديد يعبث حول المحرك.

«هيه! اسمع، أنت! هذا القارب، هل تؤجره؟»

مسح الرجل يديه على سرواله القصير، حكّ الشعر على صدره العاري، قيّم قميص أنطونيو وحذاءه الأديداس وأشعل سيجارة: «لَمْ لا، لَمْ لا. تأجير مع قائد، سعر ممتاز، رحلة جميلة جدًّا. القائد هو أنا. إلى أين كانت حضرتك تريد أن تذهب؟»

«ممم، كنت أريد جولة على النهر، أصعده قليلاً لألقي نظرة على الغابة... ربّما أبقى غائبًا يومين، لا أعرف، إن وُجد مكان للنوم...»

«لَمْ لا، النوم على القارب، كلّ مجهّز، مريح جدًّا، تقييم كأنت سيّد. نغيب يومين أو ثلاثة، كمّ هائل من الغابة، رحلة جميلة جدًّا. سعر ممتاز، يشمل الطعام، يشمل الطباخ، الطباخ هو أنا.»

«آه، حسنًا، ممتاز. يمكننا أن ننطلق غدًا أيضًا أم عليك أن تنتهي من تجهيز القارب؟»

«القارب على ما يرام تمامًا، إنه جوهرة.»

أغلق بصفقة الغطاء الذي يسدّ المحرك، وقذف عقب السيجارة في الماء: «ننطلق غدًا صباحًا، حضرتك في هذه الأثناء يمكنك أن تنام هناك في البوزادا، مكان جميل، نظيف، عشاء ممتاز. سعر ممتاز. البوزادا لأختي جيزيتا.»

كان العشاء ممتازًا حقًّا، موكيكا من قريديس النهر تلحس أصابعك وراءها، وجعة تكاد تكون باردة تمامًا، لكنّ الحساب بدا له باهظًا بعض الشيء ليسمى سعرًا ممتازًا، حتى مع مراعاة أنّ السرير كان ضيقًا ومحدودًا وأنّ سقف الغرفة العالي كان مغطّى بالكامل بالوزغ. وزغ أو اثنان لم يكونا ليزعجا، لكنّ أولئك كانوا خمسة آلاف على الأقلّ، وحتى لو كانت دونا جيزيتا قد ردّت على شكوكه بابتسامة عريضة مرتاحة لأنه هكذا «لن تكون في غرفته ولا بعوضة واحدة»، فإنّ أنطونيو نام نومًا قلقًا بعض الشيء.

ولم يبد له سعرًا ممتازًا إطلاقًا أيضًا ذلك الذي انتزعه منه غامبوني - اسمي باولو، لكن لا بأس بغامبوني، الجميع ينادونني غامبوني، هيّا اصعد، انتبه لذلك اللوح، لا الكلب وديع جدًّا، اسمه عذاب: لا يعصّ، يضطرب فحسب هاهاهاها! انظر أيّ يوم، انظر أيّ قارب، رحلة جميلة جدًّا - قبل حتى أن يُصعده إلى ذلك القارب المتهالك، لكنه كان هناك على أيّ حال، وبدأ أنّ ذلك هو القارب الوحيد المتاح، وهو قد صار يموت شوقًا لتلك الجولة على النهر.

بدأت الرحلة بشكل مجزٍ حقًا: بعد ساعات قليلة من الإبحار لاح لهما شلال هائل، قطع فجأةً نعاس التيّار وهو يغلي بالزبد وبأجنحة الطيور وأقواس قزح من الرذاذ.

قام غامبوني بواجبات الضيافة فخورًا، كأنه هو من صنع ذلك الشلال ذاك الصباح: «هذا شلال سانتو أنطونيو، جميل جدًا. شلال عظيم، الأعظم في أمابا، جميل، أليس كذلك؟ جميل. محظوظ جدًا حضرّك أن تراه. تستحقّ الرحلة العناء، ولو للشلال وحده، تستحقّ، رحلة جميلة جدًا.»

أنطونيو، رغم تأثره الشديد بمهابة ذلك القفز المائي في قلب الغابة، شعر ببعض الانزعاج: «لكن إذن نعود الآن أدراجنا؟ هل انتهت جولة النهر بهذه السرعة؟»

«هه، هذا ما ظننته، أليس كذلك؟» التفت غامبوني لينظر إليه بمكر، وعينه نصف مغمضة من دخان السيجارة المتدلية من فمه «الرحلة ما تزال طويلة، وأجمل بعد. محظوظ جدًا حضرّك لأنني أعرف النهر هكذا جيّدًا. محتال عجوز هذا الجاري، عجوز مشاكس، من لا يعرفه ينتهي نهاية سوء، عجوز أصفر خطير ومحتال.»

انعطف عائدًا أدراجه، متباهيًا وهو يسلك فرعًا جانبيًا في اتجاه المصبّ، ثانويًا وشبه مستتر بين الأغصان: «أعرف كلّ حيل هذا النهر اللعين، محظوظ جدًا حضرّك أن تأتي معي، له من الأذرع أكثر ممّا لامرأة مشتاقة هذا العجوز الأصفر الكبير، ألف ذراع تغيّر مساراتها بين اليوم والغد. أنا وحدي أعرف احتيالاته، أنا أعرف كيف يلتوي ويلتوي وأوصل حضرّك حيث تريد، في أعالي النهر. ناس من المدينة أتوا فضاءوا، على هذا النهر، كمّ من الناس. أتوا وضاعوا، أساتذة جهابذة، ناس يكتبون الكتب، ضاعوا وسط أذرعه وهم لا يعرفون بعدُ أكانوا نازلين أم صاعدين. محظوظ جدًا حضرّك أن تأتي معي، قارب جميل جدًا قاربي.»

وحقًا كان أنطونيو سيضيع، في ذلك التشعب المتواصل بين الخضرة، في مياه بدت متطابقة لا يمكن تمييز إحداها من الأخرى. اضطرّ إلى الاعتراف بأنّ خيلاء ربّانه كانت في مجملها مبرّرة حين طلعا من جديد بعد ساعتين على المجرى الرئيسي للنهر، العريض الأصفر الذي تعبّره أسراب الببغاوات، دون أيّ أثر للشلال الذي كانا قد تركاه خلفهما بمراحل.

أمّا بقيّة الرحلة فأتضح أنها شأن أضجر بكثير من المتوقع: كان القارب يدمدم ويتمايل نافثًا غازات العادم فوق ماء عكر مائل إلى الاصفرار، وكانت الغابة جدارًا أخضر على الجانبين كليهما، متشابكًا ومتصلًا لا تنقطع كتلته المتراكمة الرتيبة إلا جموع الطيور التي تعلو وتهبط صارخةً طيقًا لا نهائيًا من الأصوات، وبين الحين والحين قفزات خاطفة لقرو صغيرة قلقة.

كان غامبوني يقود بيد ويوقد بالأخرى سجائر لا تنقطع، ومرّتين في اليوم يرسو بالقارب ويتفرّغ لجلسات صيد منومة لم يكن أنطونيو يشعر بكثير حماس للمشاركة فيها، وكانت تُثري مطبخ القارب الرتيب – الذي كان في ما عدا ذلك يبدأ وينتهي بإيمبانادا مقليةً طويلًا في زيت نخيل كثيف – بأسماء طوال ذات مذاق طينيّ بدا عذاب متحمسًا لها.

بعد أن التقط أربعة أفلام كاملة لذلك السور الهائل من الأغصان والأوراق والنباتات المتسلّقة وأزهار الأوركيد، فقد أنطونيو الأمل في أن يؤطر مصادفةً جاكوارًا يصطاد أو على الأقلّ عراغًا بين التابيرات، أو تزاوج كايبيارات، أو نوعًا من الببغاوات سيّبتين لاحقًا أنه مجهول وسيطلقون عليه اسمه. كان يدرك أنّ ذلك الخضمّ من الأوراق يغلي بالحياة، لكنها كانت حياة بالغة المراوغة، وعدا الطيور والقرو الدائمة الحضور، كانت ظاهريًا غير مرئية. كان يدوّن ملاحظاته بفتور، ويتوقع تحت الغطاء البلاستيكي قرب عذاب ليتجنّب وابل العصر، ويستمتع إلى غامبوني يروي للمرّة الألف أدائه الأسطوري مع التوأمين الخلاسيّتين دياميرا وألفونسينيا الذي كان قد أنتج ذلك اللقب البالغ الإيحاء. بدت الغابة في تناول اليد إلى هذا الحدّ، ومع ذلك كان يبدو له أنه يعجز عن رؤيتها حقًا، عن سماعها، عن لمسها.

رغم هذه الخيبة الغامضة كان يشعر بحال طيبة. وبالتأكيد مرتاحًا: تلك الأيام من الإبحار الهادئ التي كانت انفعالها الوحيد الصراع الدائم مع البعوض كانت قد رسّبت توثر الأشهر الأخيرة، وأخذ أنطونيو يحلم بأن يشتري لنفسه قاربًا وكلبًا أصفر بلون الموز ويستقرّ في كوخ صغير في مونتي دورادو، ربّما مع فتاة (إيزابيل، ربّما؟)، وأن يؤسّس محطة إذاعية صغيرة لا تبثّ سوى الجاز والموسيقى الهندية، وربّما يكتب رواية تتحدّث عن كرة القدم، حين بلغت الرحلة النهرية نهايتها فجأةً.

حتى لحظة قبل ذلك كانا يبحران في سلام مطلق، مستمتعين بالنسيم ورائحة النفط، حين أبطأ غامبوني فجأة ومال إلى الشاطئ حيث كانت تُشرف على النهر بقعة صغيرة من تراب مدكوك. أنزل اللوح، نزل إلى البرّ، ربط القارب إلى شجيرة ثم أخذ بكلّ هدوء حقيبة ظهر أنطونيو وأنزلها إلى الأرض.

«هنا نزل!» أعلن مبتهجًا.

كان أنطونيو مرتبًا بعض الشيء، لم يكن قد فهم أنّ ثمة محطة، وفوق ذلك لم يبذل هناك ما يبذلها، لكنه تبع عذاب الذي كان قد نزل يهزّ ذيله مسرورًا. ناول غامبوني أنطونيو علبة بيرة داعيًا إيّاه إلى الجلوس على جذع ساقط، وانتظر أن تقضي البهيمة حاجتين صغيرتين عند قدمي شجرة كسافا، ثم صعد إلى القارب، سحب اللوح ونادى الكلب بصفارة، فقفز بنعومة إلى السطح بينما كان المحرك يطقطق مبتعدًا عن الشاطئ.

«رحلة جميلة جدًا، جميلة جدًا. الرحلة على النهر انتهت، أنت تنتظر ويأتي ابن عمي ليأخذك بالجيب. جيب جميلة جدًا، رحلة عودة مريحة جدًا. سعر ممتاز.»

كان أنطونيو مذهولًا: «لكن كيف؟ ماذا يعني هذا؟ هل جنت، لا يمكنك أن تتركني هنا! لقد دفعْتُ ثمن الذهاب والإياب! عُد فورًا! لا يمكنك أن تتركني هنا!!!»

«اهدا، ابن عمي يصل قريبًا. سعر الذهاب فقط بالقارب، سعر ممتاز، رحلة جميلة جدًا، قارب جميل جدًا. بعد قليل جدًا يصل ابن عمي، اهدا. اهدا، شابّ نجيب، جيب جميلة جدًا.»

كان صوت غامبوني يبتعد من قبل، والدرب الذي لا يكاد يُرى، المؤدي إلى الفسحة، كانت خالية مدى البصر، والغابة تهدر. كان عذاب ينبح، وكأنه يودّعه.

2.2 الضجيج

كانت الجيب تثب وتثنّ، ترتفع وتسقط على حدبات الأرض كسفينة بين الأمواج. أو لعلّ تلك الأيام الثلاثة المتتالية التي قُضيت في القارب هي ما جعل أنطونيو يشعر كأنه ما يزال فوق الماء. الرائحة التي كانت تُشبع الهواء هي ذاتها، كثيفة وثقيلة: كان قد ظلّها رائحة النهر، ذلك النهر العكر البطيء الذي كان يلتفّ كتعبان مائل إلى الاصفرار بين جدارين من الأوراق، لكنّه أدرك أنها كانت بدلاً من ذلك رائحة الغابة، كما كان من الغابة ذلك الضجيج الذي يلقّه بلا انقطاع منذ أن انطلق من مونتي دورادو.

كان طول عمره يظنّ ماكابا مدينة صاخبة، حتى إنه كان يعدّ اللحظة القصيرة بين أن يضع السماعات على أذنيه في الإذاعة وأن يبدأ البثّ هديّةً متناهية الصغر يمنحها لنفسه في كلّ مرّة: ثابتيان، ثلاث، من الصمت التام. الصمت الوحيد منذ أن يفتح عينيه صباحاً فيجد مذياع الجارة يزق بصوت حادّ في الطابق الأسفل، بينما تكس ماربيل الفناء مرجعةً بصوتها مختارات المغنّية الأوبرالية التي لن تصيرها أبداً، ومن النوافذ المجاورة لنوافذه يترّ تلفاز العجوز بينيتو، المفتوح في كلّ ساعات اليوم، خلفيةً متواصلة غير مفهومة من كلمات وأنين وطلقات.

ومع ذلك كان صمت ماكابا، بالمقارنة، صمتاً أخذ يكاد يحنّ إليه وسط هذا الهدير المتواصل من الأصوات. أترى، المرء لا يفكر في هذه الأشياء أبداً، يتخيّل الغابة سنوات، ينظر إلى الصور، لا يقدر إطلاقاً أن يرى كيف هي حقاً – ذاك مستحيل تماماً – لكنه يقترب بما يكفي من كلّ هذه الخضرة، هذا الظلّ، تلك النباتات المتسلّقة وتلك الأزهار ما قبل التاريخية المبلّلة بالرطوبة، ومع ذلك لا يفكر أبداً في الأصوات: لا يرى الضجيج في الصور، ولا تسمع أيضاً هذه الرائحة، كأنها لحيوان هائل متعرّق مغطى بالطحلب.

لم تفاجئه، طبعاً، تلك المناورة في البداية لانزاع بضعة نقود إضافية منه: كان معتاداً على هذه الأشياء منذ أن وُلد، حتى لو ظلّت تضايقه قليلاً. الذي كاد يفاجئه، على العكس، أنّ الجيب وصلت بعد ساعة ونيف من اختفاء غامبوني: أن يتأخّر شخص ساعتين، وفي أغلب الأحوال ثلاثاً، كان هو القاعدة، وأن يكون التأخّر ساعة وربّما فحسب استثناءً غير متوقّع.

كان قد أمتعته، في البداية، أنّ بيبي – هكذا قدّم نفسه – كانت إلى جانب مقعده قنينة بينغا يأخذ منها رشقات سخيّة، تماماً كما وجد طريقاً سلوكه المتبجّج، وقبّعتة الرثّة، وشاربه المتعجرف: «هيا يا زعيم، انطلقنا إلى الغابة!»

عمر الجيب المبعّجة الذي يتعذّر تحديده، المطلية على عجل بأحمر غريب، كان قد عدّه من المسلّمات، وكذلك أنّ السائق يقود بقدمين معقدتين نصف مدسوستين في شهبش: عملياً كان الجميع يقودون هكذا، وإن لم يعجب ذلك أنطونيو قطّ.

كان قد فتنته تلك الدرب التي اقتحمها بيبي بغطرسية، وهي في الواقع مجرّد أثر باهت، ثغرة أزيلت أشجارها الغليظة إزالةً سطحية، وكان على الجيب فيها أن تتقدّم بشقّ الأنفس في الأدغال السفلى، شاقّةً طريقها بين الأعشاب والشجيرات والأدغال المقتلعة. كان قد فكر متحمساً أنه صار أخيراً في الغابة، أنه أخيراً يعيشها حقاً، ها نحن ندخل في الكثافة، ولو لمقطع قصير، أخيراً أنا هنا داخل الغابة، وحدي (مع بيبي، لكنه لا يهم)، بلا سائحين، أخيراً أستطيع أن أنظر وأن أتنعم عن قرب بهذه الأشجار، بهذه الطبيعة كلّها، بالروائح، بالطيور، بالأصوات.

لم تجده العوائق المتكرّرة على غير استعداد، ولا الاضطرار إلى النزول ليشقّ طريقه بالساطور للالتفاف حول جذع ساقط أو تشابك شجيرات يسدّ الممرّ. ولم يتفاجأ أيضاً – لم يكن سائحاً، هو، فقد وُلد على مقربة من هنا – حين وصلا أمام ذلك المستنقع الذي من المؤكّد أنه لم يكن هناك قبلاً: معلوم، حين تمطر تتسع الأنهار، تفيض، تُنشئ تفرّعات وبرّكا أسنة تختفي بعد أن ينقطع المطر، أو أحياناً تبقى هناك سنوات كاملة.

حين انحرف بيبي ليلتفّ حول المستنقع بمنعطف عريض جدّاً إلى اليسار بقي هو هادئاً، هذه أشياء عادية في الغابة.

لكنه أخذ يقلق قليلاً حين ظلّ بعد ساعات يحاذيان الحافة المتقلّبة لذلك الماء الموجل. حين انطلقا كان الصباح، وكانت الشمس تضيئهما من الأمام، ترتفع شيئاً فشيئاً من الضباب فوق صراخ البغاوات والطوقان. ثم انحرفا للالتفاف حول

ذلك البانتانال فصارت الشمس على يمينهما، شمس وصلت رويدًا رويدًا إلى الذروة وأخذت تنحدر: لو كانا قد اتبعنا الاتجاه الأول لوجب أن تكون الآن خلف ظهريهما، وبدلاً من ذلك كانت على اليسار، منذ زمن طويل. فكّر أنطونيو في الأمر طويلاً، لم يكن بارعاً في هذه الأشياء وكان حسّ اتجاهه دوماً بين الفطيع والريء. لكن بين جدارين من الخضرة يكادان يكونان غير مميّزين، ولا شيء يُفعل سوى الوثب فوق تلك المقاعد الفطيفة المحدبة التي كانت قد أوجعت مؤخرته أشدّ ممّا لو ضُرب بالعصي، وكلّ الوقت للنظر حوله، بعد قليل ينتبه المرء. هكذا تسلّح بالشجاعة ليُلْمَح إلى بيبي: «أمم... طويلة جداً هذه الالتفافة، بسبب المستنقع، أليس كذلك؟»

«نعم، طويلة جداً. كبير جداً هذا المستنقع، طويل جداً نعم، جداً.»

لكنه لم يكن قد نظر إليه وهو يتكلّم: كان بيبي يزداد صمّاً في كلّ لحظة، وكان معدّل رشقات البينغا يتزايد على نحو مقلق. شربها كالماء شيء عادي عند كثير من الناس، لكنها في الحقيقة ليست ماءً، وحتى لو كنت معتاداً عليها فهي لا تحسّن التركيز ولا ردود الأفعال بالتأكيد.

ومضت ساعة أخرى، بين صرير وهزّات، وما تزال الشمس على اليسار وتواصل الهبوط. كانت قد وقعت انحرافات قصيرة فجّة (تجارب، محاولات؟) أجهضت فوراً أمام الحصن المنيع من الأوراق، ثم انطلق من جديد، يزداد ترنّجاً على حافة ذلك الطين العكر. كان بيبي منحنياً فوق المقود، عيناه محمّرتان والقنينة قد صارت شبه فارغة، وأخذ أنطونيو يقلق على محمل الجدّ: «حقّاً طويلة إلى حدّ ما هذه الالتفافة... بالتأكيد الأمطار، فروع النهر... لكن في النهاية على كلّ حال نصل، أليس كذلك، إلى الطريق، كيف يُسمّى، الطريق 210، نحن فقط ندور دورة طويلة بعض الشيء، بعدها نصل، صحيح، نصل إلى الطريق؟»

«بالتأكيد، دورة طويلة جداً. مستنقع كثير. نصل، نعم... بالتأكيد، اهدأ. بيبي يعرف الطريق، سلكتها مرّات لا تحصى، سلكتها. لا تقلق يا زعيم من المستنقع: أعرف الطريق تمام المعرفة، اهدأ، انظر، أريك، أعرفها.»

يدا بيبي تزدادان ارتجافاً، القنينة التي صارت فارغة تتدحرج رنيئاً صعوداً وهبوطاً على الأرضية، الشمس تهبط أكثر فأكثر، لا أثر لدرب، مجرد حافة المستنقع وكلّ ذلك الرنين من أصوات، من صراخ، يا إلهي أين أوقعت نفسي، هذا سكران تماماً وأنا متيقّن الآن أنه أضاع الطريق، وكنت غيباً حقّاً لأنّ أحداً لا يعرف أين أنا، الآن هذا الأحقق سيغفو ورأسه فوق المقود، لم يكن يريد سوى نقودي لكنه لا يعرف الطريق، لقد ضلّ وكلّما هبطت الشمس اشتدّ الضجيج، هذا أيضاً لم أكن أعرفه، الغابة لا تستريح أبداً.

مهما كان مضطرباً لم يعد أنطونيو يجرؤ على مخاطبة بيبي الذي بدا الآن شديد التركيز على يديه وناقل السرعة والمقود، شديد التركيز لكنه غائب الذهن، وكانت الشمس تزداد انزياحاً إلى اليسار، تزداد خطأ، لعلّ الأفضل أن نتوقّف، سأقترح عليه ذلك الآن، لنرّ، إنه سكران ولا بدّ أن معه سكّيناً، حسناً سأقترحه عليه على أيّ حال، هذا المستنقع عبثي تماماً. وفجأة الطقطقة، الضربة، ربّما جذع لم يُرَ أو حفرة، دورة كاملة، الارتطام الرهيب، التحطّم. ثم توقّف كلّ شيء، تقاطر سائل، وضجيج الغابة.

2.3 الغابة

رغم جهده لم يقدر أنطونيو أن يتذكر بدقة اللحظة التي ابتعد فيها عن الجيب المقلوبة: كان مصدومًا من دون شك، وربما كان قد ضرب رأسه أيضًا. كان يتذكر أنه نهض واقفًا، مرضوضًا، مذهولًا، بعد أن قُذِفَ بعيدًا وهبط مبعثرًا وسط الشجيرات. كان يتذكر الجيب، عجالاتها التي ما تزال تدور متمهلة، يتذكر الوعي المخدر على نحو غريب بأنَّ بيبي لم يكن ممكنًا إلا أن يكون ميتًا، مسحوقًا هناك تحتها. لكنه لم يكن يتذكر كيف قرَّر أن ينطلق مشيًا ليليل الطريق 210، ولا يتذكر على أيِّ أساس اختار الاتجاه الذي سار فيه.

حقيقية ظهره لا بدَّ أنها كانت قد قُذِفَت خارجًا معه ولا بدَّ أنه وجدها والتقطها لأنه وجدها على ظهره حين عادت أفكاره، ربَّما بعد ساعة (نصف ساعة، ساعتان؟)، إلى شيء من التماسك ووجد نفسه يسير تحت وابل من المطر الغزير في أكثف أدغال تخيلها في حياته، ولا فكرة له سوى بلوغ ذلك الطريق الملعون.

تذكر بغموض أنه جال حول المركبة باحثًا، على نحو لا معنى له، عن قبَّعته، لكنَّ التفكير في الساطور لم يخطر له إلا بعد أن كان قد قطع بضعة أمتار سائرًا. عاد أدراجه لكنه فهم في الحال أنَّ لا سبيل إلى بلوغه، مدفونًا تحت حطام الجيب مع بيبي وقنينة البينغا. حين أعاد التفكير في الأمر بصفاء أكبر بعد ساعات أدرك أنه كان عليه أن يحاول على الأقل: كان شقَّ الطريق في تلك الغابة كابوسًا، والآن وقد أخذ الليل يهبط، كانت فكرة أن يكون سلاحه الوحيد سكين التخميم الصغيرة تجعله يشعر بعدم أمان كبير.

لسبب مجهول كان، وهو يغادر الجيب، قد أقنع نفسه أنه في غضون ساعة، ساعتين على الأكثر، سيعترض الطريق، لكنه كان قد أخذ الآن يفهم أنَّ الأمر قد يستغرق أكثر من ذلك بكثير، بكثير جدًا.

حمد السماء أنه كان قد احتفظ باثنتين من الإيمبانادا المشحمة التي كان ذلك المخادع غامبوني قد أطعمه إيَّاهَا غداءً وعشاءً طوال أيام إبحارهما الثلاثة. تلك، ونصف قنينة ماء، وحلواه المفضلة بنكهة الكرز، كانت كلُّ مؤنَّته، وبينما كان يفكر بغموض أنه ربَّما كان عليه أن يتوقَّف لقضاء الليل – سيتوقَّف المطر، بالتأكيد، لكنَّني لن أقدر على النوم من المؤكَّد، من يدري كم من الحيوانات، اسمع كيف تصرخ تلك القروء، هل يصطاد الجاكوار في الظلام؟ – خطرت له الفيجوادا كما كانت تصنعها آرماندينيا، ذلك المرق الأسود المدخن، وقطع اللحم الناضجة جيِّدًا، وشرائح البرتقال تزيينها، لكن أيضًا الطاولتان الصغيرتان من الفورميكا المكسرة، والكؤوس مشكوكة النظافة، ورائحة العرق والبصل المنبعثة من آرماندينيا البدينة جدًّا، حتى شارباها، بدا له كلُّ ذلك رؤية من الجنة. ما إنَّ أعود، ما إنَّ أجد الطريق 210 ووسيلة انتقال ثمَّ أعود إلى البيت، ما إنَّ أعود أذهب لأتخيم نفسي فيجوادا وأسكر بالبينغا حتى أكثر من بيبي المسكين، ذلك المجرم السكير الذي لم يكن يعرف حتى الطريق، رحمه الله، من يدري إنَّ كانت له أسرة يا للمسكين، عليَّ أن أبلغ الطريق بسرعة، أن أرسل من يدفنه.

2.4 اللقاء

كان قد مشى طوال اليوم، وفي جسده مجرّد إيمبانادا صارت يابسة منكمشة، وعلبتين من الحلوى المطاطية بنكهة الكرز، وثمرتي جوز هند، الثمرة الوحيدة بين كلّ ما رأى التي لم تثر لديه الشكّ في كونها سامّة. كان جائعًا، عطشان، ومتعبًا جدًّا، لكنّه قبل كلّ شيء كان قد أخذ يخاف حقًّا. كان قد أعاد الحساب مرّات كثيرة، لكنّ الوقت قد حان للاعتراف بأنّه لو كان قد انطلق من مكان الحادث في الاتجاه الصحيح لكان عليه عندئذ أن يصادف علامة ما على الحضارة منذ زمن. لم يكن يريد بأيّ ثمن أن يقول لنفسه إنه ضاع – ضائع في غابة الأمازون، يا إله كلّ القديسين، في غابة الأمازون، هل نجا أحد قط ممّن ضاع هنا، يا يسوع الساطع، لماذا أنا بالذات، لماذا أنا – لكنه لم يكن يقدر أن يتوهّم كثيرًا في هذا الشأن.

تلك التي كان يتبعها منذ ساعات كان يمكن أن تكون دربًا، مسلّكًا، أثرًا، كما كان يمكن ألا تكون شيئًا من ذلك إطلاقًا. كان من الممكن تمامًا أن تكون تتابعًا محضّ مصادفة لمقاطع من نباتات أقلّ كثافة، ومسالك حيوانات، وبقعًا من أعشاب أقصر لسبب مجهول.

ثمّ إنه لم يكن له بديل، فحتى لو قرّر العودة لما قدر أبدًا أن يعود أدراجه في الطريق الذي سلكه في ذلك اليوم والنصف. كان حرّ الهواء الرطب العكر الطينيّ قد ألصق قميصه بجسده، لكنّ خلعه وعرضّ سنتيمترات أخرى من الجلد العاري للحشرات كان غير وارد: لم يكن ليصدق أبدًا أنه يمكن أن يوجد في العالم كلّ هذا البعوض.

كان يدرك أنّ المساء سيهبط بعد قليل، ولم يكن يحتمل فكرة ليلة أخرى كالتي مضت، جالسًا على حقيبة الظهر وظهره مستند إلى جذع، غارقًا في ظلمة تامة مطلقة لم يكن قد ظلّ يومًا بوجود مثلها، بعينين مفتوحتين على اتّساعهما عند كلّ ضجيج وحفيف – وكان هناك ما لا نهاية له من الضجيج والحفيف والأصوات والزقزقة: بدت الغابة أحيًا في العتمة منها في النهار.

وأن يومض بالمصباح الكهربائي بلا توقّف (إلى متى ستصمد البطاريات، الأفضل أن أحتاط بها) لم يكن يفيد في شيء: كانت شفرة الضوء الصغيرة لا تظهر سوى جذوع وتشابك من الأوراق.

عليّ أن أبني لنفسني مأوى، فكّر، من أغصان: لن يفيد في حمايتي من شيء، بالتأكيد، لكن لعلّي أشعر بطمأنينة أكبر، لعلّي أقدر حتى أن أنام. يمكنني أن أصنع لنفسني سقّا من الأغصان ثمّ أشرب رشفة ماء وأكل آخر حلوى مطاطية. من الماء ما يزال عندي بقدر إصبعين في قاع القنينة، لا يمكنني أن أشرب أكثر من رشفة في المرّة (حتى أجد ماءً آخر يبدو صالحًا للشرب، حتى أصل إلى مكان ما، حتى تمطر) لكن حين تهبط الشمس أشرب رشفة، ليس قبلها، الأفضل ألا أفعل رغم أنّ فمي صار كالإسفلى وحقيبة الظهر تزداد ثقلًا في كلّ ثانية.

شعر بشيء ما بين رقبته وكتفه، فمدّ يده شاردًا ليزيل ورقة أو غصينًا، فالتقت أصابعه شيئًا هائلًا باردًا وحيًّا. بصرخة رعب رفيعة قذف بعيدًا عنكبوتًا بحجم كفّه، وكاد يموت اشمزازًا إذ أخذ يركض مذعورًا. لم يقطع سوى أمتار قليلة، كانت حقيبة الظهر تقفز ثقيلة على ظهره وقلبه يخفق بجنون. توقّف، ألقي حقيبة الظهر وجلس عليها، يرتجف من الإرهاق، من الخوف، من التقرّز.

هذه القصة لن تنتهي نهاية حسنة، هذا ما أعرفه. أيّ طبيعة، وأيّ انسجام بين الإنسان والكون، وأيّ استعادة للإيقاعات البدائية، سأموت في هذه الغابة اللعينة، أموت هنا ولن يعرف أحد أبدًا أين انتهى بي المطاف، أيّ طبيعة، سأموت هنا جوعًا وعطشًا، وكم يستغرق الموت من وقت، المرء يموت عطشًا أولًا، هذا معروف، وما زال عندي من الماء بقدر إصبعين، لكن العناكب، لم يخطر لي أمرها حين كنت أفكر في الطبيعة، ليتّه كان جاكوارًا – يا إلهي، لا بدّ أنّ هنا جاكوارات – جاكوارات أفضل، لكن ليس العناكب، لا أريد أن أموت وقد التهمتني العناكب، إذن فليكن ثعبان، مثل تلك التي كانت جدّتي تحدّثني عنها، لا تكاد تتمكّن من قول اسم يسوع المسيح كاملاً حتى تكون ميتًا، ذلك أفضل من العناكب. نظر حوله، في العشب الكثيف، ليرى إن كان الثعبان قد كمن هناك من قبل. وأخذت أفكاره تتفكّك، الحرّ، الجوع، الإرهاق، العطش. أمسك رأسه بيديه، ومرفقاه على ركبتيه، وربما كان خيرًا له أن يدع نفسه يموت هناك، فماذا كان بوسعه أن يفعل، على أيّ حال.

كان صف من النمل الغليظ يجري كجدول صغير على بُعد قليل من قدميه، فأخذ يحدّق فيها دون أن يراها حقًا. كانت تروح وتجيء حاملةً البذور والأوراق، وأنطونيو يراقبها تجري وتعدو ويفكر، بينما كان خفقان القلب يتوقّف والتنفس يعود رويدًا رويدًا إلى طبيعته، يفكر بغموض أنّ لعلّها تُؤكل، كان قد رأى ذلك في فيلم وثائقي – يا يسوع، يا للجوع، يا للعطش – لعلّه يمكن التقاطها بعرزها في عود ثمّ شيّها بالولاعة، الآن أبحث عن عود طويل ورفيع بعض الشيء، هيّا يا أنطونيو، خيرٌ على أيّ حال من البقاء هنا لأموت، دعني أبحث عن عود. رفع رأسه فرأى على بُعد نصف متر منه الساحرة.

بقي مسمرًا، مدهوشًا: لم يكن قد سمعها تصل إطلاقًا، لم يسمع حركة، ولا صوتًا. للحظة ظلّها هلوسة، لكن لا، كانت حقيقية وواقعية، عجوزًا مجعّدة ذابلة إلى حدّ هائل، عارية إلّا من ورقتين معلّقتين على وركيها، وكتلة متشابكة من شعر أبيض ورماديّ مضافور بأغصان صغيرة وحبّات وعظام دقيقة. وبسلة من نوع ما معلّقة على ذراعها مملوءة بالأعشاب والقشور، كانت تنظر إليه مسمرًا، هادئة تمامًا، لا يكاد يلمع في عينيها الصغيرتين السوداوين اللامعتين كالنقط سوى وميض فضول مستمتع. الغريزة الأولى، الفرار، كانت أغبى من أن تُتبع، وكان إدراك ذلك يسيّرًا. بقي حيث كان، ينظر إلى الساحرة بينما أفكار أخرى (ليست روحًا من أرواح الغابة، ليست كذلك لأنها غير موجودة، إنها كائن بشريّ) تشقّ طريقها بصعوبة داخل وعيه، وما دامت في الحقيقة امرأة – ماء، طعام، مأوى من العناكب – أدرك أنها فرصته الوحيدة، الأخيرة.

كانت الساحرة تنظر إليه ساكنة، تفحص كلّ تفصيل من شعره الأشعث، ونظّارته الشمسية المعوّجة، والعرق الذي يبيلّه، ورائحة اليأس والضياع التي كانت تفوح منه.

مضى وقت، ثمّ تحرّكت العجوز: التفتت وانطلقت سريعة الخطى نحو وجهة ما. كان أنطونيو ما يزال مترددًا، بقيّة من نيّة ترك نفسه يموت كانت تشدّه إلى مكانه، لكنّ المرأة بعد خطوات قليلة استدارت ونظرت إليه ثابتة في العينين، بتلك العينين اللامعتين اللتين كانتا تسخران منه قليلًا. ثمّ استأنفت المشي، فالتقطت حقيبة الظهر وتبعها.

مشيا ربّما ساعة، ربّما أكثر، كان قد فقد الإحساس بالزمن تمامًا واكتفى بوضع خطوة خلف خطوة متبعًا دينك الردّفين الذابليين اللذين يتحرّكان برشاقة غير متوقّعة. لم تلتفت هي بعد ذلك قطّ، لم تكن بحاجة إلى ذلك: كان هو أشدّ ضحيّجًا بمراحل، كانت الساحرة تعرف أنه يتبعها دون حاجة إلى أن تراه.

بدأت الغابة غير مميّزة ولانهائية، لكنها انفتحت فجأة تمامًا: فسحة نبعت من العدم، وأكواخ ودخان وسرب من الأطفال يركضون في كلّ اتجاه صارخين كعصافير. لم يكذب يلقى نظرة شاملة حتى ضربه شيء ما في صدره ضربة مباشرة، ضربة هراوة قذفته، بحقيبة ظهره وكلّ شيء، على مؤخّرتة إلى الأرض.

كان الأطفال يضحكون ملء أشفاقهم من ذلك الرجل الأخرق الذي أسقطته كرة من الحبال النباتية المجدولة، لكن كلّما خفتت الضحكات حلّ محلّها الفضول: ما ذاك الكائن، الأبيض الشاحب السخيف الغريب، من يدري أين وجدته امرأة الطبّ.

أحاطوا به مهتمّين حذرين، وطفلة صغيرة جدًّا فمّها ملطّخ بالطين والفاكهة اقتربت لتلمس، خائفة وجريئة، جلد ذراعها.

أطلقت الساحرة بصوت رفيع أمرين قاطعين فأفسح الأطفال له مكانًا: أومأت له، فنهض أنطونيو من التراب المدكوك وتبعها نحو ظلّ كوخ قائم في الطرف الآخر من ذلك الميدان المستدير.

2.5 التلامس

كان الكوخ مصنوع من الأغصان والطين شديد العتمة، وبعد لحظات فحسب، حين اعتادت عيناه الظلام، رأى أنه أفسح بكثير ممّا بدا له، وأنّ في داخله ما لا يقلّ عن عشرين أو ثلاثين شخصاً جالسين، مزيّنين على نحو متنوّع برسوم بيضاء وداكنة وبريش ببغاوات. بينهم – وكانت الوحيدة التي ترتدي قلادة طويلة ممّا بدا له أسناناً – امرأة عجوز جدّاً، من الانكماش والتجعد بحيث تجعل العجوز التي وجدته تبدو فتاة ناضرة. كانت هذه في تلك الأثناء تلقي ما بدا خطاب تقديم قصيراً، كلّ نقيق وغردات، وفكّر أنطونيو أنّ لعلّ من اللائق أن يقول شيئاً، لعله كان قد مرّ من هناك أحد، ربّما مبشّرون، لعلّ من الممكن أن يفهم هؤلاء السكّان الأصليون لغته: «أمم، أنا سعيد جدّاً أنّي وصلت إلى قريبتكم الجميلة وممتنّ لترحابكم اللطيف، وأشكر أيضاً هذه السيدة اللطيفة التي رافقتني إلى هنا و... وأنا متيقّن أننا سنتفاهم تفاهماً تامّاً، وأنّ صداقة جميلة ستنشأ بيننا.»

الأفضل أن يكون حذراً، لم يكونوا يبدون عدائيين لكنه كان قد لاحظ موضوعاً هناك في العمق رماحاً وسهاماً كثيرة، وجميع الرجال يحملون معلّقة على خواصرهم تلك السكاكين الكبيرة من الحجر والعظم: فكّر أنه قد خطرت له حقّاً فكرة ممتازة حين ركّز على موضوع الصداقة.

أدرك في الحال مع ذلك أنّ كلماته مرّت دون أن يلحظها أحد إطلاقاً: لم يطرف لأحد من الحاضرين جفن ولم يبدُ أدنى علامة فهم، اكتفوا بمراقبته بانتباه شديد.

ثمّ نعتت الشيخة بشيء ما فنهض رجل وشدّ حقيبة ظهره، مرّة، مرّتين. فهم أنهم يريدونه أن يخلعها، وحين سحبها أخذها الرجل ووضعها على الأرض أمام تلك التي تخيل أنها نوع من ملكة. مدّت هي يداً صغيرة معقوفة وأخذت تعبت بالأبازيم بأصابعها الصغيرة تلك الشبيهة بأصابع العصافير. اقترب أنطونيو بحرص – أر نفسك حريصاً ومؤدّباً، إنها أوّل ملكة تصادفها في حياتك لكن معلوم أنّ من حسن الأدب ألا تغضبهنّ، من يدري إن كان ينبغي أن أومئ بانحناءة، من يدري إن كان متّبعاً – وفكّر أبازيم وأبازيم صغيرة وسحّابات. عندئذ أمسك الرجل الأوّل حقيبة الظهر وقبلها رأساً على عقب بكلّ بساطة، أخذاً بعدها غرضاً واحداً في كلّ مرّة ليقدمه إلى العجوز التي كانت تفحصه بانتباه قبل أن تمرّه إلى من يجاورها.

كلّ غرض على حدة، حذاء، سروال داخلي، موسى حلاقة، جورب، مُرّر من يد إلى يد، لمس، هُزّ، قلب، شَمّ بعناية. كان أنطونيو شديد القلق على آلة تصويره، لكنها تركت الجميع غير مكترئين إلى حدّ ما وأبعدت سريعاً جانباً. وجد الحاضرون بالمقابل أفلامه الفوتوغرافية مسلية جدّاً: حين فتحوا الأغطية الصغيرة وأخرجوا الأسطوانات ذات الألوان الزاهية الموسومة كوداكروم وفوجيفيلم علّقوا عليها طويلاً، ضاحكين ضحكات كثيرة.

والآن وقد مرّ كلّ محتوى حقيبة الظهر بين أيدي الجميع وتمّ التحقق منه كما ينبغي، أخذ أنطونيو يشعر بغباء ما وهو واقف هناك يتفرّج، لكنه كان قد استقرّ في ذهنه أنه أمام سيّدة متوجّهة، وكان يخشى ألا يكون من الذوق السليم أن يجلس دون إذن. في تلك اللحظة بالذات أطلقت غرّة سريعة أمرة، ف شعر بمن يشدّ ببعض الخشونة طرف قميصه. كان الرجل، شاباً إلى حدّ ما وعرضياً (حاجب، رجل بلاط، قائد حرّاس أم – حتى – ولي العهد؟) يشدّ ويشدّ، حتى أدرك أنطونيو أخيراً أن عليه أن يخلعه. لكن بالتأكيد، تفضّل. لكن كيف، حتى السروال؟ حسناً، لا تشدّ، سأخلعه، انتظر أن أخلع الحذاء والجوربين، لحظة واحدة فقط، ها قد فعلت... لا لكن، السروال الداخلي... بالله عليك ماذا تفعل، هكذا ستمزّقه... حسناً، حسناً، سامحيني يا صاحبة السموّ، لا تغضبي، ها قد خلعتّه، أراضون الآن؟

في الواقع، الآن وقد صار عاريّاً كما ولدته أمّه، صار الجوّ أكثر استرخاءً بشكل محسوس. ثمّ إنهم كانوا عراة هم أيضاً، ما عدا تلك الأوراق والقشور: ولعلّ رجلاً يرتدي ثيابه كان يبدو لهم شيئاً منحرفاً بعض الشيء. بهذا التفتيش كلّهم أرادوا أيضاً أن يتأكّدوا أنه ليس معي سلاح من أيّ نوع، فكّر، في النهاية ليسوا مخطئين تماماً. في حقيقة الأمر، الآن وقد تحقّقوا أنه غير مؤذٍ في المجل، بدا أنهم قد نسوه نسياناً تامّاً، يتناقلون القدور الصغيرة والأفلام والقمصان ولم يعد أحد يلقي إليه نظرة.

لكنه واقفاً هكذا، عاريّاً عريّ اليرقة، كان يشعر بأنه غير مؤذٍ أكثر من اللازم، لنقل أعزلّ تماماً. بحذر، وهو يراقب من زاوية عينه ألا تجد الإمبراطورة الأمر غير لائق، جلس في ركن، يحتضن ركبتيه.

بينما كان العجائز يثرثرون بودّ مجدولين في شعورهم أربطة حذائه وأقلامه الجافة، كان المساء يهبط، ومن الخارج بدا له أنه يشم رائحة لحم مشوي. سمع معدته تفرقر وفمه يمتلئ لعاباً. سيعطونني شيئاً لأكله، أليس كذلك؟ صرنا أصدقاء الآن، أفرغنا حقيبة الظهر معاً، ضحكنا من الأفلام، كلنا هنا عراة، عملياً بتنا شبه أسرة، سيطعمونني شيئاً، ستري. على أنني لا أعرف جيداً ماذا، ماذا يأكل هؤلاء الناس، تابير، ثعابين، أرماديلو؟ ولو كان أكل نمل بكل فروه لأكلته دون اعتراض، لم أعد أطيق من الجوع. وقد أصابتني أيضاً لحظة رعب، يا لي من غبي، حين أرادوا منّي أن أتعرّي مرّت في ذهني صورة الكرتون: القدر الكبير الذي يغلي فيه الرجل الأبيض، تصوّر يا لي من أبله، ما هذه الأشياء التي تخطر لي، أكلي لحوم البشر لم يعودوا موجودين إلا في المجلات المصورة الآن، أو ربّما، لكن ربّما، على أبعد تقدير في قبيلة ما ضائعة مجهولة في أعماق غابة الأماز... حسناً، الأفضل أن أعود للتفكير في التابير، من يدري إن كان طرياً، من يدري كيف يطبخونه.

أدرك أنّ المرأة المجاورة له كانت تمسك شاردةً في حضنها زوجاً من سراويله بينما تزقزق متحمّسة مع عجوز صغيرة إلى جانبها، كانت هذه قد دسّت في خصل شعرها الأبيض إحدى مواسيه ذات الاستعمال الواحد، وبين الحين والحين تعدّلها بغنّج. بدتا منشغلتين جدّاً وناسيتين له تماماً، فجرؤ على مدّ يد ليستعيد السروال. لم يكن قد تمكّن حتى من لمسها حين وثب، سريعاً كأفعى، عجوز قويّ البنية ليمسك يده، ملوّحاً تحت أنفه بثلاثين سنتيمترًا من نصل حجريّ لامع حادّ. تراجع أنطونيو رافعاً يديه وموضّحاً على عجل: «طبعاً! طبعاً! إنها لكم! طبعاً أهديتها لكم! وبسرور عظيم، أقسم، كلّ الثياب، الأحذية، الصابونة، الأقلام، كلّها لكم، وإنه لشرف وفرح لي أن أهديكم إيّاها ختمًا لهذه الصداقة الجميلة، الجميلة!»

انكمش في ركنه الصغير، عائداً يحتضن ركبتيه، مستسلمًا. سأهديكم كلّ شيء، انظروا، يكفي أن تعطونني على الأقلّ قائمة فأر لأقضمها.

2.6 القرية

لم تكن قوائم فئران، وإن كان لم يكن ليقدّر أبدًا أن يحدّد لأيّ حيوان يعود ذلك اللحم، الأسود الدهنيّ، الذي أحضره بعد دقائق ثلاثة أو أربعة من الفتيان والفتيات إلى الكوخ على صوانٍ من أوراق وأغصان مجدولة.

انتظر أنطونيو، وهو يكاد يغرق في لعبه، أن يتقدّم الجميع للطعام، ثم انتظر بعد، وبعد: لم تكن له أيّ رغبة في أن يرى تلك السكّين الكبيرة عن قرب من جديد. أخيرًا لاحظته السيدة موسى فأومأت إليه مشيرةً إلى اللحم، فأدار نظره حوله ورأى أنّ بعض الحاضرين الآخرين، ومنهم الملكة نفسها، يشيرون إليه أن يأخذ نصيبه.

انقضّ شاكراً على الصينية: كان اللحم مائلاً إلى الحلاوة، وقاسياً ليفياً كالحرير، لكن بدا له أنه لم يأكل قطّ ألذّ منه. في تلك الأثناء كان الفتيان قد أحضروا أنصاف جوز هند كثيرة، بعضها مملوء بالماء – الأفضل ألاّ أفكر من أيّ مجرّي مائيّ عكر طينيّ مخضّر يغلي بالتماسيح والعلاجيم والثعابين أخذه، لكن من يهتم، أنا عطشان جدّاً بحيث لن أفكر في الأمر إطلاقاً – وبعضها ممتلئ بمزيج دبق كالشراب بدا رفقاء مائدته مغرمين به جدّاً. حين ناولوه إيّاه تذوّقه ببعض الريبة، لكنه أعجبه على نحو غريب: عطر ومسكّر جدّاً، لم يتوقّف ليسأل نفسه أيّ نبات خُمّر ليصنعه، فلأشياء الحلوة لم يكن يعرف مقاومة، وامتنصّ منها رشفات طويلة كثيرة.

استيقظ مبلبلاً وقد علت الشمس على الأرجح، تسطع خارج الكوخ المهجور. أيّاً كان ذلك الخليط فلا بدّ من الحذر منه، قرّر وهو يحاول متعتراً النهوض، لم يكن يذكر أيّ شيء إطلاقاً بعد ذكرى أنه شرب منه الكثير.

نظر حوله: أغراضه، بما فيها حقيبة الظهر، كانت قد اختفت جميعاً، عدا دفتر الملاحظات الذي لم يثر اهتمام أحد على ما يبدو وكان قد ترك على أرضية التراب المدكوك. التقطه، وبرأس ما يزال يطرق مبلبلاً أشرف على العتبة: نساء وفتيات يذهبن ويجئن من الأكواخ، وكَمّ من الأطفال من كلّ الأعمار يركضون بجنون ذهاباً وإياباً في لعبة بالغة الحركة. مجموعة صغيرة من العجائز، بينهم الملكة الأم والسيدة موسى، جالسين في آخر الساحة، يعبثون بأغصان وقشور، صانعةً على الأرجح شيئاً ما. لم يرَ ولا رجلاً واحداً: على الأرجح كانوا في الصيد البرّيّ أو صيد السمك أو في تدبير شؤون أخرى من شؤون رجال الغابة.

ما إن رآوه حتى أوقف الأطفال اللعبة واكتظّوا حوله فضوليين، فتى شديد السمرة نحيل كان يحمل معقودين حول عنقه اثنين من جواربه غير المتطابقة، وطفلة صغيرة كان على رأسها سروال داخلي السماويّ. لم يكن أحد يُلقي أدنى بال إلى غريبه، بالطبع، لكنّ أنطونيو كان يشعر بعدم ارتياح حقيقي وهو مكشوف هكذا، لذا نزع برفق السروال الداخلي من رأس الصغيرة، فأطلقت صرخة بالغة الحدة وأخذت تزعق بأعلى صوتها.

أخرجت الصرخات إلى أبواب الأكواخ أمّين اثنتين مهّدتي الهيئة، وأنطونيو، مذعوراً جدّاً لكنه مصمّم على ألاّ يفلت قبضته، مزّق بسرعة صفحة من الدفتر الصغير وصنع في ثوانٍ قارباً ورقياً قدّمه للطفلة. نظرت إليه الصغيرة مرتبكة بعض الشيء لكن لحسن الحظّ كانت الصرخات قد توقفت فجأة، والسيدتان المطمئنتان عادتا إلى شؤونهما.

ما إن ارتدى السروال الداخلي حتى شعر أنطونيو بتحسّن، أكثر ارتياحاً بلا ريب، لكنه أدرك أنّ الطفلة تقلّب القارب بين يديها متأملّة إيّاه بانتباه: فيما بدا كان يعجبها كثيراً لكنها لم تكن تدري ما هو. بجانب الكوخ كانت بركة ماء كبيرة، وهو – متخيلاً أنه لو حاول أن ينتزع من يديها الهدية لأعادت الصغيرة تشغيل صقارة الإنذار – مزّق صفحة أخرى وصنع قارباً آخر وضعه على سطح الماء.

لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ حتى فهم الحشد الصغير من الأطفال، الذي كان يراقبه بأقصى انتباه، ما الموضوع: كانوا يضحكون ويغردون، متحمّسين ظاهرياً لتلك الزوارق البيضاء الصغيرة. في الحال تقدّم صاحب الجوربين، مادّاً كفاً صغيرة شديدة الاتّساح. بعد نصف ساعة كان نصف صفحات دفتره قد ذهب، وصار لكلّ طفل قاربه، وكان أنطونيو قد تلقّى عربونَ امتنان عوداً صغيراً مقشوراً، وحفنة حبّات، وضمفدعاً فيروزيّاً، وخنفساءتين.

وكان قد كسب رضا أطفال القبيلة جميعاً، رضاً بلا شروط.

2.7 الاستكشاف

بعد أن ترك الأطفال يخترعون سباقات قوارب في برك الماء، فكّر أنطونيو، ما دام قد استعاد سرواله الداخلي، أنّ من المناسب أن يحاول فهم أين انتهى بقيّة أمتعته. هكذا أخذ يتمشّي في الفسحة يلقي النظرات هنا وهناك في ظلّ الأكواخ الكبيرة التي كانت تحيط بميدان التراب المدكوك كلّ تقريبًا. كان يتحرّك ببعض الحذر، لم يكن متيقنًا تمامًا أهو ضيف أم سجين، ولم يكن يريد المخاطرة باكتشاف ذلك بأسوأ طريقة.

أول شيء رصده كان حقيبة الظهر، التي كانت مكتظة بالحطب حتى كادت تخفي المرأة الصغيرة التي تحملها على ظهرها. بعدها مباشرة جاء دور قميصه المفضّل الذي، معقودًا من طرفيه، كان قد علّق كأرجوحة صغيرة ويتأرجح أصفر يهدد رضيعًا. أمّا بقيّة ملابسه فلا أثر لها، من يدري ماذا صنعوا بها، وسائد، عائم، خرق غبار، أكياس للحبوب، من يدري. لكنه وجد في زاوية، مقذوفة جانبًا، صابونته: كانت تحمل بصمة عميقة لعضة، لكنّ طعم ماء الكولونيا لم يرقّ لأحد على ما يبدو.

في آخر الفسحة رأى أخيرًا ساعته أيضًا: كانت تلمع متدلّية من المعصم الغامق لفتاة ترضع طفلًا وُلد قبل ساعات. فكّر أنّ العجائز على الأرجح أهدوا الفتاة تلك الجوهرة الغريبة احتفاءً بالمولود، فكيف يمكن أن أنزعها منها؟

لكن لا، لن أنزع شيئًا، إنها ليست أشياء ذات قيمة كبيرة على أيّ حال، ليحتفظوا بكلّ شيء، يكفي ألا يغضبوا: حين يأتون للبحث عني بعد أيام وأعود إلى البيت سنرى، ربّما أحبّ أن أستعيد آلة التصوير على الأقلّ، سنرى.

بعد أن استنفد دون كثير جدوى ذلك الاستطلاع الأوّل للقرية – الذي لم يكن يتكوّن في الواقع إلّا من تلك الأكواخ الجماعية الستّ والفسحة التي تحيط بها – لم يكن أنطونيو يعرف جيّدًا ماذا يفعل. قرّر أن يتوغّل في الغابة على مسلك بدا له عريضًا ومطروقًا، كان الأطفال والفتيان يذهبون فيه ويعودون طوال اليوم: إن كان الأطفال يذهبون إليه فلا يمكن أن يكون بالغ الخطورة، أليس كذلك؟ كان هناك فرق مؤكّد بين أنطونيو والأطفال: هو حين يتحرّك على المسلك يُحدث ضجيجًا صاعقًا، أمّا الصغار فكانوا قد تعودوا منذ صغرهم على التحرك بصمت. إن كان ثمة حيوان مفترس في الجوار فهو يسدّ أذنيه بقوائمه من كلّ هذا الضجيج الذي أحدثه... لكن كيف يفعلونها هم؟ هذه أغصان يابسة، كيف لي ألا أدوسها؟ وكيف لا يتأذون في أقدامهم العارية، أكاد أعود أدراجي قبل أن أدوس شوكة (ثعبانًا مستترًا بين الأوراق، أم أربع وأربعين).

فجأة سمع أنطونيو غردات وصياحًا كان يمكن تمامًا أن يكونا أصواتًا ذكورية بالغة: من يدري، لعليّ وصلت إلى منطقة صيدهم، لنرّج أنّي لم أرتكب حماقة ما. بقي دقائق متردّدًا فيما يفعل، خائفًا أن يتحوّل اللقاء بالرجال إلى نوع من الصدام بين ذكور ألفا، لكن ما دام لا يمكنه أن يقضي بقيّة حياته واقفًا وسط الغابة، تسلّح بالشجاعة وخرج إلى العراء.

وجد نفسه في فسحة اصطناعية واسعة، مستطيلة تقريبًا، يحدها من جانبيين نوع من السياج يشبه سياج أكواخ القرية، وعلى حافّتها كانت بعض النساء وكثير من الأطفال ينظرون بانتباه في اتجاه واحد. تبع أنطونيو نظراتهم فوجد نفسه مقذوفًا في فقاعة من رعب خالص. رأى رجلًا يطلق صيحات مذعورة، وفي آخر الفسحة، نحو اثني عشر رجلًا يفرون في كلّ الاتجاهات. بدا لأنطونيو أنه يشعر بحقنة أدرينالين مباشرة في الدماغ، الذي عالج في غضون ثلاث ثوانٍ كلّ الأسباب الممكنة – وبعض المستحيلة – التي كان يمكن أن تكون قد أحدثت الهروب الجماعي. غزو جاكوارات، هجوم قبيلة عدوّ، شجار كبير (صحيح، لم لا شجار؟ إنهم سكّان أصليون لكن لا بدّ من وجود بلهاء مشاكسين بين السكّان الأصليين أيضًا، أليس كذلك؟)، الجيش الذي ظنّ أنّي قد خُطفت ويأتي ليحرّرني، هذا ربّما هو الجيش، يا إلهي إنهم يبيدونهم بسببي، انظر إلى ذلك الهنديّ كيف يضرب الكرة جيّدًا، لو كان عندنا نحن واحد يرسل عروضيات هكذا.

ماذا؟ سأل نفسه.

بينما كانت نبضات قلبه تتباطأ فجأة والشلل الجسدي يأخذ في مفارقتها، لاحظ أنطونيو أشياء عدّة: أنّ الفارين كانوا الذكور البالغين فحسب، بينما الأطفال يراقبونهم بانتباه والنساء يغردن فيما بينهنّ بانفعال لكن دون زعر إطلاقًا. وأنّ الرجل الصارخ كان قد ضرب نوعًا من الكرة بطريقة تذكّر كثيرًا جدًّا بعرضية طويلة. وأنّ الكرة كان يطاردها رجلان، بدا

أحدهما أنه استحوذ عليها. وأنَّ هذا الأخير صرخ بدوره فركض جميع الآخرين من جديد في أنحاء الفسحة. وأنَّ الصارخ الجديد ضرب الكرة (أقلَّ جودةً من الأوَّل، بدا لأنطونيو) ومن جديد دار صراع للاستحواذ عليها.

أين هي الكارثة؟ إنهم يلعبون. يا يسوع يا إلهي، إنهم يلعبون بالكرة.

بعد أيام قليلة كان الوضع قد استقرّ على نحو ما، ولو بطريقة مفارقة بعض الشيء. كان العجائز، والبالغون عمومًا، منشغلين دومًا بأشغال متنوعة، ومع أنهم لم يكونوا يقصدون تجاهله إطلاقًا، بل كانوا يراقبونه باهتمام مستمتع، فإنّ انعدام التواصل التامّ وكون أنطونيو، من وجهة نظرهم، غير قادر على فعل أيّ شيء إطلاقًا، كان يحبط مبادراتهم في كثير من الأحيان.

كان يظنّ نفسه موهوبًا في اللغات، لكنّ كلّ ما كان يقدر على فهمه كان الضحكات، دومًا على افتراض أنهم كانوا يضحكون.

كان قد لاحظ ذلك منذ الصباحات الأولى، لحظة الاستيقاظ: حين كان الرجال والنساء حوله ينهضون واحدًا تلو الآخر، كان هو يبقى مضطجعًا طويلًا مغمض العينين، فاتحًا أذنيه للعالم الذي يحيط به. ورغم أنّ سكان القرية كانوا كثيرين، فإنّ ما كانت أذناه تسمعه لم يكن صوت حشد، ولم يكن يكاد يبدو بشريًا. كانوا يتحاورون مطلّقين صفيّرًا، وصريرًا، وطققات باللسان ومن يدري ماذا أيضًا، وكانت النتيجة طبيعية الصوت على نحو مرعب. من داخل الكوخ، كلّ ما كان الدماغ يقدر على إعادة تركيبه كان أغاريد طيور، وضفادع، وربما قروذًا، وشلّالًا صغيرًا، ودفقة أصوات أكثر جفافًا كان يمكن أن تذكر بنقار الخشب، وأوراقًا ترتفع مع الريح، وعشرات الأصوات الأخرى التي كانت، مهما بدا لأذنيه مستحيلًا، تُكوّن لغة أولئك الناس.

في البداية كان قد ظلّها أصوات الغابة، وحين بقي وحده في الكوخ شدّه إحساس عميق بالوحدة: **لقد رحلوا جميعًا، تركوني هنا.** ثمّ تشجّع وخرج بدوره، مكتشفًا أنه ليس وحيدًا إطلاقًا: النساء منشغلات منذ الصباح بجدل الحبال النباتية وطحنها ونحتها، والأطفال عائدون من الجدول مبلّلين تمامًا يصرخون كعصافير أبي الحنّاء، وبعض الرجال واقفون يتهايمسون بطققات عميقة ونقيق قبل أن يغادروا القرية متجهين إلى من يدري أين.

أنطونيو، بلا كثير ما يفعله وبلا قدرة على التواصل، وجد نفسه في معظم الوقت يتجول في القرية، تحت أنظار سكّانها البقطة، وهم الذين كانوا قد اتخذوا سريعًا موقفًا أباويًا جدًّا إزاءه. كان مجرد التوغّل في باطن الغابة والابتعاد أمتارًا قليلة عن القرية مستحيلًا عمليًا بالنسبة إليه، وفي الأيام الأولى اضطرّوا إلى رعايته بكلّ الطرق: إطعامه، وسقايته، والدفاع عنه كثيرًا من الحشرات والثعابين السامة، حتى اتّفق العجائز على ما يفعل به. كان أنطونيو كطفل، ومع الأطفال كان عليه أن يبقى.

وأول ما أخذ يألفه كان بالضبط ضحكات الأطفال الذين وجد نفسه محاطًا بهم دومًا: كانوا كثيرين وصخّابين كالعصافير، وسريعي الضحك. حين كان يقترب من مجموعة الأطفال المنشغلة بمطاردة إحدى تلك الكرات المصنوعة من الأغصان، كانوا يتوقّفون فضوليّين، حتى يتقدّم أحدهم ويلمسه بطرف إصبع ثمّ يلتفت ويقول للجميع شيئًا بصوته الصغير الصارخ، مثيرًا ضحكات لا تُكبح. منذ تلك اللحظة فصاعدًا كان أنطونيو يُطوّق بضجيج زقزقاتهم غير المفهومة.

أخذ يتبع الأطفال في كلّ مكان: بفضل طفل اكتشف الفرع الثانوي الهادئ من النهر حيث كان الجميع يذهبون لأخذ ماء الشرب، وبفضل الطفل نفسه، صغير سريع العدو يقظ العينين، تعلّم مبكرًا استخدام نوع معيّن من الأوراق لشرب ماء أنظف قليلًا؛ وبفضل فتاتين صغيرتين تعلّم أن يميّز عشبًا على الأقلّ من الثمار والحبات القابلة للأكل، وأرتاه – بتكشيرات لا لبس فيها من الذعر والاشمئزاز – أيّها لا يجب لمسها إطلاقًا. ومع الأطفال كان يذهب لينتزع من النباتات الأوراق التي كانت تُصنع منها الكرات، وبفضل فتيتين أكبر سنًا استهدفاه بقذف حجارة دقيق بينما كان يتبعهما اكتشف أين وكيف كان يُعتبر صحيحًا أن يقضي المرء حاجته.

كان المساء في الغابة يهبط فجأة. كانت الشمس تنحدر نحو أفق لا يرى أبدًا، وحيث كان قبل دقيقة أرخبيل من بقع مضيئة ينير باطن الغابة، بعد دقيقة، ما إن تتغيّر زاوية الشمس بضع درجات، كان كلّ شيء يكاد يكون مظلّمًا. كانت هذه الظلال الفجائية قد فاجأت أنطونيو وهو عائد من النهر، حيث كان قد ذهب لينتعش وتأخّر يراقب فراشتين عملاقتين تتطاردان فوق سطح الماء. ما كان قبل قليل قد بدا له مسلّكًا عريضًا سهل السلوك جدًّا كان قد تحوّل في ثوانٍ إلى مدخل كهف مظلم. **على العينين أن تتعوّدا، لن يستغرق الأمر طويلًا** قال لنفسه متوقّفًا لحظة، فلم يلبث أن سمع صرخة حادة ورأى فتاة مفتولة العضلات تظهر من العدم وتضرب بعصا طويلة، بعنف، الجذع الذي كان على وشك أن يضع يده عليه شاردًا. لم يكن الصوت الذي أحدثته العصا صوت خشب على خشب، بل أقرب إلى صوت بيضة تنكسر وتتناثر في كلّ الاتجاهات. بنظره الذي شحذه الأدرينالين الذي دخل فجأة في دورته الدموية رأى أنطونيو تحت العصا شبّح عنكبوت متعدّد الألوان أكبر قليلًا من كفّه مسحوقًا على اللحاء. في النقطة ذاتها التي كان على وشك أن يستند

2.9 المحاولات

الأيام الأولى كان أنطونيو قد قضاها مجرد مراقب: كان قد وضع لنفسه هدفًا رئيسيًا هو ألا تأكله جاكوار، وألا تسحقه أناكوندا، وألا يموت مسمومًا، وألف «لا» أخرى، في انتظار بعثة الإنقاذ التي كان شخص ما (والداه؟ المدرسة؟ السيد إيناسيو؟) قد نَظَّمها من دون شك. وبينما كان ينتظر أن يأتوا ليأخذوه، تجوّل فضوليًا في القرية، مستغلًا هذه الفرصة الفريدة التي أُتيحت له ليعرف عن قرب أعراف وتقاليد هذا الشعب المختلف عنه إلى هذا الحد.

لكنه وضع لنفسه أيضًا معضلة أخلاقية: ما دام سيرحل قريبًا، كان يريد أن يؤثر في حيواتهم بأقل قدر ممكن. فمثلًا تساءل عما سيحدث لحظة وصول المنقذين. من الطريقة التي استقبلوه بها لم يقدر أنطونيو أن يفهم ما إذا كان أول رجل أبيض يرونه قط أم لا، لكن من المؤكد أنهم لم يروا كثيرين، ولا حديثًا: لا شيء في أسلوب حياتهم يوحي بأنهم احتكوا بتكنولوجيا العالم الحديث.

ومع ذلك، كلما مرّت الأيام، أخذ يفكر أن إنقاذه لعلّه في النهاية لن يكون بتلك البساطة. لعلّ الأمر كان سيستغرق أسابيع أو حتى أشهرًا قبل أن يجده: عندئذ أخذ يفكر فيما يمكن أن يعلمه لمضيفيه، علامة امتنان على استقباله (ربما لا بحماسة خاصة، بدا له أن بإمكانه القول، لكن على الأقلّ ليس بعدائية).

لكن الأمر، تحديدًا، لم يكن سهلًا إطلاقًا. من أوائل الأشياء التي خطرت له أهمية غسل اليدين. لكن هيّا اشرح لمن لا يتكلم ولا كلمة من لغتك، ويعيش من بعض الوجوه في ما قبل التاريخ، لماذا من المفيد فعل ذلك. هيّا اشرح لهم وجود الجراثيم. لم يكن تموين الماء مشكلة فيما بدا، لكن أنطونيو فكر على أي حال أن غسل اليدين كان يمكن أن يبدو في أعينهم هدرًا غير معقول، وقرّر أن يتغاضى.

أشياء كثيرة جدًا أخرى، تقريبًا كلّ الأغراض التي ترصّع حياته في ماكابا، كانت خارج النقاش: ليس لأنهم لم يكونوا ليفهموا استخدامها، بل لأنه هو لم يكن ليعرف كيف يصنعها. لا أعرف فعل شيء، فكر أنطونيو مرّة بعد مرّة في تلك الفترة، أحيانًا ضاحكًا من ذلك، وفي أغلب الأحيان بشيء من المرارة.

كان يمكنه أن يقترح ابتكارًا ما في طريقة إعداد الطعام، لكن من يدري، لعلّهم لا يملكون الإنزيمات المناسبة. أي اسم أعطاك السكّان الأصليون؟ “الذي يُصيب القرية بأسرها بالإسهال”. ثم في النهاية ماذا أعرف أنا عن كيفية إعداد إغوانة؟ كان يمكنه أن يبني سدًا صغيرًا في النهر القريب هناك، لكن ماذا لو صار بعدها مشربًا للجاكوارات؟ بالبحث في ذكريات مراهقته كان يمكنه ربما أن يدخل بعض المعارف عن العقد، لكن الأكواخ بدت متينة بما يكفي، وعلى أي حال لم يكّد يجد الوقت لصياغة الفكرة حتى خطر له اسمه الهنديّ الجديد المحتمل: «الذي أسقط كلّ شيء».

مزولة. المزولة لن تُحدث أضرارًا على الأرجح. لكن ما الذي سيفعله هؤلاء بمزولة؟ لعلّهم يمكن أن يستخدموها لضبط الوقت في مبارياتهم تلك في لعبة الكرة؟ أجل، هذا هو. يمكنني أن أدخل بعض الابتكار في رياضتهم. لا أرى موانع.

هكذا ذات يوم، بينما كان يفكر أي ابتكار يُدخل، تدرجت بين قدميه كرة الأوراق والحبّال النباتية والطين (كان يرجو أن يكون طينًا) التي ضربها طفل، وفهم ما الذي يودّ أن يهديه لأولئك السكّان الأصليين المضيفين إلى هذا الحد.

كان لديه شيء من فكرة عن كيفية صناعة الكرات في العصور القديمة، بفضل درس عن الموضوع كان قد أعدّه لتلاميذه قبل بضعة أشهر. لكن بين القول والفعل كانت هناك كابيبارا، أو تابير، أو حيوان آخر بالحجم المناسب كان عليه أن يستخدم أحشاه. ثم كانت مسألة اصطاده، وقتله، وشقّ بطنه، وتنظيفه. لو أردنا أن نكون حالمين، كانت تلك كلّها عمليات بدت له قابلة للتنفيذ. أما العملية الأخيرة، الجوهرية، فلا: ولا بكلّ تفاؤل هذا العالم كان يقدر أن يتخيّل نفسه ذا شجاعة على أن ينفخ في أحشاء تابير.

انتفض أنطونيو من أوهامه غير المثمرة ولاحظ أن أبا الخدود، الطفل الذي ركل الكرة، كان على بُعد خطوات منه ينتظر أن تُردّ إليه ليقدر على مواصلة اللعب. ناوله إيّاها أنطونيو بابتسامة حزينة وأدرك أن الدموع في عينيه.

حين أدار رأسه قليلاً رأى طفلة تمدّ إليه ثمرة. أتكون ثمرة العزاء؟ إن لم تكن، فينبغي أن تكون، ففكر أنطونيو وهو يتلذذ بمذاق القضمة الأولى، وقد شعر بتحسّن، لكنه غير قادر في الوقت نفسه على أن ينفى تماماً ذلك الإحساس بالعجز وانعدام الجدوى.

عند القضمة الثانية، بينما كان يمسك اللقمة في فمه أطول من المعتاد ليدرس مذاقها، انتبه إلى البذور فخطرت له فكرة. أخذ منها حفنة في يده، نظّفها بعناية من اللب، وأرى الطفلة كَفَه المفتوحة. انظري بانتباه يا صغيرة. انظري وتذكّري. حين انتقلت نظرة الطفلة من «رأيتُ» إلى «والآن؟» (أو هكذا بدا له)، حفر أنطونيو حفرة صغيرة في الأرض ودفن فيها البذور. من جديد، بحث بعينيه عن عينيها، منتظراً نظرة «حسناً». ثمّ أشار إلى الشمس، في العلوّ، المتسلّلة بين أغصان قبو الأشجار، وصنع سلسلة من الإشارات رجا أن يمكن تأويلها «ستمرّ أيام كثيرة». ألقي نظرة أخيرة على التلة الصغيرة التي تحتها ترقد البذور وأشر بإشارة «ستنمو نبتة» (وهي إشارة كان محبّ سينما مولع بأفلام الرعب يمكنه بسهولة أن يفهمها «يد ميت حيّ ستبزغ من التراب محرّكة أصابعها»).

عاد إلى ذهنه فيلم إيطاليّ كان قد شاهده قبل زمن، فيه رجلان يعودان بالزمن إلى الوراء لا يقدران على شرح أيّ شيء حتى لليوناردو دا فينشي. من يدري يا صغيرتي العزيزة، لعلّي شرحتُ أفضل منهما وأنتِ أذكى من ليوناردو، وإن تذكّرتِ، إن قدرتِ أن تفهمي ما أريثك، فلعلّك تصيرين أوّل فلاحه في شعبك.

ابتسمت له الطفلة، وكذلك، بدا له، فعلت الساحرة، التي كانت تراقبه من على بُعد أمتار، تتحدّث مع رجل.

«أتراه؟ إنه لطيف.»

«لعلّه كذلك، لكنه أحرق أيضاً. إنه يعلم أراسي الزرع. كأننا لا نعرف فعل ذلك.»

«لكن لعلّه لا يعرف، لعلّ الغرباء أمثاله تعلّموها حديثاً. لعلّه فقط يحاول أن يفهم كيف يجعل نفسه مفيداً.»

2.10 نملة- جاكوار

كان ياماندي يقيّم الوضع. بل لا، كان ياماندي يقيّم الوضع أمام الملاء. بل ولا هذا أيضًا، كان ياماندي يُظهر أمام الملاء أنه يدرس الوضع، لكن في الحقيقة لم يكن هناك شيء يُقيّم، كان الوضع هو المعتاد دومًا الذي ينتهون إليه في كل مرة يلعبون فيها نملة- جاكوار دون الفتیان الأكبر سنًا: هو وبياتا كانا الأسرع في صعود مراتب المملكة الحيوانية، وحين يبلغان قردًا والآخرين ما يزالون عند فراشة، سلحفاة، أو على أقصى تقدير أرماديلو، كان واضحًا أن الفوز للمرة الألف سيكون شأنًا بينه هو وبياتا.

في الحقيقة، كان قد طرأ مؤخرًا تغييران: أحدهما أن مواسير أيضًا قد أخذ يفرض نفسه، ولا سيّما بفضل شجاعته وقفزاته الغريبة. لم يكن قد بلغ مستواه بعد، لكن ياماندي كان يدرس طرقًا لاستغلاله من وجهة نظر استراتيجية، لتشتيت بياتا وتعقيد حياته. التغيير الثاني كان أنهم صاروا يلعبون بحضور متفرّج: الغريب، الذي كانت من بين غراباته الكثيرة تحديدًا أنه يأتي مرارًا لمشاهدتهم وهم يلعبون. بعض الأطفال الآخرين كانوا خجلين، لم يكونوا معتادين على اللعب تحت عينيّ بالغ، لكن الغريب بدا بالغًا في الجسد فحسب (ما عدا ذلك اللون العجيب). في الباقي كان طفلًا صغيرًا بكلّ معنى الكلمة، أصغر حتى من كاوي، الذي كان يصمّم على اللعب معهم لكنه يبقى نملة لأنه لم تكن في ساقه بعد قوة كافية ليبلغ بضربته شجرة التحوّل. كان الغريب يبدو طفلًا صغيرًا لأنه لا يعرف الكلام ولا يعرف فعل أي شيء مفيد لحياة القرية. كان لغزًا كيف تمكّن من البقاء حيًا كل هذا الزمن حتى صار طويلًا هكذا، لعلّ ذلك شيء له صلة بلونه.

شيء آخر كان يجمعه بالأطفال: الفضول. بدا أن شغله الوحيد هو المشاهدة. في كل مرة تصادفه كان يشاهد شيئًا: أحدهم ينسج، أو آخر يعدّ الطعام، وأحيانًا يتبعك حين تذهب للصيد أو لجلب الماء من النهر. لكن أكثر من كل شيء كان يقضي الوقت في مشاهدتهم يلعبون. كان ياماندي يتساءل إن كان الغريب، فوق أنه لا يعرف فعل شيء، لا يعرف أي لعبة كذلك.

من يدري إن كان يفهم قواعد لعبتنا. لعلّه يفهم، إنها بسيطة جدًّا. يبدأ الجميع من نملة. ثم عليك أن تترك الكرة محاولًا إصابة شجرة التحوّل. من يصيبها يتحوّل إلى الحيوان الأعلى: إن كنت يرقّة تصير فراشة، ثم سلحفاة، أرماديلو، تابير، كابيبارا، قرد، كايمان، وأخيرًا جاكوار. ثم عليك أن تركز لتستعيد كرتك وتعود إلى البيت. في تلك اللحظة يمكن للحارس أن يصيبك بكرته، وإن فعل تعود لتكون الحيوان الأدنى وتصير أنت الحارس الجديد. من يصير جاكوارًا أولًا يكون قد فاز.

أدرك ياماندي أنه كان يشرح اللعبة ذهنيًا للغريب، فانتفض وعاد إلى التركيز على المباراة الجارية، لكن بعد أن فكّر: يا للأسف أنه لا يفهم اللغة، لعلّه لو شرحت له كيف تُلعب لاستطاع أن يلعب هو أيضًا، هكذا سيتسلّى قليلًا!

بياتا، الذي كان في ذلك الدور الحارس، كان ينظر إلى ياماندي ويضحك في سرّه. انظر إليه، كيف يتظاهر بأنه يفكر في الأمر، كأنني لا أعرف ما سيفعله.

كان مواسير قد أصاب الشجرة فتحوّل إلى قرد، ولحق بهما. لكن الآن حان دور ياماندي في الركل، وهو آخر من يركل في هذه الجولة. باستثناء مفاجآت لا تُصدّق، كان ياماندي سيصيب الشجرة ويصير كايمانًا. الشيء الوحيد الذي كان عليه أن يقرّره هو إلى أيّ جانب يُسقط الكرة التي سيكون عليه بعدها أن يذهب لاستردادها. الأحكم كان أن تسقط قرب كرات الآخرين. كان بياتا صاحب أقوى تسديدة في المجموعة كلّها، وكان هذا يحدث دومًا هروبيًا جماعيًا: في تلك الفوضى لم يكن من السهل التصويب على لاعب بعينه، ولا سيّما إن كان سريعًا كي ياماندي. لكن هناك في الجوار كانت أيضًا كرة كاوي، وكان بياتا يعرف تمام المعرفة أن ياماندي لا يريد المخاطرة بأن تنتهي تسديده، إن أخطأته، بإصابة الصغير ذاته.

فكّر ما شئت يا صديقي العزيز، فنحن كلانا نعرف جيّدًا أين ستسدد.

كان ياماندي يعرف تمام المعرفة أنه لو أسقط الكرة قرب كرة كاوي، لصوّب بياتا نحو شخص آخر كيلا يخاطر بإصابة الصغير. لكنه كان تكتيكيًا بدا له غير عادل، وكعاداته دومًا، أبى أن يستغله. صوّب وركل كرتة بتسديدة جافّة دقيقة

فارتطمت بالجانب الأيمن من شجرة التحوّل، وسقطت بالتالي بعيداً بعض الشيء عن كرات الأطفال الآخرين. وبينما كان يركض لاستردادها، مستعداً لتفادي تسديدة بياتا، ألقى بذيل عينه نظرةً نحو الغريب، وبدأ له أنه يراه يبتسم.

2.11 الزمن

عاش طوال عمره على خط الاستواء، ومع ذلك لم يكن قد أدرك ذلك حقًا قط: الأيام متساوية الطول دومًا، والظلام يحل دومًا في الساعة نفسها، ولا سبيل إطلاقًا إلى الإحساس بانقضاء الفصول.

في المدينة كان الأمر مختلفًا، كانت هناك ساعات ومواعيد نهائية، وتقاويم ومذكرات، وإيقاعات عمل، وبطولات، وأعياد ومناسبات تقطع الزمن إلى مقاطع محدّدة جيّدًا. لكن هناك في الغابة كانت الأيام تنقضي غير متميّزة واحدًا بعد الآخر، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر. صحيح، كانت هناك فروق بين يوم وآخر، أحداث يومية صغيرة – تلك الليلة من المطر الغزير، ومولد طفل فتاة الكوخ الثالث، والرجل الذي عضّ ثعبان وأعادته الصيادون الآخرون إلى القرية جثة هامدة، وذلك الجاكوار الذي أمسك بعد مطاردة طويلة جدًا – لكن في الذاكرة كان يمكنك أن ترتبها في أي تسلسل، لم يكن لها موضع محدّد في الزمن.

وهذا ما جعل من المستحيل – وأدرك أنطونيو ذلك بفزع مستسلم – أن يحسّ حقًا بمرور الأيام، التي توقّف في الواقع عن عدّها بحفر علامات في عارضة من عوارض الكوخ قبل أن تكتمل ستة أشهر. تقريبًا حول الفترة ذاتها التي ظنّ فيها أنه سيجنّ.

كان عليه عندئذ، بعد زمن طويل طرد فيه هذه الفكرة من رأسه، أن يسلم بأنّ أحدًا لن يأتي للبحث عنه. لا بدّ أنهم عدّوه في عداد الموتى، وإن كان لأيام، لأسابيع، قد راح يرصد السماء متوقّعًا أزيز مروحية، مصغيًا بأذنه لسمع صوتًا، مكبّر صوت، صفارة إنذار، أي شيء يمكن أن يستخدمه فريق إنقاذ ليُسمع نفسه، فقد كان عليه الآن أن يستسلم لحقيقة أنّ أحدًا لن يأتي. لعلّهم في كلّ ذلك الذهاب والإياب من القوارب والجيبات قد أضاعوا أثره ولم يكونوا يعرفون حتى من أين يبدوون البحث عنه، لعلّهم لم يحاولوا حتى لأنّ العثور على رجل ضائع في غابة الأمازون كالبحث عن إبرة في أمّ أكوام القش جميعًا، لعلّهم ظنّوا أنه لم يكن ممكنًا إلا أن يكون قد مات في أيّام قلائل جوعًا وعطشًا أو قتلته أفعى، جاكوار (عنكبوت).

لا يعني هذا أنه لم يفكر في الانطلاق سيرًا بحثًا عن الجيب: من هناك، لو، لو، سلك الاتجاه الصحيح (لكن كيف يُعرف أيّهما هو؟) ولو، لو، تمكّن من ألا يضيع من جديد، وألا يدور في حلقة مفرغة، وألا يصادف جاكوارًا أو أفعى، كان يمكنه ربّما أن يرجو بلوغ الطريق 210 في يومين من المشي حيث ربّما كان سيجد نجدة.

لكنّ مجرد بلوغ الجيب كان، كما أدرك، مهمّة شبه مستحيلة. وهو ينظر حوله في الفسحة التي تقوم عليها القرية كان قد أدرك منذ البداية أنه ليست لديه أدنى فكرة عن الاتجاه الذي يسلكه: مقطع الطريق الذي قطعه متبعًا الساحرة لم يكن يتذكّره إطلاقًا، وحتى لو كان يذكر تقريبًا النقطة التي طلعا منها على الفسحة، فلا شيء كان يمكن أن يمنحه اليقين بأنّ العجوز سارت في خطّ مستقيم، بل كان شبه متيقّن أنها لم تفعل. وذلك كان مجرد المقطع الأخير: أمّا أن يعيد يومين كاملين رجوعًا عبر الغابة متمكّنًا – دون أدنى إشارة – من العثور على الجيب مجددًا، فقد كان يعرف جيّدًا أنه أمر لا يُعقل في جوهره.

ثمّ إنّ الحياة هناك لم تكن سيّئة، كان السكّان الأصليون حنونين ولطفاء، استقبلوه بمودّة، ومنذ زمن كان الرجال يسمحون له بمرافقتهم في الصيد (وإن كانوا لا يدعونه بعدّ يلمس الرماح أو السهام)، والنساء يستعنّ به في جمع الحطب والحبات، والأطفال يعشقونه: بعد القوارب الورقية جاءت الطائرات المطويّة من الورق، التي كان من المستحيل بالطبع شرح مفهومها لكنهم تعلّموا تطييرها إتقانًا تامًا، ثمّ نفذ ورق الدفتر (ونفدت أيضًا الأشياء التي كان يعرف هو صناعتها بالورق، على أي حال).

كان هناك حتى فتاتان أو ثلاث، قصيرات بعض الشيء لكن لسنّ، لسنّ سيّئات إطلاقًا: نهود جميلة، وأرداف ظاهرة دومًا، كان النظر إليهنّ متعة.

لكن ما كان يُفقدّه صوابه هو ألاّ يقدر على محادثة أحد، ألاّ يقدر على تبادل فكرة، رأي، ولو نكتة واحدة على الأقلّ، يا يسوع القدّوس. لغتهم تلك، لغة العصافير، كلّها غردات وصرير ونقيق، ظلّت منيعة عليه تمامًا حتى بعد كلّ تلك الأشهر. كان قد تعلّم تقريبًا بعض الأسماء، وإن قلّما سنحت له فرصة استخدامها: كم مرة تنطق اسم شخص إن لم يكن لديك

بدا الجميع مرتبكين جدًّا. هزَّ الطفل الجادَّ كتفيه، استعاد الكرة واستأنف الجميع صاخبين مبارياتهم المستغلقة.

جلس أنطونيو على جذع، خائب الأمل جدًّا، معيّدًا النظر في فكرة النهر أو ربّما فكرة أن يقدّم نفسه قربانًا لجاكوار. لكن ها هو ذا، في منتصف اللعب تمامًا، انفصل صاحب الجوربين عن الآخرين و - كأنها فكرة فجائية - بدلًا من أن يسدّد نحو الأشجار صوّب إلى المرمى وأصابه بقذيفة مدفعية مثالية. ثمّ استدار نحو أنطونيو وبنبرة استفهامية مكتومة اقترح عليه: «غو-عو-للل؟»

شعر أنطونيو بقفزة في قلبه، وثب واقفًا، صرخ: «غول! غول! نعم، أحسنت، أحسنت، غول، غول، غووووووول!» وصقّ بيديه ولوّح بذراعيه، والأطفال كلّهم مسرورون قلّدوه ولوّحوا وقفزوا وصرخوا: «غول! غول! غول!»

كان أنطونيو سعيدًا: لعلّه ما يزال ثمة أمل، لعلّهم سيقدرّون على تعلّم بعض الكلمات بالبرتغالية، لعلّه يمكن على الأقلّ أن نلعب مباراة كرة قدم صغيرة.

2.12 نُذِرْ

«إنه أبيض!»

أيندي، امرأة الطبِّ، كانت تنظر إلى كيرىما بهيئتها المعتادة نصف الجادة نصف الساخرة.

«وأتعرف ما الأبيض؟ الميِّت! الميِّت وحده هو الأبيض!»

كان كيرىما أقصر من متوسط سكان القرية وأمتن بنيةً قليلاً، وكانت له بشرة داكنة مميزة تجعله فريداً في القبيلة كلها. وكان صوته فريداً أيضاً: أشد رنيناً، وقادراً على بلوغ علو لا يقدر الآخرون سوى أن يحلموا به.

«أتتذكر الأيام الأولى؟ أتتذكرها؟ الجميع يلمسونه، حتى الأطفال، الجميع يلمسونه بإصبع ليروا إن كان حياً حقاً أم روحاً من أرواح الغابة!»

بصفعة جافة سحَق كيرىما دَبُوراً كان قد حطَّ على كتفه، إيماءة كثيرة التكرار حتى صارت علامة يُعرف بها. على نقيض جميع سكان القرية الآخرين، لم يكن محصناً تماماً ضدَّ سَمِّ دَبُور من نوع معيَّن بدا أفرادها، منذ الأزل، يعرفون ذلك ويتلذذون بتعذيبه. إن كانت لسعة من ذلك النوع من الدبابير لا تعني للآخرين سوى وخز بلا عواقب في المنطقة المصابة، فهي لكيرىما تصير سبب إزعاج طويل قد يدوم أياماً. ولم يكن أيُّ من الأعشاب التي تُريح في حالات كهذه ينفع معه. كان منذ صغره قد تعود أن يعيش هكذا، قاتلاً أكبر عدد ممكن من الدبابير ومحتماً ألم اللسعات كما لا يحتمله أحد آخر. لم يكن يتذكَّر ولا يوماً واحداً لم يقتل فيه دَبُوراً واحداً على الأقل، وفي بعض الفصول لم يكن يمرَّ يوم دون أن يُلسع مرتين أو ثلاثاً على الأقل.

لكنه لم يستسلم. على مرَّ الزمن كان قد جرَّب عشرات الحلول المختلفة لإبعاد الدبابير أو لتخفيف ألم اللسعات، ودخلت كثير من ابتكارات كيرىما في عداد معارف القبيلة، حتى إنه صار من أكثر البالغين احتراماً لمعارفه الواسعة في أسرار الغابة.

وكان قد علَّق أرجوحته أيضاً بجانب أراجيح نساء كثيرات، ومن بعضهنَّ أنجب بعضاً من أكثر أطفال القرية كلها صحةً وجمالاً.

«والآن؟ يعجبك أنه يتجول دوماً مع الصغار؟ رجل لا يعرف الغابة خطير على نفسه وعلى الآخرين، ونحن ندعه يتجول مع الصغار؟»

«إنه يتعلَّم، لم يعد خطيراً الآن.»

كانت أيندي قد استلطفت أنطونيو، ليس فقط لأنها هي من قاده إلى القرية، بل لأنها كانت تظنُّ دوماً أنه حقاً نوع من الأرواح، روح طيبة مع ذلك، كان يجب قضاء وقت معها، وذلك الوقت المقضي كان سيعود إليهم لاحقاً على هيئة ميزة كبيرة ما، لم تكن تقدر أن تتوقعها بعدُ لكنها كانت متيقنة أنها ستكون. وإن كانت تتكلَّم دوماً بأسلوب بالغ الهدوء، فإنها بهذه الطريقة كانت تُشعر الآخرين بسلطتها أكثر.

«يتعلَّم؟ لكنه لا يميِّز تابيراً من آكل نمل! منذ كم؟ ثلاثة أيام؟ أربعة؟ وجدناه من جديد يبول في النهر دون أن يحمي نفسه!»

«كيرىما، كيرىما، عليك أن تكون صبوراً، كم شخصاً تعرف هاجمه الكانديرو؟ تعلم جيِّداً أنهم ليسوا كثيرين وليسوا خطرين علينا. العجائز يروون عن هذه الأسماك المتناهية الصغر القادرة على صعود البول حتى تدخل جسدك، لكن أقول لك الحقيقة، أنا لم أر قط واحداً بهذا الصغر، تلك التي نجدها في الأسماك النافقة بحجم أصابعي، وتلك ليست خطيرة.»

«لكن يجب أن نحتمي! علَّما ذلك عجائزنا كما علَّمه لهم عجائزهم!»

«نعم، يجب أن نحتمي، هذا صحيح. لكنّ عجائز عجائزنا لم يكونوا على هذا النهر. لعلهم كانوا عجائز عجائز العجائز، صرّت أخلط. على النهر الآخر ربّما كان الكانديرو أكثر وكان الخطر أكبر. عجائزنا علّمونا أيضًا استخراج عصير الشاغوا، لكن كم مرّة احتجناه؟»

كان كيرينا يعرف ذلك جيّدًا، موهبة أخرى كانت له دومًا هي أنه يتذكّر القصص. كان يتذكّر قصص أوائل العجائز الذين عرفهم، أولئك الذين ماتوا حين كان شابًا، ويتذكّر أيضًا قصص العجائز الحاليين. كانت ذاكرته هائلة حتى إنّ الجميع في القرية صاروا منذ زمن يطلبون منه أن يروي قصص العجائز، كان ذلك أكثر الطرق شيوعًا لقضاء الأمسيات، وكان كيرينا ينقّص بكلّ روحه على هذه الروايات، يسمع أصوات أسلافه تجد مكانًا في داخله، يسمع الأرواح تتوقّف لتصغي إليه.

اللحظة الأخرى التي كان يبدو له فيها أنّ أرواح الغابة تتوقّف كانت حين يرى ابنه ياماندي يلعب بالكرة. لم يكن كيرينا قَطّ من الأبرع بالكرة، وكان يتذكّر مراسم البلوغ كإحدى أحزن لحظات وجوده بأسره. لكنّ ياماندي كان مختلفًا، كان دومًا طفلًا فضوليًا، وما إن كبر بما يكفي ليبدأ اللعب بالكرة حتى كانت مواهبه قد اتّضحت في الحال. من أجل ياماندي كان كيرينا الطيّب سيفعل أيّ شيء، لكن بدا أنّ الحاجة إلى ذلك تقلّ يومًا بعد يوم: كان يكبر حسنًا، قويًا، محبوبًا ومحترمًا من أصدقائه، له قدمان سريعتان دقيقتان وابتسامة جاهزة دومًا.

كان الشباب عائدين من فسحة اللعب يثرثرون ويضحكون بصوت عالٍ. وعلى بُعد قليل خلفهم أنطونيو، ما يزال بمشيئته المتعثّرة بعد كلّ ذلك الزمن، ما يزال يُحدث ضجيج الرعود عند كلّ خطوة، وما يزال يجد صعوبات هائلة في توصيل حتى أبسط الأشياء. أيّ روح طيّبة هذه! في عيني كيرينا لم يكن أنطونيو يبدو سوى مشكلة هائلة لم تُحلّ، وكونه يقضي كلّ ذلك الوقت مع الأطفال لم يكن يتركه هادئًا، كان عنده إحساس مسبق بأنّ شيئًا ما سيسير على نحو خاطئ.

طاخ! سحق دَبُورًا آخر وهو ينصرف مغضبًا.

2.13 الأشكال

شروق الشمس وغروبها، ودورات القمر الذي كان يُلْمَح ربيعًا كابتسامة بين الأغصان أو يسطع مدورًا ككرة من المنيهوت مضيئًا حتى أخفض السراخس، لم يكن هناك غير ذلك ليقسّم الزمن إلى لحظات.

كان على أنطونيو أن يتخلّى عن الإغراء، الحاجة التي كانت في البداية تكاد تكون قهرية، إلى محاولة تقسيم الأيام إلى ساعات ودقائق، وجمعها في حُزْم عبثية اسمها أسابيع أو أشهر.

لم يكن سهلًا، حتى بعد زمن ما، أن يصنع لنفسه نظامًا روتينيًا، وكان قد أخذ يظنّ أنّ فعل ذلك عديم الجدوى تمامًا.

لم يكن الأكل موعّدًا ثابتًا: لم يكن أحد في لحظة دقيقة متكرّرة يُعدّ مائدة بمفرش من أوراق النخيل، وأنصاف جوز الهند كؤوسًا وأدوات من العظم ملاعق وشووكًا. لم يكن أحد يذهب إلى النهر في ساعة دقيقة ليملأ الجرار ماءً، ولا أحد في الظهيرة يدقّ جرسًا مصنوعًا من حجر محفور ليدعو الجميع إلى الغداء: في الواقع لم تكن هناك أيّ لحظة يمكن تسميتها «غداء»، وكان «العشاء» ببساطة اللحظة، قبل غروب الشمس، حين يجتمع الجميع تقريبًا للأكل، لكن أيضًا لرواية القصص، واحتساء نصف جوز هند من المزيج المسكّر، وغناء أغاني الأساطير البعيدة، والإصغاء إلى توصيات الأرواح على لسان الشامان، والنميمة على جيران الأرجوحة.

كانت الإيقاعات تملئها الحاجة وحدها، وتوفّر الموارد، والقرارات التي، قبل الأشخاص، كانت الغابة نفسها هي من يتخذها. الصيد كان يمكن أن يتوقّف أيّامًا عدّة إن كانت الرحلة السابقة وافرة، ويمكن أن يكون فوضويًا أو مدّارًا بإتقان تامّ، ويمكن أن يكون شأنًا خاصًا أو شأن القرية بأسرها. وهكذا كان الحال أيضًا مع الجمع: أحيانًا تختفي مجموعة صغيرة من أشخاص قلائل لساعات ويعودون وسلالهم ممتلئة بالمؤن. وأحيانًا تكون البعثات أكبر عددًا وأشدّ ضجيجًا وتكاد تبدو نزاهات طويلة.

حتى لعبة الكرة، التي كان لسكان القرية بها هوس حقيقي، لم تكن تتبع روتينًا دقيقًا. كان يحدث أن يلقي الصيادون، عائدتين من رحلة صيد، في زاوية أنابيب النفخ وأقواسهم وسهامهم برؤوسها المسمومة وكلّ شيء، وينطلقوا في مباراة مرتجلة من لعبتهم الغريبة. بل كان قد بدا لأنطونيو منذ البداية جليًا كيف أنّ رحلات الصيد كانت أحيانًا أقصر من اللازم، كأنّ الصيادين لا يريدون الانخراط حقًا لأنّ عقولهم صارت في المباراة المقبلة. وحتى حين أخذ يرافقهم في رحلات الصيد، رغم أنه لا يفهم اللغة جيّدًا، بدا له واضحًا كيف كان ذلك الانخراط أحيانًا يكاد يكون شكليًا، كأنهم يريدون القول: «لنمش نصف ساعة في الغابة، هل من حيوان؟ لا، أليس كذلك؟ بسرعة! لنعد إلى القرية لنلعب.»

كان الشيء المضحك أنهم بدّوا دومًا جميعًا منشغلين، وفي الوقت نفسه بدا أنّ هناك لحظات لا نهائية، ممدّدة، من الكسل الخالص.

الآن مثلًا، كان الوابل الذي جاء في منتصف النهار قد رحل تاركًا رطوبة كثيفة سخّنتها الشمس، العائدة منذ قليل، حتى صارت قيظًا خانقًا. كانت الغابة ما تزال تتقاطر من ملايين البتلات والأوراق، وأنطونيو، نصف مستلقٍ وكثفاه مسندتان إلى جذع، كان على وشك أن يغفو، تهدده أغاريد الطيور التي تنفض المطر عن أجنحتها وثرثرة الأطفال الذين يتناولون وجبة خفيفة حوله من الفاكهة المقطوفة للتوّ، الرطوبة الدافئة.

كان يقدر أن يلتقط بعض الكلمات التي يعرف معناها: «كُل»، «طَيّب»، «حلو»، «أريد»، «مطر-مضى». و«أوبيبي»، ها هو، أوبيبي لا بدّ أنه اسم تلك الثمار الحمراء الغضة التي كان الأطفال يلطّخون بها وجوههم. عليّ أن أتذكّره، فكّر. أوبيبي. وبنعاس وشروود رسم بإصبعه الحروف على التراب الرخو بجانب يده: O P I I

بعد اثنتين أدرك أنّ الصمت قد حلّ: كان الأطفال قد خرسوا فجأة. رفع عينيه فرآهم، كلّ الوجوه الصغيرة في دائرة، يحذّقون في تلك العلامات على الأرض. ثمّ يرفعونها للنظر إليه، سؤال في كلّ العيون.

اعتدل جالسًا فجأة: يا يسوعي، الكتابة. دعك من تعليمهم تعقيدات تكنولوجية على طريقة ليوناردو دا فينشي مزيف، دعك من تعليمهم غرس البذور في الأرض، وهو ما اكتشف أنهم يعرفون فعله تمام المعرفة ومنذ من يدري كم. الكتابة، يا سيّدة القديسة، هؤلاء الناس لا يعرفونها، ليس عندهم حتى مفهومها.

متحمّسًا بذلك الحدس المدوّخ وبالإمكانات اللانهائية التي يفتحها، بيد تكاد ترتجف التقط بين أصابعه ثمرة وقال: «أوبيبي».

كان الأطفال ينظرون إليه.

وضعها على الأرض، قرب الكتابة، أشار إليها، وقال من جديد: «أوبيبي».

في كلّ تلك العيون الداكنة التي تراقبه لم يقرأ سوى الفضول.

عندئذ رسم أمامه في التراب A N T Ô N I O، وقال بصوت واضح تمامًا: «أنطونيو» ثم أشار إلى نفسه ونطق من جديد: «أنطونيو».

كان الأطفال يعرفون اسمه، لذا رغم أنهم لم يكونوا يفهمون تلك اللعبة إطلاقًا قهقهوا وردّد بعضهم: «أنطونيو؟»

«نعم، أنطونيو».

ومن جديد مشيرًا إلى الحروف، واحدًا واحدًا: «A N T Ô N I O»

ثم نهض، وقف أمام أبي الخدود ورسم على الأرض C A U Ê، مشيرًا أولًا إلى الطفل ثم إلى العلامات، ثم إلى الطفل من جديد. وهكذا فعل مع P I R A Í ومع M O A C I R ومع جميع الآخرين، حتى ختم الدائرة بالطفلة الجالسة على يساره: A M I A J Ê.

كانت هي تنظر إليه بانتباه وهو يردّد: «A - A - أنطونيو» ثم «A - A - أمياجي» مؤكّدًا بإصبعه على الكتابتين، مؤكّدًا على حرفي A المتطابقين: «A-نطونيو، A-مياجي. A، A، A».

ردّدت الصغيرة: «A».

ابتسم لها. ابتسمت له. كان الجميع يبتسمون. يا لها من لعبة غريبة.

في اليوم التالي كانت هي بالذات، حين تجمّعوا متعبين بعد أن لعبوا بالكرة طوال الصباح في ظلّ شجرة أبنوس كبيرة، من اقتربت منه وبأصبعها الصغيرة في الغبار رسمت متردّدة حرفًا معوّجًا

٨

«A؟»

«أحسنّت جدًّا، تقريبًا! انظري، هكذا: A»

«A. أمياجي».

«نعم، نعم! A، أمياجي. A، أنطونيو» وإذ نظر حوله ورأى أنهم جميعاً في الانتظار، أعاد كتابة اسم كل واحد أمامه: «U، U، أوبيراتان»، «P، P، P، بياتا»، والأطفال يضحكون ويرددون أصوات أسمائهم مخربشين على الأرض علامات عشوائية أكثر أو أقل لكنها تزداد دقة، تزداد شبهة بحروف A، U، P، وM.

2.14 إيبى

كانت لعبة الأشكال مستجدًا نال إعجاب الجميع. كل واحد من الصغار صار يعرف الآن رسم حرفه الأوّل بإتقان، ولم يكن نادرًا أن ترى طفلًا يرسم بعناية بالطين والأثاتو حرف A أو É على خدي صديق صغير مترنمًا بصوت الحرف: AAAAA-A A... A A A A-A-A-A!

كان أنطونيو ينوي أن يبدأ بالأرقام، يومًا ما، لكن لا عجلة في الوقت الحاضر: كان عندهم عالم كامل من الكلمات للتسلية بها.

الانتقال من الأحرف الأولى إلى الكلمات الكاملة كان أقل سهولة، فالأصغر سنًا ضجروا سريعًا وعادوا للعب بالسحالي والحصى الصغيرة، لكن الأكبر قليلًا أخذوا اللعبة على محمل الجدّ جدًا: كما في كل الأشياء، يريد كل الأطفال أن يبلغوا عمق كل اكتشاف جديد حتى يفكّكه ويعيدوا تركيبه من الصفر، حتى يشعروا أنهم يتقنونه.

أنطونيو، رغم جهده، لم يقدر أن يتذكّر كم استغرق، قبل سنوات كثيرة، ليتعلّم كتابة اسمه وقراءته. كان عنده ذكرى مشوشة عن صف بدا له هائلًا، ورائحة غبار وطباشير وأطفال متعرّقين، وأصابع لزجة من حلوى جوز الهند كانت تلطّخ ورقته. ومع ذلك كان يتذكّر أنه في عيد ميلاد أمّه كان قد صار قادرًا تمامًا على فعل ذلك، ليهجّبه على بطاقة تهنئة برسوم فراشات هائلة وأزهار مستحيلة: لم يكن الأمر قد استغرق طويلًا إذن.

وفعلاً لم يستغرق طويلًا في ذلك الصفّ شديد الخضرة، بين وثب العلاجيم وأزيز الحشرات، بسبورات من تراب موحل تُمحي بالأقدام، حتى صار كل واحد يعرف رسم اسمه، ولو ببعض التردد، وحين يكون مُلهماً بشكل خاص، اسم رفاقه أيضًا.

فحاول أنطونيو أن يخطو خطوة أبعد. سمع الصغار يتحدثون عن الذهاب إلى النهر: كلمة نهر، «إيبى»، كان يعرفها منذ فترة، فاستدعى انتباههم ورسم على الأرض I P É مهجّأ الكلمة جيّدًا ومكرّرًا إيّاها مرّة بعد مرّة. لكنّ الأطفال لم يبدؤا أنهم فهموا، ضحك أحدهم، وهزّ آخر كتفيه، وركض الجميع بعيدًا، ليسبحوا في النهر. صحيح، صعب جدًّا، شيء أن تفهم أنّ تلك العلامة أنت وتلك الأخرى صديقك، وشيء آخر أن تفهم أنّ لكل شيء يمكن أن توجد علامة، أنه يمكن رسم أي كلمة على الأرض، أي شيء، أنه يمكن إظهار “نهر” في الغبار حين ما يزال مستترًا خلف الأشجار، صعب جدًّا، هذا صحيح، يا للأسف.

نهض أنطونيو وتوجّه بتنهيده نحو النهر، نعم، كان قد حان وقت السباحة حقًا.

بعد بضعة صباحات، كان أنطونيو يشكّل زوجًا من الكرات الجديدة، عملية بطيئة ومملة إلى حدّ ما كان قد تعلّمها من الأطفال أنفسهم، والأطفال لا يُرون في أي مكان. كان ذلك طبيعيًا: لم يكن الأطفال يظهرون كل صباح؛ بين الحين والحين ينطلقون جماعة في مطاردات طويلة جدًّا للسحالي أو الضفادع، وأحيانًا يقضون اليوم كله متسلّقين الأشجار بحثًا عن فاكهة وأعشاش طيور، وأحيانًا يذهبون إلى الفسحة لمشاهدة الكبار يلعبون. وقد سئم قليلًا من الأوراق والطين، قرّر أن يذهب للبحث عنهم.

لم يكونوا يلعبون بالكرة في الجوار، ولم يكونوا أيضًا في الظلّ المضياف للشابونو، ولم يكونوا في الفسحة حيث لا يسود سوى الصوت المتواصل لألف صوت من أصوات الغابة، الشبيهة إلى هذا الحدّ بأصوات لغتهم. لعلهم توغّلوا في أحد الأماكن اللانهائية التي لم يكن أنطونيو يجرؤ بعدّ على التسلّل إليها: مسارات بدت له جدرانًا منيعة من الأوراق وباطن الغابة، ودروبًا غير مرئية لعينيه، وأشجارًا بدت مستحيلة التسلّق.

خائبًا بعض الشيء عاد إلى الميدان، مستسلمًا لقضاء الصباح وحيدًا، حين رأى فجأة شيئًا على الأرض، قرب أحد الدروب الكثيرة المتوغّلة في الكثافة. اقترب دون أن يجرؤ على تصديق ما يراه، ناظرًا وقلبه يخفق بشدّة إلى العلامات المنقورة في التراب المدكوك:

ANTONIO IPÉ

أيمكن أن يكون حقيقياً؟ بينما كان يهرول بقلب خافق على امتداد درب النهر كان يفكر: لا، لا يمكن أن يكون حقيقياً، لا يمكن أن يكون حقاً ما يبدو عليه.

أول من رأى، بين الأغصان قرب الماء، كانت أمياجي تنظر إليه بعينين لامعتين من الحماسة، ترتعش على ساقها الرفيعتين. تقدّمت وهي تخفي ظاهرياً شيئاً ما خلف ظهرها، تبعها سريعاً الأطفال الآخرون وهيئتهم بين الخجل والسخرية، كلهم يخفون شيئاً في أيديهم. أحد الفتيان الأكبر سناً تشجّع وقهقهه متأثراً آخذاً أنطونيو من يده وقائداً إياه نحو منعطف في أعالي النهر حيث كان الماء هادئاً جداً، شبه راكد. حاول أنطونيو أن يلقي نظرة خلف ظهور الصغار لكنه لم يقدر أن يلمح سوى أوراق.

حين وصلوا إلى النهر اصطفّ الأطفال جميعاً على طول الشاطئ، وما رآه أنطونيو تركه بلا أنفاس. كلّ واحد منهم كان يخفي خلف ظهره قارباً أو قاربين مصنوعين من الأوراق العريضة لنبتة مجهولة ما. أنطونيو، نهر، قوارب: كانت حقاً رسالة، كانت رسالة مكتوبة لي. وبعيون ممتلئة فخرًا وضع الصغار قواربهم على سطح الماء وصنعوا موكباً أخضر بطيئاً. أخذ التيارُ الكسولُ القواربَ فاتّجهت نحو المصبّ، بعضها يطفو خفيفاً، وبعضها ينقلب أو يتشابك الواحد بالآخر.

لكن أنطونيو لم يقدر أن يرى حوادث الغرق الصغيرة تلك: كانت عيناه مملوءتين بالدموع.

2.15 النساء

«أترينه سيعلق يوماً أرجوحة إلى جانب واحدة منّا؟»

«لم يفعلها قط... حقاً؟»

«لا، في هذا الزمن كله لم يفعلها قط، ولا مرة واحدة.»

«لعلّ الأمر لا يهمه، لعله واحد من الذين لا يعجبهم سوى اللعب بالكرة.»

«لعله غير قادر. هناك أشياء كثيرة جداً لا يقدر على فعلها. هل سمعتن يوماً حكاية حين حاول اصطياد التابير؟ حسناً، لعله في ذلك الأمر بارع بقدر براعته في صيد التابيرات.»

«هههههههه!»

«هيهيهيهيه!»

«لكن لعله لم يمض زمن طويل.»

«بل مضى، ومضى كثيراً. وصل حين كنّا في قمر ولادة آكلات النمل، وذلك القمر عاد وانقضى.»

«تتذكرين ذلك جيداً جداً. كنتِ منتبهة، لعله يهمك؟ لعلّك تودّين أنتِ أن تعلقي الأرجوحة معه؟»

«هيهيهيهيهيهيه!»

«هههههههه لا، ماذا تقولين! كلّ الأرواح ستنفجر ضحكاً! وإن كان قد مضى زمن طويل جداً منذ أن علّقت الأرجوحة مع أحد حتى أكاد...»

«هيهيهيهيهيهيه! وتظنين أنه سيريدك، قردة ذابلة مثلك؟»

«قردة خير من طوقان عجوز منتوف الريش مثلك.»

«ههههه! طوقان عجوز أنا؟ لكنّك أنتِ جدّة الأناكوندات كلّها!»

كان أنطونيو قد صار سريعاً المدلّل لا عند أيّندي وحدها، امرأة الطبّ التي كان قد ظلّها ساحرة، بل عند جميع عجائز القرية أيضاً: خرقه واختلافه كانا قد جلبا نسمة جدّة ممتعة، ورغم مرور أشهر على وصوله ظلّ يقع في موقف مضحك تلو الآخر، مغدّياً القهقهات والنميمة. كان ما يزال يجد صعوبة كبيرة جداً مع اللغة، ورغم أنه تعلّم بعض الكلمات لم تكن تكفي لحديث ولو بدائي، لكنه كان يفهم على أيّ حال أنه موضوع تسلية كبيرة لهنّ.

في النهاية لم يكن الأمر يزعجه أكثر من ذلك: بالتأكيد خير أن يُثير الضحك من الضغينة أو غيرها من المشاعر السلبية، وعلى أيّ حال كانت السيدات يعاملنه حسناً ويساعدنه حين تخطر له مهمّة غير معقولة.

لا، لم تكن المشكلات تأتي من هناك. اللواتي كان أنطونيو يخشاهنّ كنّ الشابات. في أشهر إقامته هذه كان أنطونيو قد راقب أعراف القرية وتقاليدها بعناية أكبر ممّا كان سيفعله عالم أنثروبولوجيا: خطأ عالم الأنثروبولوجيا كان سيترجم في أسوأ الأحوال إلى بحث خاطئ، بينما كان أنطونيو يخشى أن يتسبّب خطأ منه في مقارنة موضوع حسّاس ما في ورطة جدية له. وأيّ موضوع أشدّ حساسية من العلاقات مع الجنس الآخر؟

لا يعني ذلك أنه ما كان ليحب أن يجد لنفسه فتاة، لكنه لم يكن يعرف إطلاقاً كيف يتصرف. حتى في ماكابا، في المحيط الذي وُلد وعاش فيه، لم يكن قط دون جوان، بل كان دوماً مرتباً حين يتقرب من امرأة، كما تُظهر قصة إيزابيل التي كانت ما تزال تحرقه قليلاً بعد كل ذلك الزمن. هنا لم يكن يعرف حقاً من أين يبدأ. الشيء الوحيد الذي فهمه كان أنه لا يبدو وجود أي مراسم زواج أو ما شابه. نشأة الأزواج الجدد كانت تجري بطريقة فتنته لبساطتها: في لحظة ما كان رجل يعلق أرجوحته قرب أرجوحة امرأة (أو العكس: كان قد رأى حالات كثيرة كانت فيها المرأة هي من تبادر)، ومن تلك اللحظة كان ذلك زوجاً. هذا كل شيء.

لكن كيف ينشأ هؤلاء الأزواج كان ما يزال غامضاً عليه تماماً. كان وضع أرجوحة هنا أو هناك وكأن شيئاً لم يكن يبدو له فظاً أكثر من اللازم، كان متيقناً من وجود شكل ما من الغزل يسبق تلك اللحظة لكنه لم يكن يقدر على تحديد ديناميكياته. هل تكفي لعبة نظرات، ثم فوراً الأرجوحة؟ أم ينبغي أن يبدو المرء لطيفاً لبعض الوقت؟ وكيف، ماذا يُهدى إلى فتاة هنا، جوزة هند، ثعبان نافق، سحلية لوجبة خفيفة؟ وكيف يُعرف إن كان مصادفةً رجل أبرز منك (أي كل رجال القرية الآخرين) مهتماً أصلاً بتلك الأرجوحة بعينها؟

ثم على أي حال كنّ صغيرات جدّاً، جدّاً. كان أنطونيو يفكر في تلميذات المدرسة التي يدرّس فيها: لا، لا مجال للحديث في ذلك. كان أنطونيو يفهم أنّ ذلك هناك، في القرية، محرّم خاص به، لكن لا يهم: محرّم كان ومحرماً ظلّ. كان هذا يدفعه إلى محاولة تجنّب الفتيات في سنّ «الزواج»، وأحياناً بعواقب محرّجة، كتلك الأمسية التي رأى فيها شابة تتقدّم نحوه بعزم وبين ذراعيها أرجوحة. وثب أنطونيو من أرجوحته، متعثراً وكاد يقع على وجهه؛ ثم، وقد تملكه الذعر ولم يعرف ماذا يفعل، كسر الخطاف الخشبي الذي كان سندها: «هنا لا تُعلق الأراجيح». واصلت الفتاة مع ذلك التقدّم مبتسمة نحوه ثم تجاوزت موقعه، دون حتى أن تنظر إليه، لتذهب فتعلق أرجوحته قرب شابّ طويل ذي رسوم مغرة أنيقة على الوجه، تاركةً أنطونيو المسكين مذهولاً ومثيرةً ضحكاً عظيماً لدى عجوزتين كانتا قد شاهدتا المشهد.

كانت هناك فتاة، في الحقيقة، أكبر من الأخريات ببضع سنوات من المؤكّد، ومع ذلك لم يكن لها أطفال ولم يكن قد رآها قطّ تعلق الأرجوحة مع أحد. كانت تميل إلى البقاء منعزلة بعض الشيء، كان فيها ما يميّزها عن الأخريات: ملامحها فيها شيء مختلف، الرسوم التي كانت ترسمها على جلدّها كان لها أسلوب خاص بها، تماماً كما كان لها طريقة مميزة في تنسيق الأزهار التي تستخدمها زينةً، وحتى السلال التي تجدها كانت عُقدها... حسناً يا أنطونيو، يبدو أنك راقبتها جيّداً جدّاً، لواحد قرّر ألا يكون له شأن بالنساء، جيّداً جدّاً لواحد لا يريد الورطات، جيّداً أكثر من اللازم بعض الشيء، ما دمت تقدر أن تصفها سنّيمتراً سنّيمتراً. نعم، لنعترف، يحلو لي أن أعرفها أكثر. لعليّ أستطيع أن أحاول إهداءها بعض تلك الحبات الصفراء التي يبدو الجميع مغرمين بها جدّاً، لعليّ ملفوفة في ورقة جميلة لامعة، لعليّ أستطيع أيضاً أن أضيف زهرة، أو ربّما ضفدعاً صغيراً أزرق. تبّاً لهذه اللغة، لو كنت أعرف فقط أن أنطق كلمتين، كان سيحلو لي حتى مجرد أن أعرف ما قصتها.

2.16 جانائنا

هناك قصص لا تُروى، أو لا تُروى إلا للنفس، حين يكون المرء وحيداً، حين يستطيع أن يفكر في بُعد مكان ما، وفي طول الزمن الذي قد يبدو عليه عشرون قمراً.

أما أن يكون المكان الذي جاءت منه تلك الفتاة المنعزلة، التي كانت ترسم على جسدها بطريقة مختلفة، بعيداً إلى حد يتعذر معه بلوغه، فذلك كان أملها أكثر منه حقيقة. كان اسمها جانائنا، وقد مضى نحو عامين على مغادرتها قريتها.

«عاجلاً أو آجلاً سأقتله» قالت جانائنا لغيومار.

«ششش! ماذا تقولين، أجننت؟»

«لم أعد أحتمله، لم أعد أعرف ماذا أفعل.»

«ليس عليك أن تعرفي. الأرواح تعرف. والأرواح قرّرت أنك امرأة ياريمي، ولا شيء آخر تحتاجين إلى معرفته.»

«في الحقيقة، ياريمي هو الذي قال إن الأرواح قالت ذلك، أما أنا فلم تقل لي الأرواح شيئاً.»

«ششش! إذن أنت مجنونة حقاً! ماذا تقولين؟ تعرفين أن ياريمي هو من يكلم الآلهة، فلماذا تكلمك أنت؟»

«لتشرح لي لماذا عليّ أن أبقى مع ذلك الحيوان وأفعل دائماً ما يقوله.»

«الأرواح تعرف لماذا، ومن المؤكد أنها لا تقول ذلك لك، بل لزعيم القرية. ثم إنني أظن أن الأرواح غاضبة منك لأن أقماراً كثيرة مضت منذ أن أخذك ولم تنجبي أطفالاً بعد.»

«والحمد أنهم لم يأتوا. من السهل عليك أن تتكلمي هكذا. الآلهة كتبت لك ذلك الرجل الطيب تورو، لا ذلك القرد العوّاء. إن حاول أن يلمسني مرة أخرى فسأقتله حقاً.»

لكنّ غيومار لم تقل «ششش» تلك المرة. تلك المرة اكتفت بأن تحدّق مذعورة في نقطة خلف كتفها.

استدارت جانائنا فرأت ياريمي، وقد خرج من خلف نخلة بصمت الريح الساكنة، ينظر إليها بعينين شريرتين.

كانت الخطة بسيطة. سثسكه بمشروب التحوّل حتى يغيب عن وعيه، وحين يسقط نائماً ستتحرك. في قرارة قلبها كان يؤسفها قليلاً أنها لا تملك الشجاعة لتقتله حقاً، لكنّ صاحب الروح الشريرة هو، لا هي. والقرية التي تترك شرباً يقودها قرية سيئة: كان الهروب قراراً سهلاً، بلا ندم، ولم تفهم كيف لم يخطر لها من قبل. ستذهب إلى النهر، وتأخذ زورقاً، وتجذّف ما دامت فيها قوّة، حتى أبعد القرى. قبل أقمار كثيرة كانت قد زارت قريتين من تلك القرى في احتفالات صلح وتبادل هدايا، وبدا لها أن أهلها لطفاء. قريتها أسوأ قرية في الغابة كلّها، هكذا قرّرت جانائنا، وإن كانت الأرواح قد بلغت من الشر أن أرسلتها إلى هناك وقرنتها بذلك القرد، فإذن... لم تجرؤ جانائنا على إتمام الفكرة، لكنّ الأمر كان واضحاً في قلبها: هذه الأرواح لا تستحقّ الاحترام، ومن المؤكد أن زمن احتمال تلك المصيبة قد ولى.

كان ياريمي يحبّ مشروب التحوّل. في ذلك المساء ظلّت جانائنا، خافضة عينيها، تصبّ له منه بلا انقطاع، وقدمت له نصيبها أيضاً علامة على اعتذارها عن الكلمات القبيحة التي قالتها بعد الظهر.

كانت اللحظة الحرجة بعد القصعة الرابعة: في العادة كان ياريمي عندها يهتاج، ويكفي أتفه شيء ليجعله عنيفاً. لكنه بقي في ذلك المساء أهدأ من المعتاد. شرب قصعة خامسة أيضاً، وفي منتصف السادسة سقط نائماً سكران.

القدر في صَفِي ، فَكَّرَتْ جانائنا وهي تنظر إلى القمر شبه المكتمل، الذي كان ضوءه يتسلَّل بين الأغصان بما يكفي لتعرف أين تضع قدميها، فتمشي بلا صوت ولا توقظ أحدًا. حاولت ألا تفكر في الطريقة التي ستستقبلها بها القرية الجديدة، وركّزت على كل خطوة، راضية عن صمتها. ابتسمت لفكرة أن هذه المهارة ومهارة التجديف، وهما المهارتان اللتان ستحتاج إليهما في هروبها، علّمها إياهما القرد نفسه. نفع في شيء على الأقل. كانت منصرفة إلى الإصغاء إلى صمتها حتى إنها لم تفهم في البداية ما ذلك الصوت الهائل الذي سمعته ما إن وضعت قدمها خارج حدود القرية. أي حيوان يمكن أن يكون؟

كانت لياريمي عيوب كثيرة، وكان مستعدًا أحيانًا للاعتراف ببعضها. لكنه لم يكن غبيًا. الأرواح ما كانت لتجعل غبيًا زعيمًا للقرية. طالما تساءل لماذا ألصقت به الأرواح تلك المرأة الوقحة العاصية التي لم تستطع حتى أن تنجب له ولدًا، أما الآن فقد اتضح كل شيء: كانت امتحانًا ليقوّي روحه. في ذلك اليوم ستسرح له الفرصة ليتخلص منها، وفي الغد نفسه يستطيع أن يأخذ امرأة أخرى، ولم يبقَ عليه إلا أن يختار أيّتهنّ.

في ذلك المساء لم يشرب قطرة واحدة من مشروبه المحبوب. في كل مرة كانت المرأة تحمل إليه قصعة، كان يكتفي بأن يمسه بشفتيه، يأخذ رشفة صغيرة، وما إن تبتعد حتى يبصقها في القصعة ثم يفرغها على الأرض. بعد القصعة السادسة قرّر أن التمثيلية اكتملت، وتظاهر بالنوم، حريصًا على أن تبقى السكين في متناول يده.

حين سمع جانائنا تنهض قبض على المقبض وانتظر الهجوم. ولدهشته الشديدة لم تحاول المرأة أن تقتله، بل خرجت من الكوخ. فتبعها ياريمي ليفهم ما تنوي، وحين رآها تخرج من القرية فهم: تلك المرأة التي لعنتها الأرواح قرّرت أن تهجرهم. إهانة لا تعدلها إهانة: لا أحد يهجر القرية التي يتزعمها ياريمي. أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق صرخة الإنذار بملء رئتيه.

لو اتسع لها الوقت لتفكر، لتساءلت جانائنا أين أخطأت، ولماذا فشلت خطتها بهذه السرعة وبهذا البؤس. ربما تساءلت عن الدور الذي خبّأته لها الأرواح، أو ربما ظنّت أنها أخطأت في كل شيء، وأنه كان عليها أن تقبل رسالة الأرواح وتعيش الحياة التي وضعت أمامها.

لكنّ جانائنا لم يتسع لها الوقت لتفكر. للفعل والركض فحسب. كانت صرخة ياريمي، التي عرفتها مذعورة بعد ثانيّتين، قد أيقظت بعض أمهر محاربي القرية، فأخذوا يركضون هنا وهناك محاولين أن يفهموا ما يحدث وما عليهم فعله. في الفوضى رأت بعضهم يتجهون إلى النهر بالذات، فيقطعون عليها طريق الهروب الذي رسمته. غيرت وجهتها بسرعة، مبتعدة عن النهر ومتوغّلة في كثافة الغابة. رآها أحدهم تركض، فانطلق في أثرها وهو ينادي طالبًا العون. لم تكن تعرف، عن وعي، إلى أين تركض، كانت تركض فحسب، لكنّ غريزتها كانت تقودها إلى المكان الذي قد يكون خلاصها وقد يكون نهايتها. المكان الحاسم في مغامرتها، على كل حال.

ظلت تركض حتى انقطعت أنفاسها، وحين خرجت من كثافة الأشجار وما يزال لها بعض السبق على مطارديها، اتضح كل شيء، حتى بالمعنى الحرفي.

كان القمر يضيء الصخور، وماء النهر اللامع، والانحدار المهيب، العالي الضيق، للشلال. كان أعلى من أعلى شجرة في الغابة كلها: كان الماء يهوي مارًا بين لوحين ضيّقين من الصخر ليصبّ في بحيرة صغيرة في الأسفل البعيد. كانت أساطير القرية تحكي عن بعض الأقدمين الذين بلغت بهم الشجاعة أن قفزوا، وكثير من الشبان المتبجحين كانوا يتحدثون عن الذهاب لتجربة ذلك، لكنّ أحدًا من الأحياء لم يجرؤ عليه قط.

لم تقفز جانائنا في الحال. توقّفت على حافة الشلال تحدّق في المكان الذي سيخرج منه مطاردها، راجية أن يكون ياريمي بينهم لتريه أيهما أشجع. وهكذا كان. لم يكن ضوء القمر قويًا بما يكفي لتري عينيه، لكنها لم تكن بحاجة إلى ذلك. كان تبدّل ملامحه يُقرأ بوضوح تامّ: من يقينه بأنه أمسك بها، إلى الشك، إلى عدم التصديق حين استدارت ووقفت.

منذ أيام وهي تهيم في الغابة متتبّعة مجرى النهر، دون أن تلقى أحدًا. لم تكن تجد مشقة في تحصيل الطعام والماء، ونجاح هروبها، شبه المعجزة، منحها قوة نفسية هائلة. لم تكن في ضيق. لكنّ تلك الوحدة الطويلة بدأت تقلقها قليلًا: لم

تكن تتوقع ألا تجد قرى على امتداد مسافة كهذه بعد الشلال. أفضل هكذا، وجدت نفسها تفكر، كلما ابتعدتُ كان أفضل.

كان الغسق يهبط في اليوم الخامس، وقد حان تقريبًا وقت البحث عن مكان تبیت فيه، وفي تلك اللحظة، فوق صياح الببغاوات، سمعت أصوات أطفال وراء الأشجار.

2.17 كلمات

«ما يفعله الغريب مع الأطفال، تلك الأشكال، أهو سحر؟»

«لا، يا كيريم، ليس سحرًا» قال إيتاتاكارا متثائبًا، بينما كان يتأرجح بكسل في الأرجوحة. لم يبدُ مهتمًا كثيرًا: «الغريب اسمه أنطونيو، كما تعلم، وهو غير قادر على صنع أي سحر على الإطلاق، أنا أقول لك. في القرية كلها لا يوجد أحد أقل منه ممن قد ترغب الأرواح في أن يكون لها به شأن. إنها مجرد لعبة، لا تشغل بالك بها.»

«لكن أي لعبة غبية هي؟ الأشكال تُرسم على الجسد، لا تُرسم في الغبار بعصا صغيرة. إنها لعبة سخيفة، لم يُر مثلها قط، لا تعجبني.»

«لعلها لعبة يلعبها أطفالهم الغرباء. لا تقلق بشأن لعبة. ليست خطيرة، أليس كذلك؟»

«لا... لا، لا يبدو أنهم يمكن أن يؤذوا أنفسهم. لكنها لا تعجبني.»

«أنت لا يعجبك كثير من الأشياء، يا كيريم،» ضحك الشامان ضحكة خفيفة، مستريحًا أكثر داخل الأرجوحة، «دعهم وشأنهم، إنهم مجرد أطفال، يلعبون فحسب.»

وقد تبين أن تلك اللعبة شديدة النفع لأنطونيو، الذي، وإن لم يكن قد توقع ذلك إطلاقًا، وجد نفسه، إذ كان عليه أن يكتبها، يتعلم كثيرًا من الكلمات الجديدة، محررًا تقدمًا في اللغة أسرع بكثير من ذي قبل.

لكن الأطفال كانوا قد اكتشفوا سريعًا جدًا، كلما اكتسبوا ألفةً بالعلامات – وعلى الرغم من أن لغتهم كانت أقل ما يكون ملائمةً لأن تُكتب – أن تلك اللعبة تمنحهم وسيلة تواصل سرية استثنائية، لا يعرف الكبار ولا الشيوخ عنها شيئًا، أداة هائلة للإفلات من رقابتهم.

كان بإمكانك أن تخط «إيبي» خارج الشابونو، فيعرف الأطفال الذين استيقظوا متأخرين عن الآخرين أن الرفاق قد ذهبوا ليلعبوا عند النهر. وإذا رأيت «أوبيبي» قرب الدرب عرفت أن الأصدقاء ذهبوا لجمع الثمار، وإذا وجدت «بوتو» محفورة في الطين الطري على الضفة أمكنك أن تركض إلى الفسحة لتلعب الكرة مع الآخرين.

كان مريحًا أن ترى بجانب النار «أيندي حلوة»، لأنك تفهم أن امرأة الطب قد أعدت عصيدتها اللذيذة من المنيهوت والعسل، وأنك ببعض البراعة يمكنك أن تنجح في خطف حفنة منها على الأقل، وكان مفيدًا أن تقرأ بجانب مدخل الكوخ «إيبوتيرا غاضبة»، لأنك تعرف أن العجوز إيبوتيرا في يوم من أيام مزاجها السيئ، وخير للأطفال أن يظلوا بعيدًا عنها إن لم يريدوا أن يُرموا بالحجارة.

أقل فائدةً بعض الشيء – وهو ما كان أنطونيو، الفخور جدًا بتقدم الصغار، يعرف أنه حتمي – كان استخدام ذلك السلاح الجديد في الخصومات بينهم: فبعد «كاوي تابير» المهينة المخطوطة في وسط الساحة، جاءت «مواسير براز» الدامية مكتوبة بحروف أكبر، قبيل أن يُرغم أنطونيو الاثنين، وكلاهما في غاية الإهانة، على التصالح.

وهكذا لم يُفاجأ كثيرًا حين سمعهم ذات عصر يقهقهون، وحين اقترب من الجماعة التي كانت تضحك بانفلات حتى الدموع، رأى أنه تحت أرجوحة إيتاتاكارا بالضبط كان قد حُط بعناية كبيرة «إيتا كرش كبيرة». كان يجب أن يوبخهم، بطبيعة الحال، لكن وهو ينظر إلى بطن الشامان – الضخم موضوعًا – الذي، بينما كان منغمسًا بنعيم في النوم، يتأرجح ببطء فائضًا من الأرجوحة شبيهًا بحبة مانغو هائلة أفرط نضجها، لم يقدر على فعل شيء سوى خنق ضحكة، بينما كان الصغار حوله يتمرغون على الأرض من شدة المرح.

غير أنه ضحك أقل بكثير، بل احمر وجهه خجلًا – شاكرًا السماء أنه لم يعلم تلك اللعبة الخطرة جدًا إلا للأطفال – حين، بعد أيام قليلة، وهو خارج في الصباح الباكر من ظل الشابونو، لمح زمرة من الصغار يفرون راكضين في كل الاتجاهات

ليختبئوا مقهقهين بين الأغصان، ووجد أمام قدميه، على العتبة بالضبط، مزيّنة بثلاث حصيات مستديرة، كتابة تقول:
«أنطونيو يحبّ جانينا».

2.18 بعيداً

«أقول لك إنها هي، أنا متيقن تماماً»، أصرّ ياماندي، «ألم أقصصها عليك من قبل مرّات كثيرة؟ قالت لي لبيينا: انظر إليها جيّداً. انظر إليها جيّداً، لأنّ هذه اليرقة ليست كسائر اليرقات. هذا أطيب شيء ستأكله في حياتك. حفرت حفرة في المنيهوت، ووضعتها في داخلها، وكانت محقّة. لم أكل بعدها قطّ شيئاً بهذا الطّيب، ولم أنس أبداً كيف كان شكلها، لا تدري منذ متى وأنا أمل أن أجدها من جديد. أقول لك إنها هي.»

«أعرف أنّك قصصتها عليّ مرّة بعد مرّة»، ردّ بياتا، «وأكرّر لك أنّ هذه ليست هي المشكلة. المشكلة أنّه لن يأكلها أبداً.»

«لكنّها طيّبة جدّاً أقول لك. لماذا لا يأكلها؟»

«لأنّ اليرقات تُقزّزه.»

«تُقزّزه اليرقات؟»

هذه المرّة لم يستغرب ياماندي وحده، بل كلّ الأطفال الآخرين تقريباً: «وانتَ كيف تعرف ذلك؟»

«لأنّني راقبته ولا حظت أنّه لا يأكلها أبداً.»

«لا بدّ أنك أخطأت، صحيح أنه غريب لكن حتى هو لا يمكن أن يكون غريباً إلى هذا الحدّ، اليرقات تعجب الجميع. أنا أقول أن تقدّمها له وسترى أنّه سيفرح. قل الحقيقة، أنت لا تريد أن تقدّمها له لأنّك تريد أن تأكلها أنت.»

فكّر بياتا فيما يفعل، ثمّ قرّر أنّ الموقف خطير بما يكفي ليستحقّ كشف سرّه الكبير.

«لا. أقول لك إنّ اليرقات لا تعجبه. وأتدري لماذا لا يبدو لي ذلك غريباً؟ لأنّها لا تعجبني أنا أيضاً.»

«لا تعجبك اليرقات؟»

«لا. وليس فقط لا تعجبني، بل تُقزّزني حقّاً.»

«تُقزّزك اليرقات.»

«نعم.»

«ولماذا تأكلها إذن؟»

«لأنّني مضطّر.»

كانت الصدمة من الكشف أشدّ وقعاً إذا اعتبرنا أنّ بياتا كان أضخمهم جميعاً، أكثرهم أكلاً وأقلّهم انتقاءً، أو هكذا كانوا قد ظنّوا دائماً.

خيّم بين الأطفال صمت طويل.

كان مواسير هو من قطعه: «أنا أيضاً لا تعجبني. لكنني لا أكلها أبداً.»

«وكيف تفعل؟» سأله بياتا، وعيناه مضيئتان بالأمل.

«أتظاهر بأكلها، ثمّ حين لا يراني أحد أخفيها بين العظام المقروضة أو حيثما اتّفق.»

«ما أذكاك!»

«لكن، إذن في رأيك يوجد حقًا خطر ألا تعجبه؟» سأل ياماندي الخائب.

«نعم.»

«يا للأسف. كنت أريد حقًا أن أقدم له هدية مقابل الكرة الغريبة التي صنعها لنا.»

«وأنا كذلك. سنجد شيئًا آخر، ستري. ولا تحزن: أنت على وشك أن تتذوق من جديد ذلك المذاق الذي تقول إنه يعجبك كثيرًا.»

أجل، اليرقة الخاصة. نظروا حولهم، لكنها بدت قد اختفت. ثم لاحظوا أن كاوي كان قد ابتعد عن الجماعة، فأروه في الجانب الآخر من الفسحة وهو يقترب من أنطونيو مقدمًا له شيئًا. من تلك المسافة لم يمكنهم أن يروا ما هو، لكنهم جميعًا كانوا واثقين أنها منيهوت محشوة. أخذوا يركضون صائحين باسم صديقهم.

كان أنطونيو ينظر إلى كاوي وهو يمد إليه جذرًا بداخله يرقة هائلة مقززة. كان شبه متيقن أنها بادرة حسن نية من الطفل، لأنها شكرت على كرة المطاط التي كان قد صنعها في اليوم السابق. لكن أن يأكل اليرقة؟ حتى الآن كان قد نجح دائمًا في تفاديها، ملتقطًا اللحم والسمك والخضار من الصواني وتاركًا اليرقات جانبًا، وهو ما لا بد أنه كان يسر السكّان الأصليين، إذ بدوا شرهين إليها. لكن الآن لم يكن له مفر. أيمنه أن ينتزعها، ويعطيها للطفل، ويأكل المنيهوت؟ بينما كان يفكر في ذلك، عض كاوي عضّة كبيرة من هذه الشطيرة المحشوة غير المعتادة، ومضغ، وقال «أنغ-واااا»، وهو ما كان أنطونيو قد تعلّم الآن أنه يعني «لذيذ جدًا» (كما يؤكده وجه الصغير)، وبابتسامة عريضة وضع بقية اللقمة الشهية في يدي أنطونيو.

كان أنطونيو قد فقد منذ زمن الإحساس بالوقت. كانت عنده فكرة غامضة عن مقدار الوقت الذي مرّ منذ وصوله إلى القرية، لكن لو قال له أحدهم إنها في تلك اللحظة التاسعة، بتوقيت ريو دي جانيرو، من الحادي عشر من سبتمبر 2001، لأجابه أنطونيو، وهو يتأمل اليرقة المسحوقة في المنيهوت، (ببرتغالية تزداد تعثرًا لطول انقطاعه عن استعمالها): «وما شأني أنا؟ عندي مشاكل ألح بكثير يجب أن أحلّها.»

على بعد خمسة آلاف كيلومتر شمالًا، في مكان بعيد إلى حدّ، من كلّ وجهة نظر، أنه كان يمكن أن يكون في الطرف الآخر من الكون، كانت إيزابيل تحدّق مذهولة في جهاز التلفزيون. كان قد مرّ وقت طويل منذ آخر مرّة فكّرت فيها في أنطونيو. في العام السابق كانت قد عادت إلى ماكابا لتسوية بعض الأمور، وعرفت أنه ما يزال في عداد المفقودين في الغابة، وأنه لم تعد هناك أيّ آمال في العثور عليه.

الآن، فجأة، عاد إلى ذهنها كم أثّرت فيه مأساة تلك الطائرة التي قرّر قائدتها الانتحار محطّمًا إيّاها في البحر مع جميع الركّاب، وفكّرت: **لحسن الحظّ أنك مُتّ، يا أنطونيو العزيز. هكذا لم تضطرّ إلى رؤية هذا الرعب.**

عند الإعادة الألف لمشهد الطائرة الثانية وهي تتحطّم على مركز التجارة العالمي، انتبهت إيزابيل، وأخذت حقيبة ظهر صغيرة، وضعت فيها الهاتف المحمول وزجاجتين. ستكون وسائل الإعلام في العالم كلّها قد جئت. لنذهب لنرى إن كانوا يحتاجون مترجمة فورية. وبضحكة هستيرية ختمت الفكرة: “إن؟ ها ها. وركضت خارج المنزل.

2.19 كأس العالم

سيداتني وسادتي، مساء الخير. ننقل إليكم مباشرةً من طوكيو مباراة هولندا والأرجنتين، في ربع نهائي بطولة كأس العالم لكرة القدم 2002. الفريقان يدخلان الملعب الآن، هولندا بقميصها التقليدي المنقّط بلون المغرة، والأرجنتين بزيها الجميل المخطّط بالبني. الجمهور جمهور المناسبات الكبرى: ثلاثون طفلاً على الأقلّ، وبيغاوات كثيرة جدّاً، وعدد غير محدّد من الحشرات والحيوانات الخطرة. لكن صمتًا، حان وقت النشيدين الوطنيين.

قطع أنطونيو التعليق الذي كان يقوم به في سرّه، وأمر: «أيّو»، فاصطَفَ الأطفال في صفّ، وهذا بالضبط ما كان يأمل أن يفعلوه. اجتاحت موجة من العزّة، خَفَفَ منها الشكّ الشديد في أنّهم فعلوا ذلك لا لبراعة نطقه، بل لأنّهم كانوا قد فهموا سلفًا ما يجب فعله.

كان ذلك ربع النهائي الثالث. في الأوّل، كانت اليابان قد فازت على إيطاليا فوزًا مفاجئًا، لأسف أنطونيو، الذي لم يكن يريد توجيه المباريات لكنّه كان يأمل سرًّا في نتائج أكثر واقعية. وفي الثاني كانت ألمانيا قد تغلّبت على الدنمارك بثمانية أهداف لخمسّة. وليكتمل الجدول ستأتي بعدها البرازيل وكرواتيا.

قال أنطونيو «هولندا!»، وأشار إلى النقاط بلون المغرة، وبدأ يغني النشيد، بمرافقة حماسية كبيرة من اللاعبين الهولنديين:

«بوروبو،

بوروبو،

بوروبوبوبوبوبوبو.

بوروبو،

بوروبو،

بوروبوبوبوبوبوبو.»

منذ بعض الوقت بدا أنّ الأطفال قد استوعبوا جيّدًا القواعد الرئيسية للعبة كرة القدم، وكان أنطونيو قد نظّم أيضًا بعض بطولات القرية، وإن كانت بطولات تُقام في رأسه أكثر ممّا تُقام في الواقع، إذ سرعان ما يُسّ أنطونيو من شرح مفاهيم المجموعات والترتيب والنقاط، وما تعلّمه من لغتهم لم يكن بالتأكيد صالحًا للغرض.

ولعلّ لغتهم كلّها خلت من كلمات صالحة للغرض، تلك اللغة التي كانوا يسمّونها «أكا-أكا!»، أي ببساطة «اللغة». على أيّ حال، كان الأطفال يلعبون، وهو يعيد بناء الترتيب بنفسه، وكان الجميع راضين هكذا. كان يمكن تحسين الأمر أكثر، فالتحسين ممكن دائمًا، لكن لم يخطر لأنطونيو كيف.

إلى أن خطرت له ذات مساء، في أحد تلك المساءات القليلة نسبيًا التي كان يعيد فيها التفكير في العالم الذي تركه خلفه، فكرة عمّا يفعل. كان الفكر قد طار به إلى مونديال كوريا واليابان. كان أنطونيو قد حسب، أخذًا في الحساب حالات الحمل التي رآها تكتمل، أنّه في الغابة منذ عامين ونصف أو ثلاثة أعوام على الأرجح: إذن مونديال 2002 لا بدّ أنّه أقيم مؤخرًا، أو ربّما كان منعقدًا في تلك اللحظة بالذات. فكّر أنطونيو أنّ إدخال عناصر طقسية كألوان الفرق والأناشيد الوطنية يمكن أن يكون مسليًا ومفهومًا للأطفال في آن معًا.

في صباح اليوم التالي، ما إن استيقظ، سوّى بعناية قطعة أرض محميّة جيّدًا حيث خطّ بعضا مدبّبة شبكة مباريات أوّل مونديال أمازوني خيالي. ولكي لا يعقّد الأمور أكثر من اللازم كان قد قرّر تخطّي مرحلة المجموعات والانتقال مباشرةً إلى ربع النهائي. اختار كلّ المنتخبات الكبرى، ما عدا فرنسا، التي كان فوزها على البرازيل في مونديال 98 إهانةً ما

تزال طرية ومؤلمة أكثر من أن تُعْتَفَر. في خيال أنطونيو، إذن، كانت فرنسا زيدان الملعون قد أقصيت إقصاءً مدوياً على يد البلد المضيف.

علاوةً على ذلك، ولجعل الصلة بين الجدول والمباريات مفهومة، كان قد قرّر ألا يستخدم الإعلام الوطنية، بل ألوان الفرق. ألوانٌ كان سيطليها لاحقاً مباشرةً على أجساد لاعبيه التي ما تزال غضة.

هنا نشأت المشكلة الأولى: بعد أن أنشأ أول فريقين، كان قد قرّر أن يطلي لاعبي «اليابان» بدائرة حمراء جميلة على الصدر، وهو ما بدا أن ياماندي ورفاقه متحمسون له. كانت الدائرة الحمراء جميلة إلى حد أن اللاعبين «الإيطاليين» هم أيضاً أرادوا أن تُرسم لهم واحدة، واحتاج الأمر إلى صبر غير قليل لإقناعهم بأن يُطلّوا بخطوط سوداء متموجة.

أما المشكلة الثانية فظهرت عند لحظة الأناشيد الوطنية: أدرك أنطونيو أنه لا يعرف عن منتخب اليابان شيئاً يُذكر عملياً، بدايةً من نشيده، وقرّر أنه بدلاً منه سيستخدم المارسييز. لكنّه بدأ أولاً بنشيد «إخوة إيطاليا»، الذي كان النشيد الوحيد، عدا البرازيلي، الذي يتذكر موسيقاه جيداً وبعض كلماته أيضاً. وكان «بوروبو، بوروبو» الافتتاحي قد أثار حماساً عظيماً بين الأطفال حتى لم يكن ثمة سبيل لإقناعهم بقبول موسيقى مختلفة عن تلك. استقبلت المارسييز فوراً بصيحات احتجاج: صغار «اليابان» شعروا بأنهم يُعاملون بتمييز ظالم، وأفهموه أنهم يريدون هم أيضاً «بوروبو، بوروبو» الافتتاحي. وهكذا حوّل أنطونيو «إخوة إيطاليا» من نشيد وطني إلى أغنية افتتاح للمباريات. شارة كأس العالم، عملياً.

في تعريف أصدقائه الصغار بكرة القدم، كان أنطونيو عازماً كلّ العزم على أن يجتنبهم ولو ملامسة فكرة الظلم التحكيمي، وكان قد وعد نفسه بأن يكون أقصى ما يمكن من الحياد. بعد هزيمة إيطاليا أمام اليابان – متى حدث مثل هذا قط – أدرك مع ذلك أنه، إن أراد أن يستمتع أكثر هو أيضاً، فعليه أن يتدخل في مرحلة تشكيل الفرق.

نقطة ثابتة أخرى في عمله، في الحقيقة، كانت تجنّب كالتعاون تشكيل فرق ثابتة: لم يكن يريد أن يجازف بأدنى خطر لخلق عصابات وفصائل في قرية من خمسمئة شخص. وبما أن تشكيل الفرق كان عليه أن يتغيّر من مباراة إلى مباراة، إذن، فلا بأس في توجيهه قليلاً، لا لخلق محاباة بل لزيادة واقعية (في عينيه) لعبة الأدوار.

اللاعبون المتاحون له كانوا نحو ثلاثين صبياً وست فتيات، بين السادسة وسنّ الاحتفال بالبلوغ. في ربع النهائي التالي كان قد شكّل الفريقين بحيث تكون ألمانيا أقوى قليلاً وأكثر «عضلات»، بينما خصّص للدنمارك الأطفال الأكثر رشاقة. أما هولندا والأرجنتين فكان ينبغي أن تكون مباراة أكثر توازناً، ولذلك انتهى ياماندي ومواسير في الفريق الأول وبياتا وأوبراتان في الثاني، وحتى اللاعبون الأضعف أو الأصغر سنّاً كانوا قد قُسموا على نحو متساوٍ تقريباً.

كان ياماندي وبياتا، علاوةً على كونهما أقوى لاعبين، متقاربين كثيراً أيضاً، وقد اعترت وجهيهما عبوسة خفيفة من الاستياء عند فكرة اللعب منفصلين. لا تخافا، سترَيان أنكما في المباراة القادمة بالقميص الأخضر الذهبي ستعودان معاً، فُكر أنطونيو مبتسماً بخبث.

2.20 رماد

كان أنطونيو على ارتفاع نحو عشرة أمتار، وقد أحدث على طول لحاء الشجرة التي تسلّقها برشاقة شقوقاً عمودية بمخالب أكل نمل كبير متينة، صقلها كما ينبغي لتصبح حادة. من الشقوق أخذ يسيل راتنج ثمين بلون أصفر فاتح، وتتجمّع، موجّهة كما ينبغي بشكل الشقوق نفسها، في وعاء كبير عند قاعدة الشجرة. كانت يرقتان صفراوان هائلتان بنقاط كبيرة حمراء وبيضاء، بدتا لأنطونيو متواضعتي الحجم، تمشيان بكسل على غصن غير بعيد. آه، هاتان طيّتان، فُكّر أنطونيو، سأهديهما لأحدهم.

انظر إلى نفسك يا أنطونيو، صرت واحداً منّا- لم يكن لأهل القرية كلمة يشيرون بها إلى أنفسهم -تنزل من شجرة لا تعرف اسمها البرتغالي وفي يدك يرقتان هائلتان هلاميتان تعتزم أن تأكلهما مع أصدقائك. كانت الأفكار تتدفّق في رأسه باللغة المحلية، ولم يعد للبرتغالية فيها مكان إلا لتلك الكلمات التي لا وجود لها أو التي تعصى على الترجمة بشكل ما.

بدأت الجلبة في اللحظة التي شرع فيها في النزول، وهي عملية زادها تعقيداً أنه كان يمسك اليرقتين بيده اليمنى. صرخة غير آدمية انطلقت من خلف أحد أكبر الأكواخ، وكان كثير من الناس قد بدأوا يتوافدون تاركين أشغالهم.

فهم أنطونيو فوراً أنّ أحدهم قد مات، كان يشعر به في داخله، صرخة كهذه لا يمكن أن تعني شيئاً آخر.

لم تكن علاقتهم بالموت علاقة حسنة، كانوا يعتبرونه دخيلاً. في حكاياتهم كان هناك زمن لم يكن فيه الموت موجوداً، وكان شعب القرية يمكنه أن يعيش إلى الأبد. في تلك الحقبة كانوا قد قابلوا قبيلة معادية قويّة نجحوا في هزيمتها، وكان الموت هو العقاب على أنهم تجاسروا إلى هذا الحدّ. كانت هذه الحكاية التأسيسية التي تُعاد دائماً: الموت عقاب لأننا قاتلنا كائنات أخرى مثلنا، يجب ألا نقاتل بعد الآن، وذات يوم ربّما يهجّرنا الموت ويرحل.

لكن ليس في ذلك اليوم. حين وصل إلى الأرض كان أنطونيو قد صار متيقنًا أنّ الميّت شخص مهمّ ومحبوب. عمومًا، كان ردّ الفعل على الموت أشدّ وحشيةً وغضبًا كلّما كان المتوفّى أهمّ داخل الجماعة، وسلوك من توافدوا لم يكن يترك مجالاً للشكّ، بدوا كأنّهم فقدوا عقولهم وأعماهم الغضب.

كانت الصرخات ستبلغ قريباً الجميع، حتى من كان يصطاد ويلعب بعيداً عن هناك، وفي غضون ساعة على الأكثر كانت القرية كلّها ستجتمع في مرحلة ردّ الفعل العنيف على الموت. لم يكن أحد يحاول توجيه هذا الغضب أو إيقافه، بل كان الأكبر سنّاً في كثير من الأحيان هم الأكثر غضبًا، وكان سلوكهم يحرض الأصغر سنّاً وحتى الأطفال. سيظلّون هكذا يصرخون ويرفسون في الهواء، يهتزون ويتخبّطون، يضربون صدورهم وأفخاذهم بصفعات عنيفة حتى يسقطوا على الأرض من الإنهاك، وهو ما كان يعني لبعض الأقوى منهم ساعات عدّة من المعاناة.

تفاعلت الغابة مع الجلبة مضخّمة إياها أولاً: أضافت الطيور والقرود من كلّ الأصناف صراخها إلى صراخ الرجال والنساء مكوّنة رنيناً مهيباً حقّاً. ثمّ، مع استمرار الألم خارج السيطرة، هجرت الحيوانات الساحة وتركت حلقة من الصمت حول انفجارات الغضب، مكوّنة أثراً استثنائياً آخر، نوعاً من صدى بعيد منخفض تولّده الأشجار نفسها.

لا!

أول ما رآه أنطونيو كان القدمين. لسبب ما، كان أنطونيو، دون حتى أن يدرك ذلك تماماً، قادراً على تمييز الجميع تقريباً برؤية القدمين فحسب، أقدام ذات أخمص متين لكنّها مرنة على نحو لا يُصدّق، خشنة متصلّبة لكنّها حسّاسة حساسية استثنائية.

لا!

لم تكن لديه شكوك، لكنّه أراد أن يقنع نفسه بأنّه ليس صحيحاً، بأنّه لا يمكن أن يكون، بأنّه من الممكن تماماً أن يكون مخطئاً.

«لا!» ضاعت الصرخة بالبرتغالية بين صرخات من حوله: «لا! لا! لا!»

ممدةً على الأرض مغمضة العينين كانت ترقد أيندي، بتعبير مسترخٍ على نحو غريب، وشعرها مبعثر حول رأسها مكوّنًا ما يشبه الهالة.

الساحرة.

كم من الأشياء علّمته إيّاها أيندي، امرأة الطبّ، الساحرة؟ كلّ شيء. شعر أنطونيو بالغضب نفسه الذي كان الآخرون يعبّرون عنه يتصاعد في داخله. لم يحدث له ذلك من قبل، كان عادةً يكتفي بمشاهدة هذا التعبير الأوّل عن الألم من بعيد، لكن هذه المرّة كان الأمر مختلفًا. بدأ يصرخ ويهتّز مثل الآخرين، وفي وقت قصير فقد الإحساس بالزمان والمكان.

حين أعاد فتح عينيه كان مضطجعًا على الأرض الرطبة، وهواء العصر الدافئ يلفّ القرية بينما كان كثير من الأشدّ احتمالًا، رجالًا ونساءً، ما يزالون يرتجفون فيما تحوّل إلى نوع من رقصة الجنازة. كان الشيوخ قد بدأوا يهيئون الجثمان ويبنون محرقة الجنازة: بين أربع حجارة كبيرة كُدت كمية كبيرة من الحطب، وُضعت فوقها لوحة من الحجر نفسه ليُضجّع عليها الجثمان. كلّ ممتلكات المتوفّاة كانت ستحترق في المحرقة، والأشياء التي لن تشتعل كانت ستُجمّع وتُرمى في النهر. وحين يحترق اللحم، كانت العظام ستُجمّع وتُحرق على حدة حتى تصير رمادًا.

راقب أنطونيو الإجراء كلّهُ بفتور غريب: النار التي تنطلق من الراتنجة وتغمر الحطب، التي تعلو عالية وتلفّ امرأة الطبّ ممتزجةً باحمرار الغروب، الجثمان الذي يسودّ ببطء ويختفي من هذا العالم، العظام.

أخذ الرماد أربعة شبّان، شابّان وشابّتان، وحملوه إلى قمة سقّف الأشجار الذي كان يغطّي القرية جزئيًا، على ارتفاع عشرين مترًا من سطح الأرض على الأقلّ، ثمّ ترك يسقط ببطء كالثلج على الأكواخ، على الناس، على كلّ شيء. تحت هذا الثلج الرهيب كان أوائل الصيادين الذين انطلقوا في الصيد الخاصّ قد بدأوا يعودون. كان الجميع سيأكلون في الوليمة ويشربون حتى تخذلهم القوى. كانت مدّة المأدبة تعتمد على مقدار شأن المتوفّى، وفي هذه الحالة لم تكن ستدوم أقلّ من ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ.

كانت أوائل الأناشيد قد بدأت ترتفع، والنساء والفتيان الأصغر سنًا يتوجّهون إلى الشيوخ مطلّقين أغاني بالغة القدم، لا يلتقط أنطونيو منها سوى بعض الكلمات، بهدف معلّن هو التخفيف عن أرواحهم. البالغون غير المشغولين بمهمّة ما كانوا يصغون بسلبية إلى هذه الألحان، ونادرًا ما يسمحون لأنفسهم بنصف ابتسامة، وعيونهم ممتلئة بالدموع. قريبًا سيُطبخ اللحم، والمشروب الكحولي، ماء الغابة، سيأخذ في الجريان.

خلط أقرب أقرباء المرأة قبضةً من الرماد بحصّتهم من ماء الغابة، ودّعي أنطونيو إلى أن يرشف منه رشفة، ولم يحدث ذلك من قبل قطّ.

ما شعر به أنطونيو كان إحساسًا بالاكتمال: روح الساحرة كانت قد دخلت في داخله. أكل وشرب بلا خوف ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ، وحين استيقظ عند فجر اليوم الرابع فهم أنّ شيئًا في داخله قد تغيّر إلى الأبد.

2.21 سعادة

عزيزي الدفتر... كان أنطونيو يمضي غالبًا بعض الوقت مع نفسه متحدّثًا بمفرده، لا، كانت هناك كلمة أصحّ، الجريدة؟ عزيزتي الجريدة... لا، ولا هي. اليوميات! يومياتي العزيزة! إذن: يومياتي العزيزة، أنا هنا مضطجع على أرجوحة يحيط بي صغار يركضون ويضحكون، ولأول مرّة يجب أن أعترف لك أنني سعيد. لا أستطيع أن أصدق أنني بهذا القدر من الراحة. ألعب كرة القدم كلّ يوم، أو لعبتهم بالكرة التي كنت أستنكفها في البداية والتي تبدو لي الآن جميلة جدًّا، وقد صرت نوعًا من المربّي الرسمي لأطفال القرية، و... حسنًا، أنا سعيد. أكبر هموم هذه الأيام أنني لا أجد طريقة لأشرح لهم بها مفهوم البرد. بلغت حدّ أن أحكي لهم عن الجليد قائلًا إنّ الماء بين الحين والحين يصير حجرًا، وسط الضحكات، أمّا البرد فلم أفلح بعد في فهم كيف أحكيه.

«بال-لا؟»

سأل ياماندي، الذي طوال زمن كان أنطونيو يسمّيه في سرّه صاحب الجوربين، بابتسامته المعتادة، مستخدمًا الكلمة البرتغالية.

«كنت أريد أن أستريح لحظة»، أجاب أنطونيو مستخدمًا لغة القرية.

«بال-لا!»، أصرّ ياماندي مُريًا الكرة.

اللغة، هؤلاء الصبية لا يتعبون أبدًا... مثل كلّ صبية العالم، في الحقيقة، لكنّ هؤلاء يبدوون لي يقظين نشيطين كما لم أرَ إلا قليلًا.

«حسنًا، حسنًا، كرة، كرة»، قال بالبرتغالية كما كان يفعل بين الحين والحين. كانت بادرة مودّة، أحيانًا كانت تخرج منه تلقائيًا وأحيانًا كان يشعر حقًا بالحاجة إلى أن يطلق لنفسه العنان في مونولوجات طويلة بلغته القديمة، وهو يعرف تمامًا أنّهم لا يمكن أن يفهموه.

«لكن بلا عدو سريع، ها؟ طوال الصباح وأنا أجعلكم تعدون وتنطلقون، ولا أريد أبدًا أن يصيبكم أدّى. أعرف، أنتم صغار، وحين يكون المرء صغيرًا يظنّ دائمًا أنّه لا يُقهر، لكن عليكم أن تفهموا مبكرًا متى تكون لحظة بذل الجهد ومتى تكون لحظة الراحة.»

نظر إليه ياماندي بنظرة مستمتعة، كعادته كلّما أصغى إلى هذه اللغة المجهولة: «هيا، الكبار في الصيد، والصغار ينتظرون في الملعب!» قال باللغة.

«في الملعب، ها؟ إذن مباراة، إذن سنستريح غدًا...»

لم يكن أنطونيو قلقًا حقًا، فهؤلاء الصبية معه أو بدونه كانوا سيلعبون على أيّ حال طوال اليوم، والأرجح أنّهم كانوا يفعلون ذلك منذ أجيال، لكنّه كان يشعر بالمسؤولية لأنّه يحاول توجيه إعدادهم البدني والفني، ولم يكن يريد أن يكسر أيّ توازن، فضلًا عن أيّ ليفة عضلية.

غير أنّهم حين وصلوا إلى الملعب كان أوائل الكبار يعودون من رحلة الصيد. كانت القاعدة أنّه في حضور الكبار لا حقّ للأصغر سنًا في دخول الفسحة، ولا يمكنهم البقاء إلا جانبًا. كان أنطونيو قد علّمهم أن يشجّعوا قليلًا، لأنّ مباريات الكرة كانت تُتابع عادةً في صمت، ربّما مع ثرثرة، لكن من دون صياح قطعًا. وصول الكبار ترك على الصبية طبقة من الخيبة: كان يجب أن يعودوا إلى القرية ويتركوا الطريق مفتوحًا لأصحاب الحق. لكن تلك المرّة كان الأمر مختلفًا: اقترب أحد الصيادين من أنطونيو وقال له متكلّمًا ببطء: «الآخرون ما زالوا في الصيد، نلعب مع الصغار؟»

لم يحدث ذلك قطّ. كان يمكن أن يحدث أن يشارك أحد أمهر الصبية في مباراة، لعلّه يعوّض شخصًا أصيب أو كان مشغولًا في مكان آخر، لكن كبارًا ضدّ صغار لم يُرَ قطّ، إلا نادرًا، ربّما اثنين ضدّ اثنين أو ثلاثة ضدّ ثلاثة.

«العبوا برفق من فضلك»، أجابه أنطونيو، خائفاً أن يؤذي احتكاك جسدي عنيف أكثر من اللازم أحد «أولاده».

«لا برفق، بقوة، بقوة كبيرة، هكذا يصيرون رجالاً أبكر»، أجاب الرجل بنبرة لم تبدُ ساخرة إطلاقاً، «لكن بلعبتك أنت، بكرة القدم، لا بلعبة الكرة.»

نعم، فكر أنطونيو، أعرف، لعبة الكرة مقدسة.

فهم الصبية فوراً وصاروا صورة السعادة، يصرخون، يركضون في الملعب، يتعانقون، كانوا الفرح متجسداً، وكلّ هذا قبل ركلة البداية حتى.

«لنفعل كما تقول أنت يا أنطونيو، نفعل السهام المسمومة والقوس المشدود أكثر من اللازم، حسناً؟»

أوماً أنطونيو وعلى وجهه ابتسامة عريضة مرسومة، كان يكفيه أن يلعبوا وأن يستمتعوا. لم يكن متأكدًا حتى من أنّ أسماء المخططات واضحة لهم جميعاً، فقد أدخلها منذ وقت قصير جداً، على سبيل اللعب أكثر منه على سبيل الجدّ. ثمّ إنهم لم يعودوا أطفالاً لكنهم ما زالوا كلّهم صبيةً صغاراً، صغاراً أكثر من اللازم على أيّ حال، وكانت تلك مفاهيم أصعب من اللازم.

بدأ الصغار خجلين متعثرين، وكان يجب تفهّمهم، فأمامهم كان كبار صيادي القرية، أقوى الرجال وأكثرهم احتراماً. كانوا يخطئون التمريرات، يضيعون الكرة، ومخططات أنطونيو لم تولّد سوى ارتباك كبير. ومع كلّ هدف يدخل مرماهم كانوا يزدادون اكتئاباً، وكان اثنان منهم قرييين جداً من الدموع.

ثمّ فجأة انطلق شيء ما في رؤوس الصبية، وأخذ القوس المشدود أكثر من اللازم يعمل. كان لاعبو الأطراف يساعدون قلوب الدفاع في المرحلة الدفاعية، وكان الكبار يجدون باستمرار صغيرين أو ثلاثة بين أقدامهم، والاحتفاظ بالكرة صار يزداد صعوبة. ولقد أركضتهم اليوم ويفترض أن يكونوا متعبين، فكر أنطونيو. ظلّوا يخطئون التمريرات ويضيعون الكرة، لكنّ الدفاع صار الآن يصمد، وعند أربعة أهداف أو خمسة مقابل لا شيء لم يعد كبار الصيادين قادرين على التسجيل ولا حتى على الاقتراب كثيراً من المرمى.

رأى أنطونيو ياماندي يواصل التهامس مع اثنين من رفاقه: إنّه يذكّرهم بالسهام المسمومة، أدرك. وكان ينتظر أيضاً الفرصة المناسبة. أضع أحد الصيادين الكرة في وسط الملعب محاصراً بثلاثة خصوم صغار هائجين، فوصلت الكرة بين قدمي ياماندي الذي انطلق مرتين بسرعة وغيّر اتجاهه، تاركاً خصمه على بُعد أمتار عدّة. وحين صار المرمى على مرمى بصره تظاهر بالتسديد، لكنّه بدلاً من ذلك صبّ تمريرة بالغة الدقّة نحو أحد رفاقه الثلاثة الذين كانوا قد تسلّلوا بتوقيت مثالي بين مدافعي الخصم: السهام المسمومة.

تأمل أنطونيو القوس الطويل للتمريرة شاعراً بإحساس جديد كلّ الجدّة: كانت لحظة جمال، وصمت، ونمو. كانت عيون الخصوم تائهة في الدهشة، وكانت عيون أولاده كعيون الجاكوار. ليس صحيحاً أنّ كلّ شيء يعتمد: حين يكون كلّ شيء بهذه الدقّة، حين توجد كلّ هذه الرغبة وكلّ هذا الفرح، لا يعود شيء يعتمد. نصف مقصية جاسي، أحد أكبر الصبية، خرجت من قدمه بسرعة لا تُصدّق، ابنة التوقيت المثالي. ظلّ الحارس ثابتاً، ولعلّه لم يلحق حتى أن يرى الكرة تدخل المرمى. كان ياماندي يحتفل مسبقاً كما علّمه أنطونيو، ذراعه مرفوعتان، راكضاً نحو رفيق ليعانقه. في داخله كان يعرف بشكل ما، بسبق كبير، أنّ الكرة ستدخل، في داخله كان يعرف سلفاً أنّ شيئاً لم يعد يعتمد.

هذا أفضل فريق كرة قدم امتلكته في حياتي، فكر أنطونيو سعيداً كما لم يكن قطّ.

2.22 حكايات

«أنطونيو، أنت قادر على بناء كل شيء؟»

قاطع الصوت الرقيق لجانينا مونولوغًا طويلًا عن كرة القدم مؤلفًا من ذكريات غير دقيقة ومخططات مرسومة بعضًا على الأرض. استدار أنطونيو مندهشًا ونظر إليها بنظرة متسائلة بينما كان الصبية المحيطون به ينهضون ويركضون مبتعدين.

«أنت تحكي دائمًا عن قريبك وعن الأشياء التي في قريبك، أتعرف أن تبني تلك الأشياء؟ مثلاً، أتقدر على بناء الطائر الكبير المضيء؟»

«الطائرة؟» سأل أنطونيو بالبرتغالية، «لا، لست قادرًا، لست قادرًا حتى على بناء أكواخكم»، ختم منتقلًا إلى اللغة المحلية.

«لكنك رأيت كل تلك الأشياء، أليس كذلك؟ لماذا لا تعرف بناءها؟» أصرّت جانينا، التي كانت تحرك يديها وهي تتكلم أكثر بكثير من رفاقها، لأن لغة القرية لم تكن لغتها الأم هي أيضًا. كان ذلك يضيف نبرة مفحمة على كل ما تقوله، ويبرز حضورها الجسدي وجسدها الذي لم يكن أنطونيو يقدر على منع عينيه عنه.

«لأنها أشياء صعبة»، كان أنطونيو يندهش أحيانًا من كثرة ما ينجح في قوله بمفرداته التي ما تزال محدودة نسبيًا، «تحتاج رجالًا كثيرين وتفكيرًا كثيرًا».

على بُعد قليل كانت امرأتان أكبر سنًا منشغلتين بإشعال نار، فتدخلت إحدهما ضاحكة: «أنطونيو غير قادر حتى على إشعال النار!»

«بلى أنا قادر!» أجاب، «يستغرق مني وقتًا طويلًا لكنني قادر!»

أثارت ضحكة جماعية في أنطونيو شكًا في أنه قال شيئًا بطريقة خاطئة.

«احكِ شيئًا جميلًا عن قريبك»، طلبت جانينا من جديد جالسةً بجانب أنطونيو، قريبة جدًا، والركبتان تكادان تتلامسان.

«شيء جميل؟»

كانت كل حكاياته تقريبًا تدور حول كرة القدم، وبطولات العالم، واللاعبين العظام، وبعض تجاربه. لم يكن يفعل ذلك عن قصد، كان يشعر بأن اللغة تحدّه، وكانت كرة القدم موضوعًا سهل الترجمة إلى حد ما ويهم الجميع. وحيث لا تبلغ الكلمات كان يمكنه البلوغ بالبرهنة، بالإيماءات، بالرسم. كانت كرة القدم بابه إلى تعلم اللغة. لكنه الآن أراد أن يحكي لجانينا شيئًا يعتبره هو جميلًا في عالمه، شيئًا يشعر بافتقاده.

«في قريبتي، بل ليس فيها فقط، في العالم كله، توجد خيوط...» كيف يحكي هذا الأمر بلغة نشأت داخل غابة الأمازون، وتطوّرت على قدّ شعب من الصيادين؟ «وفي هذه الخيوط يمرّ فكر الآخرين، نحن نسّميه “الإنترنت”، إن اتّصلت بأحد هذه الخيوط يمكنك أن تري ما يفكر فيه الآخرون.»

«نرى؟» سألت إحدى المرأتين اللتين كانتا قبلًا تسخران من أنطونيو، مفتونة.

«نعم، نرى، لأنّ داخل هذه الخيوط تمرّ الأفكار التي تنتهي بعدها على شيء نسّميه “الشاشة”، وإذا نحن نظرنا إلى الشاشة رأينا الأفكار. آه، إنه مثل حين نرسم على الأرض، الأرض هي الشاشة وهي تريكّم ما أفكر فيه، صحيح؟»

«لم أفكر في ذلك قط...» تدخّلت جاناينا.

«نعم، حين ترسمين فأنت تخرجين شيئًا من داخلك،» ما أصعب قول هذا بهذه اللغة، «وعبر الخيوط الموجودة في العالم يمكنك أن تكوني بعيدة جدًا ويصل فكرك على الشاشة مع ذلك.»

«لكن بعيدًا إلى أي حدّ حتى النهر؟ حتى أشجار الباكابا؟»

كان أنطونيو يعرف أنّ مفهوم المسافة غامض إلى حدّ بعيد عند سكّان القرية، فأكثر من مرّة كان قد واجه صعوبات هائلة في أن يحدثهم عن العالم بأسره.

«بعيدة، بعيدة بأيّ قدر تريدين، فكّري في أبعد شيء تعرفينه.»

«القمر.»

«هكذا إذن، بعيدة مثل القمر.»

«أيمكن سماع أفكار القمر؟»

«لا، أفكار القمر لا، لا أعرف إن كان للقمر أفكار. لكنّ رجالًا ذهبوا ذات مرّة إلى القمر، وكنا نستطيع سماع كلماتهم عبر خيوط خاصّة غير مرئية.»

«خيوط غير مرئية؟»

«نعم.»

«تمتدّ من الأرض إلى القمر؟»

«نعم.»

أدرك أنطونيو كم كان لا بدّ أن تبدو تلك الكلمات غير قابلة للتصديق، إذا وُضع في الحسبان أنّ ثمة أناسًا يستخدمون تلك الخيوط ومع ذلك لا يصدّقون أنّ الإنسان ذهب إلى القمر. توقع أن تُبدي شكًا، لكنّه بدلًا من ذلك تأمّل بدهشة جاناينا تنظر حولها بعينين حالمتين وتسأله: «أتوجد هنا أيضًا خيوط غير مرئية؟»

استغرق أنطونيو بضع ثوانٍ ليتعافى من الدهشة قبل أن يجيب: «نعم.»

«لكنّنا لا نقدر على رؤيتها لأنّنا غير قادرين على بناء الشاشة، صحيح؟»

«صحيح.»

«يا للأسف»، ختمت جاناينا، «كان سيسرّني أن أراها. وليس هناك أمل في أن تتعلّم بناءها، أليس كذلك؟»

«لا، يؤسفني ذلك.»

2.23 إفصاحات

انتشر الخبر بأن أنطونيو يعرف أغرب الحكايات التي سُمعت في القرية قَطّ، واستحوذ على سَكّانها فضولٌ لم يكونوا يعرفون حتى أنه فيهم.

بدا إشباعهم مستحيلًا، وساعدت على ذلك اللغة التي كانت ترغم أنطونيو على التفافات طويلة جدًا في الكلام ليحاول وصف ما كان وصفه صعبًا جدًا إن لم يكن مستحيلًا. كانت النتيجة دائمًا بين المضحك والسحري، ومع كل حكاية كان الجمهور يزداد، وسرعان ما وجد أنطونيو نفسه أثناء حكاياته محاطًا بالقرية كلها وهي تُصغي.

في النهاية، الأمر ليس مختلفًا كثيرًا عما كان حين كنت في الإذاعة، بل لعلّ لي هنا مستمعين أكثر. بالمناسبة...

«لا توجد فقط الخيوط التي تُرى، توجد أيضًا خيوط غير مرئية...»

«مثل الذي يصل حتى القمر!» تدخّلت جانائنا بإيماءاتها الواسعة ونبرة فخر في صوتها.

«ولهذا يبقى القمر في السماء! إنّه معلقٌ بخيط!» أكّد صوت آخر.

استأنف أنطونيو: «عبر هذه الخيوط غير المرئية تمرّ أصوات الناس...»

«ألم تكن تمرّ الأفكار؟» سألت امرأة عجوز.

«لا يا أختاه»، تدخّلت جانائنا من جديد، «الأفكار تمرّ في الخيوط الحقيقية، تلك التي يمكنك رؤيتها! أمّا في الخيوط غير المرئية فلا يمرّ سوى الصوت!»

والصور أيضًا يا عزيزتي، لكن هذا ربّما أشرحه في مرّة أخرى...

«كنت كلّ يوم أتكلّم داخل مصيدة للصوت تأخذ كلماتي وتوزّعها على الخيوط غير المرئية. نسمّيها “الراديو”، وتُستخدم للتحدّث مع الناس كما أفعل معكم. غير أنّ من كان يصغي لم يكن عليه أن يقف أمامي، كان يمكنه أن يكون في كوخه، ويمكنه أيضًا أن يكون في العراء، حتى بعيدًا.»

«بعيدًا إلى أي حدّ؟ حتى أشجار الباكابا؟» سألته فتاة في اللحظة نفسها التي كان أنطونيو يندم فيها على أنّه مسّ من جديد موضوع “المسافة”.

«حتى القمر! حتى القمر!» أجابت جانائنا بحماسة أكبر من أيّ وقت مضى.

«لكنّ صوتي لم يكن يصل حتى القمر، لنقل إنّه كان يصل تقريبًا إلى أشجار الباكابا، وربّما أبعد قليلًا»، ختم أنطونيو بينما كانت الخيبة تستحوذ على جانائنا التي كانت في قلبها تأمل أن يكون أنطونيو قادرًا على التكلّم مع القمر.

«إنّها طريقتنا نحن في حكي الحكايات. كلّ واحد يواصل فعل ما يفعله وهو يصغي في تلك الأثناء إلى صوتي.»

«لكن الإصغاء جميعًا معًا جميل!» تدخّل رجل بالغ، أحد الصيادين.

«الشبان يتعلّمون أفضل!» قال شيخ.

«إذا سمعت الصوت لا تسمع الأصوات الأخرى، فكيف تصطاد؟» جادل الصياد الأوّل حاسمًا المسألة.

نظر أنطونيو حوله، كان يشعر على نفسه بنظرات الجميع، وبخاصّة نظرة جانائنا التي، بعد أن تعافت من صدمة الخبر بأنّ أنطونيو لا يتكلّم مع القمر، كانت تُنضج إحدى أفكارها الغريبة.

«ما أغرب قريتك»، قالت أخيرًا بابتسامة عريضة، «فيها خيوط يمرّ فيها الفكر وخيوط غير مرئية تحمل الصوت. أما كان يمكنكم أن تضعوا الفكر مباشرةً في الخيوط غير المرئية؟»

«أتدريين أنّها فكرة جيّدة؟ بل أنا واثق أنّه عاجلاً أم آجلاً سيكون الأمر هكذا تمامًا، الأفكار ستسافر في الخيوط غير المرئية.»

«أنطونيو»، كانت المتكلّمة جدّة أطفال كثيرين، ممتلئة الجسم حنونًا كالأمّ، «لكن ألا تفتقد قريتك، قبيلتك؟»

لم يتوقّع أنطونيو سؤالاً بهذه المباشرة، سؤالاً لم يكن قد طرحه على نفسه قطّ طوال هذا الوقت بهذه البساطة، وأثر فيه أكثر ممّا كان يتوقّع.

«لا، ليس كثيرًا، أنا بخير هنا، قبيلتي الآن أنتم. حسّنًا، والداي وأخواتي، طبعًا، أفتقدهم قليلًا... وربما فتاة كنت أعرفها...» قال أنطونيو مدرّكًا فجأةً كم صارت حياته السابقة بعيدة.

«كانت تعلّق أرجوحتها قرب أرجوحتك؟»

«لا، لا، همم...» أجاب أنطونيو بابتسامة مرتبكة رامقًا جانابينا بنظرة، «هي لم تكن تريد...»

«ولهذا رحلت؟»

«لقد ضللتُ الطريق، هذه هي الحقيقة. في قريتي لم يعودوا سيدعون الصبية الذين كنت معهم يلعبون الكرة، فقرّرت أن أتركها لبعض الوقت، لكنني ضللت الطريق.»

أثار هذا القول رجّة بين أهل القرية جميعًا، فأخذوا يتناقشون فيما بينهم بحيوية. ونهض شيخان مقطبان جدًّا وتوسّطا الدائرة: «لعب الكرة! كيف يمكن أن يُمنع لعب الكرة؟»

«لعلّ الملعب احترق؟ لكن حتى في هذه الحال يكفي انتظار أيّام قليلة!»

لم تتوقّف الضجّة بين المستمعين، فاغتنمها أنطونيو ليتعافى من موجة المشاعر التي اجتاحتته.

«في النهاية، أنتم أيضًا منعمونني زمنًا طويلًا من أن ألعب لعبتكم بالكرة، وفي قريتي لم يكن الأمر مختلفًا كثيرًا. رجل عجوز لم يعد يسمح بأن يلعب أولادي.»

«لو كان قد منعك أنت من اللعب»، قال أوّل الشيخين، «لكان الرجل العجوز حكيماً: فأنت لست بارعًا بالكرة! لكنّه منع أولادك من اللعب، وهذا ليس من الحكمة.»

«أنا سعيد حقًا أنّني قابلتكم»، ختم أنطونيو هازًا رأسه.

2.24 ساودادي

منذ زمن بعيد كان أنطونيو قد قرأ مقالاً عن الكلمات الفريدة في لغات العالم المختلفة، تلك التي يصعب ترجمتها لأنّه يصعب نقل معناها. الكلمة البرتغالية الوحيدة التي ظهرت بين العشر الأوائل كانت “ساودادي”، وكان أنطونيو يتذكر أنّه وجد الأمر مسلياً، لأنّها في الواقع بدت له دائماً كلمة عصيّة على الفهم حتى عليه هو.

كان معناها واضحاً له تماماً، بطبيعة الحال، لكنّه كان يجد صعوبة في أن يعيشه بنفسه وأن يفهم كيف يمكن أن يشعر المرء بالسودادي تجاه أيّ شيء، كما بدا أنّ كثيرين من معارفه يفعلون. كان قد افترض أنّ ذلك يرجع جزئياً على الأقلّ إلى أنّه لم يغادر ماكابا قطّ، لكن حتى أخواته كنّ يفعلن دائماً الأشياء نفسها، بل يعشن حتى في بيت العائلة نفسه الذي وُلدن فيه، ومع ذلك يتحدثن بلا توقّف عن السودادي، عن صديق لا يرينه منذ زمن، أو معلّمة المدرسة، أو طبق كنّ يأكلنه صغيرات، أو لعبة...

والآن، وهو يعيش في الغابة منذ الله يعلم متى، حصل على التأكيد النهائي أنّ السودادي لا يتعلّق بالمكان الذي تعيش فيه. تجاه بعض الأشياء كان يشعر بالأسى: كان يؤسّفه أن يظنّ والداه وأخواته أنّه مات، لكنّه، على نحو غريب، لم يكن يشعر تجاههم بالسودادي (وإن كان يخجل من هذا قليلاً). في البداية كان يؤسّفه ألاّ يدرّس بعد، ألاّ يشرح كرة القدم، ألاّ يتكلّم في الإذاعة، لكن بعد انقضاء الفترة الرهيبة من انعدام التواصل، والآن إذ صار يقدر على التكلّم مع أصدقائه الجدد، لم يكن عنده أدنى ندم على الأزمنة القديمة. كان هناك شيئان فقط يشعر تجاههما بالسودادي.

أحدهما كان المستقبل. كان أنطونيو الآن في غاية الراحة في عالمه الجديد، ومن المؤكّد أنّه لم يكن يشعر بالملل، فداًئماً كانت هناك أشياء تُفعل أو حكايات تُروى، لكن في نمط حياة الشعب الذي كان يعيش بينه كان التقدّم غائباً غائباً شبه كامل. بعد عشرة أعوام كانوا سيفعلون الأشياء نفسها بالطريقة نفسها تقريباً التي كانوا يفعلونها بها الآن.

كان هذا مريحاً للنفس في الغالب، لكن بين الحين والحين لم يكن أنطونيو يملك نفسه من أن يفكر بقليل من الكآبة في الإيقاع الدوّار لتقدّم العالم الذي تركه. من يدري أيّ ابتكارات حدثت في مجال المعلوماتية، مثلاً. شبه مؤكّد أنّ صفحات الإنترنت كانت الآن تُحمّل بضعف السرعة أو حتى ثلاثة أضعافها؛ ومع ذلك الشيء، نابر أو ما كان اسمه، لعلّه صار بالإمكان الآن سماع ألبومات كاملة أو ربّما حتى مشاهدة الأفلام! لكن من المؤكّد أنّه كانت قد نشبت حروب جديدة أيضاً، وباعتبار أنّ الإنسان كان يجد دائماً طريقة لاستخدام التقنية لإلحاق الأذى أيضاً، فلعلّ أحدهم قد نجح في اكتشاف الوجه المظلم للتقنيات الجديدة واستغلاله؟ كانت هذه الفكرة تُطلّ برأسها كلّ مرّة، وتساعد على إبقاء الندم على العالم خارج الغابة تحت السيطرة.

أمّا أنقى أشكال السودادي فكان يشعر به تجاه جدّه. وُلد ريكاردو باولو ألميدا كارفاليو في ماكابا عام 1918. حالة شبه العزلة التي كانت تعيشها المدينة، والتي كانت لكثير من أهلها عزراً ممتازاً للبقاء مغروسين هناك في الأرض، حفّزت في ريكاردو بالمقابل الرغبة في السفر ومعرفة البرازيل والعالم. وحين جاءت الحرب، التحق فوراً بالجيش عام 1943. وبما أنّ الموت في المعركة كان سيعيق خطته لمعرفة العالم، اختار تخصّصاً يبقيه بعيداً عن الخطّ الأوّل بصورة معقولة. وهكذا وجد نفسه في إيطاليا عازف بوق في فرقة القوّة الاستكشافية البرازيلية، يقاتل على جبال الأبينين في إميليا ويعزف نشيد البرازيل ونشيد إيطاليا في مونتيزي ثمّ شيئاً فشيئاً في كلّ المدن المحرّرة الأخرى.

لم يكن أنطونيو يتذكّر إلا القليل جدّاً من حكاياته عن تلك الحقبة، لأنّها في أغلب الأحيان لم تكن تخصّ المعارك، التي كان سيصغي إليها بسرور، بل سحر فتيات بولونيا ومودينا، وسماعها تُروى أمام جدّته كان يربكه غير قليل. الآن كان سيصغي بسرور حتى إلى تلك الحكايات، لكن لم يعد هناك جدّ لبرويها، وهذا ربّما كان السبب الرئيسي للسودادي التي يشعر بها. على أيّ حال، كان ريكاردو قد عاد بعدها إلى البرازيل في نهاية الحرب، متمركزاً في ريو دي جانيرو، حيث تعرّف على امرأة يفوق سحرها سحر الإميليات بأشواط (وبكم شوطاً كان يفوقه كان يتوقّف على ما إذا كانت الجدة حاضرة أثناء الحكاية أم لا)، وحيث، قبل كلّ شيء، كان قد صعد في رتب الفرقة العسكرية استعداداً لأوّل مونديال لكرة القدم بعد الحرب، الذي كان سيُقام في البرازيل نفسها عام 1950.

حكاية ذلك المونديال وخاتمة المأساوية معروفة لدى كلّ البرازيليين. كان أنطونيو يتذكّر تماماً، كأنّه سمعها قبل دقيقة، المرّة التي سمعها فيها من جدّه: كان عام 1978، وكانت البرازيل قد سُلبت النهائي لتوّها لصالح الأرجنتين بعد

2.25 البالغون

«أنت حين تصير رجلاً ماذا تريد أن تفعل؟»

«ماذا تقصد؟»

«ما سألتك عنه. ماذا تريد أن تفعل ابتداءً من الغد، حين نصير رجلاً؟»

كانوا مجتمعين في مكانهم المفضل في الغابة كلها، شجرة أبنوس هائلة، في منتصف الطريق بين القرية والنهر: جالسين على الأغصان الكبيرة التي كانت تؤدي وظيفة مقاعد مريحة، منكمشين تحت الأوراق الضخمة التي كانت تحميهم من المطر الذي كان يهطل ذلك اليوم بإلحاح غير معتاد في تلك المنطقة التي كانت فيها النباتات أقل كثافةً نسبيًا. مطرٌ جعل الببغاوات تحطّ كأزهار متعدّدة الألوان على الأغصان، حيث كانت تراقبهم وهي تنعق خافتة فيما بينها. كانت بتلات الهليكونيا لامعة وحمراء كما لم تكن قط. كانت لحظة كاملة.

أجاب بياتا كما لو أنّ ياماندي سأله ما الذي ستفعله الشمس بعد أن تغرب. الشمس ستشرق ثمّ تغرب من جديد، والمطر سيتوقّف عن الهطول ثمّ يستأنف، وفي تلك الأثناء ستواصل النباتات النمو، والحيوانات أكل النباتات أو أكل بعضها بعضًا: «سأفعل ما يفعل حين يصير المرء رجلاً: سأظلّ جزءًا من القرية، بمسؤوليات الرجال. لماذا، ماذا تريد أنت أن تفعل غير ذلك؟ لا أفهم حتى لماذا تسألني.»

«من السهل عليك أن تقول ذلك. أن تقبل الحياة كما تأتي. أنت أضخمنا وأصلبنا ولست حتى أبله أكثر من اللازم،» توقف ياماندي لحظةً وجيزة ليتفادى الركلة التي حاول بياتا أن ينهال بها عليه، «أنت حتى أضخم من كثيرين ولدوا قبلنا والجميع يحترمونا. من الطبيعي أنك حين يأتي الوقت ستكون أنت شيخ القرية.»

«ماذا تقول؟ ومن يهتم الأمر. أتدري كم ماء سينزل من السماء قبل أن يحدث ذلك؟ أنا لا أريد أن أصير شيخًا، وقبل كلّ شيء لا أريد أن أفكر في ذلك الآن. تعلم أنّك حين تصير شيخًا يكون موتك قد اقترب. لماذا يجب أن أفكر في ذلك الآن؟ ما هذه الأفكار التي تفكرها، أتخشى الغد إلى هذا الحد؟»

«لا أخشى الغد، تعلم ذلك. ما سيحدث بعد الغد هو الذي لا يدعني ارتاح في نومي. سنصير رجلاً. ثمّ ماذا؟ ماذا نفعل حين نكون رجلاً؟ لماذا يجب أن يتغيّر شيء حين نصير رجلاً؟»

«أنا أعرف ماذا أريد أن أفعل بعد أن أصير رجلاً»، قال مواسير، الجالس أسفل منهم بغصنين، مقاطعًا نقش اسمه المضني الذي كان يزخر به جذع الشجرة. انتظر أن يلتفت الجميع نحوه ثمّ أضاف: «أريد أن أذهب لأرى العالم.»

فتح أحدهم عينيه دهشة، وانفجر آخر في الضحك.

«لكن أيّ عالم؟» فهم ياماندي فورًا أنّ مواسير كان يتكلّم بجديّة، وفهم أيضًا من أين وُلدت تلك الفكرة. وأيضًا لأنّه، وإن لم يرد الاعتراف بذلك، كان قد فكّر فيها هو أيضًا.

«تريد أن تذهب لتري قرية أنطونيو، تري ماكايا؟» تابع.

«نعم. وليس هذا فقط. أريد أن أسير في العالم الموجود خارج الغابة، أريد أن أذهب إلى الماراكانا، أريد أن أستخدم كلّ الأدوات التي حدّثنا عنها أنطونيو، أريد أن أرى الناس يلعبون كلّ تلك الألعاب الغريبة. أريد أن أصعد على الطائر الكبير المضيء.»

وبينما كان يتكلّم كفّ الآخرون عن الضحك المكتوم، لكنّ جرأة هذا القول الأخير كانت قد أسكتتهم تمامًا، تركتهم بلا كلمات وبلا أنفاس. لم يكن يُسمَع سوى البساط الصوتي المعتاد للغابة، الذي بدا فوق أوراق الأبنوس مضخمًا حتى.

«لكن هل جنت؟ هل شربت مشروب الأحلام قبل أن تصير رجلاً حتى؟»

كان بياتا هو من استأنف الكلام (وفكر ياماندي فوراً: **وها هو أول خطاب له بصفته شيخاً**)، «الوصول إلى ماكابا مستحيل. وحتى لو كان ممكناً، لماذا يريده أحد؟ أنطونيو جاء إلى هنا من ماكابا وبقي هنا. هذا يعني أن هنا أفضل.»

«ربما. لكنه رأى القريتين كليهما ثم اختار. أريد أن أرى أنا أيضاً، قبل أن أختار.»

«وأراسي المسكينة؟ تعلم أنها لا تطيق صبراً على أن تعلق أرجوحتها قرب أرجوحتك. أتريد أن تهجرها هكذا؟» كان بياتا يعرف أن مواسير يرتبك حين يتكلم عن الفتيات، وكانت هذه الحيلة التي يلجأ إليها دائماً حين يريد إسكاته. لكن ليس في ذلك المساء.

«إن أردت، ستأتي معي»، رد مواسير واثقاً، وهو في ذلك المساء كان مصمماً على إدهاشهم حتى النهاية.

لكن المطر كان قد توقف عن الهطول، واللبغاوات كانت قد حلقت من جديد، واغتنمها ياماندي فرصة ليكسر الارتباك الذي نشأ في الجماعة: «كفى كلاماً، انتهى المطر، هيّا نذهب لنأخذ من أنطونيو النصائح الأخيرة للغد.»

2.26 طقس البلوغ

كان طقس بلوغ الفتيان جماعياً، وكان يقوم على مباراة في لعبة الكرة بين فريق الكبار (الذي كان يُنتقى له الأقوى، كمنتخب حقيقي للقرية) وفريق مؤلف من أكبر عشرة فتيان ممن لم يخوضوا الطقس بعد. قرب مدخل الشابونو كانت نخلة الطقس: كلما صار فتى طويلاً بما يكفي، كان يقطف جوز الهند ويدخل جماعة المقبلين على الطقس. وحين يقطف الفتى العاشر الثمرة يكون الفريق قد تشكل، وتبدأ الاستعدادات للطقس الذي يُقام بعد ثلاثة أيام.

كان بياتا وياماندي أكبر فتيين بين من لم يكونوا قد أدرجوا في دفعة الطقس السابقة، وفي سنتهم كان قد حدث انخفاض طفيف في الموالي، لذلك كان قد مرّ وقت طويل منذ الاحتفال السابق. لكن حين، قبل أيام، كان أوبيراتان هو التاسع الذي قطف الثمرة، سرت فيهما قشعريرة: كانا يعرفان أنه لم يعد يتبقى الكثير.

كان الجميع يظنون أنّ جوزة الهند العاشر سيقطفها أوبيراجارا، أو ربّما تاييني، لكن ذات صباح تقدّم كاوي متهلّ الوجه إلى إيتاتاكوارا، شامان الاحتفالات، وفي يده جوزة هند.

«شكراً يا كاوي، لكنني لست جائعاً الآن»، أجابه إيتاتاكوارا، مُسيئاً فهم ما كان يجري.

«لا»، هزّ كاوي رأسه، «ليست للأكل. إنها جوزة هند الاحتفال.»

«كاوي!» وبّخه إيتاتاكوارا مقطباً جبينه المطلي بالأحمر، «تعلم أنّه لا يُمزح في هذه الأمور.»

«أنا سعيد، لكنني لا أمزح.»

«وتعلم أيضاً أنّه محظور أن يعينك أحد أو أن تتسلّق الشجرة.»

«لم يعنّي أحد، فعلت كلّ شيء بنفسِي.»

كان كاوي يعرف أنّ قصر قامته، أكثر حتى من صغر سنّه، يبرّر عدم تصديق إيتاتاكوارا، فوجد نفسه ملزماً أن يضيف: «صنعت تلة صغيرة من الحجارة، وصعدت فوقها، وقفزت.»

كان حدثاً بلا سابقة. حتى في أقدم الحكايات المتوارثة جيلاً عن جيل لم يُروَ حدث مشابه، حتى إنّ القواعد لم تكن قد أخذته في الحسبان أصلاً. كان الفتيان يكتفون بالمرور تحت النخلة، يمدّون اليد، وبعضهم يقفز، لكن عادةً دون قناعة خاصة: لم يكن أحد يستعجل أن يصير كبيراً. غير أنّ كاوي لم يكن يريد أن ينفصل عن رفاق لعبه القدامى، فطوّرت الضرورة ما كان بوضوح تامّ عقلاً لامعاً.

بعد تشاور قصير بين الشيوخ، قُضي بأنّ كاوي قد كسب بصورة مشروعة الحقّ في دخول الطقس، وإن كان الجميع يأسفون له عالمين بما سيحدث بعد ثلاثة أيام.

التسعة الآخرون فرحوا حين عرفوا أنّ العاشر هو. كان صغيراً، نعم، لكن كانت له اندفاع قاتلة وحسّ بالموقع لا يُضاهى. حتى أنطونيو كان مقتنعاً أنّ ذلك خير لفريق الفتيان.

وكان قلقاً على هذا الفريق قلقاً غير قليل: كانت السنون قد مضت، لكنّ ذكرى الطقس الذي خاضه هو كانت ما تزال حيّة، كندبة على ذراع.

كانت تلك إحدى أشدّ اللحظات منذ وجوده في القرية. لكونه كبيراً لم يكن عليه أن يقطف أيّ جوزة هند؛ الشيوخ في لحظة ما كانوا قد قرّروا ببساطة أنّه لم يعد عاجزاً كطفل، وأنّه يمكن قبوله بين الرجال. في البداية كان الشعور الغالب هو السعادة، لأنّها كانت تتويجاً لقبوله عضواً كامل العضوية في القبيلة. ثمّ حلّ القلق. في ذلك الوقت كان قد صار قادراً

على التواصل، وإن بخشونة بعد، لكن حتى مع اعتقاده أنه كان قد فهم القواعد من مشاهدة المباريات، أمضى الأيام الثلاثة السابقة في مراجعتها.

كانت تُلعب عشرةً ضد عشرة في الفسحة الرئيسية، التي كانت تُجهّز وتُنظّف للمناسبة. اللاعب الذي معه الكرة لا يمكنه أن يتحرّك. أقرب الخصوم يمكنه أن يقف أمامه، لكن لحائز الكرة الحق في إبعاده بدفعة. حين يرى أن مجال الرؤية مفتوح، يركل حائز الكرة الكرة باتجاه رقيق. أوّل من يلمس الكرة بيديه أو قدميه يصير الحائز الجديد، وهكذا. كان هدف اللعبة إصابة الشجرتين المقدّستين في نهاية الملعب. كلّما أُصيّبتا كُلتاهما، سجّل الفريق نقطة.

وأخيرًا حلّ محلّ القلق الشعور الأخير: توقّع الذلّ. كانت تلك لفتيان الطقس أوّل مباراة في اللعبة، التي حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد استطاعوا سوى مشاهدتها. هذا، مقتصرًا بكون فريق الرجال أفضل فريق ممكن، بينما فتيان الطقس عشرة فتيان أيّا كانوا، كان يعني تفاوتًا هائلًا في القوى في الملعب، وهو ما كان يُترجم إلى هزائم مدمّرة.

بل لم يكن يصحّ، بدقّة، الحديث عن هزائم: كانت الهوّة بحيث لم تكن النقاط تُحتسب. كانت تُحسب فقط النقاط التي يسجلها فريق فتيان الطقس، وكان الاحتفال ينتهي حين ينجحون في بلوغ عشر منها، وهو ما كان يحدث عادةً بعد ساعات وساعات من اللعب، لا يرحم فيها الرجال ضربةً واحدة ويسجلّون النقاط عناقيد. كانت الرسالة واضحة: الآن صرتم رجالًا، لكنّها أوّل خطوة فحسب، وأمامكم طريق طويل قبل أن تصيروا مثلنا. الطقس الذي شارك فيه أنطونيو دام نهارًا كاملاً تقريبًا، ولم يكن يلزم أن يكون المرء عجوزًا جدًّا ليتذكّر طقوسًا أطول، كتلك التي شارك فيها كيريم، التي دامت أكثر من يومين.

أمّا الآن فكان الشعور الغالب في أنطونيو القلق من جديد. بفضل “مباريات كأس العالم” التي كان ينظّمها بانتظام كلّ قمرين، كان هذا ربّما أقوى فريق من فتيان الطقس شُهد منذ سنوات كثيرة، ومن المؤكّد أنّ لديهم روح فريق متينة. لكنّ عدم ممارسة اللعبة قطّ (مواسير كان قد طلب منه بعض المرّات أن يدربهم سرًّا، لكنّ أنطونيو رفض رفضًا قاطعًا) كان إعاقة كبيرة، وفوق ذلك كان أنطونيو يخشى أن ينتهي تعويدهم على كرة القدم إلى التشويش عليهم.

لذلك شاهد بدهشة كبيرة اللحظات الأولى من الطقس. الفتيان والرجال، مطلّبين بألوان الطقس والنضج، كانوا مرّكّبين ومتوتّرين، وصوت الحجارة والعصيّ المنتظم كان يضخّم خفق قلوبهم بينما كانت النساء والشيوخ يغنون النغمات العالية والعميقة لنشيد الصيرورة رجالًا.

غنى إيتاناكوارا، متزيّنًا بالتسريحة الاحتفالية من الريش، المقطع الأخير بصوت عالٍ، وأعطى إشارة بدء الاحتفال بركلة طويلة جدًّا، اعترضها فورًا مواسير بشيء يشبه تصدّيًا ستوريًا. مرّرت الكرة فورًا إلى بياتا، ومن هناك انطلقت تمريرة طويلة باتجاه ياماندي، الذي ضربها طائفةً مرسلاً إياها ترتدّ بين الشجرتين المقدّستين. نقطة للمرتقين.

ولم يكد الكبار يفيقون من الدهشة حتى عاد فتيان الطقس إلى الهجوم وخرجوا منه بنقطة ثانية، سجّلها كاوي، الذي ظهر من خضمّ تدافع بسرعة البرق.

كان الكبار لا يصدّقون. فتيان الطقس، مع احترامهم القواعد، كانوا يقلّبون أسلوب لعب كان متجدّدًا في القرية منذ الله يعلم متى، ربّما منذ قرون. حين كانت الكرة لهم، كانوا يضربونها طائفةً قدر الإمكان كي لا يمنحوا الخصوم وقتًا للتمركز لعرقلتهم. وحين كانت في يد الكبار، كانوا يقفون أمامهم، نعم، لكن على مسافة لا تسمح بدفعهم بعيدًا. كانوا يركضون هنا وهناك في الملعب كالممسوسين، مانعين الخصوم من تثبيت نقاط مرجعية دقيقة. وبعضهم، ولا سيّما ياماندي وكاوي، كانت له ركلة بالغة الدقّة حتى إنهم ينجحون في تسجيل النقطة من المحاولة الأولى حتى من بعيد، بينما كانت الطريقة المعتادة لتسجيل النقطة تقتضي اقتربًا بطيئًا من الهدف ومحاولات عدّة.

كان الكبار يحاولون أن يبدوا مسرورين بالأداء الكبير للفتيان، لكنّ كثيرين منهم كانوا في الحقيقة غاضبين، وسرعان ما حاولوا نقل المباراة إلى المستوى الوحيد الذي ما زالوا متفوّقين فيه: مستوى الاحتكاك الجسدي.

كان الفتيان يحاولون تفاديه قدر الإمكان، لكن حين كان يحدث، كانت الدفعات التي يتلقونها رهيبة. في إحدى المرّات قُذف كاوي إلى وراء نحو مترين وضرب رأسه، لحسن الحظّ دون أضرار كبيرة. وحتى جاسي وإيتانوا بل وحتى بياتا تلقوا ضربات لا يُستهان بها. الوحيد الذي بدا يرقص سائمًا فوق كلّ هذا الهرج كان ياماندي. وإليه آلت كرة النقطة

العاشرة. كان بيراي قد مرّر له كرة ممتازة، وبينه وبين الشجرتين لم يكن سوى جاغاريونا، أحد أصلب الكبار وأكثرهم خبرة، الذي انقضّ عليه بعنف تقريبًا لكن بتأخر طفيف. تفادى ياماندي جسمه العضلي بقفزة، ووجد نفسه وحيدًا والكرة بين قدميه أمام شجرتي النقاط، لكن موليًا ظهره لهما.

قبل ذلك بقليل كان أنطونيو قد حدّثه عن لاعب كرة قدم برازيلي، اسمه سوكراتيس، كان يهوى ضرب الكرة بالكعب ليُربك الخصوم. تحمّس ياماندي لهذا الجديد وأخذ يجربّه ويعيد تجربته فورًا. الآن كان أنطونيو يدعو ألاّ يستخدم ياماندي هذه الضربة لختم الاحتفال، أرجوك لا، لا بأس ألاّ نُذلّ، لكن إزال الكبار لا، قطعًا لا، أرجوك. ظلّ ياماندي مترددًا لحظة، ثمّ دار حول نفسه، مضيّعًا بذلك بعض الوقت ومانحًا جاغاريونا فرصة العودة إليه. بلمسة خفيفة من قدمه مرّر الكرة إلى بيراي، الذي كان في هذه الأثناء قد اقترب منهما تابعا اللعب، فكان من السهل عليه أن يضرب الشجرتين وينهي المباراة.

كان يمكن للاحتفالات أن تبدأ.

لأوّل مرّة في تاريخ القرية لم يسحق فريق الكبار فتیان الطقس. قالت جاناينا لأنطونيو إنّهُ لمن المؤسف ألاّ تُحسب نقاط الرجال: «من يدري كم نقطة سجّلوا. تخيل لو كانوا قد سجّلوا أقلّ من الفتیان، لكان رائعًا.»

«من يدري»، أجاب أنطونيو. وبينما كان يتأمل تعابير وجوه الكبار دون أن ينجح تمامًا في تفسيرها، فكّر أنّه لن يكشف لأحد أبدًا، ولا لها، ولا للفتیان، أنّ المباراة انتهت 10 مقابل 8 لصالحهم.

2.27 نُذِرْ

«ألا يمكننا أن نواصل غدًا صباحًا؟»

نظر ياماندي مرّة أخرى إلى أبيه بعينين متوسّلتين. كان أنطونيو قد بدأ يتكلّم والشمس ما تزال عالية في السماء، لكنّ الظلام كان يحلّ الآن، وكانت النيران قد أُشعلت. كان كيريميا قد أرغم الفتى على مساعدته في سلخ تمساحين كبيرين كانا قد اصطيدها قبل ساعات قليلة، وإن كان كلاهما يعرف تمامًا أنّها في الحقيقة ذريعة لإبقاء ياماندي بعيدًا عن أنطونيو. كان سلخ التماسيح عملاً طويلاً ومتعباً إلى حدّ ما، يتهرّب منه الشبان بسرور، ولا سيّما إن كانت التماسيح بهذا الحجم. لكنّ ياماندي صار رجلاً الآن، ولم يكن يمكنه أن يقول لكيريميا لا.

كان أنطونيو قد بدأ يتحدث عن كرة القدم مع مجموعة صغيرة من الفتيان، لكنّ أحدهم سأله بعدها عن لغته الأمّ، فطالت القصة.

كان قد بدأ من الرومان القدماء، إمبراطورية عظيمة وراء بحر عظيم، وكيف كانوا قد حاولوا فتح العالم المعروف كلّ شيء كان لهم مصدر دهشة ووابلاً من الأسئلة، البحر العظيم – كيف يشرح المرء البحر – والعالم، والإمبراطورية: مفهوم هول العالم نفسه وكلّ الشعوب والأجناس التي تسكنه كان شيئاً غريباً عنهم تمامًا. كلّما زادت الأسئلة ازدادت الحكاية ثراءً، حتى حين كان عليه، ليشرح شيئاً، أن يقوم بلقّات لفظة طويلة ليبلغ وصف الأشياء أو الأحداث التي لا تُعبّر في لغتهم. مرّ الوقت، وحين بلغ لحظة رحيل البرتغاليين لفتح العالم الجديد كانت القبيلة كلّها مجتمعة حول أنطونيو تُصغي. كانوا بديعي المنظر: العيون السوداء مفتوحة على اتّساعها والأفواه نصف مفتوحة من الدهول؛ الكبار والصغار ملتصقين بعضهم ببعض وصامتين، منخرطين في تلك الحكايات العجيبة حتى ليكادوا ينسون التنفّس.

القبيلة كلّها إلا كيريميا وياماندي المسكين، المرغم على أن يشقّ طولياً بطن أحد الزاحفين، ويخرج أحشاه النتنّة الغليظة، ويبدأ العملية الطويلة المضنية لفصل الجلد عن اللحم، جلدٌ بدا في بعض النقاط ملتصقاً بالراتنجة، لا ينفصل حتى بالعصّ، ولا بأحد مخالب أكل النمل. ثمّ تقطيع اللحم المبيض الليفي شرائح، وتعليقها على الأغصان الصغيرة المُعدّة خصيصاً لتجفّ، والبدء من جديد بجزء آخر من جسم التمساح، تمساح كبير، هائل، لم يُر قطّ تمساح بهذه الضخامة، لا بل نعم، كان هناك آخر أكبر منه هناك بجواره لا ينتظر سوى أن يُسلخ.

«الأوّل شارف على الانتهاء، لم يبقَ علينا سوى تنظيف الصخرة الكبيرة، نواصل غدًا صباحًا، أليس كذلك؟»

كانت مشاعر كثيرة تتصارع في رأس كيريميا. كان ثمة الحسد لذلك الجمهور الواسع، بالطبع، لكنّه لم يكن قادراً على الاعتراف به لأحد، ولا لنفسه. وكان ثمة الغضب من حكايات أنطونيو التي كان يعتبرها عديمة الفائدة، أمّا هذا فنعم. الحكايات النافعة هي تلك عن الصيد، وعن اصطياد السمك، وعن الحيوانات الخطرة، وحتى عن لعبة الكرة (وإن لم يكن مقتنعاً تماماً بهذه)، أمّا حكايات أنطونيو فلا، إطلاقاً. طيور كبيرة مضيئة، وزوارق هائلة تشقّ شيئاً لا يُتصوّر يُسمّى “المحيط”، وأفكار تسافر داخل خيوط تشبه الحبال النباتية، ثمّ تلك اللعبة الجديدة، “كرة القدم”، كلّ تلك الأسماء، تلك الأحداث غير المفهومة. كلّها أشياء عديمة النفع تماماً للقرية، وكان كيريميا يشعر في داخله دون أن ينجح في التعبير عنه جيّداً أنّها مضرّة أيضاً بكلّ تأكيد.

كانا منزويين قليلاً عن القرية، أمام حجر أملس كبير يقع في اتجاه النهر، مستخدّم منذ أجيال قاعدة ارتكاز لهذا النوع من عمليات تنظيف الفرائس. بعد ما بدا لياماندي زمناً طويلاً جدّاً، كان التمساح الأوّل قد سلخ ونُظف تماماً، وكانا يزيلان البقايا عن الحجر ليضعاه فوقه الوحش الآخر ويبدأ من جديد. لكنّ الوقت كان قد تأخّر، وسرعان ما لن يسمح الظلام لهما بأن يريا شيئاً. بين الحين والحين كان كيريميا يمدّ أذناً محاولاً التقاط شذرات من حكاية أنطونيو، لكنّه كان في كلّ مرّة ينتهي إلى الندم على ذلك بعبوسة اشمئزاز.

«يكاد الظلام يحلّ، بعد قليل لن نرى حتى أيدينا، لن نقدر أبداً على تنظيفه كلّاً!»

كان كيريميا يعرف أنّ ياماندي محقّ. كان قد أراد سلخ الأوّل بعناية كبيرة، ربّما أكثر من اللازم، واستغرقا زمناً لا نهائياً، وقد تأخّر الوقت فعلاً.

«أصغ إلى أبيك يا ياماندي،» لم يكن غريباً أن يبدأ الجمل الموجهة إلى ابنه بهذه الطريقة، «افتح له بطنه فقط ونظفه، تعلم أن تركه مغلقاً خطر، قد ينفجر. في هذه الأثناء أحفر أنا حفرة، وحين تنتهي ندفنه ونواصل غداً صباحاً.»

أوماً ياماندي وبدأ على مضض لكن بهمة يفتح بطن الزاحف الغليظ. كانت ظلال المساء تلف كل شيء بسرعة كبيرة، وفي غضون دقائق قليلة لن يكون ممكناً المواصلة. وإذا أدخل يده داخل الجيفة ليستخرج الأحشاء، شعر ياماندي بشيء يقاوم، شيء ثقيل لم يكن في الحيوان الآخر. استرعى ياماندي انتباه أبيه، الذي لم يفهم في البداية عما يتحدث ابنه، سواء بسبب قلة الضوء أو بسبب حجم تلك الأحشاء شديدة اللزوجة والالتواء. أخيراً نجح في فهم أن الأمر يتعلق بمعدة التمساح، فأخذ المخلب الحاد وفتحها. مع رائحة مقيئة خرجت من المعدة قردة صغيرة شبه سليمة، كان التمساح قد أكلها على ما يبدو قبل أن يصطاده الصيادون بوقت قصير. كاد كيرياما يقفز إلى الوراء مذعوراً صائحاً: «لا!»

نظر إليه ياماندي دون أن يفهم.

«التماسيح لا تأكل هذه القروود! أبداً! لا تأكلها!»

استدار نحو بقية القبيلة وفهم: «إنها علامة من أرواح الغابة! إنها غير راضية! يجب أن يكف أنطونيو عن هذه الحكايات! انظر!»

كان ياماندي يكتف لأبيه احتراماً كبيراً ولمعرفته بالغابة – وإن كان يجده مملاً بين الحين والحين – ولم يكن له سبب يشك في أن ما يقوله صحيح. بل قد حدث له أكثر من مرة أن شاهد جماعات من القروود تصرخ وترمي الحجارة على التماسيح من أعالي أشجارها.

«لعلها سقطت من غصن»، قال ياماندي، «لعلها انكسر.»

«أصغ إلى أبيك يا ياماندي، هذه القروود تأكل الأشياء نفسها التي نأكلها نحن، وتصعد الأشجار نفسها التي نصعدنا نحن، لكنها أبرع منا بكثير، بكثير. أتفهم النكبة؟ إن كان غصن قد انكسر تحت ذلك الوزن الصغير، فما الذي يمكن أن يحدث تحت أجسامنا؟»

«معك حق، أفهم، لكنه ليس ذنب أنطونيو، أليس كذلك؟»

«لا أعرف.»

2.28 ميلاد

بورانغا باجيه هو الروح الطيبة للغابة. مَنْ رآه يجد صعوبة في وصفه: هو بكل تأكيد أبيض، وربما مدور، صامت تمامًا، ثقيل (لكن هذا لم يكن قط مشكلة). روح فرحة لكنها مراوغة، بدائية لكنها خجولة، تتعقب مقاصدها النبيلة بلا خطة، على عواهنها، ومع ذلك بنظامية لا تملكها أي روح أخرى من أرواح الغابة.

لا يخشى النور لأنه شبه غير مرئي، لكنه يفضل الظلام والظل، وهما كثيران في الغابة. بارع جدًا في الاختباء والتنكر، يفلت من الأرواح المنافسة بخفة وعناد، يبدو أخرق لكنه سريع جدًا، لا يُمسك.

يتسلل بين الفراغات المتناهيّة الصغر التي تتركها الأوراق، ويلتف على الحبال النباتية، يقفز، يغطس ويسبح كأسرع الأسماك. يجوب الغابة طولًا وعرضًا مغيّرًا باستمرار الشكل والاسم، ولا يراه، في أندر الأحوال، إلا من لا ينظر إليه وذهنه خالٍ من الأفكار الحزينة.

كلّ لمسة من بورانغا باجيه تترك أثرًا، حجابًا أخفّ من الغبار وبقوام الهواء الذي فيه توجد الروح كلّها. نعم. يمكن لبورانغا باجيه أن يكون هائلًا، ويمكن أيضًا أن يكون صغيرًا كحبة رمل وأصغر بكثير. لكن لا يهم إن كان حجابًا أو حبة أو عملاقًا، فكلّ بصمة من بصماته وكلّ ذكرى من ذكرياته تحويه كاملاً.

كان يتجول في الغابة، بورانغا باجيه، متبّعًا مجرى ماء صغيرًا ثانويًا. يلامس باقتصاد الأغصان المنخفضة للأشجار، وبيض الأسماك المفترسة أو العناكب الخطرة. وكلّ ما يلمسه، كما كان دائمًا وسيكون دائمًا، يتفتح، يتحوّل، يصير حيًا.

كانت الغابة كلّها تتردد فيه: المفترسات، والفرائس، والنباتات الجامدة. لكن أكثر من الجميع كانت تتردد في داخله أنفُس النساء والرجال الذين يسكنون الغابة، كلّ الأنفس: الماضية، والحاضرة، والآتية. لأنّ سگان الغابة كانوا قد منحوا أبناءهم اللحم، لكن ليس أنفسهم، تلك، كما كان دائمًا وسيكون دائمًا، كانت تأتي من بورانغا باجيه.

كانت الانعطافة الصغيرة للنهر تخفي عن الأنظار تقريبًا أوراق الموز المبسوطة على الأرض، والمرأة الصغيرة القابعة فوقها وهي تتنفس لاهثة. كانت تتمنى أن تُترك وحدها لكنها لم تُسمع. أطفال عدة يدورون حولها مفتونين، بذلك الافتتان الذي لا يعرفه إلا الأطفال أمام ألم الآخرين. رؤوس كثيرة تبرز فضوليةً من وراء الصفّ الأول من النباتات، واثنان أو ثلاثة من الكبار يذهبون ويجيئون منشغلين أو ببساطة قَلقين.

كان بورانغا باجيه يسمع لحن أنفسهم جميعًا التي كانت يومًا داخله، وفعل ما يعادل ابتسامة. رآه طفل صغير بالكاد قادر على الوقوف وأشار إليه بإصبعه مطلقًا أصواتًا مبهمّة. لم يلتفت إليه أحد في الارتباك العام، والطفل نفسه فقد الاهتمام بعد قليل. إحدى الأنفس كانت غريبة عنه: كانت كآلة موسيقية مضبوطة لكنه لا يعرف جرسها، لم تكن قد انتمت إليه قط. حاول الاقتراب ليسمعها أفضل، دار حولها راقصًا رقصة أرواح الغابة، وقرّر أنّها تعجبه، كانت مختلفة لكن جميلة.

إن كان لتفتيح زهرة أو فقس بيضة يكفي حجاب، فلهذه المهمة كان على بورانغا باجيه أن يبذل جهدًا أكبر، كان عليه أن يبحث في داخله عن النفس المناسبة، يخرجها برفق، يقترب من المرأة القابعة ويغتنم تنفسها العميق اللاهث ليدفعها إليها لتتنفسها. وحين عبرت النفس سريعةً عقد المرأة العصبية، وتوزّعت في جسدها باحثةً عن هدفها، ودخلت أخيرًا في الطفل، فهم بورانغا باجيه بابتسامة أخرى مَنْ الذي كان قد اتحد بالمرأة: كان الغريب.

وحين سمع أوائل نبضات الحياة الحقيقية تخرج من ذلك الكائن الجديد، ابتسم بورانغا باجيه للمرّة الأخيرة وابتعد، ملامسًا تارةً جذرًا، وتارةً لحاءً، وتارةً ذيلَ طائر. كانت الغابة المشبعة بروحه تستدعيه، ولم يكن يقدر أن يتأخّر أكثر.

«الرأس! الرأس!»

غلبت أنطونيو العاطفة، وكلّ المخاوف التي كانت قد قبضت عليه حتى تلك اللحظة اختفت.

«ربّما علينا أن نغلي ماءً»، كان قد اقترح، «لماذا؟» كان الجواب. «ربّما علينا أن نغسل ذلك المخلب جيّداً»، كان قد ألحّ، «لماذا؟» كان الجواب من جديد. «على الأقلّ ننظف أوراق الموز»، كان قد تدمّر، «ننظفها من ماذا؟» كان السؤال.

كان الرأس الآن خارجاً، وكان يوّد أن يأخذه بين يديه ويشدّه، لكن لا، أن يشدّه لا إطلاقاً، كان يوّد أن يخرج وحده، لكنّ جانائنا لم تعد تدفع، كما بدا له، أو ربّما كانت تدفع لكن لم يكن يُرى. كم من الوقت يمكن أن يبقى هكذا؟ أليس خطيراً؟ أليس خطيراً مميتاً؟ ثمّ ذلك اللون؟ أمن الطبيعي أن يكون الأطفال زرقاً؟ بنفسجيين؟

بدت جانائنا طوال الوقت هادئة جدّاً، متألّمة لكن هادئة. لم تُطلق أنة إلا بعض الزفرات الجشّاء، لكنّها في تلك اللحظة بدت منهكة، وقبضتها مشدودتان، وعلى وجهها مظهر الإنهاك، وحتى النّفّس صار أكثر خفوتاً. كانت الشكوك قد شلّت أنطونيو. نظر حوله باحثاً عن تأكيد لمخاوفه، لكنّ النساء الحاضرات كنّ هادئات، يغنيّن بخفوت أغنية الولادة وينظرن إلى المشهد بفتور واثق.

«لكن ما الذي يفعله أنطونيو هنا؟» كانت قد سألت في البداية إحدى النساء، متفاجئة من حضوره.

«أنطونيو معنا منذ زمن طويل الآن، لكن تذكّري أننا في البداية كنّا نسّميه الغريب. لعلّه شيء يرجع إلى عاداته القديمة»، كانت قد أجابتها امرأة ثانية مبتسمة.

الشيء الوحيد الذي نجح أنطونيو في قوله، شاعراً فوراً أنّه غبيّ جدّاً، كان «تنفّسي...» متردّداً، بالبرتغالية.

رفعت جانائنا وجهها المخطّط بالعرق ونظرت إليه مباشرةً في العينين بنظرة عزم أصابته في العمق. ثمّ ابتسمت أو عبست، لم يكن أنطونيو متأكّداً، واستأنفت الدفع بطاقة أكبر بكثير من قبل. في غصون وقت قصير، قصير مقارنةً بكلّ ما بدا لأنطونيو أنّه قد مرّ، خرج الطفل تماماً، وأطلق صرخته الأولى، وأخذت جانائنا تسترخي.

«إنّه ذكر يا أنطونيو، أرايت؟»

«رايت، رأيت.»

كان المولود يشدّ عينيه وقبضتيه بإحكام ولا يبكي، وكان لونه قد عاد أخيراً طبيعياً، وكثير من أعضاء القرية كانوا يتجمّعون حولهم بابتسامات رضاً.

«لنرجُ أن يكون بورانغا باجيه قد أتى بنفس جميلة.»

«لنرجُ، نعم»، أجاب أنطونيو دون أن يفهم.

2.29 صرخات

الصرخات والضحكات تتردّد من طرف الفسحة إلى طرفها الآخر. أصوات الأدغال الألف تبدو وكأنّها تلاشت، يغطّيها ضجيج الشباب والطيش. وفي رأسه يعرف منذ الآن أنّ أشدّ الصرخات إشراقاً وابتهاجاً ستكون تلك التي ستخرج من حنجرتة بعد دقائق قليلة.

ليس بعدُ عاليًا بما يكفي ليطلّ فوق مظلة الغابة المطيرة، لكنّه قريب. لا يبلغ هذا الارتفاع إلّا الأقوى والأشجع، فيجولون بالنظر على خضرة الغابة اللانهائية ويفهمون أنّك بلغت القمة، وأنّه لا يمكن الصعود أعلى من هذا. لم يجرب هذا الإحساس بعد، لكنّه سمعه يروي مرّات كثيرة. واليوم هو أقوى شابّ وأشجعه في القرية. اليوم سيكون هو من يثقب السقف الأخضر الذي يحيط بهم، ومن الغد سيكون هو من يروي للأطفال ما الذي يشعر به المرء حين يصعد على سطح العالم. صوت الضحكات وصيحات التشجيع يغطّي كلّ شيء: صوت أنفاسه بينما يصعد عازماً من غصن إلى غصن. صوت الحيوانات التي تواصل الحياة، غير مكترثة بالملحمة التي تُنجز قربها. وصوت غصن ينحني تحت الدفعة الجبّارة لهذا الشابّ ثمّ ينكسر. ثمّ تأتي لحظة صمت، ثمّ تصير الأصوات قبيحة، تصير ضجيجاً. ضجيج ما كان ينبغي أن يكون: ضجيج أغصان تنكسر، ضجيج خوف، ضجيج ارتطام رهيب. ثمّ صرخات الألم واليأس.

2.30 وداع

وصل أنطونيو إلى المكان حين كان قد تشكّل حول ياماندي جمعٌ يائس، وكما في تلك المرّة الملعونة الأخرى مع امرأة الطبّ، تعرّف عليه من قدميه.

شعر أنّه يُغمى عليه، لكنّه رأى بعدها إحداها تتحرّك، وبدا له أيضًا أنّه يسمع صوت الفتى. أيّمكن تمييز صوت شخص يصرخ وقد حرّف الألم صوته، مغمورًا في جوقّة صرخات مذعورة أخرى؟ تساءل. على ما يبدو، نعم. إن كان يصرخ فلا يمكن أن يكون مات، يا يسوع، لحسن الحظّ، لحسن الحظّ أنّه لم يمّت، ما كنت لأحتمل ذلك.

حين تنحّى الآخرون ليدعوه يمرّ، تلاشى الارتياح وشعر أنّه يُغمى عليه من جديد. الجروح المنتشرة على جسمه كلّ لم تكن مشكلة كبيرة، كان واضحًا أنّها سطحية، بل تكاد تزيده جمالًا، تلك العضلة ذات الرأسين المرشوشة بالدم كانت توحى بمحارب شجاع خارج لتوّه منتصرًا من معركة.

لكنّ الساق اليسرى كانت في حال سيّئة. سيّئة جدًّا. ما كان ينبغي لأيّ ساق يسرى أن تكون هكذا. لا يمكن، إنّهُ كابوس بكلّ تأكيد، ما كان ينبغي أن أذوّق تلك الدودة الغريبة البارحة مساءً، الآن أغمض عينيّ لحظةً وحين أعيد فتحهما أستيقظ وتكون ساق ياماندي اليسرى كما كانت من قبل، بركبة واحدة، ما شأن ركبة أخرى في منتصف الفخذ، لا يمكن...

حين استعاد أنطونيو وعيه، رأى فوقه وجهي بياتا ومواسير.

«ياماندي! كيف هو؟ هل...؟»

«إنّهُ في الشابونو، نائم. أعطاه إيتاتاكوارا عشبة الإغماء»، أعلمه بياتا.

«والساق؟»

«الساق رأيّتها أنت أيضًا كيف هي.»

«لكن هل سيتعافى؟ ماذا يقول إيتاتاكوارا؟»

«إيتاتاكوارا يقول أن ننتظر ونرجو. نرجو كثيرًا جدًّا.»

«لا!» تدخّل مواسير بغضب، «ليس هناك ما نرجوه. وما ننتظره أقلّ من ذلك. الشيء الوحيد الذي ننتظره هو موته.»

«مواسير، اهدأ.»

«لا، لن أهدأ، ولا تعانقني! أنت أيضًا تعرف ذلك تمامًا. الجميع يعرفونه. من جرح كهذا لم يتعافَ أحد قطّ. أبدًا.»

لم تجد كلماته جوابًا، إلى أن حمل بياتا على عاتقه عبء ما كان يجب قوله: «إيتاتاكوارا قال أن نرجو ونحن نرجو. إن قال لنا إيتاتاكوارا أن نذهب لنجلب عشبة ما ولو من آخر النهر، سنذهب. لكن إن لم يكن هناك شيء آخر نفعله، لن نفعل شيئًا آخر. سنودّع ياماندي، سنبيكي، وسنواصل حياة القرية.»

نظر إليه مواسير بنظرة كان يمكن أن تُؤخَذ على أنّها كراهية، ولعلّها كانت كذلك. ثمّ حوّل عينيه إلى أنطونيو، وهناك لم تعد ثمة شكوك: كانت كراهية خالصة. ربّما لم يحدث قطّ أنّ شابًا، في تاريخ القرية، نظر إلى شيخ بكراهية بهذا السفور وهذه الوقاحة.

«وأنت؟ لا تقول شيئًا؟ نفدت كلماتك؟»

وكأنه يؤكّد اتّهام مواسير، واصل أنطونيو الصمت. دون أن يخفض عينيه، لكن دون أن يفتح فمه أيضًا.

تابع الشاب: «كم كلمة سكبت، طوال هذا الوقت، تحكي لنا عن ماكابا والعالم خارج الغابة. هاه؟ كم؟ الطائر الكبير المضيء، والمركبة التي تتحرّك وحدها، والخيوط غير المرئية، وشاشة الأفكار. أنا أتذكّرها كلّها، واحدةً واحدة، أتدري؟ والآن؟ الآن بالضبط، حين يمكن لكلماتك أن تنفع في شيء، تصمت؟ لم تعد تقول شيئًا؟»

«لكن أنا لا...» ظلّ أنطونيو أنّ مواسير يأمل أن يوقظ فيه معرفة طبيّة منسيّة ما، وحاول أن يجد أهدأ صوت يقدر عليه: «أنا لست رجل طبّ يا مواسير. تعلم، أنا في ماكابا كنت أعرف كلّ هذه الأشياء التي حدّثتك عنها وأعرف استخدامها، لكنني لا أعرف بناءها. ليس هناك ما أستطيع فعله لمساعدة ياماندي أفضل ممّا يفعله إيتاتاكوارا.»

«أعرف أنّك لست رجل طبّ. أعرف أنّك لا تعرف فعل شيء.»

أخذ مواسير نفسًا ليغرز الضربة أعمق: «لم تعرف قطّ فعل شيء سوى لعبتك الغبيّة بالكرة. وأنت واثق من كونك عديم النفع إلى حدّ أنّه لا يخطر ببالك حتى أنّك الآن الوحيد الذي يمكنه حقًا فعل شيء لمساعدة ياماندي.»

ظلّ أنطونيو يحدّق فيه شبه مذهول، دون أن ينطق بكلمة. ومواسير لم يُضف شيئًا. وحين بدا أنّ أحدهما لن يتكلّم بعدُ حتى نهاية الأزمان، كان كاوي هو من تدخّل وشرح ما كان مواسير يقصده، وما كان واضحًا له تمامًا منذ الدقيقة الأولى.

«مواسير يقصد أنّ عليك أن تساعدنا في نقل ياماندي إلى ماكابا يا أنطونيو.»

«لا مجال للحديث في ذلك»، حاول بياتا أن يتدخّل، لكنّ مواسير لم يتراجع.

كان أقلّ عضلاً بكثير من صديقه، لكنّه أطول منه قليلًا، واستعان بطوله ليصبّ غضبه، محدّدًا في بياتا من أعلى إلى أسفل كأنّه أطول منه بمزتين: «أنت لا تتدخّل. إن لم ترد أن تأتي معنا فلا بأس. تحسن صنعًا، القرية بحاجة إليك، من الصواب أن تبقى.»

ثمّ، كأنّ بياتا لم يعد موجودًا، استدار ووجّه نظره من جديد نحو أنطونيو: «إذن؟»

كان أنطونيو قد قرّر منذ زمن أنّه سيُنهي حياته في القرية. كان في سلام مع نفسه إلى حدّ أنّه قبل برصًا حتى قصر العمر الذي كان هذا الاختيار يعنيه على الأرجح. لكن إن كان هادئًا في التضحية على مذبح الصفاء حتى بسنوات كثيرة من حياته، فما كان يمكنه أن يفعل الشيء نفسه بحياة ياماندي. وإن كان سيمضي بقيّة حياته وهو يشكّ في أنّه لم يفعل كلّ ما أمكن لإنقاذ صاحب الجوربين المعشوق، فوداعًا للصفاء.

نظر حوله، نظر إلى أرجوحته، إلى جدران الشابونو، إلى قبة الأشجار التي كانت تظلّله سقّفًا. نظر إلى بيته. ثمّ أطلق زفرة هائلة، وأعاد نظره إلى مواسير وكاوي وقال: «حسنًا. معكما حقّ: لكن المشكلة أنّه حتى لو أردت مساعدته، وأقسم أنّني لا أريد البحث عن أعذار، فأنا حقًا لا أعرف كيف أعود إلى ماكابا.»

«نحن نعرف»، أجاب كاوي بفخر.

«لقد وجدنا النهر الكبير»، كان مواسير وكاوي قد قالا، «النهر الكبير، ذلك الموجود في الحكايات والأغاني، نحن وجدناه.»

وقالا ذلك بيقين، دون أن يلماحا إلى أدنى شكّ. كانا قد شرحا جيّدًا كم كان مختلفًا عن الأنهار المحيطة، الوحيدة التي تعرفها القرية، مجسّات غادرة ومتلوّية لتشابك مياه لا حلّ له تغيّر مجراها وشكلها مع كلّ مطر. كانا قد استخدما أكبر كلمة للكبر في اللغة، قالا إنّهما رأياه بأعينهما، إنّهُ عريض عرّض ما بيننا وبين ذلك النخيل هناك في الآخر.

قالا إنّ ماءه يجري، يجري مستقيماً، إنّ ماء النهر الكبير يعرف إلى أين يجري. ليس كأحد أنهارهم ذات المياه البطيئة، المتشابكة بالحبال النباتية والأغصان، ليس من تلك التي إن لم تنتبه وتركت نفسك تنجرف بعيداً أكثر من اللازم وأنت تصطاد فلن تجد بعدها طريق البيت، لأنّها تدور حولك، تدور في دوائر، والتيار لا يعرف إلى أين يذهب. كان النهر الكبير، ذاك الذي يعرف الطريق.

قالا ذلك باندفاع، والدموع تكاد تلمع في عيونهما من شوق أن يُصدّقا. وأنطونيو صدّقهما.

فجأة أدرك أنّه، دون أن يفكر في ذلك حقاً، كان قد اعتبر دائماً من المسلّمات أنّه رغم الانحرافات والشكوك، كان كلّ من المقطع الطويل مع بيبي ومقطعه التالي سيراً على القدمين قد اتّبع الاتجاه الأوّلي، ذاك الذي – عمودياً على النهر تقريباً – كان يبتعد عنه. كان قد تصوّر في ذهنه دائماً مساراً، رغم كلّ منعطفاته، قد ترك نهر جاري تقريباً خلفه، أبعد فأبعد. لكن، يا إلهي، كانت تلك فكرة غبيّة حقاً. في النهاية كان يعرف دائماً أنّ بيبي قد ضلّ الطريق، وهو أولى بذلك، مع تجواله بلا نقاط مرجعية: كان من الممكن تماماً أن يكون ذلك المسار العشوائي قد ظلّ بالأحرى موازياً للنهر تقريباً، كان ممكناً أن يكون، بين منعطف ومنعطف، قد عاد قريباً منه حتى. كان ممكناً أن يكون نهر جاري حقاً غير بعيد، أن يكون على أقلّ من يوم سير. بل، الآن وقد صارت الغابة تحدّته وهو يفهم لغتها وكثيراً من أسرارها، صار متيقّناً: النهر الكبير لا يمكن أن يكون بعيداً جداً.

وإن كان الأمر كذلك، فلعلّه، بقليل من الحظّ، لعلّ ياماندي يمكن حقاً أن يُنقّذ. وإن كان الأمر كذلك، كان أنطونيو يعرف ما عليه أن يفعل.

وجد نفسه مرعوباً من فكرة العودة إلى عالمه، عالمه القديم: بشكل ما، طوال تلك السنين، كان قد أقنع نفسه أنّ ذلك لن يحدث بعدُ أبداً، كان كأنّه نُقل إلى كوكب آخر حيث ذكرى الوطن الأمّ، والأشياء، والناس الذين أحبّهم كانت أحياناً ممزوجة بالحنين، نعم، لكنّه حنين منفيّ لا عودة له.

كان كأنّ ذلك العالم قد كفّ عن الوجود، وقد تبخّر فصار مادّة لحكايات بدت له هو نفسه الآن شبه مختلّقة، والآن فكرة أن يراه من جديد، أن يعود منغمساً فيه، كانت تجعل يديه تتعرّقان.

لكنّ أولئك الفتيان كانوا يثقون به، لا يمكنه أن يخيبهم، لا يمكنه أن يخون ياماندي، أن يتركه يموت أو، في أحسن الأحوال، أن يبقى مشوّهاً تشويهاً فظيهاً: ياماندي الحبيب، المتوتّب كقرد، هو الذي كان يركض أسرع من الجميع. المشوّهون في الغابة لا عمر طويل لهم ولا حياة جميلة، ما كان يمكنه أن يفعل ذلك بياماندي. إن كان هناك ولو احتمال واحد، فحينها كان هناك خيار واحد. كان عليه أن يحاول.

2.31 تحيات الوداع

طوف، الطريقة الوحيدة أن نبني طوقًا. نحن ثمانية، أنا زائد الفتیان الستة الذين يريدون بأيّ ثمن أن يأتوا، وياماندي الذي يجب نقله. الجذوع المحفورة التي نستخدمها لصيد السمك لا يمكن تصوّرها لسفر ثمانية أشخاص على النهر الكبير أيّامًا – كم يومًا؟ ومن يقدر أن يتخيّل؟ ربّما يومين، ربّما ثلاثة – وسيكون علينا أن نحمل ماءً أيضًا، وشيئًا نأكله... يلزم طوف، ويجب أن يكون كبيرًا بما يكفي. كان أنطونيو، ورأسه ما يزال مخدّرًا بأدخنة ونغمات ومشروبات الاحتفال الذي دام الليلة كلّها تقريبًا، عائدًا من النهر حيث كان قد غسل وجهه وتأمّل الفجر يبرز بين أوراق السرخس الشجري. كان قد شاهد الغابة وهي تستيقظ وأصغى إلى تلك اللحظة من الصمت المعلّق، لحظات قليلة فحسب، بين صمت حشد الحيوانات الليلية واستيلاء الحيوانات النهارية على الهواء والأشجار والنهار، في تصاعد متعاضد من الأصوات والنداءات وخفق الأجنحة.

أنا راحل، فكّر، بعد أيّام قليلة، إن سار كلّ شيء على ما يرام سأكون في مكان آخر، سأرى فجّرًا آخر في مكان – يا إلهي، إلى أيّ حدّ! – مختلف تمامًا. لكنني لست راحلاً حقًا – كان متيقّنًا من ذلك بينما كان يتّجه نحو الكوخ ليسلم على جانائنا والطفل – أنا ذاهب فقط لأحاول إنقاذ ياماندي، ثمّ أعود.

«ثمّ تعود إلى البيت، حين يشفى ياماندي، ثمّ تعود، يا أنطونيو؟»

«بالطبع سأعود إلى البيت، سيشرق عليّ البعد عنك، سأفتقد كثيرًا أرجوحتك بجانب أرجوحتي»، قال أنطونيو، دون أن تكون له مع ذلك القوّة لينظر في عينيها: مخاطر كثيرة، طوارئ كثيرة بحيث لا أقدر أن أقسم لك، أعرف ذلك أنا وتعرفينه أنت.

ابتسم للمرأة القابعة التي كانت ترضع الطفل، وربّت على خدّها المدوّر وشعرها، ونزلت المداعبة على صدرها وعلى رأس إبييراتا الصغير الذي كان يرضع بنعيم مغمضٍ العينين.

«ثمّ إنني أريد أن أرى جرو آكل النمل هذا يكبر، تعلمين. تعلمين أنّي ذاهب لهذا أيضًا، أعرف أنّك تعلمين. لو أصيب يومًا، لأردت أن يكون هناك من يفعل كلّ ما يقدر عليه لينقذ حياته، لينقذ ساقيه القويّتين ويجعله يركض كما كان.»

«أعرف. أنا أريدك أن ترحل وأن تنقذ ياماندي. لكنني أريدك أن تعود، لا أريد أن أكون بلا زوج، ولا أريد أن يكبر ابنك دون أن يعرفك.»

«سأعود، بالطبع سأعود: لا تقلقي، يا ضفدعتي الزرقاء الصغيرة.»

«وكن حذرًا. أنا أخاف كثيرًا من النهر الكبير ومن كلّ أرواح قريتك التي لا يعرفها أحد.»

«الشامان تكلم معهم، أصغى إلى أصوات الآلهة كلّها، قال إنّ جميعهم منحوا إذنهم. سيرافقونا في الرحلة، لا يجب أن تخافي.»

«نعم. لكن كن حذرًا أنت. من يدري كم جاكوارًا يوجد في قريتك.»

اقترب كاوي وإيتاونا ومواسير وأوبيراتان وجاسي وبيراي بصمت. لم يكونوا يريدون المقاطعة لكن لم يكن هناك وقت، كان ياماندي قد بدأ يتأوّه فقلقوا. كان عليهم أن يذهبوا.

إلى اللقاء أيتها الأشجار ذات القمم الشاهقة شهوقًا مستحيلًا، كلّ واحدة مختلفة عن الأخرى ومع ذلك كلّها مألوفة إلى هذا الحدّ، يسهل تذكّرها كما يسهل تذكّر أبناء قبيلتك؛ أيّها النهر الذي يُسمّع خريره كصوت صديق؛ أيتها الأكواخ شبه المختبئة في الفسحات كحيوانات ليلية خجولة: إلى اللقاء!

ما أشدَّ حزنَ خُطى مَنْ، وقد نشأ بينكم، يبتعد عنكم! كلَّ أملٍ للذين يغادرون طوعًا لسبب بهذا السخاء يبدو كأنه يبهت، وفورًا تهجرهم الثقة؛ يعجبون كيف استطاعوا أن يقرّروا، وكانوا سيعودون أدراجهم لو لم يفكّروا أنَّ الذي في خطر هو أعزُّ أصدقائهم. كلما توغّلوا في الأجمة انخفضت أعينهم أكثر، وقد أتعّبها ذلك التشابه الجديد؛ يبدو الهواء ثقيلًا مميّثًا؛ يتقدّمون في غابات مجهولة؛ الأشجار تُضاف إلى الأشجار، والدروب تصبّ في الدروب؛ كأنها تحبس أنفاسهم، وأمام أغصان جديدة لا يعرفون أسماءها يفكّرون في قريتهم، وأراجيحهم، والضحكات التي ستتردّد وهم يعودون منتصرين إلى أشجارهم.

إلى اللقاء أيّها الكوخ الذي حميتهم دائمًا، وفيه، مضطجعين على الأرجوحة، تعلّموا أن يميّزوا من ضجيج الخُطى العادية ضجيجَ خُطى منتظرة برهبة غامضة. إلى اللقاء أيّتها الأكواخ التي ما تزال مجهولة، التي تُنظر إليها مرّات كثيرة بعيون زائغة، عابرة، لم تخلُ من خجل، وفيها كان الخيال يتصوّر سلفًا أن يجد رفيقة. إلى اللقاء يا شيوخ القرية الذين بفضلكم استعادوا مرّات كثيرة الصفاء بكلمات الأرواح، ويا لعبة الكرة التي بها صاروا رجالًا: إلى اللقاء!

”الفصل 3“

3.1 الانطلاق

انطلقوا بعد الفجر مباشرةً، وقد رسموا على أجسادهم رموز الشجاعة والمغامرة ومساعدة الرفيق، متزيّنين بالريش والتمايم التي وصفها إيتاتاكوارا بناءً على اقتراح من أرواح الغابة وأرواح النهر وآلهة النهر الكبير.

ورغم أنّ ياماندي كان يبدو نائمًا، إلا أنّه كان يئنُّ بهدوء وبلا انقطاع، وقد جُهِّز في أرجوحته، والكمّادات من الأوراق والطين والأعشاب الطّبية ملفوفة بإحكام حول ساقه المهشّمة تلك.

كانت النساء قد غنّين أنشودة الإنجازات العظيمة، وكان الفتیان يرتجفون من الحماس، حازمين وخائفين جدًّا في الوقت نفسه. كروّاد فضاء يستعدّون للانطلاق إلى المريخ، فكّر أنطونيو: الانطلاق في رحلة غير مؤكّدة ومحفوفة بالمخاطر نحو مكان غريب تمامًا، حيث لا شيء على الإطلاق يشبه ما رأيته طوال حياتك.

«هيا بنا، لننطلق. كاوي، إيتاونا، أنتما تحملان الأرجوحة أوّلًا.»

كان الجزء الأوّل، عبر الغابة، هو الأسهل نسبيًّا، وكان أنطونيو يعرف ذلك جيّدًا. أظهر مواسير وكاوي ثقةً في قدرتهما على إيجاد النهر الكبير من جديد، وكانا يتقدّمان بالفعل دون كثير من التردّد، فلم يكن الجهد المبذول لشقّ طريقهم عبر الغابة مختلّفًا إطلاقًا عن أيّ رحلة صيد عادية. لم يكن ياماندي حملًا ثقيلًا جدًّا، وكانت نشوة الانطلاق تجعل الفتیان يبذلون أفضل طاقاتهم وأكثرها حيوية.

«لم يتبقّ الكثير»، قال المستكشفان باقتناع، «لم يتبقّ الكثير، قريبًا سنرى النهر الكبير.»

ووصلوا بالفعل حين كان المساء يحلّ: رأوا الأشجار تنفرج، ومن بينها ظهر المجرى الأصفر شديد الاتّساع لنهر جاري، الذي يجري أعرض من جميع أنهار الغابة، النهر الذي يعرف إلى أين يذهب.

خيّموا هناك على الضفّة، وحين استخدموا الجمر لإشعال النار، أخذين إياه من وعاء الحجر والطين الذي جهّزته لهم القرية، شعروا وكأنّهم قد وصلوا تقريبًا: لقد وجدوا أكبر نهر رأوه على الإطلاق، وكان كلّ شيء كما ضمنت الآلهة.

أنتم لم تروا النهر بعد، ذاك هو الكبير حقًّا، فكّر أنطونيو. هذه مجرد أوّل خطوة، مجرد ركلة البداية يا رفاق: لا تزال المدينة بعيدة جدًّا، وحالة ياماندي سيئة وعلينا الإسراع، وأنا لا أعرف شيئًا عن مجرى النهر، ولا أعرف حتى ما إذا كان هو النهر الصحيح، أنتم تعتقدون أنّي أستطيع إرشادكم لكنني لا أعرف، لا أعرف شيئًا عن طريق الماء هذا الذي يربط بين عالمين، لم أبن طوفًا قطّ وفي صباح الغد سيتعيّن عليّ صنع واحد. لنرجّ أن تكون آلهة الماء حقًّا في صفّنا، ولنرجّ ألا نكون قد جلبتكم لتضيعوا، لتموتوا تائهين، لتحتظّم في الشلال. الشلال. لا أعرف أين هو إطلاقًا، لكن لنرجّ، لنرجّ ولنمّ الآن، فغدًا يجب أن نطلق ونُسرع.

أيقظهم الصباح على صوت حفيف النهر، مع طيور وقرود بدت مختلفة بالفعل، وبعد تغيير كمّادة ياماندي - وجهه مزرق، ويحترق من الحمى، يجب أن نُسرّع - شرعوا، منتبهين للتعليمات، في بناء الطوف.

لم يكن أنطونيو يعرف الكثير عن الأطواف، كان يتذكّر تلك التي كان يبينها طفلًا بقطع خشبية وعصيّ المثلّجات للسباقات مع أصدقائه الصغار في الجداول الموحلة، وكان يتذكّر بشكل مبهم فيلّمًا وثائقيًا عن الكون-تيكي - من يدري كم كان فيه من الخيال - وكان في ذهنه بعض الصور والأشكال. لكنّ الفتیان كانوا ينتظرون التوجيهات فقدمها لهم: نحتاج جذوعًا، أغصانًا مستقيمة، نحتاج حبالًا نباتية لربطها هكذا.

كانت تساوره كثير من الشكوك: سنحتاج شيئًا، ما اسمه، لوحًا عموديًّا، زعنفة توجيه، نعم، لنجعلها تسير مستقيمة، أم أنّ الأطواف لا تحتوي على ذلك إطلاقًا؟ في حالة الشكّ، فلنضعها، ما الضرر الذي يمكن أن تسببه، يا رفاق، نحتاج قطعة خشب مصنوعة هكذا. ثمّ كيف نقودها، ألن نعلق في أوّل منعطف، وكيف سنتمكّن من العودة إلى الضفّة إن جرفنا تيار النهر؟ نحتاج أغصانًا، عصيًا طويلة وقوية، يجب أن نكون قادرين على توجيهها ولو قليلًا.

كان الطوف جميلاً جداً، كما قال الفتيان بحماس: لم يروا مثل هذه الهندسة إلا في بناء أكبر الأكواخ، وعلى الرغم من أنهم كانوا خائفين بوضوح من النهر، إلا أنهم كانوا بنفس القدر من الوضوح راغبين في تجربة الانطلاق على الماء على متن تلك الأعجوبة التقنية. لم يكن أنطونيو مقتنعاً بالقدر نفسه، يا إلهي، يا له من جهد لصنع أحد أكثر قوارب العالم بدائية، من يدري إن كان سيصمد، هيا، لننطلق، سنبدأ الرحلة.

3.2 الطوف

أن يفتتن المرء ببناء الطوف شيء، وأن يصعد عليه ويلقي بنفسه بين ذراعي النهر شيء آخر تمامًا. كان مجرد صعودهم جميعًا معقدًا، بعد أن حملوا ذاك القليل من المؤن وياماندي المسكين شبه فاقد الوعي، دون أن يميل ذلك التجميع الهش من الجذوع ميلًا يقلبهم في الماء. وفقط بعد ألف توصية بالبقاء جالسين وبأكبر ثبات ممكن – الآلهة تحمينًا، لكن ليس إن تصرفنا كالأغبياء – شعر أنطونيو بأمان كافٍ تجاه طاقمه ليوّجه الأعمدة الطويلة نحو الضفة، ويقطع الحبال النباتية التي كانوا قد ربطوا بها الطوف أثناء الصعود، ويجرّو على الابتعاد عن الضفة.

طوال مسافة طويلة أسكتتهم جميعًا نشوة الانزلاق سريعين على النهر الكبير: الفتیان، متمسكين جيّدًا بالجذوع، كانوا يشاهدون الضفاف تنساب، لا يتبادلون سوى إيماءة بين الحين والحين للإشارة إلى شيء مثير، جذع أبنوس شاق، أو طائر طوقان هائل يحلق فوقهم، أو طيف متسلّل بين الأغصان، ربّما آكل نمل، أو ظلّ تحت الماء اختفى بسرعة أكبر من أن يتيقّنوا أنه جاكاريه.

كان أنطونيو ينظر إلى الضفاف، إلى آكل النمل، إلى الطوقان، لكنّه كان يفكر أكثر من أيّ شيء في الشلال. لم يكن قد حدّث الفتیان عنه (فهو، على أيّ حال، لم يتذكّر وجوده إلا حين صاروا في الطريق) لكنّه لم يكن لذلك قادرًا على الكفّ عن التفكير فيه.

كان قد حاول جمع كلّ ذكرياته، تلك القليلة الغامضة الباقية بعد كلّ ذلك الوقت، ليحاول تحديد أين يجب أن يقع تقريبًا. لكن ما استرجعه كان شذرات باهتة: كانت ثرثرة غامبوني بينما هو يغفو، وكان عذاب ينبح على كلّ ببغاء، وكانت ملايين الحشرات التي لم يكن معتادًا عليها، وكانت كيلومترات وكيلومترات من ضفاف متشابهة في الظاهر: لا يكفي. كان من الصعب جدًّا أن يحدّد بدقة كم من الوقت أبحروا صاعدين النهر بعد الانحراف لتفادي الشلال، فما بالك بحساب السرعة التي كان يمضي بها القارب ذو المحرّك ومدى سرعة التيّار الذي كان يحملهم الآن. دون الحديث حتى عن كلّ المسافة المقطوعة في الجيب مع بيبي، والذي لم تكن لديه أيّ فكرة دقيقة عن اتجاهه ومساره: كان الطوف قد وُضع في الماء – وكان عليه أن يسلم بذلك – في نقطة ما من النهر، دون إمكانية تحديد أيّ علاقة لها بالشلال وخطره المنهمر.

كان أنطونيو يعدّب نفسه بالتفكير والساعات تمضي، وإذ خفّ وقعُ جدّة الإبحار كان الفتیان قد استرخوا – إلا إبتاونا الذي لم يبدُ مرتاحًا بعدْ ولم يكن قد أفلت قطّ قبضة يديه عن الجذوع – وأخذوا يثرثرون ويمزحون بهدوء، دون أن يُغفلوا أن يسكبوا بين الحين والحين بضع قطرات ماء بين شفّتي ياماندي.

حين بدأت الشمس تميل نحو غروب بلون الأوبال، تشاورت الجماعة لتختار بين الرسوّ لتمضية الليلة على الضفة أو المبيت على الطوف، وبالإجماع قرّر البقاء على النهر: كلّما قطعوا مسافة أكبر كان أفضل، وبالنظر إلى حالة ياماندي كانت الأولوية للإسراع.

فوق ذلك، كان للنهر أيضًا ميزة لا يمكن إنكارها هي ألا يضطّروا إلى التفكير في الدفاع عن أنفسهم من الحيوانات الليلية: ما لم يقفز جاكاريه مسعور على الطوف كضفدع، كان النوم هناك أكثر أمانًا بكثير منه على الأرض في الغابة.

لكنّ فكرة أن يجدوا أنفسهم قرب الشلال في عمق الليل لم تكن من تلك التي تترك أنطونيو هادئًا، لذلك، بتنهيدة، كان عليه أن يعزم ويحدّث الفتیان عن الشلال.

حاول أن يشرح لهم كم هو عظيم – دون نجاح يُذكر – لكنّ كونه وصفه مسكنّ إلهة من إلهات النهر الكبير متقلّبة المزاج وربّما جائعة أثر فيهم بالقدر الكافي ليستقبلوا بسرعة اقتراحه بالنوم بالتناوب، بحيث يكون هناك دائمًا أحد مستيقظ وأذناه مرهفتان: «ضجيج كالرعد، ولو بعيدًا، ولو يكاد لا يُسمع، ومَن نوبة الحراسة عليه يوقظ الجميع فورًا. انتبهوا يا رفاق، الآلهة لا تنام.»

على غير ما توقّع، نام أنطونيو جيّدًا، وحين استيقظ والشمس في عينيه وجد الطاقم مستيقظًا مفعّمًا بالحيوية يتناول الفطور من اللحم المشوي المجلوب من القرية: «لا رعد يا أنطونيو، فقط الطيور والقرود والنهر الكبير الذي يهمس حتى في الليل.»

حتى الآن سار كلّ شيء على ما يرام، من يدري، لعلنا كنا محظوظين إلى حدّ أننا دخلنا فرعًا جانبيًا كالذي أخذه غامبوني، لعلنا لن نرى أصلًا ذلك الشلال الملعون الذي لا يفارق ذهني.

ولساعات كثيرة بدا الإبحار يؤيّد، ماضيًا بهذه السلسلة حتى إنّ الهمّ الوحيد كان إبقاء رأس ياماندي في الظلّ قدر الإمكان. كان الفتى يبدو ناعسًا طوال الوقت تقريبًا، ولم يكن أنطونيو متأكدًا أنّها علامة حسنة: حين جدّد الكمّادة على الساق وجدها في حال يفضّل ألا يعود بذاكرته إليها.

كان إيتاونا بالذات هو أوّل مَنْ سمعه: أكثرهم رهبةً من النهر، ولهذا أكثرهم يقظة. رفع رأسه وتمتم: «الرعد.»

ثمّ أعادها صائحًا: «الرعد، اسمعوا، اسمعوا!» وفجأة سمعوه جميعًا، ما يزال بعيدًا لكن واضح التمييز: دمدمة وانهمار، اهتزاز في الهواء.

«إلى الضفّة، إلى الضفّة! بسرعة، يجب أن نرسو، استخدموا الأعمدة، لنبحث عن القاع!»

لكنّ الأعمدة، مهما طالت، بدت غير قادرة على الإمساك بأدنى شيء، لا بدّ أنّ النهر كان أعمق ممّا ظنّوا، ومن يدري إن كان مجرد انفعالهم أم أنّ التيّار كان قد صار حقًا أسرع وأقوى.

كان صوت الشلال الآن يُسمَع حتى دون الانتباه إليه، وبدا يقترب في كلّ لحظة. نحن في عمق النهر أكثر من اللازم، بعيدون عن الضفّة أكثر من اللازم، الأعمدة لا تلمس القاع، لن نقدر أبدًا على الرسو هكذا: فهم أنطونيو أنّ عليه أن يقرّر بسرعة: «مواسير،» (أكثرهم رشاقة، أكثرهم جسارة) «مواسير، يجب أن ننزل إلى الماء وندفع الطوف نحو الضفّة، يجب أن نفعل ذلك فورًا، الآن!»

«نعم يا أنطونيو، لكنني لست بارعًا كثيرًا في أن أفعل كالأسماك في الماء...»

«عليك فقط أن تحرّك قدميك وتبقى متمسكًا جيّدًا بالطوف، لا تُفْلِتْهُ، انتبه، واضرب بقدميك بأقوى ما تستطيع، تعال، هيا، لا وقت، هيا.»

نزل أنطونيو إلى الماء أوّلًا، محاولًا ألا يفكّر في كم كائنًا يسكن النهر: لم تكن السباحة رياضة ممارسة في الغابة، ولأسباب وجيهة كثيرة. لكن لم يكن هناك خيار، الشلال يعني موتًا محققًا للجميع، فتمسكًا بالجدوع (لا تفكّر في الأسماك، لا تفكّر في الثعابين، في الكايمان) سبح بكلّ قوّته. كان مواسير بجانبه سلفًا، وبعده مباشرة أوبيراتان، أوبيراتان الصموت ذو الساقين القويّتين، الذي نزل إلى الماء دون كلمة يدير قدميه الكبيرتين بطاقة بيراروكو. كان ماء النهر منعشًا بل وممتعًا حتى – إن استثنينا الإحساس المتواصل بأنّ شيئًا حيًّا يلامس الساقين، الجلد – لكنّ التيّار كان قويًّا حقًا، لن نفلح، لا، لا تفكّر في ذلك، حرّك الساقين، حرّك الساقين. كانوا قد كادوا يبلغون حدّ القوى، الأسنان مطبقة، ومفاصل الأصابع بيضاء من الجهد، حين قرّب أخيرًا المسار المائل الذي نجحوا في فرضه على الطوف المركّب من الضفّة بما يكفي لتبلغ الأعمدة القاع: «نلمس القاع يا أنطونيو، نلمسه!»

وبشدة أخيرة محمومة تمكّنوا من التمسك بالنباتات، ومن تثبيت الطوف على الضفّة: بين أقواس قزح من الرذاذ ودويّ يصمّ الآذان، كان النهر يختفي في الفراغ على بُعد مئة متر بالكاد.

لزمت استراحة طويلة، ممدّدين لاهئين على الضفّة الموحلة، لتترسّب نشوة الخطر، ويتزوّدوا بالطعام، وينتزعوا عن أجسادهم فيلقًا كاملاً من العلق. وفوق كلّ شيء لزم أن يقرّروا كيف يواصلون: أمل أنطونيو الغامض في دخول فرع جانبي بالصدفة يلتفّ حول الشلال كان قد تبخّر بصورة أوضح من اللازم، وعندئذ، بطريقة أو بأخرى، كان الشلال يجب أن يواجّه.

كانت الفرضية الأولى ببساطة نقل الطوف على الأكتاف وإعادته إلى الماء أسفل القفزة، لكن استطلاعاً سريعاً كفى للتحقق من أن الغابة في تلك النقطة، المنقوعة بقرون من الرذاذ والأبخرة، كانت أكثر كثافة واخضراراً من المعتاد: لو نجحوا في شق طريقهم في ذلك التشابك الموحد المنحدر ناقلين، فوق الجريح، تلك الآلة الضخمة جداً، لكان ذلك معجزة.

من جهة أخرى، كان لأنطونيو ذكرى دقيقة إلى حد ما عن المسافة بين مونتي دورادو والشلال: في حينه كان قد انطلق لتوه وما يزال منتهياً لما حوله، ويتذكر جيداً أنهم لم يسافروا أكثر من نصف نهار. على وجه التقريب إذن كانت المسافة خمسة وعشرين، وربما ثلاثين كيلومتراً: ليست أكثر من اللازم مشياً على الأقدام، كان يمكن أن يكفي يوم سير مسرع. لكن كان يلزم أولاً بلوغ أسفل ذلك الشلال اللعين، ومجرد النزول وسط تلك الأدغال كان سيستغرق ساعات: وهذا يعني الاضطرار إلى التوقف ليلة أخرى في الغابة، ويعني قبل كل شيء الوصول إلى المدينة متأخرين يوماً. لم يجروا أحد على قولها علناً، لكن الجميع كانوا يدركون كيف كانت حالة ياماندي تسوء أمام العين: ربما كان يوم زائد أكثر من اللازم، بالنسبة إليه.

«يمكننا أن نزل مشياً، وندع التيار يحمل الطوف إلى الأسفل. ثم نأخذه بعد الشلال.»

«سيتحطم، يا بيراي.»

«ربما لا.»

«أقول لك إنه سيتهشم إلى ألف قطعة، ذلك الشلال عالٍ، لا يمكن أبداً أن...»

وفي تلك اللحظة تذكر أنطونيو - أين ومتى كان قد رآه، في صحيفة، في التلفاز؟ - أولئك الأشخاص الذين كانوا قد قذفوا بأنفسهم من شلالات نياغارا داخل برميل خشبي، ونجوا على نحو لا يُصدق. مهما كان الشلال مهيباً فهو من المؤكد ليس بالارتفاع نفسه: ربما وجد احتمال ألا يتهشم الطوف. وإن كانوا لا يريدون خسارة يوم، بدا أنه الاحتمال الوحيد.

«ربما معك حق، ربما لن يتحطم. يجب أن نجرب. وإن انتهى بعدها شظايا، فذلك يعني أننا سنتدبرها مشياً.»

«لكن كيف نستعيده بعدها؟ كيف نستعيده من وسط النهر؟»

«لا أعرف يا مواسير، لا أعرف. التيارات التي يولدها الشلال تخلق حركة تحمل الأشياء الأضخم نحو الأطراف و... على الأقل هكذا أظن، تقريباً. على أي حال سنفكر فيها حين نكون هناك.»

قرروا أن يبقى اثنان منهم مع الطوف، ليسلّماه إلى التيار فقط بعد أن يكون الآخرون قد بلغوا الأسفل: لم يكن ممكناً تركه يسقط دون أحد يراقب ويحاول على الأقل أن يرى أين ينتهي.

وهكذا انطلق الجميع إلا مواسير وكاوي، اللذين كان عليهما أن ينتظرا نحو ثلاث ساعات، يلتقطان التوت ويصطادان السحالي، قبل أن يبصرا خيط الدخان وبريق النار التي أشعلها الآخرون. كانا قد أبعدا الطوف عن الضفة بأقصى الإمكان مستخدمين الأعمدة، ممسكين إياه مربوطاً بحبلين نباتيين طويلين فحسب. وفقط حين أبصرا الإشارة وأطلقاه قاطعين الحبال أدركا أنهما سيضيعان مشهد رؤيته يطير: رأياه يركض على الماء أسرع فأسرع و— فجأة — يختفي في العدم.

3.3 القفزة

لا أعرف أي روح يجب أن أشكر ، ففكر أنطونيو حين رأى أن الطوف، بعد ذلك الطيران الذي بدا طويلًا جدًا، كأنه بالتصوير البطيء، كان قد بقي سليمًا عمليًا. أو ربما لم يفكر ذلك، لأن أوبيراتان أخذ يستدعي هذا العدد من الأرواح والآلهة وأسماء الأشجار أو الطيور أو شيء ما لم يُسمع من قبل، شاكرًا كلاً منها على حدة، حتى راود أنطونيو الشك في أنه كان قد فكر بصوت عالٍ، واليقين في أن كثيرًا من تلك الأسماء كان الفتى يخترعها هناك في الحال.

كان الطوف قد صمد. زعنفة التوجيه كانت قد تهشمت على نتوء صخري والدقة كانت قد ضاعت، لكن الهيكل، وإن معوّجًا قليلًا، كان قد تحمّل الارتطام بالماء، والآن يبحر متقافزًا نحوهم، يدفعه اضطراب الماء في موضع سقوط الشلال، الذي كان، كما افترض أنطونيو، يدفعه نحو الضفة. التحق مواسير وكاوي بالجماعة وقد جهّزت دفة جديدة، ليست أكثر بكثير من عمود طويل معوّج بعض الشيء.

قرّروا بالإجماع أنه لا وقت لإعادة بناء زعنفة التوجيه، إذ كان يجب تفكيك الطوف كله وإعادة تركيبه ليُدخلوا واحدة جديدة، لذلك ركبوا فورًا تاركين أنفسهم من جديد يحملهم النهر، وكل واحد في قلبه فخور أشدّ الفخر بالاختبار الذي اجتازوه بفضل شجاعتهم ومركبهم المقدام.

كانت ساعات الإبحار التالية سهلة إلى حدّ أن أنطونيو، المنهك، غلبه النوم أكثر من مرة، مُنوّمًا تقريبًا برققة الماء على الجذوع وبضجيج الخلفية للغابة، المختلف دائمًا ومع ذلك المطابق لنفسه. كان الطوف على أي حال يبدو كأن له حياة خاصة، ويقودهم بعزم بين منعطفات النهر الطويلة الذي كان مجراه يتسع الآن اتساعًا محسوسًا.

أخذ ياماندي يئنّ من أرجوحته جاذبًا انتباه الجميع. لعلّ الوقت كان قد حان ليعطوه جرعة أخرى من عشبة الإغماء.

3.4 نظرات

وعندئذ، بعد انعطافة أخرى من انعطافات النهر، رأى أنطونيو في البعيد بريق سطح من الصفيح، وهياكل أبنية بين الأشجار، وبعدها بقليل تمكّن بوضوح من تمييز الرصيف، متداعياً كما كان قد تركه، وخالياً. لم تكن هناك قوارب راسية، فقط القوارب الصغيرة الباهتة المعتادة جانحة، ومحرك خارجي صدى بلا مروحة، جثم عليه أوروبو راح يرمقهم ناعساً وهم يرسون وينزلون.

كان الفتیان قد صاروا صامتين صمّاً تامّاً، ودخلوا البلدة بحذر، وأيديهم تذهب عبثاً بحثاً عن الشفرات التي كان أنطونيو قد حرّم عليهم حملها. مكتظّين حول الأرجوحة تركوه يتقدّمهم طليعة وهم ينظرون حولهم بعيون شاخصة، فضوليين لكن متيقّظين. بدا لأنطونيو أنّه لا خطر على أيّ حال: الشوارع، وفيها بعض السيارات أكثر ممّا يتذكّر متوقّفة بجانب البيوت، كانت، عدا الكلاب والسحالي، مغبرة وفارغة. لا بدّ أنّ الناس كانوا على العشاء، ومن النوافذ المفتوحة كان يأتي خشخشة أطباق، وأصوات، وشارات نشرات الأخبار. الطفلان أو الثلاثة الذين رأوهم يصلون – سثة فتیان عراة يحملون حزمة أرجوحة، ورجل أطول منهم، عارٍ ملتجٍ، يتقدّمهم – كانوا قد فتحوا أعينهم باتّساع صامتين وركضوا ليحتموا في البيوت.

كانت الساحة الصغيرة قد بقيت شبه مطابقة لما يتذكّره، وقد أضيف حوض زهور أجرد بعض الشيء حول البيلورينيو، ومبنى ذو هيئة لم يفتتح قطّ كان قد جدّد بستائر معدنية وجصّ بلاستيكي ويحمل لوحة «حديقة توموكوماكي الوطنية – الإدارة». الدكان كان قد وضع في الخارج حاملاً علّقت عليه شباشب ملوّنة وفساتين صغيرة من النايلون، وثلاثة أعمدة إنارة بتصميم ألنيوم أكثر جرأة من اللازم تمنح الكلاب فرصاً جديدة مستقبلية للتبول، والبوزادا كانت قد طليت بلون السيكلامين وزُودت بلافتة نيون، مطفاة الآن، تقول دون أصالة كبيرة: «عند البيلورينيو – بوزادا – مقهى – جعة براهما».

في الصالة نصف المعتمة كانت صاحبة المكان تغسل الأكواب موليّة ظهرها للمدخل وللزبون الوحيد، عجوز يربّت على جعة صغيرة ناظراً بانتباه، على تلفاز ضخم معلق على الجدار، إلى مشاجرة محتدمة بأعلى صوت بين سيدتين شديديتي المكياج كان مقدّم برامج ممتلئ الجسم في سترة كحلية يحاول في الوقت نفسه تهدئتهما وإثارتتهما.

وإذ رآهم يدخلون عراة مطليّين، في صمت تامّ، جحظت عينا الرجل الصغير ونعق:

«جيزيتا...»

«نعم يا أرماندو، ماذا هناك؟ هل انتهيت من جعتكم الصغيرة؟»

«جيزيتا، همم... هناك... ناس.»

استدارت جيزيتا وبقيت لحظة مذهولة، الكوب في يد والممسحة في الأخرى، لكنّها استعادت رباطة جأشها بسرعة: «وأنتم من تكونون؟ ماذا تفعلون هنا؟ اخرجوا، هيّا، هيّا، هذا ليس مكاناً مناسباً لكم.»

تقدّم أنطونيو، معدّلاً ريشتي البغاء بين شعره الأشعث: «يا سيّدة جيزيتا، مساء الخير. لا تقلقي، لن نفعل شيئاً سيئاً: نحتاج مساعدة، هناك فتى جريح، نحتاج مساعدة.»

«لكنك، قل لي، لست واحداً منهم. لا أفهم، ما شأنكم مع هؤلاء الهنود؟»

«ستكون حكاية طويلة جدّاً يا سيّدي... اسمي أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا. اسمعيني، أنت من المؤكّد لا تتذكّرني، لكنني كنت هنا من قبل، منذ زمن. أعرف أخاك، غامبوني...»

«آه، غامبوني! لم أره منذ عامين تقريبًا. باولو أخذ القارب وذهب صاعدًا على امتداد النهر، أراد أن يتاجر، يبيع، يشتري، الله يعلم ماذا. كان يقول إنَّ مونتي دورادو لا تقدّم آفاقًا، هكذا كان يقول. في عامين لم يتّصل بي إلا ثلاث مرّات، ذلك الكايبارا.»

«كنت أعرف أيضًا ابن عمّك، بيبي المسكين الذي للأسف...»

«بيبي؟ ومن يكون؟ لم يكن لي أبناء عمّ قطّ: لي أنا وباولو سبع بنات عمّ، كلّهنّ إناث، مع أنّ العمّ أرماندو كان يتمنّى كثيرًا ابنةً ذكرًا، لكن لعله كان أفضل هكذا، لخرج زير نساء كسولًا مثله... لكنكم، لم أفهم بعدّ من تكونون وماذا تريدون: فتى جريح، تقولون؟ وأين يكون؟ أروني إيّاه قليلًا.»

«معك حقّ، هذا الفتى في حال سيئة جدًّا، يجب أن يراه طبيب بسرعة.»

«ربّما بقارب...»

«لم تعد هناك قوارب بمحرّك كما ينبغي؛ قاربه أخذه غامبوني وذاك الآخر كان متهاكًا إلى حدّ أنّ النهر جعله يتعفّن منذ أعوام. الجميع يستخدمون السيارة الآن: علينا أن نبحث عن شخص ينقل الفتى.»

«لكننا كثيرون، يلزمنا سيّارتان، وربّما ثلاث...»

«يا للتفاهة، الفتى يذهب إلى المستشفى وأولئك الآخرون يعودون إلى الغابة. لا تريدون بالتأكيد أن تأخذوا القبيلة كلّها إلى المدينة.»

«في الحقيقة... أظنّ أنّي أريد، يا سيّدة جيزيتا، علينا أن نفعل هذا: هم لن ينفصلوا، وأنا أيضًا لا أريد تركهم هنا، أريدهم أن يأتوا معي إلى المدينة. ثمّ إنني أريد الذهاب إلى ماكابا، لا إلى ألميريم. إنّها حكاية طويلة، قلّ لك.»

«يبدو لي جنونًا لكن حسنًا، ما دمت راضيًا، سنرى أن نجد السيارات وإن لم يكن سهلًا أن نجد من يعطي توصيلة لقبيلة كاملة... آه! لكن وجدتها: غدًا صباحًا باكراً تمرّ من لارانجال الحافلة الذاهبة إلى ماكابا: هناك ستسعون جميعًا وتسافرون مرتاحين. لارانجال في الضفّة الأخرى من النهر لكن هذه ليست مشكلة، نحن نعبر دائمًا بالقوارب الصغيرة. وفي المحصّلة هي أسرع طريقة لتوصيلكم إلى المدينة، ستستغرقون أقلّ وتسافرون أريح ممّا لو قطعتموها كلّها بالسيارة.»

«آه، أشكرك، هذه فكرة ممتازة! سيكون علينا طبعًا أن نتوقّف هنا ليلة، لكننا لن نزعجك: سنبني خارج البلدة، تحت الأشجار...»

«لا، لا، أيّ أشجار. لستم في الغابة هنا. ستنامون هنا، في الصالة، سأنزل أراجيح للجميع. وذلك الفتى نضعه في سرير حقيقي: لقد قُذِف به أكثر من اللازم، يجب أن يبقى هادئًا.»

«أشكرك، أنت لطيفة حقًا جدًّا. ليس معي مال، لكن حين أصل إلى المدينة يمكنني الذهاب إلى المصرف و...»

هزّت جيزيتا كتفيها: «لهذا سنفكر لاحقًا. أنا لا ينقصني ما أعيش به، وفي العائلة يكفي من العلق أخي غامبوني. لا تشغل بالك. بالأحرى، ستريدون أن تأكلوا، صحيح؟»

«في الحقيقة، نعم. كما تعلمين، هم فتیان، لديهم شهية دائمًا: حملنا مؤنًا لكنّها نفذت الآن... نعم، ألف شكر، في الحقيقة أوّل شيء أن نريح ياماندي ثمّ نأكل شيئًا.»

«لا»، قالت جيزيتا متفحّصةً إيّاه من الرأس إلى القدمين، «أوّل شيء أن تلبسوا شيئًا على أجسامكم.»

لأوّل مرّة منذ سنوات كثيرة وعى أنطونيو أنّه بلا ملابس: نظرة دونا جيزيتا المستمتعة جعلته يشعر، يا للغرابة، كثيراً... ما كانت تلك الكلمة، لم تعد تخطر لي، لا توجد كلمة مقابلة في لغة القبيلة: نعم، عارٍ، الكلمة هي عارٍ.

في الصالة، كان العجوز قد نسي الجعة شاخصاً إلى الفتیان. والفتیان، متلاصقين في جماعة بنية متماسكة، بأعين مفتوحة باتّساع كانوا يحدّقون مسمرّين في التلفاز.

3.5 جيزيتا

كان لا بدَّ أنْ لدى دونا جيزيتا غريزة أمومة عظيمة لم تجد سبيلاً للتعبير عن نفسها، لأنَّها، بعد الريبة الوجيزة الأولى، اعتنت بهم كدجاجة بصغارها. ليست على الإطلاق امرأة قبيحة، فكَّر أنطونيو، لعلَّها ثرثارة قليلاً لكنَّها تبدو حنوًّا جدًّا، من يدري لماذا لم تنجح في تكوين أسرة. على الأرجح لم يكن في ذلك المكان المنسيّ كثير من الخطّاب المتاحين، أو ربّما لم تعتبر أحدًا منهم في مستواها، هي مالكة بوزادا بلافتة نيون كاملة.

الثابت أنَّها أخذتهم تحت جناحها الواقي، كأنَّهم جميعًا – وأنطونيو معهم – أطفال يجب الاعتناء بهم. وهو ما لم يكن، في المحصّلة، بعيدًا عن الحقيقة: صيادون أشداء ومتكيّفون تمامًا في الغابة، كانوا في تلك البيئة الجديدة كلّ الجِدَّة بلا حيلة كالرُضّع.

أولًا وضعت جيزيتا ياماندي في سرير حقيقي في الطابق العلوي، بعد أن حشته جيّدًا بحبوب شتّى أخذت من خزانة أدوية بحجم صيدلية. ورغم أنَّ المرتبة والوسائد كانت تجربة جديدة كلّ الجِدَّة للجريح، فبعد إحساس أولي بالانزعاج والدهشة من تلك الليونة، ذلك البياض الأملس العطر، جعلت ابتسامة النعيم التي ارتسمت على وجهه رغم الحمى تُفهِم دون أدنى شكَّ أنَّه كان يجدها أبعد ما يكون عن المزعج.

لنيل انتباه الجماعة لزم إطفاء التلفاز – الذي ما كانت الأناكوندا الكبيرة نفسها لتقدر، لولا ذلك، على انتزاعهم من سحره – وسط استياء السيد أرماندو، الذي أبعدته دونا جيزيتا بلطف لكن دون مجاملات كثيرة: «الليلة نحن مغلقون يا أرماندينيو. عندي ناس.»

مضى العجوز هارًا رأسه، غير مقتنع. إن كان المرء لا يقدر حتى على أن يشرب جعته الصغيرة دون أن تصل قبيلة كاملة من الهنود العراة لتتمركز أمام التلفاز، أيّ عالم هذا. إلى أي حد وصلنا.

بعد إخلاء الساحة، أمسكت المرأة بزمام التنظيم: بدا أنَّ الفتيان يقبلون اهتماماتها برضا – ولا سيّما مواسير الذي كان يهديها ابتسامات مشرقة متواصلة – ولدهشة أنطونيو غلب فيهم الفضول الرهبة أمام ذلك الفيض من الأشياء الجديدة.

بعد أن تركت الشبّان وقتًا طويلًا يسكبون الماء بعضهم على بعض بخرطوم الماء، وعرضت على أنطونيو استخدام حمّام فيه حوض، وضعت جيزيتا في تصرّف الجماعة خزانة أدراج واسعة تفيض بقطع ملابس من كلّ صنف.

«ليس لديكم فكرة عن كم الأشياء التي ينساها الناس في الغرف»، كانت قد تمتعت، لكن مهما يكن ذلك صحيحًا، بدا لأنطونيو أنَّ تلك الملابس كانت حقًا أكثر من اللازم قليلًا، خاصّة ملابس الرجال، قياسًا بكميّة الزبائن الساهين الذين يمكن أن يكون نُزّل كذلك قد حظي بهم يومًا. ربّما في النهاية كان قد وُجد زوج، لكن على ما بدا لم تكن جيزيتا تحبّ الكلام عنه.

الفتيان، بعد لحظة من التحوّف الريبي – فعلى أيّ حال كان أفضل انعكاس لأنفسهم قد رآوه في بركة موحلة – وقعوا في حبّ المرأة الكبيرة بطول القامة التي كانت بإطارها الروكوكو الظريف تتربّع في غرفة دونا جيزيتا: أمضوا ساعة كاملة يتبخثرون بالجوارب والقمصان، يدفع أحدهم الآخر لينجح في النظر إلى نفسه، ضاحكين بغرور وانسراح.

بينما كانت تُعدّ العشاء – مُزيحةً بيراى من جهة إلى أخرى، وقد كان يقف بين قدميها باستمرار، مفتونًا بالمطبخ والمواقد والأواني والمكوّنات التي كان يغمس فيها أصابعه ليتذوّقها شرهًا – كانت جيزيتا تفكّر في تنظيم الرحيل: «بعد العشاء سأذهب لأطلب من جواو وفيسنتي أن يرافقاكم غدًا صباحًا باكراً بالقرب إلى الضقة الأخرى من النهر. على أيّ حال سيلزماني أن أقول شيئًا عنكم، لا بدَّ أنَّهم رأوكم تصلون. وحتى إن لم يكونوا قد رأوكم، فالسيد أرماندو أكثر نميّة من ابنة عمّتي جيلبرتّا.»

اتّضح أنَّ أبسط حلّ هو تقديم العشاء للجماعة في الفناء الداخلي: كراسي الصالة كانوا قد استحسّوها كثيرًا وجربوها كلّها واحدة بعد الأخرى مقهقهين مسرورين، لكنَّهم وجدوا الطاولات، على ما بدا، اختراعًا غير مريح أكثر من أيّ شيء. وهكذا أكلوا في الفناء بين أصص إبرة الراعي والكزبرة والبردقوش، جالسين على الأرض كما ينبغي، وقد ارتدوا

القمصان التي اختاروها. سيلزمني غداً عند الرحيل أن أنجح في جعلهم يلبسون أيضاً سروالاً قصيراً، اللعنة، أما الأحذية فمن غير المجدي التفكير فيها أصلاً، سنرى لاحقاً، لعلّ الشباشب ستعجبهم، لكنّ السراويل القصيرة أساسية بكل تأكيد. وسيلزم بأيّ ثمن إقناع كاوي بأن ينزع عنه ذلك القميص الليلي الليلكي ذي الدانتيل الذي يبدو أنّه يعجبه كثيراً جداً.

اليخنة التي وضعتها صاحبة المكان في وسطهم في قدر كبير، غنيّة بالفاصوليا ومقوّاة بشرائح موز الجنة المقلّية، نالت استحساناً حماسياً: لم يكونوا قد ذاقوا الدجاج قطّ لكنّهم وجدوه ممتازاً، أقلّ نكهة قليلاً من الثعبان، لكن بالتأكيد أكثر من الجاكاريه.

لم يكن ثمّة سبيل بالمقابل لجعلهم يشربون الماء من الأكواب: الزجاج، بهذه الشفافية، كان يقلقهم، بدا ماءً صلباً، كان غير مفهوم ومقلّقاً بصورة قاطعة. لم يعزموا على الشرب إلا حين أحضرت جيزيتا من المطبخ بعض أوعية الفخار، لكنّهم وجدوا مثيراً جداً للاهتمام ومضحكاً بعض الشيء أنّ ذلك الماء بلا مذاق. كانوا في خضمّ نقاش محتدم حول كم كان غريباً أنّ الماء لا طعم فيه للطين، ولا للأوراق، ولا للتراب، ولا للقصب المتعفن، حين صُنع أنطونيو بذكرى كان قد محاها تماماً: الجعة. يا يسوعي، الجعة موجودة!

سُرت جيزيتا بأن تفتح له زجاجة، وحين نزلت الرشفة الباردة الأولى في حلقه فكّر أنطونيو أنّ هذا، هذا بالذات، يستحقّ لا ثلاثة أيام، بل ثلاثة أشهر أيضاً صعوداً ونزولاً بين الشلالات على متن طوف مبلول وأعوج. عند الرشفة الثانية أغمض عينيه، تائهاً في اللذة. لكنّه أعاد فتحهما فجأة مع الرشفة الثالثة، وقد باغتته فكرة: «سيدتي، في أيّ سنة نحن؟»

3.6 أربعة عشر عامًا

1. يا إلهي، العاشر من مارس 2014. كان أنطونيو يتأمل ذلك الاكتشاف المزلزل غارقًا في حوض الحمام الذي عرضت عليه دونا جيزيتا استعماله بلطف. حوض حمام. سيفون. بلاط. صابونة بعطر الورد: كم يمكن أن تكون الأشياء التي يصل المرء في أربعة عشر عامًا إلى نسيان وجودها؟ أربعة عشر عامًا كانت كثيرة، أكثر بكثير مما كان قد ظن. صحيح أنه رأى الأطفال يصيرون شبانًا، ورأى الطفلات وقد صرن أمهات، لكن لسبب غريب ما - ربما لذلك الجريان بلا فصول للأيام - لم يكن قد فكر قط تفكيرًا دقيقًا في السنوات. لو سُئل فجأة، دون تفكير، لقال خمسة أو ستة، سبعة على الأكثر.

نظر إلى نفسه في مرآة المغسلة، فوجد نفسه متغيرًا إلى حد أنه لم يكن واثقًا أنه كان سيتعرّف على نفسه لو صادف نفسه.

نحيلاً مسمراً، داكناً الآن بسمرتهم، وكبة رطبة كبيرة من لحية وشعر. أخذ موسى في يده، شم عبير رغوة الحلاقة، مرّ بين أصابعه ندفة منها. ثم قرّر أنّ الأفضل ألا يحلق تمامًا، قليلاً لأنه بنصف وجه مسمّر كان سيبدو مضحكًا، وقليلًا لأنه كان قد اعتاد أن يحس نفسه ملتحيًا، فبدأ يقصّ اللحية والشعر بالمقصّ - أفضل دائمًا من تشذيبهما بين حين وآخر على غير هدى بشفرة من عظم - وفي تلك اللحظة، غير متوقّع وعنيف، صفعه بكلمة إدراك أنه سيرى أسرته قريبًا.

كان قد أخفى، دون أن ينتبه حتى، في قاع معدته، وقلبه، وزنه، أسف ألا يراهم أبدًا بعد اليوم، والآن فقط، إذ عرف أنه سيراهم، أدرك إلى أي عمق كان قد دفنه.

وهناك، معطرًا بالورد أمام المغسلة، والمقصّ في يده وسروال داخلي أكبر بمقاسين، أباح لنفسه بعد كلّ ذلك الوقت فرحة التفكير فيهم.

ثرى جانيتا، هل ازدادت سمنةً، وهل صارت راهبةً كما كانت تقول بين حين وآخر، ثرى أماندا، ثرى هل تزوّجت ذلك المتأنق خطيبها - ما استساغت نفسي قطّ ذلك الفتى، بتلك الهيئة الكارهة للعمل - ثرى، ربما صار لها ولدان أو ثلاثة، أو لعلها مطلقة من زمان، وغابرييلا، غابرييلينا التي كانت بالكاد تمشي وصارت الآن أنسة، كيف أصبحت، ثرى هل هي جيّدة في المدرسة. لسعة خوف جمّدت لحظة: وأبي، وأمي؟ لو كانا قد ماتا؟ لا، لا، ما هذا الذي تفكر فيه، كانا في منتصف العمر بالكاد حين سافرت، أبي كان قويّ العود وأمي تتفجّر صحةً ونضارة: لا بدّ أنّها ما تزال تتشاكس طوال الوقت مع العمّ إرنستو والعمّة نورمينيا، ثرى هل ما زال عندهم ذلك الكلب البشع الذي يشبه تابيرًا منتوف الشعر. ثرى الأصدقاء أيضًا، ثرى هل أعاد باكو فتح الإذاعة، وهل وجد جاكينيو لنفسه امرأة، ثرى تلاميذي، وجورج ذاك المتحذلق وكلّ المراهقين الآخرين الذين صاروا الآن رجالًا. ثرى تلك الفتاة، فتاة الإذاعة، ما كان اسمها، إيزابيلا، إيزادورا، ثرى ما آل إليه أمرها.

لن يعرفوني، فكر مبتسمًا في المرأة. لن يعرفوني لكنّي سأعرفهم، سأعرفهم جميعًا.

3.7 المنبّه

كلّ شيء نسبيّ. كلّ شيء يعتمد فُكر أنطونيو في الصالة المعتمدة، مصغيًا بعينين نصف مغمضتين إلى الفتیان يثرثرون فيما بينهم، قُيّل أن يناموا مستلقين في الأراجيح التي وفّرتها جيزيتا. ثمّ خطر له بدهشة أنّ عبارة «كلّ شيء يعتمد» كانت من لوازمه القديمة، لكنّه في الوقت الذي قضاه في الغابة كفّ عن استعمالها. والآن إذ يفكر في ذلك بدا له أنّه ليست هناك حتى كلمة واحدة للتعبير عن ذلك المعنى، في اللغة. ثرى، لعلّ ذلك دليلٌ على أنّ كلّ شيء في الغابة أبسط وأوضح، تساءل، ثمّ عاد يركّز على كلام الفتیان، مبتسمًا من سذاجتهم.

«لكن هل كنتم تتخيّلون هذه الأكواخ بهذا الكبر؟» كان جاسي هو من تكلم.

«أنا تخيلتها» أجاب أحدهم.

«أنا لا. ولا حتى كنت قد فهمت أنّ قريةً يمكن أن تكون بهذا الكبر. أعني، أنطونيو كان يكرّرها دائمًا، كبيرة، كبيرة، لكنّي ما كنت أظنّها بهذا الكبر.»

«إن كنت فهمت جيّدًا، فهذه القرية ليست حتى أكبر ما عندهم. تلك التي جاء منها أنطونيو أكبر بعد.»

«مستحيل.»

«أقول لك نعم.»

«نسأل أنطونيو.»

«أظنّه نائمًا. إنّهُ عجوز، يتعب قبلنا.»

«هاهاها.»

«أمّا أنا فمندهِش لأنّ فيها ناسًا قليلين جدًّا،» أوبيراتان هو من تكلم «انظروا حولكم: هذا الكوخ كبير جدًّا، لكن حين وصلنا لم يكن فيه سوى ذلك الرجل الذي كان يشرب المشروب الأصفر...»

«كان يشرب بولًا!» قاطعه كاوي، فأثار ضحكًا عظيمًا.

«...والمرأة جيزيتا. وكفى. لا بدّ أنّ هذه القرى أماكن ممّلة إلى أقصى حدّ.»

«أنا كنت قد فهمت أنّ فيها ناسًا أكثر بكثير.»

«ربّما حدث شيء سيّئ وماتوا جميعًا!» اقترح كاوي مازحًا، لكنّه أثار قشعريرةً زائدةً عن اللزوم في أصدقائه وفي نفسه هو أيضًا.

«أنطونيو!» نادى جاسي «هل أنت نائم؟»

«لا، لكن ينبغي أن أكون. وينبغي أن تكونوا أنتم أيضًا.»

«لماذا في القرية أشخاص قليلون هكذا؟ هل حدث شيء سيّئ؟»

«لا يا جاسي، لا تقلق. هذه القرية هكذا. ثمّ إنّنا حين وصلنا كان المساء قد كاد يحلّ، وكانوا كلّهم تقريبًا في أكواخهم. غدًا نأخذ القارب ذا العجلات ونذهب إلى قريتي القديمة، ستري أنّ الناس سيكونون أكثر بكثير. ناموا الآن، فغدًا علينا أن نستيقظ باكراً.»

«ماذا يعني أن نستيقظ باكراً؟ نستيقظ حين نستيقظ.»

«لا، لأنَّ الحافلة، أعني القارب ذا العجلات، لا تنتظرنا. علينا أن نستيقظ قبل أن تمضي.»

«وكيف نفعل؟»

أراهم أنطونيو المنبّه الذي أعطته إياه جيزيتا قبل قليل: «هذا الشيء يعدّ بدقّة الوقت الذي يمضي، وحين تحين اللحظة يُصدر صوتاً فيوقظنا.»

«عندكم شيء يوقظكم وأنتم نائمون؟» سأل جاسي غير مصدّق.

«نعم.»

«أنتم مجانيين.»

«ربّما كنتَ على حقّ.»

3.8 كلمات جديدة

عند الفجر كانوا كلهم مستيقظين، حتى قبل أن يرنّ المنبّه، في غاية الحماسة للحافلة التي سيصعدون فيها. في المساء السابق كانوا قد استرقوا النظر بخشوع إلى السيارات القليلة المركونة في البلدة، تلك اللامعة الملونة المختلفة عن أي شيء رأوه من قبل. كان أنطونيو قد شرح لهم أنّ الحافلة مثل واحدة من تلك، لكنّها أكبر بكثير، وأنّهم سيصعدون إلى داخلها وستنقلهم كقاربٍ لكن على الطريق. على الأرجح لم يكونوا قد فهموا تمامًا، لكنهم ما كانوا يطيقون صبرًا حتى يجربوا تلك الأعجوبة من حركة ومعدن.

معدن مثل الأشياء التي تستعملها دونا جيزيتا للطبخ، مثل القدر، لكننا سندخل فيها وهي تتحرّك وتحملنا إلى قرية أنطونيو، أنت خائف؟ خائف من قدرٍ تتحرّك؟ أنا لا أخاف من شيء، حين أصبح عجوزًا مثل أنطونيو ستكون لي حافلة أنا أيضًا، كلّها من معدن وملونة كاللبغاء.

ذاق الجميع القهوة – التي ارتشفها أنطونيو في شبه نشوة – فوجدوا أنّ طعمها كطعم الخشب المحروق وأنّ السكر مأكولًا وحده أفضل بكثير جدًّا من إهداره بإذابته في ذلك المرق، ثمّ، بعد أن اجتازوا تفتيش جيزيتا التي تحققت من أنّ عليهم جميعًا سراويل قصيرة وقمصانًا، انطلقوا إلى الرصيف، وياماندي متألّم لكن حمّاه قد خفّت قليلًا، مستلقٍ في الأرجوحة في بيجاما واسعة مخططة.

كان جواو وفيسنتي هناك سلفًا: حين شرحت لهما جيزيتا الوضع في المساء السابق لم يبديا اعتراضًا، فتى جريح، يا للمسكين، طبعًا، هذا أقلّ الواجب. في البلدات المعزولة هكذا يعتاد الناس التضامن، ومن الصعب أن تُرفض معونة لأحد.

لكن في البلدات المعزولة هكذا يكون الناس أيضًا شديدي الفضول، فاجتمعت في ذلك الصباح حول الرصيف مونتي دورادو بأسرها لتنظر إليهم وهم يرحلون: الأطفال خائبون قليلًا لأنّهم كانوا قد سمعوا كلامًا عن هنود عراة – أولئك الذين هناك، في الغابة – ولم يروا سوى فتیان بقمصان، والكبار متأثرين جدًّا بأنطونيو الذي بقي أربعة عشر عامًا خارج العالم، لكن كيف فعلها، لكّني أنا كنت سأموت، بالطبع كنت ستموتين، كان سيأكلك أول جاكوار يمرّ من هناك، كنت ستموتين ولو لمجرد أنّك ما كنت تقدرين أن تشاهدي مسلسل ما بعد الظهر، وما أدراك أنّك بالغابة، آه وأنت إذن، تعيش فيها منذ العمر كلّه على بعد ثلاثة أمتار من البيت وما وطئتها قدمك قطّ، انظر إلى هؤلاء الفتیان، شبّوا وهم يصطادون الجاكوار وأنت هناك أسمن وأكسل من كايبارا.

انفصلت القوارب الصغيرة عن المرسى، والبلدة تودّعهم ملوحةً بالأيدي، وجيزيتا – في ذلك السكون المميت كانت المفاجآت نادرة نادرة يوم بلا مطر – كانت تشعر بالحنين سلفًا.

«يا لها من امرأة جميلة، جميلة جدًّا.»

«ها؟ لكن من؟ جميلة جدًّا من؟»

«تلك المرأة، جيزيتا، تلك التي أطعمتنا في بيتها.»

«إنّها كبيرة جدًّا عليك يا مواسير.»

«نعم، إنّها كبيرة جدًّا. لكنّها جميلة، بكلّ ذلك الشعر الأصفر، شعر أصفر جميل» تنهّد.

«نعم، حسنًا، كان مصبوغًا يا مواسير، مصبوغًا.»

«ما هو مصبوغ.»

«مصبوغ يعني ملوّثًا، مطليًا، مدهونًا، ليس لونه الحقيقي.»

«لا يهَمُّ، لا تقل هكذا، أنت تحسد لأنَّ شعرك ليس بهذا الجمال. إنها امرأة جميلة جدًّا، لها رائحة زهور، ولها نقوش على عينيها، ولها ثوب جميل جدًّا مليء بالألوان، ولها شعر أصفر كالشمس. أنا أظنُّ أنها مثل إلهة النهر، الأناكوندا الكبيرة الصفراء، إنها جميلة جدًّا، أنت لا تفهم شيئًا.»

تنهَّد مواسير مرَّةً أخرى، وعيناه بعيدتان تنظران إلى الضفَّة تبتعد.

شدَّ كاوي في قبضته القميصَ الليليَّ الليلكيَّ الذي سمحوا له بأخذه معه شريطة ألاَّ يلبسه، كان يفكّر في الحافلة ويخاف كثيرًا، لكنّه كان سيموت قبل أن يعترف بذلك.

3.9 دموع

كان اسم السائق فيرناندو، وحين انطلق من جديد وعجلاته تصرّ على حصى لارانجال كان مرتاباً قليلاً، هؤلاء هنود، هو يعرفهم من على بعد ميل، ولا حتى يعرفون اللغة عدا ذاك الملتحي الذي من يدري من أين طلع، ثمّ ذلك الفتى الجريح... هو لم يكن يريد مشاكل، فقيادة تلك الخزانة الكبيرة على تلك الطرق التي طينها أكثر من إسفلتها متعبة أصلاً، متعبة إلى حدّ أنّ زوجته ربّما كانت على حقّ، مقابل ما يدفعون، ربّما كان الأفضل الذهاب إلى المصنع لتعليب السمك في بيليم. لكنّه بعد ذلك غيّر رأيه: في المحصّلة لم يكونوا يثيرون مشاكل، كانوا صامتين هادئين – ينظرون من النوافذ، مفتونين برؤية الطريق تجري، تجري.

حين دخلوا المدينة لم ينتبه أنطونيو تقريباً إلى ما كان حوله، كان مدوّخاً لكنّه كان قبل كلّ شيء قلقاً – كيف السبيل إلى نقل الجماعة كلّها حتى المستشفى، بحافلة، بسيارة أجرة، بأيّ نقود – حين قال السائق، بعد أن أنزل في الموقف آخر ربّة بيت كانت على عجل: «لكن إلى أين أنتم ذاهبون، ذلك الفتى الجريح عليكم أن تأخذوه إلى سنيورا دوس أنجوس، أليس كذلك؟»

«نعم، لكنّي لا أدري، لعلّ هناك حافلة...»

«في رأيي ليس ذلك مريحاً، عليكم أن تبدّلوا الحافلة في شارع بارانا وربّما تنتظروا، مع ذاك الذي لا يقف حتى على قدميه... عموماً، أنا أنهيت جولتي، وما دمنّا هنا آخذكم أنا، هيّا.»

«لكن هل أنت متأكّد يا سيّدي؟ نحن معنا نقود التذكرة حتى المدينة فقط (بشكل ما عليّ أن أردّها إلى جيزيتا، بكلّ تأكيد)، والذهاب حتى المستشفى خارج طريقك.»

«آه، لكنّ المستشفى عملياً في الطريق إلى المستودع... فتیان طيّبون هؤلاء، مؤدّبون، وذاك المسكين هناك، عندي ابن في العشرين هو أيضاً، يا لها من إصابة قبيحة في تلك الساق، آخذكم إلى هناك، ثمّ ترون.»

حدثت بلبلة معيّنة في قسم الإسعاف حين دخل ستّة هنود يحملون أرجوحة، مرتبكين من كلّ ذلك الأبيض والأخضر، ومن تلك الرائحة المجهولة المرية، يقودهم رجل ملتجّح كان يطلب بأعلى صوته طبيباً، طبيباً، ما اسمه ذاك الذي يصلح السيقان، العظام، هناك فتى جريح، نحتاج إلى، إلى... إلى جرّاح عظام. بسرعة.

«إنّ أنت تقول لي إنّك بقيت أربعة عشر عاماً في الغابة، هذا شيء... عجيب جدّاً، شيء خاصّ حقّاً، أتعلم.»

«نعم يا دكتور، أعلم. إنّها حكاية طويلة بعض الشيء، لكنّ ما يهمّني هو أن يكون الفتى، الساق، بخير.»

«نعم، نعم، بخير. لكنكم أحسنتم بإحضاره إلى هنا: كان كسرّاً قبيحاً حقّاً وكانت حاله سيّئة جدّاً، كان سيموت لو لم يُدرّك في الوقت المناسب. الساق ستعود إلى حالها، ولن ينتبه حتى إلى أنّه أصيب، لكنّها ستكون مسألة طويلة، سيلزم زمن لا بأس به من إعادة التأهيل. لكن أنت، حدّثني عنك: كيف حدث، يعني، أنّ تلك الأعوام الأربعة عشر...»

«اسمع، نعم، سأحكّي لك، لكن الآن كن لطيفاً، هل يمكنني إجراء مكالمة هاتفية؟»

على الهاتف ردّت جانيتا – لم تصر راهبة في النهاية – وكان ذلك من حسن الحظّ، فمن طريقة ذهولها كان يفهم أنّ الأمّ لو ردّت لوجدوا أنفسهم أمام نوبة قلبية: لهت، تنفّست بصعوبة، تلعثمت، سألت للتأكّد – لا يُعرف أبداً، فالناس الغريبون كثيرون – عن اسم جدّة أبيهما، ثمّ ذابت في الدموع منتحبة: «أنطونينو، آه، أنطونينو! نحن قادمون، نأتي حالاً، نصف ساعة ونكون هناك.»

كانوا قد نقلوا ياماندي للتوّ إلى الغرفة، بعد العملية وتحت المهدّي، وأنطونيو يحاول أن يفهم ما العمل مع أولئك الفتیان الواقفين منذ وقت طويل في قسم الإسعاف، وإن كانوا ما يزالون يبدون هادئين، ملتصقين بالنوافذ الكبيرة ينظرون بفضول لا ينضب إلى الشارع في الأسفل: السيّارات، الشاحنات الصغيرة، اللافتات، المتاجر، الدراجات والدراجات

النارية، إشارات المرور والمتسولين، النساء ذوات الكعوب، الإسفلت، النفائات وفتحات المجاري، السراويل والتتورات والنظارات، الكلاب في المقاد، الستائر المعدنية، السجائر، المظلات.

عندئذ وصلوا، جميعاً معاً، الأم تشق طريقها لتعانقه أولاً فتضمه حتى تقطع أنفاسه، باكيةً كنافورة وملوحةً بالكيس فيه الأربعون بيجينيو التي كانت قد حضرتها قبل الخروج وقد غمرها الهياج، ثم جانيتا وأماندا، تداعبانه كلتاهما معاً وهما تبكيان أيضاً، وزوج أماندا الذي لحسن الحظ لم يكن المتألق والذي لم يره من قبل قط لكنه ضمه ضمة رجولية، محرّصاً الطفلين اللذين كان يمسكهما بيديه: «هيا، هيا، قتيلاً خالكما!» وغابرييليتا بتتورة قصيرة لا تذكره إطلاقاً وتقف على حدة قليلاً لكنها، وقد انتقلت إليها العدوى، كانت تبكي هي أيضاً. والعمة نورمينيا تغرقه بالدموع وهي تعصر خديه بين يديها، والعم إرنستو لا يكف عن ضربه بكفيه على كتفيه ويشد بأنفه، وأنطونيو لا يدري أضحك أم يبكي قليلاً هو أيضاً.

«كم صرت جميلاً، يا حبيب أمه أنطونينيو، يا طفلي، بهذه اللحية لحية غاريمبيرو... من يدري متى سيراك أبوك، هو لا يحب الزحام، تعرف كم هو دب، لكنه ينتظرك في البيت: ما رأيته متأثراً هكذا منذ رآك ثولدا... طفلي الجميل! تبدو أطول، لكنك نحيل، دعني أراك، من يدري ماذا كنت تأكل، أي حيوانات قبيحة وأعشاب ضارة... وكم بكيت وأنا أظنك ميتاً، أقمت لا أدري كم قداساً، أرايت أن نوسا سنيورا دوس ميننوس سمعتني، عليك أن تحكي لي كل شيء، كل شيء... لكن هؤلاء، هؤلاء هم أصدقائك؟ يا لهم من فتیان جميلين!»

ومجنونة بالامتنان والفرح كانت تعانق الفتیان، المرتبكين قليلاً من تلك الكتلة الطرية المبللة بالبكاء والفواحة بالسوسن، وتداعب شعورهم، وتملاً أيديهم بالبيجينيو الخارج لتوه من الفرن، ثم تعود لتتنزع أنطونيو من ذراعي أخته لتعانقه من جديد، وتعانق ابنتيها، وتعانق نورمينيا وإرنستو كأنها لم ترهما منذ سنوات، وعانقت باكية ضاحكة ممرّصاً ذا شاربين كان يمرّ مصادفة.

فتح العم إرنستو زجاجتي نبيذ فوار إيطالي بعد أن أرسل ممرضة تبحث عن كؤوس «هيا، كوني لطيفة، أسرع فاعلينا أن نشرب نخباً!»، والفتیان يتخمون أنفسهم بالحلويات، والنساء يبللن منديلاً بعد الآخر، والطفلان أنشدا للخال أغنية صغيرة تعلّماها في الروضة، والعمة نورمينيا تصفق: ما كان قسم الإسعاف في سنيورا دوس أنجوس قد رأى كل هذه الجلبة والدموع والفرح منذ أن وضعت هناك، قبل ثلاثة عشر عاماً، السيدة أنيتا ماديرا دي أندراي، دون أن يتسع الوقت للوصول إلى غرفة الولادة، توائمها الأربعة، اثنان أشقران واثنان أسمران.

3.10 البيت

كانت الساعات التالية هرجًا من الأحاسيس والوجوه، فائراً بأصوات لا يذكرها ولزجاً بحلوى جوز الهند، إلى حد أن أنطونيو لم ينجح قط في إعادة بنائها بدقة.

كانوا قد أخذوه هو والفتيان قبل أن يخرجوا من المستشفى لتطعيمهم عملياً ضد كل شيء: «هذا هو البروتوكول المعتاد، أبناء القبائل التي لم تدخل قط في اتصال بنا معرضون للخطر إلى أقصى حد، الإنفلونزا قد تقتلكم، ناهيك عن الحصبة والجذري المائي.»

«لكنني أصبت بالجذري المائي في طفولتي، والإنفلونزا أصابتني ألف مرة على الأقل...»

«هيا، هيا، لا تكثر من هذا الكلام، نفعل كل شيء لك أنت أيضاً، للاطمئنان.»

أزعج الأمر أنطونيو أكثر بكثير مما أزعج الفتيان، الذين كانوا قبل كل شيء مأخوذين بالمعاطف البيضاء والأسرة الصغيرة والمحاقن، والذين تحمّسوا لفكرة أن تلك الوخزة الصغيرة - أقل من زنبور، أقل من نملة من الكبيرات! - ستحميهم إلى الأبد من كل أمراض العالم.

«ليس الأمر تمامًا هكذا يا فتیان، أنتم محميون من بعض الأمراض لكن...»

«أنت قلت إن هذا الشيء دواء سيحمينا من الأمراض. قلت إنه يفيد في ألا نمرض أبداً بعد اليوم.»

«حسنًا يا كاوي، حسنًا. لم أقل هذا بالضبط لكن لا بأس. الآن لنر إن كنا سننجح في الخروج من هنا.»

كان عليهم أولاً أن يمرّوا لتوديع ياماندي الذي، وقد استفاق للتو من البنج وما يزال مذهولاً، كان يبدو أنه لا يفهم تمامًا أين هو ولماذا، وبالتأكيد لم يكن يفهم إطلاقاً من هم كل أولئك الناس، ولا سيما السيدة المسنة الممتلئة التي كانت تنقش له الوسائد وذاتك الطفلان اللذان قبلاه قبله صغيرة على الخد: «قولاً مرحباً لصديق خالكما المريض!»

لكن لأول مرة منذ أيام كان وجهه مسترخياً لا مشدوداً بالألم، وفي السرير الأبيض القاسي كان يبدو مرتاحاً، لذلك، بعد أن طمأنوه بأنهم سيعودون بعد قليل جداً، كفى أن يستعيدوا كاوي الذي كان قد ذهب يستكشف ممزات الطابق الثالث ليكونوا مستعدين لمغادرة المستشفى.

لزمت ثلاث رحلات بسيارة إرنستو لنقل الجميع إلى بيت مارسيليا، أم أنطونيو، حيث كان حشد محتفل من الأقارب والجيران ينتظرهم لمعانقة العائد من الموت، ورؤية قبيلة الغابة التي ترافقه، واغتنام المناسبة للأكل والشرب ووضع بعض الموسيقى والرقص والنميمة والجدال في السياسة وفي كرة القدم وفي الأسعار التي ترتفع دائماً وفي ذلك المسلسل الذي انتهى للتو، يا للأسف.

«يا خسارة أنك لم تعد يوم سبت يا أنطونينو، عندئذ كان يمكن أن يأتي ناس أكثر بعد ليحتفلوا بك!»

السبت، يا للعجب. أن يتذكر أن السبت والأحد يومان مختلفان عن غيرهما، وأن لكل يوم اسماً وخصوصية - يوم الخميس فيه السوق في شارع مينديس، ويوم الثلاثاء فيه مسابقة التلفزيون، ويوم الاثنين تصدر المجلات الأسبوعية في الأكشاك، أم لعله الأربعاء؟ - أضحك أنطونيو كثيراً، كان شيئاً قد نسيه تماماً وبدا له الآن مضحكاً إلى حد ما.

وسط ذلك الزحام من المجهولين تدبر الفتيان أمرهم على أحسن ما يكون، كانوا يبتسمون للجميع، ويغردون بأدب بلغتهم المجهولة، ويتركون أنفسهم يحشون بالحلوى ورقائق البطاطا والإيمبانادا الساخنة، شاربين قصعة كوكا-كولا بعد الأخرى: المشروب أوقعهم في الحب من اللحظة الأولى بينما احتفظوا بكل تحفظاتهم إزاء زجاج الكؤوس.

لم يبرح أوبيراتان الشرفة، ومن هناك، جالسًا على المقعد الهزاز الصرير الذي كانت السيّدة مارسيلّا تجدّده كلّ سنة بوسائل جديدة – في هذه اللحظة أزهار كويّية من الأكريليك وردية كالملبّس – كان يتأمل دون كلل منظر المدينة، السطوح، الشوارع، الاشتباك الذي لا يُحلّ من أسلاك الكهرباء والهوائيات، وورشة قريبة تشرّب فيها رافعات عالية جدًا.

غابرييليتا، جالسةً في زاوية الأريكة، كانت تُدري إيتاونا، الذي لم يكن يفهم كلمة لكنّه كان يومئٍ معجبًا لدى انبساط كلّ وظيفة جديدة، أداةً صغيرة بلون الفوشيا تشبه تلفازًا مصغّرًا – تتكلّم عن هاتف، عن إنترنت، عن ألعاب وموسيقى وأفلام، لكن ماذا تقول، إنّها تسخر منه، لا يمكن أن توجد هواتف كهذه بعد، لا بدّ أنّها لعبة، واحدة من تلك الأشياء التي للصغار والتي يعلنون عنها في المجلّات المصوّرة، بعد قليل ستقول له إنّها تتيح الرؤية عبر الملابس – بينما كان بيراي يضحك في المطبخ مع مجموعة من السيّدات المهيّبات اللواتي وضعن في رؤوسهنّ، إذ رأينه مهتمًا بالمرق والطناجر، أن يعلمنه طبخ موكيكا السرطان.

بقيت جانيتا في البيت القدر الضروريّ فقط لتحضير حقيبة لياماندي والعودة إلى المستشفى لإيصالها إليه: «الفتى المسكين، ليس معه حتى بيجاما، ولا زوج شباشب، ولا روب... أحمل له أيضًا علبة بسكويت وقليلًا من الحلوى، فهم في المستشفى لا يطبخون بالتأكيد كما نطبخ نحن هنا في البيت، سيسرّه أن يحلّي فمه. وربّما أخذ أيضًا مجلّتين، شاب بهذا الحجم طوال النهار في السرير، من يدري كم يملّ.»

كاد أنطونيو يقول لها إنّ قراءة المجلّات بالبرتغالية ليست التسلية المناسبة لياماندي، لكنّه فكّر بعد ذلك أنّ صور المجلّات على العكس ستعجبه كثيرًا جدًا، وأنّها في نهاية الأمر فكرة ممتازة. ممتازة إلى حدّ أنّه لم يقف حتى ليناقش أخته في جدوى الشباشب والروب.

كان قد استقرّ أن ينام الفتیان في الشرفة – في مأمن من المطر الذي لا ينقطع لكن دون أن يُحبسوا في غرفة، فهم يفضّلون ذلك – وبكفاءة كانت جانيتا وأماندا ومارسيلا قد فكّرن، دون أن تقول إحداهنّ للأخرى، أنّ الأفضل أن يستعرن من الأصدقاء بضع أراجيح، فكانت النتيجة أن تكدّست منها ثلاثون على الأقلّ على كنبات الصالون.

كان أنطونيو قد بدأ يتعب تعبًا شديدًا، فالانفعالات والفوضى وأخيرًا لا آخرًا الجعتان أو الثلاث التي لم يعد معتادًا عليها، كانت تبقيه معلقًا في غشاوة مبتسمة، إلّا أنّه كان ينتفض كلما صفق باب، أو زمجرت درّاجة نارية في الشارع، أو مرّت سيّارة إسعاف: أصوات ما كان ينتبه إليها في ما مضى، وصار يلزمه الآن بضع لحظات ولو لمجرّد التعرّف عليها.

لكنّه تعرّف فورًا على الصوت الذي جاء من التلفاز الذي أشعله أحدهم: التعليق على مباراة، بدهة، كان مستحيلًا أن يُنسى. حين دخل الصالون، هاربًا من العناق اللزج لابنة عمّ بعيدة وصلت متأخرة ولم يكن يذكر اسمها، كان مواسير قد ركض للتوّ لينا دي الجميع والفتیان في غاية الحماسة: «أنطونيو، انظر، انظر إلى ذلك الشيء وفيه أشخاص، انظر! يلعبون مثلنا بالكرة، يلعبون كرة القدم!»

3.11 التلفاز

«إنها شاشة، أليس كذلك؟» سأل كاوي مستعيدًا الكلمة البرتغالية التي كان أنطونيو قد نطقها مرارًا في حكاياته: «الأشخاص الذين يلعبون ليسوا هناك في الداخل حقًا، إنهم في مكان بعيد، بعيد جدًا. آه، نعم، إنهم على القمر!»

ابتسم أنطونيو وأومأ، تاركًا عينيه تحطّان على أولئك الفتيان الذين كان يخيّل إليه من بعض الوجوه أنّه يراهم لأول مرة.

لم تكن لديهم أدنى فكرة عن وظيفة أثاث البيت، فالكرسيّ الوثير بالنسبة إليهم مجرد كتلة تشغل حيّزًا ولا يرتبط بأي شكل بمفهوم «الجلوس». مواسير، إذ رأى الكنب، تمدّد عليها، ظانًا أنّ شيئًا يشبه على نحو غامض سرير مستشفى قد تكون له كذلك على نحو غامض الوظيفة نفسها. وخطر لبيراي الخاطر نفسه لكن مع الطاولة، فأثار همهمات احتجاج وقهقهات من الأقارب. أمّا الآخرون فكانوا جاثمين على الأثاث كيفما اتفق، هذا على صندوق خشبي، وذاك على ظهر الكرسيّ الوثير. وحده جاسي بقي واقفًا في زاوية، مفتونًا بمعلقات الثريا الزجاجية، التي قال له أنطونيو أكثر من مرة ألا يحاول قطعها، خشية أن يظنّها ثمارًا.

كانت صور المباراة تجري بسرعة أكبر من أن تنجح في أسر انتباه الفتيان، الذين كانت تشتتّهم باستمرار الأشياء الجديدة الكثيرة من حولهم، بل إنّ أنطونيو نفسه كان قد فقد تمامًا تركيز انتباهه على شيء من ذلك النوع. ثمّ إنّه كان مفتونًا بالتقنية: ذلك التلفاز كان هائلًا قياسًا إلى ما كان يذكره، والشاشة مسطّحة إلى أقصى حدّ ورقيقة إلى أقصى حدّ، وجودة الصور تحبس الأنفاس.

كان بيراي، المطرود من الطاولة، أوّل من بدأ يقلّد حركات اللاعبين الذين كان يراهم على الشاشة، وتبعه بعد قليل الآخرون جميعًا. مراوغة، تمريرة، انطلاقة في المكان. كان كلّ واحد منهم يختار لاعبًا داخل الكادر وينسخ حركاته. كان أنطونيو في نشوة. من الخارج كان يبدو أنّهم يرقصون رقصة بلا إيقاع، أمّا أنطونيو فكان يفهم أنّهم يُظهرون رؤيةً للعب لم يكن يتوقّعها. لم يكونوا يقلّدون حامل الكرة بل اللاعبين الآخرين، أولئك الذين يشاركون في اللعبة الدفاعية أو الهجومية، تلك كانت طريقتهم في إدراك خطط اللعب والتعليق عليها.

في لحظة ما أخذ صاحب الرقم 10 في الفريق الأصفر – وكان قد لزم أنطونيو ربع ساعة كامل ليفهم أنّ الأمر يتعلّق فعلاً بمباراة لمنتخب البرازيل – الكرة خارج منطقة جزاء الخصم بقليل وتوغّل بلا خوف في عَشّ دبابير الدفاع المنافس، متحرّكًا برشاقة وقوّة مخيفتين، رغم حجمه الضئيل. تجاوز في وقت قصير ثلاثة أو أربعة خصوم لكنّه انزاح كثيرًا إلى اليمين بحيث لم يعد قادرًا على إطلاق تسديدة قويّة. وبينما كان يسقط ملتفًا على نفسه ليتفادى مدافعًا آخر من مدافعي الخصم، خرج من قدمه اليسرى مسارٌ سحريّ، كرةً بطيئة ذات قوس شديد الانحناء تجاوزت حارس المرمى ودخلت في التسعين على يمينه.

«غول!» صرخ الفتيان بصوت واحد، «غول!»

لأوّل مرّة في حياتهم كانوا يرون الحركات التي علّمهم إياها أنطونيو مطبّقة: الذراعان في الأعلى، والعناق، والقبضتان المضمومتان علامة الانتصار. توقّف الإخراج بلقطة قريبة على وجه ذلك العبقرّي الصغير بالقميص الأصفر الذي كان قد أنجز للتوّ تلك المعجزة الفنيّة. كفّ الفتيان عن التعانق، وصمتوا، والتفتوا دفعةً واحدة نحو أنطونيو. أوّل من تكلم كان كاوي: «ذاك الذي سجّل الغول...» لم يكن يعرف جيّدًا كيف يقولها (ولم تكن هناك حاجة، لأنهم كانوا قد انتبهوا جميعًا) «هل رأيت يا أنطونيو؟ هل رأيت كم يشبه ياماندي؟»

لم يصدّق أنطونيو: ياماندي وصاحب الرقم 10 العبقرّي في منتخب البرازيل، الذي كان يبرز على قميصه اسم «فوغيتي» مكتوبًا بالأخضر، كانا في الواقع يتشابهان كأخوين.

3.12 زيراو

«إلى أين نذهب يا أنطونيو؟»

منبه أو لا منبه، كان أنطونيو عند بزوغ الشمس قد نهض، شأنه شأن الفتیان جميعًا. كان قد فكّر طويلًا في كيفية تنظيم الأيام، وكان يهّمه قبل كلّ شيء ألا يبقى ياماندي وحيدًا أكثر من اللازم. لكنّ قواعد المستشفى كانت صارمة جدًّا، فقبل الظهر لا يسمحون لهم بالدخول، وأوقات الزيارة محدودة على كلّ حال: فكان لديهم وقت فراغ كثير.

كان قد أمضى ساعات كاملة يشرح للفتیان استعمال أشياء البيت ومعناها، لكنّ ذلك العالم، كما انتبه، كان مختلفًا عن عالمهم اختلافًا عجيبيًا أكثر من اللازم، وكان سيلزمه ما هو أكثر بكثير من بضعة صباحات ليعودهم عليه.

كان مواسير من أشدهم فضولًا، فقد قضى عشر دقائق كاملة يفتح البرّاد ويغلقه، ويلمس مفتونًا كلّ الأشياء الباردة التي فيه، ويحاول بنجاح أن يفهم كيف يعمل إشعال الضوء في داخله وإطفائه: كان أنطونيو قد قرّر أن يتركهم يفعلون، على الأقلّ ما داموا لم يضعوا أنفسهم في وضع قد يكون خطرًا. وبينما كان الآخرون يصغون إليه يتكلّم عن الأقفال والسجّاد والمفاتيح والكتب وكلّ الأشياء الأخرى التي كانت تقع تحت أعينهم، كان مواسير قد انتقل إلى فحص الصنبور. يفتح الماء الساخن والبارد ويغلقه، ويلمسه، ويضبط الدفق على أدناه، ويتذوّقه، وكاد مرّتين أن يحترق.

في ذلك الصباح، المنعش المغمور بالشمس على غير انتظار بعد مطر الليل، أدرك أنطونيو أنّه لم يعد بوسعه أن يحبس في البيت سِتّة شَبان أشداء مفعمين بالحيوية ليكلّمهم عن الثريّات والسيفونات، فجعل من الضرورة فضيلة.

كان هناك مكان يريد زيارته بأيّ ثمن، وقد شقّ طريقه في ذهنه كنوع من السوس حتى صار في مركز كلّ فكرة: كان يريد الذهاب إلى زيراو، يريد أن يرى ما آل إليه بعد كلّ تلك السنوات، وكان يعلم في قرارة نفسه أنّه لا يمكن أن يكون قد هُجر.

لم يكن الأمر سهلاً، كان يعلم ذلك جيّد العلم، ولا حتى عليه هو. غرائب أكثر من اللازم، اختلافات أكثر من اللازم. فلقطع الكيلومترات القليلة التي تفصلهم عن الملعب قد تلزم ساعات (أو قد تلزمنا أيّام، أو قد نضيع فلا نجد الطريق أبدًا، هناك ألف خطر هنا).

«أنتم علّمتوني كلّ أسرار الغابة. هذه غابتي أنا وهي مليئة بأسرار لا تعرفونها. عليكم أن تنتبهوا جيّدًا، لأنّ في غابتي أشياء أخطر بكثير من الجاكوار والكايمان.»

انطفأت ابتسامات السخرية على وجوه الفتیان عند أوّل حافلة مرّت في بركة على بعد سنتيمترات منهم فرشتهم دون أن تقطع جريها، وسرعان ما صارت تعابير زعر: الدراجّات النارية، السيّارات، بل حتى الدراجّات الهوائية والعربات كانت تصير تهديدات مميتة. «لا تتوقّف!» كان أشيع تعليق، «الرجل على ذلك الحيوان المعدني الكبير ينظر في أعيننا لكنّه لا يتوقّف!»

«ربّما الحيوان المعدني الكبير لا يستطيع أن يتوقّف.»

«لا،» أوضح أنطونيو «يستطيع أن يتوقّف لكنّ السائق لا يوقفه.»

«لماذا؟ ولماذا لا يهاجم إذن؟»

«هذه الحيوانات لا تهاجم عادةً، عليكم أن تفكّروا في أنّ عقل هذه الحيوانات هو عقل السائق. حين تهاجم فلأنّ السائق أخطأ.»

لم تكن أجوبة أنطونيو تُرضيهم، ولزمه وقت لا بأس به ليقنعهم بأن يتبعوه؛ وفي النهاية اختصر: «إن فعلتم كما أفعل أنا فلن يصيبكم شيء.»

انهيالُ الأحاسيس المتناقضة الذي كثيرًا ما شعر به بعد العودة ترك أنطونيو مصدومًا من جديد. كان يخيل إليه أنه انتهى في واحد من تلك المسلسلات الخيالية العلمية التي فيها أرضيون بقمصان ملونة كلها، لم يكن يذكر العنوان، يستكشفون أغرب الكواكب: طرازات السيارات والدراجات النارية كانت في معظمها مجهولة لديه، والمتاجر، والناس، بل حتى الرائحة في الهواء لم تعد هي نفسها، ونتانة عوادم الوقود بدت له خانقة. كان يخيل إليه أنه اخترق جدارًا غير مرئي وانتهى في كون آخر، شبيه بالذي شب فيه ومع ذلك مختلف اختلافًا عميقًا. لكن رغم هذا الإحساس بالغربة كانت هناك أيضًا عادات قديمة لم تُنس فيما يبدو أبدًا، عادت تطفو من تلقاء نفسها فتركته مندهشًا إلى أعماقه.

أن يبرز على طريق جوسيلينو كوبيتشيك وينظر إلى اليسار ليرى إن كان ألفونسو هناك يدخن متكئًا على شرفة سمكته المدهونة بالأصفر منذ الأزل (السمكية ما تزال هناك! باللافتة وكل شيء! ربما ألفونسو موجود أيضًا!)؛ أن يسلك شارع دا باسيا وإن كان الطريق أطول، لمجرد أن هناك أشجارًا على طول القناة (الأشجار ما تزال هناك! وكم تبدو صغيرة ضامرة!)؛ أن يتعرف على البيوت الواطئة ذات الطابق الواحد والأكوخ الأبدية المتأرجحة على حافة الطرق الموحلة، والصفوف الطويلة جدًا من المباني البيضاء الشاحبة والرمادية، منقطة هنا وهناك بانفجارات لون والنخيل يقوم مقام علامات التعجب؛ أن يتذكر صنوبر ماء خلف زاوية بيت، لكن أيضًا أن يفاجأ ببناء جديد أو بتقاطع تغير.

وأخيرًا ها هو زيراو، لا يكاد يُعرف. الموقف الذي أمامه صار ساحةً ترابية هائلة، وسياحه الأزرق الحبيب مُعاد الدهان تمامًا، بل مُعاد البناء بأبيض صارخ تتخلله أعمدة خضراء. وانتبه إلى أن المدرجات جديدة كل الجدة، أعيد بناؤها: من طابقين وبسقف مائل، أعرض من السابقة، مدهونة حديثًا، جميلة جدًا. أجروا أعمال الترميم إذن، فكر أنطونيو. لم ينجح في نقل حماسه إلى الفتیان، بل صعب عليه أصلًا أن يشرح لهم أن هذا هو الملعب الذي حكى عنه كثيرًا، ولم يكن يعرف ماذا كانوا يتوقعون، لكن بالتأكيد ليس ذلك السياج ولا تلك الشوارع ولا ما كانوا يرونه.

رغم الأعمال كان الجانب الشمالي من الملعب ما يزال مسيجًا بشبكة تقطعها بوابة صغيرة متداعية نصف مفتوحة.

وبينما كان يدخل الفتیان رأى في الملعب فريقًا يتدرب، ولما رأى بعض القمصان البيضاء والسوداء لم يعد لديه أدنى شك: كان نادي ماكابا لكرة القدم.

ها هو، قد يكون أحد هؤلاء الفتیان لاعبًا من لاعبي، لكن مضى وقت أطول من اللازم، لا أنجح في التعرف عليهم وهم بالتأكيد لن يتعرفوا عليّ.

اقترب مساعد راكضًا بهيئة مبتسمة بينما لم يكن أنطونيو يجد الكلمات ليعتذر: «ما ظننت أنني سأجد أحدًا في هذه الساعة من الصباح...»

«نحن محترفون»، أجاب الشاب بهيئة ودودة جدًا «علينا أن نكون هنا بحكم العقد، أليس كذلك؟»

محترفون، فكر أنطونيو، ماكابا صار الآن فريقًا من المحترفين!

كان الفتیان قد بقوا حرفيًا فاغري الأفواه، قال كاوي: «إنه كبير». وقال بيراي في اللحظة نفسها تقريبًا: «ما أغرب تلك الأشجار البيضاء التي تستعملونها...» وكان قد اقترب سلفًا ليلمسها «ليست أشجارًا! إنها معدن!»

نظر المساعد إلى أنطونيو بتعبير مندهش وسأل «لكن هل يتكلمون؟ هل هذه لغة؟»

ابتسم له أنطونيو وقال لبيراي: «بالطبع ليست أشجارًا، أنا واثق أنني حكيت لكم عن هذا أيضًا.»

«ما كنت أذكره» أجاب الفتى.

ثم توجه أنطونيو إلى المساعد: «نعم، إنها لغة. لا نريد أن نزعجكم على كل حال، جئت لأري هؤلاء الفتیان الملعب، ظننا أنه لا أحد هنا وأن نسدد تسديدتين، لكن انظر، سنمضي حاليًا.»

«لماذا، هل يلعبون كرة القدم؟»

كان المساعد قد لاحظ أن في تلك المجموعة من الشبان شيئاً غريباً. لم يكن كونهم هنوداً، فليس نادراً إطلاقاً أن تجول مجموعات من الهنود في ماكابا؛ ولم يكن حتى طريقة لباسهم، فالسراويل القصيرة والأقدام الحافية هي القاعدة. لكن كان هناك شيء، عدا اللغة، لا يستقيم عنده. لعلّه كيف كانوا يقفون قريباً بعضهم من بعض، كتفاً إلى كتف، ولعلّه كيف كانوا يشيرون بأيديهم وهم يتهايمسون. راقبهم المساعد مرّة بعد مرّة واقتنع بأن نعم، هناك شيء مختلف فيهم.

«نعم، لا يتكلمون البرتغالية لكنهم يلعبون، ويلعبون جيّداً بما فيه الكفاية.»

«إن أردتم،» قال المساعد دون أن يفقد هيئته الودّية «كنّا على وشك تنظيم مباراة صغيرة، إن أردتم الانضمام فذلك يسرّنا فحسب، أظنّهم قادرين على اللعب معنا؟»

«انظر، لا أدري. نجرب ونرى، اتفقنا؟»

من بين كلّ الأشياء التي فتنت الفتیان في تلك الأيام القليلة لم يبدُ شيء في أعينهم خارقاً كما بدت الآن الكرات. طريّة، ملساء، كرويّة تماماً، جسّوها، وشمّوها، ولحسوها ليتذوّقوا طعمها، ووازنوها على الأنف أو على القدمين، فأثاروا أكثر من ضحكة في مجموعة ماكابا.

«ماذا يجري؟» همس المساعد مستمتعاً لأنطونيو «يبدو أنّهم لم يروا كرة في حياتهم قطّ.»

«هل لي أن أقول لك سرّاً؟» همس أنطونيو بدوره «نعم، هذه أوّل مرّة يرون فيها كرة.»

لكز المساعد أنطونيو بمرفقه لكزّة خفيفة، مقتنّعاً بأنّها نكتة، ولم يفعل أنطونيو شيئاً ليقنعه بالعكس. بل ذهب إلى فتیانهِ وبدأ يشرح لهم بعض الأشياء. وفي هذه الأثناء كان لاعبو ماكابا قد شكّلوا الفريقين، ومجموعة صغيرة من خمسة لاعبين كانت تقترب باحتشام من أنطونيو ومن تلك المجموعة من المجهولين.

وما إن قال أنطونيو للفتیان إنّ أولئك اللاعبين الخمسة سيلعبون معهم حتى انفجر احتجاج صاخب: «نحن نحن!» انبرى مواسير «لا نستطيع أن نلعب معهم، لا يفهموننا!» زاد أوبيراتان الطين بلّة، وهلمّ جرّاً.

اضطرّ أنطونيو إلى العودة إلى المساعد، الذي كان عندئذ يتكلّم مع من بدا أنّه المدرب: «سامحوني، حقّاً، لم أرد أن أسبّب لكم كلّ هذا الإزعاج. أنا مدرب... حسناً، كنت مدرباً، وأعرف جيّداً كم هي مزعجة هذه المواقف. على كلّ حال يودّ فتیاني أن يلعبوا وحدهم، إن لم يكن في ذلك ما يضايقكم.»

«كم أنتم؟ ستّة؟ سبعة معك؟ إن أردتم نلعب سبعة ضدّ سبعة.»

«حسناً، نعم، شكراً، شكراً جزيلاً، لنجعلها عشر دقائق ثمّ نمضي، اتفقنا؟ هكذا يرون كيف يكون اللعب.»

«كيف، ألم يلعبوا قطّ؟» سأل المدرب.

«بلى، لعبوا. المهمّ، انس آخر شيء قلته، اتفقنا؟»

«شيء آخر،» قال المدرب أيضاً، وكان رجلاً مشيب الشعر في الأربعين، «أليست عندهم أحذية؟»

«لا، هم يلعبون حفاةً.»

«إنّ نحن أيضاً!» قال المساعد ضاحكاً، وفي أقلّ من لمح البصر كان كلّ اللاعبين مصطفيين في الملعب حفاةً، بمن فيهم لاعبو ماكابا المستمتعون.

ثُركت ضربة البداية للضيوف، وحرص أنطونيو على أن يذكّر الجميع بقاعدة التمريرة الأولى كما هي بالضبط: «إلى الأمام، أرجوكم.»

لمس أوبيراتان الكرة بالكاد نحو كاوي الذي انطلق انطلاقاً مستقيمة نحو المرمى، مطأطئ الرأس، بتعبير من الاقتناع الحيواني في عينيه لم يره أحد في زيراو من قبل. ولما وصل إلى نحو ثلاثين متراً من مرمى الخصم أطلق تسديدة بقوة لم يُسمع بمثلها انتهت عاليةً، عاليةً جداً. بدت الكرة كأنها لا تريد التوقف بعد اليوم، حلقت فوق العارضة، وفوق مضمار ألعاب القوى الذي لن تكتمل أعماله أبداً، وفوق شبكات السياج، بل وفوق أوائل بيوت الحي.

انفجر لاعبو ماكايا كلهم ضاحكين، وإن لم يقدر بعضهم على أن يخفي، ولو عن نفسه على الأقل، الدهول من كل تلك القوة المبدولة في تلك الركلة. اندفع أنطونيو إلى كاوي محاولاً أن يشرح له الفرق بين هذه الكرات وكرات الأوراق التي كانوا يستعملونها في الغابة. كانت عينا كاوي تقدحان نازاً وهو يجيبه من بين أسنانه: «فهمت، فهمت.»

استؤنف اللعب بكرة أخرى، ولم تكن المرة الوحيدة، فالهنود كانت لهم أقدام سريعة جداً وكانوا يصلون دائماً أولاً إلى الكرة، لكن التسديدة الأخيرة كانت دائماً طلقة نارية تنتهي بعيداً، وكثيراً خارج الملعب.

«أخفض» كان أنطونيو يكتفي بقوله، ممسكاً نفسه عن قول «أهدأ»، محاولاً التخفيف بابتسامات وربات على الاكتاف. بعد دقائق قليلة كانت ضحكات لاعبي ماكايا قد انطفأت. وإن لم تكن أي من التسديدات قد أقلقت الحارس، فإن التفوق البدني والفتي لأولئك الفتیان، رغم بنيتهم الضئيلة، كان بيئاً، والارتباك الذي كانوا يشعرون به مع هذه الكرات كان يتناقص دقيقتاً بعد دقيقتاً.

بعد ثماني دقائق أطلق المدرب أول صرخة غاضبة في وجه واحد من رجاله كان قد أضع الكرة في وسط الملعب للمرة التي لا تعدّ. عملياً لم يكن ماكايا قد نجح بعد في تجاوز خط منتصف الملعب، إلا بكرتين طويلتين خرجتا إلى ركلة مرمى.

لم تكن تمريرات الهنود تتبع مسارات قوسية، بل كانت كراتهم تسافر مستقيمة كالرصاص، وتضرب بعنف لم ير من قبل، وكان لعبهم خالياً تماماً من الزخارف، عدوانية خالصة في الدفاع وإنهاءات سريعة في الهجوم.

في الدقيقة التاسعة كانت تُلعب رمية تماس في المنطقة الدفاعية لماكايا. كان كاوي على بعد عشرة أمتار على الأقل من اللاعب الذي كان يستقبل الكرة، لكن سرعته كانت مذهلة وقطعت تلك الأمتار العشرة في ومضة. وحين اعترض الكرة بدأوا يتبادلونها بسرعة فيما بينهم حتى رأى جاسي بطرف عينه انطلاقاً أوبيراتان فالتقطه بدقة مليمتريّة بتمريرة على ارتفاع متوسط قطعت الملعب بسرعة فائقة. لم يفكر أوبيراتان مرتين وضرب الكرة طائراً، ناجحاً هذه المرة في التحكم بالضربة تحكماً تاماً. استقرت الكرة في التسعين الأيمن استقراراً لا يُصدّ، والحارس الذي انطلق متأخراً وجد نفسه يجذّف ما إن أدرك عدم جدوى طبرانه.

السهم المسموم ابتسم أنطونيو في سرّه مسمياً المخطّط الذي نفّذوه. كان معتاداً على تلك العدوانية وتلك السرعات، لكنّ المقارنة مع هؤلاء اللاعبين المتمرسين كانت مذهلة حقاً. كان الفارق حقيقاً إلى حدّ أن فتیان ماكايا بدوا كأنهم واقفون في أماكنهم.

«غول!» صرخ الفتیان معاً، «غول!» وتعانقوا ورفعوا الأذرع إلى السماء مقلّدين بخرق ابتهاج اللاعبين الذي رآوه في اليوم السابق على التلفاز.

قرّر المساعد أن يصقّر نهاية العشر دقائق والفتیان ما يزالون ينفّذون تلك الإيماءات. اقترب أنطونيو بابتسامة من أذن إلى أذن وأبلغهم أنّ المباراة انتهت وأنهم فازوا، فانطلق الابتهاج، هذه المرة على طريقتهم، بأناشيد النصر ورقصاته، بينما كان لاعبو ماكايا يتجهون جلسة نحو المدرب الذي كان يوبّخهم سلفاً: «عار! أبطال 2013! عار!»

ذهب أنطونيو، وقد بدا عليه الحرج الآن وإن كان مسروراً سروراً هائلاً، ليوقف احتفالات لاعبيه، ولم يبخل بالثناء على أحد. تقدّم إليه مساعد المدرب مذهولاً لكن ما يزال بشوشاً وراح يهنئ أنطونيو.

«ما رأيت شيئًا كهذا قطّ،» قال «ما رأيته قطّ.»

«شكرًا. ما اسمك؟»

«كارلوس، وأنت؟»

«أنطونيو. شكرًا على الشناء يا كارلوس، لكن انظر، كان لنا حظّ كبير أيضًا.»

«أيّ حظّ هذا، هؤلاء الفتيان مدهشون! أنطونيو قلت؟ كنت أعرف أنطونيو لكن منذ سنوات كثيرة... على كلّ حال، هل تعطيني رقمك فأنا أودّ أن نبقي على اتّصال؟»

«رقم؟» سأل أنطونيو دون أن يفهم فورًا أنّ الأمر يتعلّق بالهاتف «ليس عندي رقم.»

نظر إليه كارلوس بتعبير مستفهم ثمّ نظر إلى الفتيان: «أنتم غريبون بالتأكيد، ها؟ قل لي الحقيقة يا أنطونيو، هم هنود، أليس كذلك؟ أعني هنودًا حقًّا، يأتون من الغابة، أليس كذلك؟»

نظر أنطونيو حوله قبل أن يجيب: العشب، المدرجات، اللوحة وعليها ساعة كبيرة تشير إلى الواحدة. **ياماندي!**

«نعم يا كارلوس، نحن هنود، لكن علينا الآن أن نذهب.»

ثمّ بلغتهم: «هيا يا فتيان بسرعة، علينا الذهاب إلى ياماندي، بسرعة، بسرعة!»

نحن؟ فكّر كارلوس وهو يراهم يبتعدون راكضين.

3.13 رؤية اللعب

كانت صرخات رئيس القسم تُسمع من آخر الممر. مكتبه مخبأ خلف باب عليه لوحة صغيرة تصعب قراءتها، وكان أنطونيو قد رآه مغلقاً دائماً.

كانوا قد وجدوا ياماندي جالساً في السرير يأكل تفاحة، وكم كان مفرحاً أن يروا أخيراً ابتسامته. قالت ممرضة نشيطة إن الطبيب زاره قبل قليل وقرّر أنّهم سيتمكنون قريباً من البدء بالعلاج الطبيعي، فاندفع أنطونيو مسروراً إلى الممر ليحاول أن يكلم الطبيب.

في هذه الأثناء كان الفتیان قد شرعوا يحكون لصديقهم عن ملعب كرة القدم، وعن الكرات، وعن المرميين، بتلك الطريقة غير المألوفة في الكلام والإشارة التي كانت تُمتع سائر المرضى وزوّارهم: لم يكونوا يفهمون شيئاً لكنّه كان على كلّ حال عرضاً.

لم تهدأ صرخات رئيس القسم، وكان أنطونيو قد حاول مرّتين أن يطرق الباب دون أن يحصل على جواب، فعاد نافذ الصبر إلى أمام باب غرفة ياماندي ينتظر أن يهدأ الطبيب ليتمكن من مكالمته.

كان الفتیان يحكون المباراة مع ماكابا بوفرة صاخبة من التفاصيل. في تلك الدقائق العشر من اللعب كان كلّ واحد منهم قد جمع كمية مذهلة من المعلومات وكانوا الآن يصوّنها انهياً على ياماندي. لاحظوا كيف كان يلبس خصومهم والمدرّبون، ولاحظوا الفروق بين كرة وأخرى، والأماكن في المدرجات التي تنقصها المقاعد، بل حتى أين كانت أكوام التراب المهجورة التي كان يُفترض أن تفيد في ترميم مضمار ألعاب القوى. لكنهم قبل كلّ شيء كانوا يذكرون لحظة بلحظة مواقع الخصوم جميعاً.

«بينما كنت أمّر الكرة إلى جاسي،» كان كاوي يقول «كان الخصم ذو الشعر القصير جداً والقميص الأصفر على بعد ثلاث خطوات من خط المنتصف، وذاك الطويل الأسمر كان أمامي على بعد عشر خطوات، وذاك الذي كان يضحك دائماً كان يركض ببطء نحو بيراي لكن كانت هناك مساحة كبيرة بينهما...»

«وكان الحارس منزاحاً قليلاً إلى اليمين، كان يمكنك أن تسدّ عندها!» تدخّل إيتاونا.

«نعم، كان يمكنني أن أسدّ لكنّ المساحة لمرور الكرة كانت أقلّ من نصف خطوة، ومع تلك الكرات الخفيفة هكذا كان يمكن أن أخطئ، فمررت إلى جاسي.»

«أن يكون المرء خوفاً ليس أمراً حسناً» ختم مواسير، فأسكت كاوي الذي خفض بصره غير عارف بم يجيب.

لكنّ أوبيراتان كان قد بدأ يحكي طوراً آخر من أطوار اللعب، وكان هو أيضاً قد سجّل مواقع الرفاق والخصوم واتجاهات حركتهم بدقة على حدود ما لا يُصدق.

كان أنطونيو يومئذٍ عارفاً جيّداً هذه الخصلة في الفتیان. حتى ذلك اليوم لم يكن قد سأل نفسه قطّ عن سبب هذه الموهبة عندهم، كانت تبدو له عادية إلى أقصى حدّ. لكن الآن، وقد انغمس من جديد في واقع ماكابا، كان يدرك كم هي خاصة. لعلّه لأنهم صيادون؟ لا بدّ أنّ الغابة هي التي جعلتهم هكذا، خلص.

كانت ساق ياماندي محبوسة في قفص من الأسياخ المعدنية التي تنبت من لحمه والتي كان لها وقع شديد، لكنّه كان يقول إنّّه لا يشعر بالألم كبير، وعدا بعض التقطيبات كان مزاجه الطيّب يبدو مؤكّداً لذلك. كان يتابع الحكايات ويطرح كلّ أنواع الأسئلة ويشارك كما يستطيع في إشارات أصدقائه. إنّّه يسجّل كلّ شيء هو أيضاً، فهم أنطونيو، إنّّه يعيد بناء المباراة كلّها في رأسه.

وكأنما تأكيدًا لما كان يفكر فيه أنطونيو، سأل ياماندي: «أوبيراتان! لماذا لم تمرر إلى كاوي؟» مرغمًا أوبيراتان على شرح طويل لا يُصدق من الزوايا واتجاهات جري الخصوم، اتفقوا في نهايته جميعًا على أن التسديد، الحل الذي اختاره أوبيراتان، كان الخيار الأفضل.

قرر أنطونيو أن يحاول محاولة أخرى مع رئيس القسم واقترب من الباب الذي لم تكن نوبة الغضب خلفه قد انتهت بعد. ووجد نفسه رغمًا عنه يصغي إلى ما كان يقوله الطبيب، إذ لم يكن ممكنًا غير ذلك بالنظر إلى علو صوته.

«كأس العالم! تبا لكأس العالم! هنا إن أصابت مريضًا من مرضانا عدوى فهو ميت عمليًا، أي كأس عالم! انظر! انظر كم من المال أنفقوا على تلك الملاعب! أتريد أن تعرف كم مستشفى كان يمكن بناؤه بتلك الدولارات؟ لا تريد أن تعرف، أنا أقول لك! أي كأس عالم!»

اتسعت عينَا أنطونيو تحدقان في نقطة بعيدة، غير محدّدة، تقع في مكان ما وراء باب الألمنيوم المؤكسد. 1998 فرنسا، ثم 2002، 2006، ...

«ألفان وأربعة عشر!» وجد نفسه يصرخ «ألفان وأربعة عشر!»

قطع الممرّ راكضًا، كان عليه أن يقول ذلك لأحد وفي متناول يده لم يكن هناك سوى الفتیان. «ألفان وأربعة عشر!»

حين دخل الغرفة التفت الجميع نحوه، وبذل أنطونيو جهدًا مع نفسه ليستعيد رباطة جأشه. في السرير المجاور لياماندي راقبه شاب ومعه من لا بد أنهما زوجته وابنتاه، طوال الوقت الذي كان يشرح فيه للفتیان، بتلك اللغة الفائضة بالأصوات والإشارات، أن في هذه السنة بالذات ستكون كأس العالم لكرة القدم، وأنها ستقام بعد أشهر قليلة. الشاب، الذي كانت ذراعه في الجبس وجانب من وجهه مليئًا بالسحجات، تعرّف على «بوروبو، بوروبو!» التي أنشدها موسير ضاحكًا، ونظر إلى أنطونيو باحثًا عن تفسير.

«ألفان وأربعة عشر»، قال له أنطونيو وهو ما يزال على موجة الحماسة «كأس العالم لكرة القدم!»

ابتسم الشاب وقال بأطيب نبرة استطاعها: «لعلكم كنتم الوحيديين في العالم الذين لا يعرفون أن هذا الصيف ستكون كأس العالم في البرازيل!»

لزم أنطونيو بعض الوقت ليستوعب الخبر: ليس فقط أن كأس العالم بعد قليل، بل ستجري في البرازيل. بدأ قلبه ينبض أسرع وانتصب شعر عنقه كأول مرة رأى فيها جاكوارًا.

انتبه كل من حوله إلى أن شيئًا قد أصابه: أطلق الشاب ذو الذراع المكسورة صوتًا حلقيًا وفعل ياماندي مثله لكن ربّما للسعة في ساقه. اقترب كاوي وسأل: «أنطونيو؟»

«يا فتیان،» حاول أن يلمّ أفكاره «كأس العالم...» أدرك أن شيئًا لن يتغيّر بالنسبة إليهم «ستكون في البرازيل!»

بالنسبة إليهم لم يتغيّر شيء. بالنسبة إليهم كانت «البرازيل» مفهومًا مجردًا كثير غيره مما اضطرّوا إلى قبوله بلا مساءلة في هذه الأيام الأخيرة. وحده ياماندي فكر قليلًا ثم سأل «نحن من البرازيل، صحيح؟»

«نعم يا ياماندي، نحن برازيليون.»

«وهذا يعني...» فكر الفتى برهة، «أننا سنستطيع اللعب في كأس العالم؟»

«لا يا ياماندي، سيلعب الأمل.»

ابتسم أنطونيو بينما كان كاوي يقول «يقصد أمثال فوغيتي.»

«نعم، هذا هو،» أكد أنطونيو «أمثال فوغيتي.»

3.14 أخبار

كانت جانيتا تبكي. أوّل ما خطر لأنطونيو كان: ياماندي. حدث شيء لياماندي. ثمّ لاحظ أنّ جانيتا كانت تنظر إلى التلفاز فاطمأن فوراً. على الأرجح تبكي على مسلسل أو ما شابه.

«لماذا تبكين يا جانيتينا؟»

«على موت نيلسون مانديلا.»

خطر لأنطونيو يومٌ من سنوات كثيرة جدّاً مضت، حين وجد جانيتا تبكي على رحيل تشايكوفسكي، بعد أن قرأت لتوّها ظروف موته المأساوية.

فكّر أنّها واحدة من اللحظات التاريخية الكثيرة التي قوّتها في تلك الأعوام الأربعة عشر، وأنّه ما إن يجد بعض الوقت الحرّ حتى يشرع في تعويضها.

«متى مات؟» سأله.

«قبل ثلاثة أشهر،» أجابت جانيتا لدهشة أنطونيو وهي تشدّ بأنفها «الآن هناك فيلم وثائقي عن جنازته.»

جلس أنطونيو في الكرسيّ الوثير دون أن يتكلّم. لأوّل مرّة منذ عاد كان يفهم، كان يفهم حقّاً أيّ حكاية خارقة عاشها في تلك السنوات، وكم مضى العالم في هذه الأثناء إلى الأمام من دونه، دون أن ينتظره. فكّر في المستجّدات التي لا بدّ أنّها حدثت على الإنترنت، وأدرك أنّه لم يجد بعد الوقت ليتفحص جيّداً تلك الهواتف ذات المظهر المستقبليّ التي بدت في يد الجميع والتي كانت فيما يبدو تفيد في أشياء أهمّ بكثير من الاتصال. وكان واعياً تمام الوعي أنّه لا فكرة لديه عن كيف تطوّرت السياسة المحليّة أو الجغرافيا السياسية العالمية.

وبينما كان يجري هذه التأمّلات، كان التلفاز يعرض استعراض رؤساء الدول المختلفين الذين ذهبوا ليؤدّوا التحيّة الأخيرة لماديبا. “ها هي رئيسة البرازيل، سيلفينا ميلو...” كان يقول الصوت خارج الكادر.

الرئيسة؟ «جانيتا، عندنا رئيسة امرأة؟»

«نعم.»

يا للعجب. وماذا أيضاً بعد، تساءل أنطونيو.

وكأنّ التلفاز قرأ ما في خاطره، سارع إلى الجواب: “...وأثارت ضجّة قضية هذا الرجل الذي ادّعى أنّه مترجم للصمّ والبكم...”

«هاهاها، عظيم!» ضحك أنطونيو.

“هنا نراه وهو يتظاهر بترجمة كلام رئيس الولايات المتّحدة باراك أوباما إلى لغة الصمّ والبكم.”

«جانيتا، هل فهمت جيّداً؟ ذاك رئيس الولايات المتّحدة؟ رجل أسود؟»

«نعم يا تونينو، إنّهُ هو.»

جنون. لكن كم غبت، أربعة عشر عامًا أم مئة وأربعين؟

كان أبو أنطونيو دائماً رجلاً متحفّظاً، والآن وقد تقدّم به العمر صار أكثر صمتاً بعد. كان يقضي معظم النهار في الكرسيّ الوثير في الصالون أو على الكرسيّ في الشرفة، يداعب الكلب أو ينظر إليه يلعب في الفناء. ومنذ أن عاد لم يتبادلا سوى كلمات قليلة ولم تسنح لهما بعد فرصة حديث وجهًا لوجه.

كانا نادرًا ما يتكلّمان في الرياضة: فيتالو وُلد بعد سنة من كارثة ماراكاسو، بينما وُلد أنطونيو قبل سنة من انتصار الأزتيكا، ومهما بدا ذلك سخيفًا فقد بدا أنّ هذا الأمر وسم علاقتهما.

كان أنطونيو قد وعد نفسه أن يستعمل التاريخ والسياسة كموضوع لكسر الجليد، لكنّه أدرك أنّه صار يعرف عنهما القليل جدًا حقًا بحيث لا يصلحان مادّةً لدرشة بلا التزام، فقرّر، إذ جلس في الشرفة إلى جانب أبيه، أن يرمي بنفسه في الرياضة.

«إذن يا أبي. بما أنّي اكتشفت قبل قليل أنّ كأس العالم ستكون هنا في البرازيل، احكِ لي ماذا فاتني في هذه السنوات. أيّ انتصار رياضيّ للبرازيل؟ خيبة جديدة من الخيبات؟»

«يعتمد يا تونينيو، يعتمد»، بقي إيتالو لحظات يفكّر، ثمّ اقترح «نتكلّم عن الجمباز الفنّي؟»

«هاها، أتريد أن تبدأ من الأساسيات تمامًا يا أبي؟»

«لا، أريد أن أتكلّم عن انتصارات البرازيل الرياضية.»

«حقًا؟»

«نعم يا تونينيو. قبل سنتين كانت الألعاب الأولمبية في لندن ولأوّل مرّة ربّحنا الميدالية الذهبية في الجمباز، في الحلق.»

«لا يُصدّق!»

«إي نعم. وربّحنا واحدة أخرى في الجودو وثالثة في... الكرة الطائرة!»

«الكرة الطائرة؟! حقًا؟ رائع! كنت أقول دائماً إنّنا سنربح نحن عاجلاً أو آجلاً.»

«لكنّها الكرة الطائرة للسيدات.»

«آه. حسن. والكرة الطائرة للرجال؟»

«فضّية.»

«آآه، يا خسارة! لا بأس، على الأقلّ هزمنا لعنة نصف النهائي. من يدري عاجلاً أو آجلاً...»

«لعنة نصف النهائي هزمتها منذ زمن.»

«بأيّ معنى؟ هيّا يا أبي، لا تجعلني أنتزع منك الأخبار بالكماشة.»

«أخذنا الفضيّة في بكين أيضًا، في 2008. لكن في أثينا في 2004 ربّحنا الذهبية.»

«الذهبية؟»

«نعم. لكن قبل كلّ شيء...»

«قبل كل شيء؟»

«ربحنا آخر ثلاث بطولات عالم على التوالي. الكرة الطائرة صارت أرضنا يا تونينيو. وهل تعرف من المدرب الذي قادنا إلى هذه الانتصارات؟ برناردينو، تمامًا كما كنت تتمنى» ابتسم أبوه، مسرورًا كأنه قدّم له هدية.

وكالكرزة على قمة الكعكة انتقلا إلى الكلام عن كرة القدم. حكى إيتالو عن انتصار البرازيل في 2002، وعن فوز إيطاليا في 2006، متوقفًا بوفرة كبيرة من التفاصيل عند الخروج غير المجيد للقائد الفرنسي. ثم حكى عن صعود التيكّي تاكا وانتصار الإسبان في 2010.

ثم، بعد دقائق من الصمت، وأنطونيو ما يزال يعيد معالجة كل هذه المعلومات، تنهّد إيتالو تنهيدة عميقة وقال لابنه: «ما صدقت قط أنك مت، أتعلم؟»

كان يبيكي، لكنّ صوته كان حازمًا كعادته.

«...»

«وهل تعرف لماذا؟ أتذكر ماذا قال جدك قبل موته بقليل؟» رأيت نهاية سعيدة مع أنطونيو، أستطيع أن أموت سعيدًا. «أنا أيضًا أريد أن أرى نهاية سعيدة مع حفيد لي، فما كان يمكن أن ترحل قبل ذلك.»

فتح أنطونيو عينيه على وسعهما. في فوضى تلك الأيام، وألف شيء يفكر فيه، وألف يحكيه، وألف آخر يعيد اكتشافه، كان قد غاب عن ذهنه تمامًا أن يبلغ أسرته الخبر الأهم. يا إلهي، يا للعار، كيف لم أفكر في ذلك؟

3.15 مفاجآت

كانوا جميعًا على المائدة، أنطونيو جالسًا مع والديه وجانيتا، والفتيان متناثرون على أنحاء شتى بصحون اليخنة وقصعات الكوكاكولا. الريح الفاترة المنتفخة بالمطر كانت تجعل ستائر النايلون المزهرة ترقص، والراديو يصرصر في الخلفية بينما كانت أمّه وجانيتا تتناقشان في أن تحملا غدًا لياماندي كاجوزينيوس أو حلوى جوز الهند من جديد، حين تنحج وقال: «إمم، حسناً، أردت أن أقول لكم إن... حتى الآن لم تسنح اللحظة لكن... المهم، لي ولد.»

«يا مريم العذراء! أنطونينو! تزوّجت!» كانت مارسيلّا قد أوقعت الشوكة والسكين وكادت تقلب الكأس، رافعةً يديها إلى خديها المحمرّتين من الانفعال.

«ليس... أعني، ليس تمامًا، لكن المهم...»

«يا إلهي، يا يسوع، يا لها من فرحة! حفيد! عليّ أن أتصل حالًا بأماندا، أقول لها إنّها صارت عمّة، وإنّ للطفلين ابن خال!»

نهضت مهتاجةً، فطار المنديل واندفعت نحو المدخل والهاتف، لكنّها في منتصف الطريق استدارت وعادت لتترك نفسها تسقط على الكرسيّ، مروحةً وجهها المحتقن: «يا أمّاه، أكاد أغمى عليّ، كنت ميتًا وإذا بك حيّ وتزوّجت أيضًا!!!»

«يا أمّي، ليس تمامًا...»

«لكن هل سمعتم؟ ولد لأنطونيو! لا بدّ من الاحتفال! جانيتا، صرّت عمّة أنت أيضًا! إيتالو، اذهب وأحضر زجاجة، أو اثنتين، عليّ أن أتصل حالًا بأماندا وبالعمّة نورمينيا... وما اسمه؟ وكم عمره؟»

«لا، ليس سنوات، إنّّه صغير، عمره أربعة أقما... أربعة أشهر، تقريبًا. اسمه إيبيراتا.»

«يا له من اسم جميل، يشبه اسم طائر طئان. وما اسم زوجتك؟ لا بدّ أنّها فتاة جميلة!»

كانت جانيتا قد نهضت لتعانقه ضاحكةً، تضمّه بقوة: «ما أجمل هذا يا أنطونيو، كم أنا سعيدة! لم يبقَ الآن سواي، سيلزمني أن أستعجل!»

أمّا أبوه فاكتمى بالنظر إليه، منتصبًا على كرسيّه وفي يده ما يزال السكين والشوكة، وابتسامة من أذن إلى أذن، وهو يشدّ بأنفه، وعيناه لامعتان لامعتان. لم يكن الفتیان قد فهموا شيئًا، عدا أنّ هناك احتفالًا بشيء ما، فكانوا يضحكون هم أيضًا، ويصفقون، ويعانقون الجميع، بينما كان أوبيراتان وبيراي يضربان بأيديهما على الطاولة في نفس واحد إيقاعً أغنية العيد السريع جدًا.

أطلّت الجارة على العتبة، وما يزال المنديل في يدها: «كلّ شيء بخير؟ حدث شيء؟»

«جينوفيفا، صرنا جدّين من جديد! أنطونيو ابني أعطانا حفيدًا! تعالي، تعالي اشربي شيئًا، لا بدّ من الاحتفال، نادي رونالدو والأولاد أيضًا، وقولي للسيد مينياريس في الفناء المجاور، من يدري كم سيُسّر!»

كان أنطونيو ينتقل من نخب إلى نخب - وقد وصل أيضًا جيران الفناء الآخر - وكان عليه أن يكرّر للجميع أنّ لا، ليست عنده صور، ولا حتى فيديو، لا لا شيء: ربّما في المرّة القادمة، في المرّة القادمة، أعدكم، أعدكم.

«وتركتها هناك وحدها، زوجتك؟ كان عليك أن تحضرها لتتعرّف علينا، يا للسماء ما أطيش رأسك. آه، لكن عليّ أن أرسل لها هديّة، جانيتا علينا أن نذهب لشرائها: شيء للطفل ولها قرطان، أو ربّما سترة سرير صوفية. إيتالو، غدًا نفسه عليك أن تفتح للصغير دفتر توفير بريديّ، آه ها هي أماندينا، أحسنت يا جانيتا إذ اتّصلت بها! يا أولاد، صارت لكم زوجة خال وابن خال، تعالوا قبلوا خالكم! أنطونيو الجميل، جميل أمّه، الذي صار أبًا! وماذا قلت إنّ اسم زوجتك؟»

«ليست بالضبط... جاناينا، اسمها جاناينا.»

«اسم جميل هي أيضًا، وقل لي، كيف تعارفتما، ومنذ متى أنتما متزوجان؟ يا يسوعي، ما أشوقني لرؤية الطفل، الطنان الصغير، صغير جدته.»

العمة نورمينيا، التي وصلت بصينية كبيرة من المعجنات وخقين أزرقين مصنوعين بالصنارة – كنت قد صنعتها حين كنت أنتظر غابرييلا، خبأتها بعيدًا، لا تزعل صحيح؟ هدية صغيرة من العمة – عانقته مع غابرييلا التي كانت تسأل إن كانت ستصير هي العرابة، وقد خابت خيبة كبيرة لأنه لم تكن هناك ولو صورة واحدة لتضعها على فيس بوك.

كانت أماندا تنفخ أنفها، مسرورة كل السرور: «أحسنت يا أنطونيو، ثم ولد آخر! أبي، رأيت، هل أنت مسرور؟ لكن يا أنطونيو، عليك بأي ثمن أن تتصل بتيريزا.»

«تيريزا؟ تيريزا من؟»

«كيف، ألا تذكر، مستمتعتك، تلك التي كانت تتصل دائمًا: اسمع، اسمع، إنها على الهواء الآن!»

«على الهواء؟ لكن أين، لكن كيف؟»

رفعت أماندا الصوت: «طبعًا، هي التي أعادت الإذاعة إلى الحياة، إنها حكاية طويلة لا أعرف تفاصيلها، لكن المهم أن الفضل كله لها. تقدّم برنامجًا جميلًا جدًا من الوصفات والأخبار من العالم، نستمع إليه دائمًا: اسمع كم هي بارعة، لا يفهم منها شيء أبدًا، إنها بارعة إلى أقصى حد، اسمع! بل اتصل بها، اتصل بها حالًا!»

والهاتف قد دُس في يده، ضحك أنطونيو: كاد يُصاب بدوار إذ وجد نفسه على هذا النحو في الطرف الآخر من الخط.

«ألو؟»

«تيريزا؟»

«نعم، مساء الخير يا عزيزي، من أين تتص... لكن هذا الصوت، هذا الصوت أعرفه من بين ألف، من بين ألف مليون... أنطونيو؟!»

«نعم يا تيريزا، أنا، أنطونيو.»

«يا إله السماء، أنطونيو، يا له من انفعال! الأحياء لا بد أن يلتقوا! كنت أعلم أنك لا يمكن أن تكون قد مت يا أنطونيو، لا يمكن، بصوت كهذا. يا أمّاه، أعزائي المستمعين لا تقدرون أن تتخيّلوا، ها أنا أضع أغنية جميلة لأفيق من الانفعال: عزيزاتي وأعزائي، إليكم من بربرا غاينور “آي ويل سرفايف”.»

3.16 غازيتا

وصلت مارسيللا لاهنته، تجفّف يديها بخرقه المطبخ، بينما كان أنطونيو يحاول أن يفهم كيف يعمل الهاتف المحمول الذي أعارته إياه أخته أماندا والذي كان بالكاد قد نجح في إشعاله: «أنطونيو، أنطونيو، تعال إلى الهاتف! هناك صحفي! صحفي من أجلك!»

«أي صحفي يا أمي؟ ماذا يريد؟»

«لا أدري، غازيتا شيء ما، هيّا أسرع، لا تجعله ينتظر!»

لم يكن أنطونيو يشارك أمه هياجها إطلاقاً، وفي الحقيقة لم تكن لديه رغبة كبيرة في الكلام مع صحفي، ثمّ من أجل ماذا؟ لا بأس، لنسمع ماذا يريد وإلاّ عدّبتني أمي.

«نعم، ألو؟»

«أنطونيو العزيز جدّاً! يا لسروري بسماع حضرتك!»

«عفوًا، من المتكلّم؟»

«أنا جوزيه جيريميا أوبيسبو دي ميرفيلوس، لكن حضرتك يمكنك بلا شك أن تناديني جوزيه! أنا صحفي في غازيتا إسبورتيفا دي أمابا، لا شك أنّ حضرتك تعرفها.»

«في الحقيقة لا. لكن فعلاً كنت خارج الدائرة قليلاً في الآونة الأخيرة...»

«هاهاها! خارج الدائرة قليلاً! أربعة عشر عامًا خارج الدائرة يا أنطونيو! يا لك من ظريف!»

«اسمع، عندي ما أفعله، فإن كان...»

«بالطبع! بالطبع يا أنطونيو، حضرتك مشغول إلى أقصى حدّ! أسرق منك خمس دقائق فقط، مقابلة صغيرة طائفة، لكن حين ترى حضرتك نشرها ستذهل! في خمس دقائق أصنع لحضرتك مقابلة العام، ستري يا أنطونيو، ستري!»

«لا أدري، لا أفهم... مقابلة للكلام عن ماذا؟ بل قبل كلّ شيء، من أعطاك اسمي؟»

«إي، عزيزي أنطونيو، الصحفي لا يكشف مصادره أبدًا، من لا يعرف ذلك! في هذه الحالة كان الدكتور ترافيرسو، ذاك الذي في سنورا دوس أنجوس، وانظر يا للمصادفة إنّ ابن عمّي! لا يمكن حتى اعتبار ابن العمّ مصدرًا، أليس كذلك؟ ثمّ على كلّ حال قلتها لحضرتك سلفًا، هاهاها!»

«وماذا حكى لك الطبيب بحقّ الشيطان؟»

«آه، كلّ شيء يا أنطونيو العزيز جدّاً، كلّ شيء! أنّ حضرتك وصلت بعد أربعة عشر عامًا ضائعًا في الغابة برفقة قبيلة من الهنود، أحدهم جريح، كلّ شيء حكاة لي!»

«يا له من متطفّل، ترافيرسو هذا.»

«إي، هو يبقيني دائمًا على اطلاع، إنّ من أطرف مصادري، ثمّ المهمّ، إنّ ابن عمّي، قلت لحضرتك سلفًا إنّ ابن عمّي، صحيح؟ لو تعلم كم من الأشياء تحدث في قسم إسعاف، إنّ مصدر من الطراز الأوّل، أقول لك!»

«حسنًا، إذن ما دام قد حكى لك كلّ شيء سلفًا، أقول إنّ بوسعنا أن نتوابع و...»

«لا يا أنطونيو، لا! هو حكي لي الوقائع العارية لكنّ تلك ليست إلّا العظام: اللحم يا أنطونيو، لحم الصحافة هو انطباعات الأبطال، صوتهم! إذن، السؤال الأوّل.»

«لكنّي لست واثقًا من أنّي أريد أن تُجرى معي مقابلة، لا أدري، أودّ أن أفكر لحظة لأنّ...»

«هاهاهاها! لا يريد أن تُجرى معه مقابلة! حضرتك ظريف حقًا يا أنطونيو العزيز: من في العالم لا يريد أن تُجرى معه مقابلة؟ إذن كنّا نقول، السؤال الأوّل: بماذا شعرت حضرتك عائداً إلى الحضارة بعد أربعة عشر عامًا؟»

«أيّ سؤال هذا؟ لا أدري، لا أعرف، ليس شيئًا يمكن أن يُقال هكذا في كلمتين...»

«رائع. “لا أدري. لا أقدر أن أعبر بالكلمات عمّا أشعر به، إنّهُ شيء صدمني إلى الأعماق، ربّما أنجح يومًا في التعبير عن المشاعر العنيفة التي تعتريني.” رائع. السؤال الثاني.»

«لكنّي لم أقل هكذا! قلت إنّهُ سؤال غبيّ، كيف يُسأل المرء بماذا شعر وهو...»

«السؤال الثاني. بماذا شعرت حضرتك حين رأيت من جديد أحبّاءك الذين كانوا يظنّونك ميتًا؟»

«اسمع، لا أظنّ من المناسب أن نكمل، محبة أحبّائي مسألة خاصّة ولذلك...»

«بديع، بديع. “انفعال تلك اللحظة اجتاحني تمامًا. المحبة اللانهائية التي أكنّها لأحبّائي تفجّرت من قلبي كنهر فائض، كنت أنتحب كطفل.” ممتاز.»

«أستودعك. آسف، هذه المقابلة بلا معنى.»

«انتهينا يا أنطونيو، انتهينا! لم يكن صعبًا، أرايت؟ وللختام، قل لي، علمت أنّ فتيانك أولئك يلعبون كرة القدم، وأنّك أنت من يدرّبهم، أليس كذلك؟ إنّهم بارعون، يقولون لي، يا لها من سيقان جميلة!»

«ومن قال لك هذا؟ لا أظنّ إطلاقًا أنّه كان الطبيب.»

«هاهاهاها، لا، لا يا أنطونيو! هذا قاله لي حارس الملعب، مصدر آخر من مصادري ما كان ينبغي أن أكتشفه لكن، ما دام واحد قد كُشف فقد كُشفوا جميعًا! يخبرني دائمًا حين يكون هناك شيء طريف، شجار بين اللاعبين، إصابة، نيمية... وفي المقابل أعطيه مقعدًا في الصّف الأوّل لتمرين مدرسة السامبا بيراتاس دا باتوكادا – عنده هذا الشغف الصغير بالراقصات، الشقيّ – ولا يكلفني ذلك شيئًا، فابنة عمّي هي التي تدير المدرسة، أتعلم، زوجة الدكتور ترافيرسو، أتذكر الطبيب، ابن عمّي، أليس كذلك؟»

«اسمع، لا أدري عمّ تتكلّم، أستودعك.»

«والحارس قال لي إنّ الهنود الصغار ألحقوا هزيمةً صغيرةً لطيفة بماكابا، هاهاهاها! يا لها من قوّة! إنّهم أشدّاء، ها! إذن يا أنطونيو، بماذا شعرت حين...»

طقّ.

كان أنطونيو منهكًا مدوّخًا إلهي لكن من هذا الأحق، كان ينبغي أن أغلق الخطّ قبل ذلك، يا لي من بليد، من يدري ماذا ينوي أن يكتب. لحسن الحظّ، غازيتا اللعينة هذه، من ذا الذي يفرّؤها؟

كان الفتيان قد تأثّروا إلى أقصى حدّ، لا بالفوز بقدر ما بالمباراة في ذاتها، بأنّهم لعبوا مع أشخاص مختلفين عنهم، ولعبوا لأوّل مرّة في حياتهم مع مجهولين.

وكانوا متحمسين للملعب، وللمرميين، وللخطوط على الأرض، وللمدرجات: توسلوا إليه أن يعودوا إلى هناك، كانوا يموتون شوقاً لمعاودة اللعب تحت تلك المدرجات، وتلك الأضواء، على ذلك العشب الطريّ كوبر قردة صغيرة.

ولم يكن أنطونيو من جهته أقلّ رغبةً، فمرّ ذات صباح على الحارس وسأله إن كان بوسعهم أن يأتوا ليسدّوا تسديتين في وقت لا يكون فيه أحد، لا يريدون أن يزعجوا، ربّما في الساعات الميته. جواكيم، الحارس، لم يمانع: فتح ذراعيه وابتسامة عريضة بلا أسنان وأعلن «بالطبع! أيّ إزعاج! من الثالثة إلى الخامسة لا يكون هنا أحد أبداً، تعالوا متى شئتم.»

كانت الرابعة تماماً، ومنذ نصف ساعة كان الفتیان وأنطونيو يتدافعون غير عابئين بالمطر، مبّلين حتى النخاع، عرقانين سعداء في الملعب، يناقلون الكرة ويركضون ويتمدّدون كثيرًا على ذلك العشب الجميل جدًّا، أنطونيو، عشبًا بهذا الجمال ما رأيث قطّ، أريد أن أضعه حول الشابونو كلّ حين أعود إلى البيت، كلّ عشبًا أخضر طريًّا هكذا.

في تلك اللحظة رأى أنطونيو بطرف عينه حركةً على المدرجات فالتفت ليرى نازلًا قفزًا، ملوِّحًا بذراعيه تحيةً، رجلًا ضئيلاً مجعّد الشعر بسرّوأل قصير أصفر: «أنطونيو العزيز جدًّا! أنا جوزيه، أتذكر، جوزيه أوبيسبو من غازيتا!»

«أذكر أذكر، لكن ماذا تفعل هنا؟»

«الحارس يا أنطونيو العزيز جدًّا! أخبرني فورًا – كنت قد قلت له أن يخبرني: صحافة استقصائية يا أنطونيو، صحافة استقصائية! – واستحقّق المقعد للبروفة الخاصّة، الرقصات كلّهنّ بالأزياء، شيء يقشعرّ له البدن يا أنطونيو. لكن كنّا نقول، بارعون حقًّا هؤلاء الفتیان، يا لها من سيقان!»

«لا أفهم، المقابلة أجريناها سلفًا، ماذا تريد منّي؟»

«الصور يا أنطونيو، الصور! نحن حضارة الصورة، والمقال لا يساوي شيئًا إن لم تكن فيه الصور! التقطت لقطات رائعة، سيخرج تحقيق مذهل، انظر، ولقطة قريبة أيضًا، هكذا.»

«لكن ماذا تفعل، لكن من أعطاك الإذن بتصويري، لكن اذهب!»

«انظر، والفتیان أيضًا، نعم، نعم، هكذا، انظر كم هم فوتوجينيّون هؤلاء الهنود الصغار، أحسنت، هكذا، وأنت أيضًا، رائع، رائع.»

«يا فتیان لكن ماذا تفعلون، لا تصغوا إليه! وأنت اذهب، اخرج، اخرج من هنا!»

«تمّ، فعلنا، تمام، مقال رائع يا عزيزي أنطونيو، ستري!»

وفي رمشة عين كان قد أدار له ظهره وصار يصعد المدرجات قفزًا، وآلة التصوير في يده يلوّح بها مودّعًا.

3.17 دروس

كان ينبغي أن يفكر في الأمر ويلقي على الفتیان قبل ذلك الدرس الصغير الذي اضطرّ بدلاً من ذلك إلى إلقائه في السوق، أمام بسطة الفاكهة والخضار التي أخذ منها جاسي شَمَامَةً معطيًا في المقابل للبائع المستنكر غطاءً زجاجيًا كوكاكولا. ولم يكونوا مخطئين حتى: فحين خرجوا لشراء سراويل قصيرة وقمصان رأوا أنطونيو يعطي في المقابل للعربي ذي الشاربين صاحب البسطة ورقتين من النقود، ثم لبائع السمك حفنة من القطع المعدنية ليأخذ كيسًا من السمك المشكّل لحساء ماما مارسيليا. كان منطقيًا أن يكونوا قد فهموا أن عليهم في مقابل تلك الأشياء أن يقدموا شيئًا آخر، وأن أغطية لامعة بدت لهم مقايضة مناسبة.

«لا يمكن أن تعطي في المقابل أي شيء كان، لا بدّ أن تعطي في المقابل هذه، أترون؟ اسمها نقود. تعطونها في المقابل حين تريدون شيئًا.»

«لكن لماذا يريدون هذه؟ تلك الصغيرة المدوّرة جميلة، لامعة، أمّا هذه فقبيحة، متسخة كلّها وعليها رسم رجل كرية.»

«لأنّ الأمر يجري هكذا، هنا، يا جاسي. إن أردت شَمَامَةً فعليك أن تعطي ذلك الرجل واحدة من هذه، لا أي شيء كان، وإلا غضب.»

«حسنًا. إن كانت تعجبه، فحسنًا. وأين تُؤخذ هذه؟»

«لا تُؤخذ، تُستحقّق. بالبرتغالية يقال إنّها تُكتسب. مثلاً عندك موز كثير، فتأتي إلى هنا ومن يريده يعطيك في المقابل بعضًا من هذه. وهذا اسمه البيع، ثمّ هذه النقود التي أعطوك إيّاها تصير لك ويمكنك أن تستعملها لتأخذ أشياء أخرى من شخص آخر، وهذا اسمه الشراء.»

«لكنني لم أفهم، إن أردت موزة فعليّ أن أعطي واحدة من تلك لذلك الرجل؟»

«نعم.»

«لكن لأحصل على واحدة من تلك عليّ أن أعطي موزة لرجل آخر؟»

«نعم، حسنًا، تقريبًا.»

«لكن إذن لماذا لا أحتفظ بها، بالموزة، بدل أن أعطيها لأخذ بعدها موزة أخرى؟»

يا يسوع، من كان ليقول إنّ شرح التجارة، الاقتصاد، بهذه الصعوبة. لم يكن أنطونيو يذكر إطلاقًا كيف كان الأمر حين تعلّمه طفلًا: ومع أنّه كان يعرف أنّه من غير الممكن أن يكون الأمر هكذا، كان يخيّل إليه أنّه عرفه دائمًا. جرّب مدخلًا آخر.

«حسنًا، لنقل إنّ عليك أن تحفر حفرةً كبيرة جدًّا، أو أن تبني كوخًا كبيرًا ولا تقدر وحدك. عندئذ تطلب من غيرك أن يساعدك، صحيح؟» أوّما الفتیان في نفس واحد «حسن، إذن للأشخاص الذين ساعدوك تعطي بعضًا من هذه النقود لتشكرهم، في مقابل عملهم، فهمتم؟»

«وهم يذهبون إلى ذلك الرجل ليأخذوا الموز؟»

«نعم، إن أرادوا الموز نعم.»

«ويعطونه في المقابل هذه التي أعطيتهم إيّاها أنا؟»

«هذا هو، نعم، أحسنت!!!» هيا لقد نجحنا، فهموا.

«ولماذا لا أعطيه أنا الموز رأسًا، ما دام هو ما يريده في المقابل؟ ولماذا لا يأخذونه بأنفسهم، الموز؟»

أمسك أنطونيو رأسه بين يديه. يا الله القدوس.

على أنه، مهما كان الأمر محببًا أحيانًا، كان يعلم جيدًا أنه لا يحقّ له أن يندهش من الصعوبات التي كان الفتيان يصادفونها أحيانًا، لأنّ فهم ذلك العالم حقًا كان بالنسبة إليه هو أيضًا، رغم أنه وُلد فيه، كلّ شيء إلا أن يكون سهلًا. حتى أشياء كثيرة كان يعتبر نفسه فيها ضليعًا صارت الآن تفلت منه، وصار هو نفسه بحاجة إلى دليل.

ولتقديمه إلى عجائب التقنية الجديدة في العالم الحديث عُيّن بدهاءة الدمّ الجديد في الأسرة. جلست غابرييليتا معه إلى جانب حاسوب البيت، حاسوب جميل بشاشة رقيقة أكبر بكثير من تلك التي كان يذكرها.

«ماذا تريد أن ترى يا خالي؟»

«حسنًا، لثلق نظرةً على الإنترنت. ما زال هناك إنترنت، أليس كذلك؟» قال أنطونيو مازحًا، لكن بذرة خوف في صوته لم ينجح في إخفائها تمامًا.

«هاها يا خالي. بالطبع هناك» نقرت غابرييليتا على أيقونة لم يعرفها أنطونيو، لكن ظهر بعدها شعار مألوف خيّب أمله كثيرًا.

«غوغل؟! ما زلتهم تستعملون غوغل؟»

«طبعًا. الجميع يستعملون غوغل. لماذا تسأل؟»

«لا شيء، لكنني كنت أستعمله أنا أيضًا قبل أربعة عشر عامًا، كنت أتوقّع أن يكون قد حدث بعض التغيير في هذه الأثناء. لا بأس. اسمعي، برنامج تنزيل الأغاني مجانًا من العالم كلّ ما زال موجودًا؟»

«بت تورنت؟ نعم، نعم، نستعمله دائمًا.»

«لا، كنت أقصد آخر، لكنني لم أعد أذكر اسمه. نابر، على ما أظنّ، أو شيء من هذا القبيل.»

«ما سمعت به قط.»

«إي. لكن هذا البيتورن، يعمل بأن تبحث عن أغنية فتنزّلها؟»

«أمم، نعم ولا. الأغاني يصعب إيجادها، عادةً ننزل ديسكوغرافيات كاملة.»

«يعني أنت تريدين سماع مقطوعة ل... أمم... لسانتانا وكي تسمعيها تنزيل ديسكوغرافيته كلّها؟»

«لا، لسماع مقطوعة واحدة أستعمل عادةً يوتيوب.»

«تستعملين ماذا؟»

لم تكن جلسة الدرس تسير على ما يرام كثيرًا. عدا غوغل، بدا أنّ كلّ شيء قد تغيّر. في العمق كان ذلك ما يتوقّعه أنطونيو وبرجوه، لكنّ توقّعه شيء وأن يجد نفسه أمامه شيء آخر تمامًا. كان أنطونيو يحسّ نفسه تائهاً أكثر من الفتيان تقريبًا: فهم على الأقلّ كان عليهم أن يتعلّموا كلّ شيء من الصفر، أمّا هو فكان عليه العبء الإضافي أن ينسى كلّ ما يذكره.

حاولت غابرييليتا أن تشرح له شيئًا قد يعجب راشدًا، كفيسبوك وتويتر: كان أنطونيو يومئذٍ لكن كان واضحًا أنه لا يفهم حقًا. وبينما كانا يتكلمان، خرج من الحديث أنه لم يسمع قط بويكيبيديا.

«لا تعرف ويكيبيديا حتى؟»

«لا. كان ينبغي أن أعرفها، أليس كذلك؟»

«يا يسوع الأقدس يا خالي، لكن أين عش...» توقفت غابرييليتا ضاحكة قبل أن تكمل الزلة، لكن أنطونيو لم يشعرها بثقلها ونقل الكلام إلى أرض أبسط.

«دعيني أرى من جديد ذلك الموقع للموسيقى، هيا. وأسمعني شيئًا شائعًا اليوم.»

أسمعته غابرييليتا «نا لينيا دو تيمبو» و«ليفري».

«هل تسمعيني موسيقى تعجبك أنت، أم موسيقى تظن أنها قد تعجبني أنا؟»

«إمم... الاثنين» أجابت غابرييليتا بدبلوماسية.

«ومن هم نجوم العالم اليوم؟ كوني صادقة.»

لم يكن أنطونيو يجروء على طرح أسئلة أدق، وقبل كل شيء لم يكن يريد أن يسأل عما آلت إليه فرقه المفضلة، كان يخشى أن يُترجم ذلك إلى قائمة طويلة من «ما سمعت به قط» تتخللها قائمة من الموتى، ولم تكن لديه أدنى رغبة في سماعها.

«همم... لا أعرف، أنا تعجبني كثيرًا كاتي بيرري وليدي غاغا.»

«هيا، أسمعني شيئًا.»

لم يستطع أنطونيو، بكل صدق، أن يقول إنه يشارك ابنة عمته أذواقها، لكنه في المقابل تعلم بسرعة استعمال عمود الفيديوها ذات الصلة وغطس في استكشاف أكثر فيديوهات الشبكة مشاهدة. بعضها استحسنه، وبعضها أضحكه كثيرًا، وبعضها لم يفهمه. ثم جذبت الصورة المذهلة لانفجار. وبينما كان ينقر خيل إليه أنه أحس غابرييليتا تتيبس إلى جانبه.

لعشرات من الثواني نظر إلى الشريط دون أن يقول شيئًا.

«ما هذا الشيء؟ هل حدث حقًا؟» سألها، وصوته مكسور.

«نعم» همست، وهي تقطّب فمها.

فكر أنطونيو في الأمر بضع ثوانٍ ثم قال: «أرجوك، الفتيان يجب ألا يعرفوا عنه شيئًا أبدًا. هل فهمت يا غابرييليتا؟ لأي سبب كان.»

لكن غابرييليتا كانت تنظر إليه بهيئة آسفة. التفت أنطونيو، وعلى بعد أمتار خلفه رأى إيتاونا ينظر إلى الشاشة. تحادقا بضع ثوانٍ، ثم استدار الفتى دون أن يقول كلمة وعاد إلى الفناء.

3.18 غرفة التحرير

كانت قاعة التحرير الصغيرة في ريتي نورتى مكتظة بالناس، وبأوراق، وبألواح لوحية وهواتف محمولة، وبأغلفة حلوى مكورة، وبمواعيد نهائية تقترب، وبالملل والضجر.

«هيا يا شباب. هيا. هذه الحلقة رخوة كردفي عجوز. هيا. نحتاج إلى أفكار جديدة، قليل من الحياة، قليل من اللون. شيء نابض، طازج. ألفونسو، اقتراحات؟»

«يمكن التفكير في شيء عن كأس العالم، ربّما من زاوية جانبية قليلاً...»

«كأس العالم. يا سيّدة. أتكلّم عن شيء طازج فيخرج لي كأس العالم. منذ سنة كاملة ونحن نتكلّم عن كأس العالم وسنتكلّم عنها سنة أخرى على الأقلّ. هل انتبهت، أقول لك، هل انتبهت إلى أنّ في الخارطة البرامجية تقريرين عن كأس العالم؟ واحد عن أزياء الفرق - يا سيّدة - وواحد عمّا سيأكله رياضيّونا - يا سيّدة مرّتين - بين مباراة وأخرى. لكن حتى لو جاءتنا فكرة عبقرية - وأنا إذ أنظر إلى وجوهكم أشكّ في ذلك - لا يمكننا أن نتكلّم دائماً وفقط عن كأس العالم: هل كنت واضحاً؟»

«نعم، نعم، بالطبع.»

«واضح جداً يا رئيس.»

«نعم، واضح جداً.»

«ممتاز. أنت، أميليا، أفكار؟»

«حسناً، هناك تلك القصة عن الخيانة الزوجية التي...»

«أنا اليوم أجعلهم يطردونكم جميعاً. جميعاً. أنتم أشدّ تحنيطاً وعدم نفع من مومياء مصرية. أو لعلّي أنا الذي لا أتكلّم البرتغالية. أنا لا أتكلّم البرتغالية؟ طلبت شيئاً جديداً، بحق السيّدة: قصص الخيانة كانت قديمة سلفاً في زمن هوميروس. جميعاً، أجعلهم يطردونكم.»

«إمم... هناك... في مراجعة الصحف...»

«هيا يا إزميرالدا، هيا، لا تكوني خجولة. هناك ماذا؟»

تنحنحت إزميرالدا، فانتقل صوتها من الخافت جداً إلى الخافت: «إمم، يعني، في مراجعة الصحف هناك هذه الجريدة المحليّة الصغيرة التي... يعني، هناك قصة هذا الرجل الذي عاد بعد أربعة عشر عاماً في الغابة، مع فريق من الهنود يلعبون كرة القدم. وكانوا يعتبرونه ميتاً. وهم بارعون، يقولون إنهم في مباراة ودّية هزموا ماكابا و... هذا كلّ شيء.»

«مم. يعجبني. جديد، مختلف. الرجل، روبنسون كروزو الغابة، أنابيب النفخ وكرات القدم، الهنود عراة ومدهونون: ظريف، ملوّن، يعجبني. أحسنت يا إزميرالدينا، ينبغي أن أجعلك أنتِ رئيسة التحرير وأرسل ألفونسو ليكون سكرتير التحرير مكانك. أو الأفضل من ذلك أن يغسل الدرج. قولوا شكراً لإزميرالدا إن لم تُطردوا اليوم، كلّكم. ولنذهب فوراً لإجراء مقابلة مع الرجل، هناك، العائد من الموت، ما اسمه؟»

«أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا، يا رئيس» قالت إزميرالدا.

جورج، الذي كان حتى تلك اللحظة شارد الذهن تماماً تقريباً - كان يزخرف بزخارف بالغة التعقيد رسماً صغيراً يشبه على نحو غامض جداً تاجاً كورنثياً - أوقع القلم فجأةً.

«أنطونيرو روتا دي ألميدا؟» هتف مذهولاً «يا إلهي، لكني أعرفه!»

«حقاً؟ وكيف ذلك؟»

«كان أستاذ الرياضة عندي يا رئيس... يا يسوع، كنت واثقاً أنه مات!»

لم يقل إنه حين علم أنه مفقود وصار في عداد الهالكين بكى عليه قليلاً: صحيح أنه كان غلاماً في الخامسة عشرة، لكنّه لم يكن قد أدرك أنه تعلّق إلى هذا الحدّ بمعلّم، مهما كان مجنوناً: «هل يمكنني أنا أن أجري المقابلة معه يا رئيس؟ هل يمكنني؟»

«بالطبع، على الأقلّ تصوير نافعاً ولو مرّة. وإن كنت تعرفه فذلك أفضل بعد: شغف أكثر، لون أكثر. اتّصل به فوراً. وخذ معك مانويل بآلة التصوير، فنعدّ تقريراً وشريطاً صغيراً موجّزاً نضعه في هذه الأثناء على الموقع. شيء صغير ظريف، قصير، بضع دقائق، لكن طازج، فوّار، أرجوك. وأرجوك: لون، لون كثير.»

3.19 شوارع

ألوان أكثر من اللازم ، كان يفكر أنطونيو، منضغطًا في الحافلة بين مراقة ممتلئة بثياب وردية ورجل ضئيل يكلم نفسه مخاطبًا امرأة اسمها إرنستا يبدو أنها خيّت أمله.

الأوركيديات، والهيليكونيا، والتوت، والفاكهة، والطيور كانت ضربات فرشاة متعددة الألوان باهرة، لكنّ الخلفية، اللون الحقيقي الأساسي للغابة، كان الأخضر، كانت ملايين درجات الأخضر التي بدت كأنها تصبغ الهواء والضوء. هناك كان الأمر كأنك في القاع الزمردّي لبركة أو حوض سباحة، أما هنا فخليط كلّ تلك الحمر والصّفر، وزُرق الجدران المتقشّرة، وألوان الفوشيا الأكريليكية للقمصان، وحُمر السيارات وزُرقها، والبرتقاليات، والبنفسجيات، والأزرق الكهربائيّ للفتات، كان يدوّخه، كان كلّ شيء ملوّناً أكثر من اللازم ويبدو مكدّساً على غير هدى، ألوان كانت كضجيج.

كان ما يزال عليه أن يبذل جهداً معيّناً ليحول وحده في تلك المدينة التي كانت مدينته، ما يزال يخيل إليه أنه لا يقدر أن يهتدي، وأنّ كلّ شيء معقّد ومشوّش أكثر من اللازم، نشاز يكاد لا يُقرأ.

ثلاث فتيات كنّ يثرثرن جالسات أمامه بقليل، وكان ضحكهنّ لطيفاً لكنّ أنطونيو كان قد أدرك سلفاً أنه لم يعد قادراً على أن يقرّر إن كانت فتاة جميلة أم لا: كان يشقّ عليه فك رموز ثيابهنّ، التي كانت تبدو له دائماً إمّا وقحة أكثر من اللازم وإمّا أنيقة أكثر من اللازم، وكثيراً ما تكون الأمرين معاً. ثمّ كنّ دائماً مكسّوات أكثر، أكثر من اللازم. كيف تعرف إن كانت امرأة جميلة وهي مدثرة هكذا كلها بالقماش، أنا أتساءل، من يدري.

تململ في المقعد، فالسروال والقميص والحذاء كانت تضايقه: كان يحسّ نفسه مقبّداً، مضغوّطاً، مكرّهاً، وكان يخيل إليه أنه متّسخ عرقان قليلاً على الدوام. كما كانت المدينة تبدو له أكثر فأكثر متّسخة محتقنة، باتّساخ لا يذكره، مصنوع من ماء قذر ودهانات قديمة، ومن نفايات مهمة، ومن إهمال، ومن كرامات متعبة تصير بؤساً، ومن رائحة عوادم الوقود والطعام والناس الحاضرة في كلّ مكان.

على أنّه لم يكن يستطيع بالتأكيد أن يبقى محبوباً في البيت طوال النهار عارياً هادئاً، ولا حتى الفتيان كانوا يفعلون ذلك الآن: كانوا يخرجون كلّ صباح، جماعةً، في جولات حذرة لكن أطول فأطول في الحي، يراقبون كلّ شيء باهتمام المستكشف المركّز على كوكب غريب.

واجهه مصفّفة الشعر كانت تحوي عالمًا كاملاً من العطور والدهشات، من الخصلات الملونة المنفوشة والجعدات، ومن الأظافر المطلّبة. وبعدها مباشرة كان مغسل السيّارات، وكيف لا تتوقّف ولو ساعة كاملة لتتمتّع بالفراشي الزرقاء التي ترتفع وتنخفض وتدور، وبالماء، وبالرغوة، وبلمعان السيّارات التي كانت تخرج منه براقّة كالجواهر، وبالضحكة المبحوكة للرجل ذي البطن الكبير الذي كان يشغلّ تلك الدوّامة من الرذاذ. ثمّ بائع الخضار، بجبال من الفاكهة والخضار لم تُرَقَط، قطفها من يدري من، ومن يدري عن أيّ نبتة، وكانت تذبل رويداً في الشمس، والموسيقى الخارجة من البار حيث كان الظلّ ذو الرائحة الغريبة الزنخة قليلاً يتألّألّ بالزجاج والقناني، ثمّ امرأة بكعوب حمراء، وكلبان يتطاردان، وشرطيّ عابس يجرّ فتى صغيراً، وسيّارة إسعاف تمرّ في ومضة عابرة. والمظلات، جدّة مدهشة لمن عاش آلاف السنين من المطر: كاوي وأوبيراتان أرادا واحدة لكلّ منهما ولم يكونا يفارقانها حتى حين لا يكون هناك مطر إطلاقاً.

أما مواسير فقد نسي في اللحظة نفسها كلّ مظلات العالم حين رأى فتى يمرق راكباً دراجة هوائية. كاد يبكي من الحماسة حين تبين أنّ دراجة أنطونيو القديمة ما تزال في المدخل وأعطى الإذن بأن يتعلّم استعمالها، مسلماً إلى جانبتا للتجارب الأولى على الدواستين في الفناء المغبر المشمس.

كان تخيله جائلاً بالدراجة في ماكابا يترك أنطونيو كلّ شيء إلّا أن يكون مطمئنًا، وكان يزرع الأمل في أن يُشفى ياماندي ويعودوا جميعاً إلى سلام الغابة قبل أن يصير شغف الدراجات مشكلة. ثمّ بالطبع، كان الفتيان في المتوسط حذرين جدّاً، وحتى الآن كانوا يدبّرون أمرهم ليعبروا الشارع أقلّ ما يمكن: فحتى لأنطونيو كانت السيّارات تبدو كثيرة أكثر من اللازم وسريعة دائماً أكثر من اللازم، وأن تتعامل مع أناكوندا أو جاكوار شيء، أما أن تجازف بالنزول عن الرصيف لترمي بنفسك بين تلك المركبات الصاخبة التي لا يمكن التنبؤ بها فحكاية أخرى تماماً. ولم تكن تنقصنا إلّا الدراجة!

نظر من النافذة متوتراً قليلاً، كان عنده دائماً شك في أنه لن ينجح في التعرّف على المحطات، وأنه سيخطئ الطريق ويضيع بين سوبرماركت وزقاق وصالة ألعاب، وبينما كان يصغي إلى الغمغمة المتعلقة بخطايا إرنستا الكثيرة كان يحاول أن يتخيّل هيئة جورج، بعد كلّ ذلك الوقت. كان مسروراً لأنه اتّصل به، ولأنّه أراد أن يراه، ولأنّه أعلن أنّه سعيد جداً إذ علم أنّه حيّ يُرزق وعاد إلى المدينة. لم أكن إذن سيئاً إلى هذا الحدّ كمعلّم، في نهاية الأمر، إن كان تلميذ لي بعد كلّ هذا الوقت ما يزال يذكرني وبكلّ هذه المحبة. حكاية أنّه يريد مقابلة، وأنّه يريد تصوير الفتیان يلعبون، وأنّ عنده اقتراحاً رائعاً، لا أدري، تبدو غريبة قليلاً، من يدري ماذا في ذهنه، سنرى. لكنّ قرار أن نلتقي في الإذاعة كان فكرةً جيّدة، أموت فضولاً لأرى ماذا صنعت تيريزا، من كان ليقول إنّها هي بالذات من ستعيدها إلى الحياة، هي، ملكة المكالمة المشوّشة.

3.20 الإذاعة

كان يتوقع أن يرى من جديد الجدار القديم المتداعي قليلاً، لكنّ الحيّ كان قد ارتقى بوضوح، والمبنى الصغير الذي يضمّ الإذاعة كان مدهوناً بلون فيروزيّ جميل يُبرز، على نوافذ الطابق الأوّل، ملصقات زجاجية حديثة بأربعة ألوان عليها شعار لا يمكن تمييزه وعبارة «إذاعة نوبا أميزادي» بالأصفر والأسود.

عند المدخل، خلف الباب المدهون بالأصفر، كان قد أُعدّ استقبال صغير بكراسيّ خيزران ووسائد من الشينتز. فتاة صغيرة مجعّدة الشعر جالسة أمام حاسوب وأمام لافتة مبهرجة بعض الشيء تقول «سكرتيرة التحرير» استقبلت أنطونيو بحماسة: «آه، بالطبع، تيريزا قالت لي إنّك ستأتي! تيريزا! تيريزا!» صرخت نحو باب زجاجيّ: «وصل ذلك السيّد!»

وصلت تيريزا في اللحظة نفسها، وسَمّاعاتها ما تزال على عنقها: قرطان من بلاستيك ورديّ كالفرولة، وأحمر شفاه الكرز، وقصّة شعر بلون الموز، كانت تشبه سلّة فاكهة. لا بدّ أنّ العمل في الإذاعة قد أفادها، كما أكّدت هي نفسها إذ لفت أنطونيو في عناق برائحة البنفسج: «أنطونيو، كم أنا سعيدة! صليت كثيراً من أجلك، وأشعلت شمعاً كثيراً لنوسا سنيورا دا كونسيساو، وأعطيت أيضاً دجاجةً قريباً لجارتني التي تمارس الكاندومبليه، فلا يُعرف أبداً، وكلّما كثرت الآلهة في اللعبة كان أفضل، وانظر لقد نفع! نجوت! وما أجمل أن أعرفك أخيراً، وهنا في الإذاعة فوق ذلك. لو تعلم كم غيّرتني هذه الحكاية، حكاية الإذاعة، وكم أيقظتني، تعرف عليك أن تصنع لنفسك ثقافةً أيضاً، أن تكون مطلعاً. وكلّ ذلك بفضلك أنت، بفضل صوتك، لكن انظر إلى نفسك يا له من شابّ جميل، كنت أعلم، بصوت كهذا. كنت أتخيّلك أضخم قليلاً، يعني، لكنك لست سيّئاً إطلاقاً، لو كنت أصغر بعشر سنوات، صدّقني.»

«شكراً على الإطراء، لكن...»

«هاها، لا تقلق، لا أريد أن أغازلك، أعرف أنّك متزوّج أيضاً، فكيف أفعل!»

«وكيف تعرفين ذلك بحقّ الشيطان؟»

«لكن أمك قالت لي، أليس كذلك؟ أمس حين اتّصلت لأؤكّد الموعد تدرّشنا قليلاً، يا لها من امرأة لطيفة. قالت لي إنّك تزوّجت فتاةً جميلة، وإنّ عندك طفلاً جميلاً جداً، وإنّ الوقت سيحين قريباً للشروع في الثاني، مبارك، أمك كانت مسرورة جداً!»

«نعم حسناً، ليس بالضبط... على كلّ حال، دعينا من ذلك. حدّثيني عنك، عن الإذاعة، كيف نجحت في إعادتها إلى الحياة؟»

«آه، إنّها حكاية طويلة، اسمع، ذلك السيّد إيناسيو كان كريماً، لا يمكن القول بغير ذلك. ثمّ إنّّه لم يمهل الوقت حتى ليرى النجاح الذي حقّقناه، فقد كانت له مسائل مع الشرطة، يقولون، أنا لا أعرف جيّداً: ذهب ليقيم في بوغوتا، حيث له فرع من شركته كان يحتاج إلى حضوره. أمّا غوستافو، فتعرف كيف الأمر، مال الحرام لا يدوم: إنّّه في السجن، المسكين، فتى طيّب لكنّه نشأ نشأة سيّئة، الرفقة السيّئة، تعرف كيف هي هذه الأمور. وهكذا إذن أعدنا الإذاعة إلى العمل، أتفهم؟»

لم يكن أنطونيو قد فهم شيئاً على الإطلاق، لكنّه رأى أنّ لا فائدة من محاولة مقاطعة تيريزا التي كانت في هذه الأثناء قد أجلسته على وسائد الشينتز وتكلّم بلا انقطاع ملوّحةً بأظافر بلون المشمش: «وحقّقنا نجاحاً لا بأس به، أتعلم؟ برنامجي يحقّق نسبة استماع كبيرة، وصفات وسياسة، ينجح على أحسن ما يكون، لو تعلم. طبعاً أنا ما زلت أعمل عند مدام سامويلا – من ترك الطريق القديم من أجل الجديد ندم، معروف – لكنّي لم أعد أغسل الرؤوس، الآن أصبغ وأصفّف لكنّي طوال النهار لا أفعل إلا أن أفكر في برنامجي، عندي شغف، صدّقني. ونسب الاستماع ممتازة، حتى لويزا تحسّني قليلاً.»

«لويزا؟»

«طبعًا، صديقتي لويزا، تذكرها، أليس كذلك؟ هي تقدّم زاوية الغوسيب، هكذا صار اسمها الآن، لا النميمة، تعرف، أليس كذلك؟ يعني، هي تعرف كل شيء عن المغنيين والمشاهير وكيف يلبسون ويخطبون ويتفارقون، تقدّم برنامجًا صغيرًا جميلًا، إنها موهوبة حقًا. طبعًا نسب استماعها ليست كنسبي، والوحيد الذي يقترب هو جواو.»

«لكن جواو من، الحارس؟» كان أنطونيو مرتبًا أكثر فأكثر.

«نعم، نعم، هو، هو! ما زال يعمل حارسًا بداهة، لكنّه في التاسعة تقدّم برنامج التنجيم وفي العاشرة بريد القلوب. لو تعلم كم هو بارع، يعطي نصائح تجلب الدموع إلى العينين، أكاد أتمنى أن تكون عندي مشاكل حبّ لأطلب نصيحته. عليك بأيّ ثمن أن تجعله يقرأ لك طالعك، اسمع، من يدري هذه الحكاية، حكاية الأمازون، أيّ تأثيرات فلكية فيها.»

«بالطبع، لا أطيق صبرًا. على كلّ حال مبارك، كنتم بارعين حقًا. لكنّي لم أفهم جيّدًا حكاية الصفات والسياسة، هل صرت تفهمين في السياسة الآن؟ في حينه لم يكن يبدو لي أنّ...»

«أنا في السياسة؟ لا، أين أنا من السياسة! الأمر أنّي بارعة في الطبخ وكان لي شغف به دائمًا – وبرامج الطبخ تنجح دائمًا نجاحًا كبيرًا، صدّقني – لكنّي فكّرت أنّه لا بدّ من توسيع جمهوري قليلًا، لا الجدّات وربّات البيوت فقط، فوضعت السياسة فيه. لكنّه سهل، أتعلم؟ أنظر في موقعي أخبار، مواقع إنترنت، أنت تعرف، بالطبع تعرف: أنت من علّمني الإنترنت، ببرنامجك، يا إلهي، يبدو أنّه مضى وقت طويل جدًّا! يعني، أقرأ العناوين ثمّ أذهب إلى غوغول وأضع الكلمات المفتاحية، أليس كذلك؟ أضع الكلمات المفتاحية مع كلمة “صفات”، مثلاً ماذا أدري: “العراق، صفات” أو “أوكرانيا، بوتين، صفات”. أو إن كانت عندي سلفًا وصفة طبق أضعها ثمّ الكلمات المفتاحية: “موكيكا الجمبري، أوباما، الكيمتريل”. يخرج دائمًا شيء طريف، لو تعلم. باكو هو من علّمني استعمال غوغول، أتذكر باكو، فنّي الصوت؟ تزوّج ألمانيةً وذهب ليقيم في أوروبا، في برلين أو أمستردام أو مدينة أخرى في ألمانيا، الآن لا أذكر. ربّما سيدني.»

بذل أنطونيو جهدًا ليشرب رشقةً أخرى من عصير الفاكهة الحلو أكثر من اللازم الذي وضعته تيريزا في يده: «حسنًا، أنا مسرور: كان يتمنّى أوروبا دائمًا.»

«نعم نعم، صدّقني، أنا سعيدة أيضًا وإن كنّا في البداية لا ندري كيف نستبدله، ثمّ لحسن الحظّ وجدنا سافيريو، يعلم البيانو في مدرسة العميان، إنّه بارع إلى أقصى حدّ، سأعرفك عليه بعد قليل، هو من أعطاني فكرة الشعار الجديد، هل يعجبك؟ أنا رسمته.»

«مم. جميل جدًّا، نعم. إنّه... ببغاء. وفي منقاره... مِذْراة؟»

«هاها، لا، أيّ ببغاء: إنّه بجعة، بجعة باسطة جناحها فوق كرة أرضية، وفي منقارها غصن الزيتون، زيتون السلام بين الشعوب. استوحيتها من تلك الأغنية الجميلة التي تعجبني كثيرًا، تعرف، “إماجين أول ذي ببيل”، تلك التي لبول لينون، أتعرفها؟»

«لَمْ لا، لَمْ لا. والشعار ظريف حقًا.»

«صحيح؟ كنت دائمًا موهوبة في الرسم. قال ذلك سافيريو أيضًا، هو لا يرى، طبعًا، لكنّي وصفته له جيّدًا فقال لي إنّه ظريف حقًا. آه، لكن انظر، وصل صديقك! أترككما بسلام، من يدري كم من الأشياء عندكما لتقولاه، ربّما تحبّان كافيزينيو؟»

3.21 الفردية

كان أنطونيو ما يزال يسميهم «الفتيان». الفتيان فعلوا هذا، الفتيان يحتاجون إلى ذلك، كأنهم جسد واحد غير متمايز. وفي الأيام الأولى كانوا كذلك فعلاً تقريباً: إذ أرهبتهم كمية الأشياء الجديدة، تضاموا بعضهم إلى بعض كي لا تجرفهم، يشد أحدهم أزر الآخر. وقد جعل ذلك أيضاً مهمة أنطونيو أسهل في مراقبتهم وحمايتهم من أخطار الحياة الكثيرة خارج الغابة.

لكن كلما مرت الأسابيع وصاروا يتكيفون مع العالم الجديد، ويا يسوع القدوس كم كانوا يفعلون ذلك بسرعة، عادت الفرديات المختلفة تطفو، ولم يعد ممكناً أن يبقوا جميعاً معاً في كل لحظة: كان الارتباك والريبة والمخاوف تذوب يوماً بعد يوم في يسر متزايد ورغبة متزايدة في تجريب ذلك العالم الجديد.

كان على أنطونيو أن يقبل الواقعة: لم يعد يقدر أن يضبطهم، أو على الأقل صار يحتاج إلى معونة أهله ليفعل.

كان مواسير وكاوي قد ذهبا من جديد إلى المطار ليريا الطائرات تهبط وتقلع عن قرب، تسليّة بدأ يزاولانها منذ بضعة أيام. لم تكن لدى أنطونيو رغبة في الذهاب للمرة الرابعة على التوالي، لكن غابرييليتا عرضت أن تذهب معهما: وكان الفتيان قد قالوا على كل حال إنهم يعرفون الطريق، ثم إنه لم يكن بعيداً، فاستسلم بعد كثير من التوصيات وتركهم يذهبون. وكان على كل حال يسره دائماً أن يرى أن الشغف الذي كانوا يصغون به إلى حكاياته عن الحادثة حين كانوا في الغابة قد صمد أمام امتحان المواجهة مع الواقع.

أما

جاسي وإيتاونا، برفقة جانيثا، فقد ذهبا إلى السينما ليريا ذلك الفيلم الكرتوني الذي تدور أحداثه في مملكة جليدية. من يدري ماذا سيفهمان بالنظر إلى أنه، عدا اللغة، كانت هناك أيضاً التفصيلة التالية: أن تجربتيهما الوحيدتين مع مفهوم البرد كانتا براد بيت أنطونيو ومصاصات الثلج – الكثيرة، في الحقيقة – التي أكلها.

كان أنطونيو يذكر أنه خاف كثيراً يوم فاجأه إيتاونا وهو ينظر إلى شريط الحادي عشر من سبتمبر: لم يكن يظن أن إيتاونا قد يفهم ما حدث، لكن لكي يمشي على المضمون ألقى على الفتيان درساً في مفهوم «الفيلم»، حاكباً أن الناس يحبون أن يمثلوا ويصوّروا على الشاشة حكايات وأحداثاً غريبة من كل نوع، وأحياناً حزينة أيضاً، لم تكن أبداً حقيقية، لا، ولا شيء منها حقيقي إطلاقاً، انظروا، في هذا الفيلم يموت هذا الممثل لكته في الفيلم التالي عاد جميلاً نشيطاً. لم يُبدِ الجميع اهتماماً كبيراً، وبسبب حاجز اللغة أيضاً، لكن جاسي وإيتاونا تبين أنهما مولعان بالسينما وبدأ يلتهمان فيلماً كرتونياً بعد الآخر. لم يكن أنطونيو يعترض، بل بالعكس: إنها في نهاية الأمر حكايات جميلة، مفيدة، سهلة الفهم وغير دموية، ولا بأس إن كان يخيل إلي أنني أعاملهم كأطفال في الخامسة.

من جهة أخرى كان يعلم جيداً أنهم ليسوا أطفالاً إطلاقاً، الأذواق السينمائية جانباً: كانوا شباناً في العشرين أو نحوها، ثم إنهم في الغابة كانوا يُعتبرون بعد الطقس رجالاً في كل شيء. هناك كانت الأمور مختلفة قليلاً، ففي هذا العالم الآخر يُعتبر المرء فتى حتى الأربعين، والدليل أن ماما مارسيليا كانت تناديه هكذا وهو في تلك السن (إن لم تنادِه «طفلي» أصلاً، وهو أمر في غير محله قليلاً لكن الأمهات مجبولات هكذا).

وبمناسبة مارسيليا: من يدري ماذا تصنع في هذه اللحظة مع بيراي، الذي رافقها إلى السوق ليتعلم أسرار التسوق.

وجد أنطونيو نفسه يفكر: فتياي يكترون. وجاءته ذرة كآبة، ما جعله يضحك من نفسه ومن الأفكار الغريبة التي كان يفكر فيها. في تلك اللحظة رفع عينيه فرأى أوبراتان يخرج إلى الشرفة وفي يده جعتان ويجلس إلى جانبه. بقيا قليلاً صامتين يرتشفان الجعة وينظران إلى الشارع خلف السياج. أوبراتان هو من قطع الصمت أولاً.

«أتعلم، حين رحلنا عن القرية لم أكن واثقاً من أن ياماندي سينجو. غريب. لا أعرف كيف أقولها، كنت أصدق كلامك لكنه مع ذلك كان يبدو لي غريباً. غريباً أكثر من اللازم. وإذا بك تنجح. لم أشكرك بعد.»

«لا يجب أن تشكرني أنا. لم أنقذه وحدي. أنقذناه جميعاً معاً. ويا لها من مغامرة مجنونة كانت. أتذكر حين نجحنا في تفادي الشلال بشعرة؟»

«نعم،» ضحك أوبيراتان ثابيتين، لكنّ الكآبة البينة عادت فوراً لتعكره «المكان جميل هنا والجميع لطفاء جداً. إنهم يساعدوننا كثيراً. ولم يكونوا مجبرين على ذلك.»

«ولا أنتم كنتم مجبرين على إنقاذي ومساعدتي حين وجدتموني. القرية كلها استقبلتني كأني منها منذ الأزل. ولأسرتي يبدو أنّ فعل الشيء نفسه معكم هو أقل ما يمكن.»

«أسرتك، نعم. أتعلم يا أنطونيو، حين كنّا في القرية لم أفكر في ذلك قط؛ أنت وصلت حين كنّا أطفالاً، لا أكاد أذكر الزمن الذي لم تكن فيه موجوداً. بالنسبة إليّ كنت دائماً واحداً من القبيلة. لكن الآن إذ أرى أسرتك، أتساءل كيف قدرت أن تصبر على البقاء في القرية كلّ ذلك الوقت، وأنت تعرف أنّ أسرتك هنا.»

«إي. لم يكن سهلاً. وخاصةً في الأيام الأولى، حين لم أكن أعرف حتى أن أتكلّم لغتكم. لكنكم أنتم الأطفال بالذات من ساعدني ولن أشكركم أبداً بما فيه الكفاية. ثمّ أتعلم: قدر الابن أن يمضي. كان عندي حنين، لكن بفضلكم واصلت العيش عيشاً طيباً. أكثر ممّا كنت آسف على نفسي، كنت آسف على أمي وأبي، هم من يبقون ليعانوا أكثر.»

انتبه أنطونيو إلى أنّه لمس وترّاً حسّاساً. بل الوتر الحساس بعينه. أسرع يرمم: «لكن لا تقلق يا أوبيراتان. وضعي أنا حينها ووضعنا نحن اليوم مختلفان جداً. الذين يبقون يعانون أكثر حين لا يعرفون. لا يعرفون ماذا حدث لحبيبهم، ولا يعرفون إن كان سيعود. زوجاتنا يعرفن ما حدث لنا، ويعرفن لماذا رحلنا، ويعرفن أننا سنعود. وابنك ما يزال صغيراً أكثر من أن يفهم ما يجري، أنا واثق أنّه هناك يؤنس إبييراتا.»

وكما يحدث كثيراً، كانت الرقعة أسوأ من الخرق.

«قلت كلّ الأسباب التي تجعلني حزينا، أتعلم؟ أشتاق كثيراً إلى كينيراتان لكنّه ربّما نسيني. وأمياجي تعرف فقط لماذا رحلت، لكنّها لا تعرف ماذا حدث لي. لا تعرف إن كنّا وجدنا الطريق الصحيح، ولا تعرف إن كنّا ما نزال أحياء، ولا تعرف حتى أنّ هناك شلالاً كان علينا أن ننجو منه، لكنّي واثق أنّها تخیلت أخطاراً أسوأ بعد. ولا تعرف إن كنّا نجحنا في إنقاذ ياماندي، ولا تعرف متى سنعود أو إن كنّا سنعود. لا يعرف ذلك أحد. متى سنعود يا أنطونيو؟»

«ياماندي يُشفى شفاءً حسناً لكنّه ما يزال يحتاج إلى بعض الوقت، قال الأطباء، قمر واحد على الأقل، ثمّ نعود إلى البيت: لم يبقَ كثير الآن. وسيكون أجمل بعد لمن انتظرنا أن يرانا نعود كلّنا سالمين ومعنا أشياء كثيرة نحكيها» ابتسم أنطونيو.

عادا يراقبان رواح الشارع ومجيئه. كانت الدردشة قد أفادتتهما كليهما، ورافقت الجعة الثانية حديثاً أكثر مرحاً، محوره الوجوه الطريفة الكثيرة لإقامتهم هناك، والنصّ الباطن تحته: نعم، أشتاق إلى الغابة، لكنّها في العمق مغامرة جميلة جداً سأذكرها إلى الأبد.

أول من عاد كانت مارسيليا وبيراي. عابسي الوجه، لا يوجّهان أحدهما إلى الآخر كلمة. كان تعبيراً غريباً لوصف شخصين يتكلّمان لغتين مختلفتين دون أن يفهم أحدهما الآخر، ومع ذلك ففي جلسات الطبخ عندهما لم يكن أيّ منهما عادةً يسكت لحظة وكان يبدو أنّهما أمّ وابنها، بينما كانا الآن يتجاهلان بعضهما عملياً. خُيل إلى أنطونيو أنّه سمع أمّه تغمغم شيئاً عن يرقات وقذارات، لكنّ أنطونيو وأوبيراتان، إذ نظرا إلى وجهيهما، قرّرا أن يتفاديا طلب معلومات مفصلة عن سبب شجارهما البين.

بعد قليل وصل أيضاً جاسي وإيتاونا، تتبعهما جانيتا التي لم تسكت لحظة. أسرع الاثنان إلى دخول البيت دون أن يتكلّما. هذان مضطربان أيضاً، فكر أنطونيو، منتبهاً إلى أنّه لم يكن لهما بالتأكيد وجه شخصين شاهدا للتوّ فيلماً كرتونياً. صحيح أنّ مفهومَي الجليد والثلج غريبان عنهما، لكن لا يمكن أن يكون قد أثر فيهما هذا التأثير: «جانيتا! ماذا حدث؟ ألم تذهبا لمشاهدة “فروزن”؟»

«بلى، واستمتعا كثيراً جداً. كان عليك أن ترى كيف كانا يضحكان كلما ظهر على الشاشة ذلك الرجل الثلجي المضحك جداً. كان ممتعاً حقاً.»

«...لا يبدو أن لي فتيتين قضيًا بعد ظهرٍ ممتعاً. ماذا حدث بعد ذلك؟»

«آه، ذاك، نعم. إي، أردت أن آخذهما لأكل البوظة، لكن ما إن خرجنا حتى رأيا ملصقات ذلك الفيلم الآخر، ذاك الذي فيه أولئك المحاربون اليونان الجميلون ذوو الصدور العريضة، الإسبرطيون الثلاثمئة. كانا فضوليين جداً، وأفهماني أنهما يريدان مشاهدته.»

«جانيتا، لكني قلت لك...»

«فكرت، لا بأس، إنه فيلم حرب، لن يصعب متابعته حتى إن لم يفهما اللغة. كفى من كل هذه الأفلام الكرتونية، ليسا طفلين.»

«جانيتا...»

«لكن الفيلم كان عنيقاً أكثر من اللازم قليلاً، كنت أواصل قول "فيلم، فيلم" لهما، لكنهما اضطربا قليلاً وبعد نصف ساعة أرادا الخروج. أسفة يا أنطونيو.»

اضطربا قليلاً يا سلام، فكر أنطونيو، ما رأيتهما هكذا قط ولا حتى حين واجهنا الشلال. لكنّه فهم أنّ جانيتا كانت أسفة من تلقاء نفسها سلفاً وأنه ليس من المناسب أن يدير السكين في الجرح: «لا لا، لا بأس. لا يهم، سترين أنّ الأمر سيمرّ. كنت لطيفة إذ رافقتكما، الآن أذهب لأرى إن كنت سأنجح في تهدئتهما قليلاً.»

نهض أنطونيو، وأشار إلى أوبيراتان أن يتبعه، وفي تلك اللحظة رأى، من خلف السياج، مواسير وكاوي وغابرييليتا يصلون من اتجاه مختلف تماماً عن الاتجاه المعتاد للقادم من المطار.

كان على وجه كاوي تعبير شرس، وهذه أيضاً جدّة. وكان واضحاً أنّ مواسير فريسة مشاعر مشابهة لكنّه كان أمهر في إبقائها تحت السطح. كانت غابرييليتا تتبعهما مطأطئة الرأس، وترفع عينيها بين حين وآخر لنظرات سريعة إلى هذا تارةً وإلى ذاك تارةً. نظرة خُيّل إلى أنطونيو أنّه يرى فيها امتناناً ممزوجاً بأسف. ولما اقتربوا لاحظ أنطونيو أنّ قميص كاوي ممزّق وأنّ الفتيتين كليهما موحلان إلى حدّ ما. ولعلّ ذلك الذي على خدّ كاوي كدمة؟ وهل كانت مفاصل أصابع مواسير مسلوخة هكذا دائماً؟

اضطرّ أنطونيو من جديد إلى أن يُعمل قدراته الاستنتاجية، غير الباهرة، لأنّه فيما بدا لم تكن لدى هذه المجموعة الصغيرة أيضاً رغبة كبيرة في الكلام. أيمن أن يكون كاوي ومواسير قد تضاربا؟ ذهب كاوي وغابرييليتا رأساً إلى البيت دون أن يسألما حتى. توقّف مواسير لحظةً، ووضع يداً على كتف أنطونيو وقال له: «هي بخير، لا تقلق. ونحن أيضاً. أمّا أولئك الآخرون فحالهم أسوأ قليلاً» وتابع خلف صديقيه.

بقي أنطونيو وأوبيراتان مذهولين ينظر أحدهما إلى الآخر، وفكر أنطونيو: نعم، متى نمضي من هنا؟

3.22 عرض

«هيا يا فتیان، اذهبوا وخذوا الكرات وتحركوا، فبعد قليل يصل صديق لي ليصوركم للتلفاز.»

«ما هو التصوير؟»

«أي تلفاز، ذاك الذي في الشاشة؟»

«إذن، التصوير هو... حسناً، كالصور، أتذكرون حين صوّروكم، أليس كذلك؟ يعني، التصوير شيء كهذا، لكنها صور تتحرك وتعرض على الشاشة، نعم، فيراها الجميع.»

«وهكذا يرى الجميع صورنا بعد ذلك في الشاشة كما حين نشاهد التلفاز؟»

«نعم، هكذا تماماً.»

«سيعجبني كثيراً أن أرى نفسي صغيراً في الشاشة.»

«على كلّ حال لن ينظر إليك أحد في الشاشة، سينظرون إليّ أنا لأنّي أجمل.»

«لكنّي أنا أُمهر.»

«لكنّي أنا أركض أسرع.»

«يا فتیان، هيا إلى اللعب. الشاشة نفكر فيها بعد.»

نعم، الشاشة نفكر فيها بعد. لكن على العكس كان لا بدّ من التفكير في الشاشة فوراً: كان جورج ودوداً لطيفاً حقاً، وكانت المقابلة ممتعة ذكية – لا كمقابلة ذلك المجدّد الأحمق – لكن فيما بدا رأى الجمهور أنّ المسألة طريفة جداً، فعاود جورج الاتصال به عارضاً عليه حلقة خاصّة محورها الفتیان، بصور كثيرة للفتیان وهم يلعبون، وهي بالضبط ما كان عليهم تصويره ذلك اليوم ما إن يصل جورج مع المصور. وهذا كان على أحسن ما يكون، بداهةً.

أمّا ما قاله بعد ذلك فكان أمراً عليه أن يفكر فيه جيّداً. وأن أفكر فيه الآن يا عزيزي، لأنّه من المرجّح جداً أن يريد جورج جواباً اليوم وأنا ما زلت لا أدري، لا أنجح في أن أقرّر. ناقل أنطونيو الكرة بشرود بين قدم وأخرى، متأملاً، بينما كان الفتیان يصخبون صعوداً وهبوطاً في الملعب متنازعين على ستّ كرات أو سبع على الأقلّ.

كان العرض الذي قدّمه له هو ما تركه متردّداً. فيما بدا كانت الشبكة التي يعمل فيها جورج مهتمةً بهم جداً: نسب مشاهدتهم منخفضة قليلاً وكانوا يحتاجون إلى شيء جديد – طازج، قال – فعرضوا أن ينظّموا له جولةً من المباريات في المنطقة، ستّ مدن أو سبع، فرقاً على المستوى الإقليمي، مع دفع كلّ التنقّلات والمصاريف ومقابل ماليّ للتعاقد، في مقابل حقوق البثّ. وفوق ذلك أطقم رياضية لكلّ الفتیان – بعلامة الشبكة، بداهةً – بما فيها الأحذية. والأحذية وحدها كانت تلوح مسألةً شائكة، فالفتیان يلعبون حفاةً منذ الأزل وأنطونيو واثق أنّهم لن يستحسنوا إطلاقاً تغيير النظام. لكن بالتأكيد لم يكن ممكناً تصوّر أن يلعبوا حفاةً ضدّ آخرين منتعّلين، مسألة لم تكن لديه فكرة كيف يحلّها. ولم تكن إطلاقاً الوحيدة التي تقلقه: كلّ تلك الحافلات، وتلك التنقّلات، ومدن مختلفة، وفنادق، وكثير من المجهولين، وأن يلعبوا لا لعباً بل لأنّ الأمر سيصير عندئذ نوعاً من الواجب، كلّها أشياء لم يكن يعرف كيف سيتقبّلها الفتیان.

من جهة أخرى كان يدرك أنّها قد تكون بالنسبة إليهم فرصةً فريدة لخوض تجارب جديدة وطريفة بلا شكّ، ولمعرفة أماكن أخرى وأشخاص آخرين، وللاحتكاك بلاعبين لا يعرفونهم ويلعبون على نحو مختلف عن نحوهم، وللاستمتاع كثيراً على الأرجح. ولم يكن يقدر أن ينكر أنّه هو نفسه يشتهي ذلك اشتهاً كبيراً: أن يجول قليلاً على حساب غيره، وأن يرى مدناً أخرى، وأن يلعب مع فريقه الصغير متمتّعاً ببعض المباريات كما ينبغي، كان يجذبه كثيراً.

ثمّ كان لا بدّ من أخذ ما علموه من الأطباء في الحسبان: ياماندي سيحتاج إلى شهر آخر على الأقلّ لإعادة التأهيل، وقضاء كلّ ذلك الوقت أيضًا في ماكابا يخاطر بأن يصير مشكلة. كان الفتيان معتادين على حياة نشيطة، والبقاء بلا حراك شهرًا آخر دون شيء آخر يشغل الأيام سوى التسكّع واللعب ساعتين في اليوم في ملعب التدريب – الممنوح حتى الآن بطيبة خاطر، لكن من يدري إلى متى – لم يكن بالتأكيد الحلّ الأمثل.

ثمّ كانت هناك حكاية كاوي الذي قال إنّه يريد أن يعلّق أرجوحته إلى جانب أرجوحة غابرييليتا. أيّ أرجوحة، ليست في الخامسة عشرة حتى، يا الله القدّوس.

«لا مجال للكلام في هذا، إنّها صغيرة أكثر من اللازم.»

«أختي صغيرة مثلها وقد أنجبت للتوّ طفلًا.»

«أختك لا شأن لها بالأمر. هنا الأمور مختلفة.»

«لماذا؟»

«لأنّها كذلك. لأنّي أنا أقول لك. اسمع يا كاوي، أنا أفهم أنّك تشتتهي فتاة: يمكنك – لندع الأرجوحة جانبًا لحظة – يمكنك أن تصادق ابنة الجيران، فيرناندا لطيفة وجميلة جدًا.»

«لكنّها عجوز!»

«أيّ عجوز، عمرها ثمانية عشر عامًا!»

«لا أدري ما هي الأعوام. لكنّها عجوز. وقبيحة أيضًا، جافّة كساق جرادة. لا أريدها.»

«حسنًا، أنت الخاسر.»

«وغابرييليتا تنظر إليّ دائمًا، في رأيي هي تريد كثيرًا أن تضع أرجوحتها قرب أرجوحتي.»

«ولنكفّ عن هذه الأراجيح! أنت تدع ابنة عمّتي وشأنها، والكلام انتهى.»

لكنّ أنطونيو كان يعلم أنّه لم ينتهِ إطلاقًا: كانوا شبّانًا، ومن البديهيّ أن تكون الفتيات شغلهم الأوّل – خاصّة بالنظر إلى أنّه لم يكن عندهم عمليًا ما يفعلونه – وكان يخشى أنّها مسألة وقت فحسب قبل أن تخرج مصيبة ما.

ناهيك عن مواسير ودراجته، فقد صار الآن يركبها «بلا يدين» وسيملّ قريبًا من الدوران في حلقة حول الفناء: في اللحظة التي يخرج فيها إلى الشارع يوقع نفسه في ورطة، أعرف ذلك، لا شكّ عندي. ثمّ أوبيراتان، الذي تعلّم تمامًا أن يناور جهاز التحكم ويقضي النهار كلّ مسمرًا أمام التلفاز يخدّر رأسه بالإعلانات والمسلسلات، سيبله عقله (والحمد لله أنّه لم يكتشف بعد الأفلام الإباحية). وبيراي الذي هو دائمًا في المطبخ وقد صار من كثرة تجريب الأطباق والحلويات مع أمّي والعمّة نورما يزداد وزنًا: شهر آخر من الصلصات والبسكويت وسيصير له ردف تابير، أيّ لعبٍ بالكرة بعد ذلك. لا، لا، لا بدّ من تسليتهم، واقتلاعهم من هنا، وإشغالهم: نعم، إشغالهم قبل كلّ شيء. وجعلهم يركضون.

من آخر الملعب رأى جورج يصل، برفقة المصوّر: فلوح له أنطونيو بيده مبتسمًا. كان قد قرّر.

3.23 المال

في الواقع كان هناك وجه آخر أيضًا أقنعه، كان يفكر أنطونيو وهو يشرب القهوة في ضوء الصباح الرذاذي مراقبًا الفتیان يفطرون بكعكة الذرة والبَطِيخ والبَابَايا ويهتئون بيراي لأنّ حلوى البيجينيُو التي صنعها كانت لذيذة كبيجينيُو ماما مارسيلًا تقريبًا. النقود، التي لم يوجّه إليها طوال خمسة عشر عامًا تقريبًا ولو فكرةً واحدة، كانت على العكس، يا للعجب، شيئًا لا بدّ من أخذه في الحسبان. ستّة شبّان ذوي شهية طيبة يجب إطعامهم، وهو معهم، لم يكونوا نفقةً هيّنة، ثمّ كان لا بدّ بشكل ما من كسوتهم أيضًا، أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم.

حين اعتُبر ميتًا - وأغلق حسابه المصرفي - ذهبت مدّخراته القليلة تلك إلى حساب والديه، اللذين أعادها بدهاءً تحت تصرّفه: هي لك يا أنطونينيُو، هذا أقلّ ما يكون. وكان قد استعملها حتى ذلك الحين للمساهمة في المصاريف، فقد كان والداه كريمين أكثر من اللازم أصلًا إذ حمّلا نفسيهما في البيت عصبًا من المجهولين الغريبين وصلت هديّة مع الابن القائم من الموت.

لكنّ المدّخرات كانت ترقّ، والإقامة في ماكابا تطول، وإعادة تأهيل ياماندي وعلاجه الطبيعي سيستبعان مصاريف لا يُستهان بها: الجولة وما يتّصل بها من تعاقد تعرضه ريتي نورتي والذي اقترحه عليه جورج - عرض كريم ذاك، أن يأخذوهم في جولة، بالنظر إلى أنّهم نكرات - قد تسهم في حلّ المشكلة.

لكنّها كانت تخلق مشكلةً أخرى: فحتى مع حساب خصم مصاريف ياماندي الطيبة وكلفة الحدّ الأدنى من اللوازم التي سيلزم تدبيرها للفتيان - وله هو - للذهاب شهرًا في جولة، وإذا أخذ في الحسبان أنّ الأسابيع المقبلة ستكون كلّ مصاريفها مدفوعة، فسينتج عن ذلك مبلغ صغير، وإن يكن غير محدّد بعد وتافهًا بالتأكيد في أعين كثيرين، كان يقلق أنطونيو.

فالأمر أنّ تلك النقود ستكون من كلّ الوجوه ملكًا للفتيان: هم من يلعب، والتعاقد تعاقدتهم.

بعد الارتباك الأوّل لم يلزمهم وقت طويل ليتقنوا إنقائًا لا بأس به كيف يعمل المال، وساعدهم على ذلك أنّ أنطونيو، ليفهمهم إيّاه، كان يسلم كلّما خرجوا بعض القطع المعدنية بالدور لكلّ واحد منهم ليشتري بوظةً أو حلوى، وقد تعلموا أسماءها البرتغالية بسرعة مذهلة.

كان أنطونيو قلقًا لأنّه كان يعلم أنّ ذلك المبلغ، وإن لم يكن ضخماً إلى أقصى حدّ، ليس مبلغًا يُنفق على الحلويات وخبوط عرق السوس. ومع ذلك لم ينجح في أن يخطر له ماذا يفعل به.

لم يكن ثمة شكّ في أنّ تلك النقود، متى عادوا إلى الغابة، لن تنفع في شيء، لكن من الصحيح كذلك أنّها ملكهم وأنّه لا بدّ من وضعها في مكان ما.

تيريزا هي من أعطته الفكرة.

كانت قد أرادت بأيّ ثمن أن يعود إلى الإذاعة مع الفتیان، واستقبلتهم بحماسة حارّة، وكانت في غاية الودّ، وقدمت القهوة والليموناضة وحلوى النعناع، وعرفتهم على لويزا وجواو وسافيريُو، بل أرادت أن يفتتحوا هم البرنامج، رغم أنّ أنطونيو لم يكن مقتنعًا: «إنّهم لا يتكلّمون البرتغالية يا تيريزا.»

«آه، لا يهمّ. حتى حين أتكلّم أنا لا يفهم إلّا القليل مع أنّي أعرف البرتغالية. سيعني ذلك أنّ من سيفهمهم هم أصدقاؤهم وأمّهاتهم هناك في الغابة.»

«لا أظنّ إطلاقًا أنّهم في الغابة يستطيعون سماعهم، لا...»

لكن ما عاد أحد يصغي إليه، فقد كان الفتیان ينتزعون الميكروفون بعضهم من بعض، مسرورين كلّهم بسماع أصواتهم ذات الزقزقات والصفير ترتدّ من المكبرات.

«ما أطف هذا! يشبهون طيورًا تغني! أكاد أبقّيتها شاردةً للبرنامج، ما رأيك؟»

وحين عاد بعد أيام لزيارتها ومعه بيغونيا في أصيص ليشكرها على لطفها وضيافتها، وجدها في صحبة امرأة قصيرة مدوّرة، سوداء لَماعة كثمرة أساي، قدّمت نفسها بابتسامة بيضاء عريضة إلى أقصى حدّ: «صباح الخير، يا لسروري بمعرفتك. أنا ماريانا.»

«هي تعمل مع الحيتان» أوضحت تيريزا.

«أعمل في غرينبيس، في الحقيقة. ولا نهتمّ بالحيتان وحدها، كما تعلم.»

«حسنًا، كما لا بدّ أنّ تيريزا قالت لك لم أعد مطلقًا كثيرًا، لكن بالتأكيد غرينبيس أعرف جيّدًا ما هي.»

ابتسمت ماريانا: «كنت حريصةً جدًّا على معرفتك، أتعلم؟ عندنا مشاريع عدّة جارية تخصّ الهنود ومسألة إزالة غابات الأمازون. من فهمي أنّ أصدقاءك يأتون من قبيلة غير متّصل بها، أليس كذلك؟ إذن لحسن الحظّ لم تصبهم بعد مشكلة إزالة الغابات. إنّها مأساة حقيقية، للأسف.»

«نعم، أذكر أنّ الكلام عنها كان قد بدأ قبل أن أرحل. أتصوّر أنّ الأمور ازدادت سوءًا...»

«بالفعل. أنجز شيء لكّنه دائمًا قليل أكثر من اللازم، قطرة في بحر. ما يزال هناك الكثير جدًّا لعمله.»

«آه نعم، المساكين، يا أنطونيو، لكن تصوّر: يقطعون كلّ الأشجار حولهم، ويقتلعون كلّ شيء، وهم لا يعودون يعرفون إلى أين يذهبون. كان ينبغي أن يشتروها كلّها، الغابة، أوّد أن أرى بعدها من يذهب ليقّتلع لهم الأشجار في حديقة البيت.»

«تيريزا تتحمّس كثيرًا لقضاياها، إنّها من كبار مناصرينا، وخاصّة حين يكون هناك حيتان. لكن يسرّني أن أراك من جديد يا أنطونيو، بمزيد من الهدوء. وربّما أتكلّم مع أصدقائك، فصوت الشعوب الأصلية المعنيّة مهمّ جدًّا لنا.»

«بالطبع يا ماريانا، بسرور كبير: الفتيان لا يتكلّمون البرتغالية لكن يمكنني أن أكون المترجم أنا، لا مشكلة. نحن الآن على وشك السفر في جولة بضعة أسابيع، لكننا سنرتّب أمرنا بالتأكيد لنلتقي عند عودتنا.»

«أرأيت يا ماريانا كم هو لطيف وظريف؟ ثمّ إنّ النباتات تعجبه كثيرًا، لا يريد أن تُزال الغابات، أليس كذلك يا أنطونيو؟ يده خضراء، تمامًا مثلي. انظري يا لها من بيغونيا جميلة أحضرها لي، أليست أعجوبة؟ أتعلمين، تكرّيمًا للنباتات سأفتتح البرنامج بأغنية “وير آر أول ذي فلاورز غون” في النسخة التي تغنيها... باييز، هل أنت مسرورة يا ماريانا؟»

«جوان. جوان باييز.»

«نعم، هذا هو، جوني باييز، لم أكن أذكر الاسم، من يدري لماذا.»

ولم يفهم ما الطريقة الصحيحة لاستعمال تلك النقود إلّا حين صار في الشارع، ما يزال مدوّخًا برائحة البنفسج التي لتيريزا. ما إنّ نعود من الجولة حتى أكلّم ماريانا في الأمر، هي ستعرف كيف. تيريزا على حقّ: سنشتري الغابة، الغابة كلّها حول القرية كلّها.

3.24 العقد

عبر أنطونيو الشارع وابتنس في سرّه إذ عاد يفكر في اللقاء الذي جرى للتوّ مع المدير العامّ لريتي نورتي، الذي ذهب لزيارته لتحديد اتفاقات الجولة، ولا سيّما الوجه الماليّ.

كان المدير قد شغله بأحاديث طويلة جدّاً، شارحاً له أنّ الفكرة هي بثّ سبع مباريات، تسبق كلّ منها حلقة خاصّة مصغّرة من ربع ساعة عن كلّ واحد منهم. وفي النهاية سيستخرجون من المجموع فيلماً وثائقياً أيضاً، مكملين إياه ببعض المقاطع الأخرى المصوّرة خلال جولاتهم.

«اتّصلنا سلفاً ببعض الفرق المحليّة في بيليم وألتاميرا. للأسف من الصعب أن نؤخذوا على محمل الجدّ، لأنّ أحداً لا يعرفكم. حتى الآن لا يعرضون علينا سوى فرق صغيرة أو فرق فتيان. لكنّي كلّمت مدرّب ماكابا، الذي يريد ثأراً لمباراة الشهر الماضي الصغيرة. سنبدأ بتلك: إن أبلّيتم بلاءً حسناً، وانتزعتهم تعادلاً مثلاً، سيكون أسهل الحصول على مواجهات أهمّ في المباريات التالية.»

«إن لعبوا كما رأيت في المرّة الماضية فماكابا هو من سيحاول انتزاع تعادل» قال أنطونيو، مندهشاً من وقاحته. لم يعبأ المدير بذلك وتابع: «ستكون حكاية كرة قدم، لكن ليس ذلك فقط. يهّمنا أيضاً الوجه الإنسانيّ لأعضاء الفريق المختلفين. كيف كان وقع مجتمعنا المتقدّم عليكم... عليكم أنتم.»

متقدّم؟ فكر أنطونيو مقطّبا، لكن دون أن يقاطعه.

«ماذا تفعلون، وكيف تأكلون، وأين تنامون. لنقل إنّها ستكون حكاية من الأمازون وكرة القدم والأراجيح.»

لا أدري، فكر أنطونيو مرتاباً، متحقّظاً كلّ التحفّظ عن التعبير عن حيرته. الشبكة يديرها هو، في نهاية الأمر.

«سيلزمكم أن تعتادوا وجود آلة تصوير حولكم معظم النهار، لكنكم سترون أنّها لن تضايقكم، بل لعلّ فتيانكم سيستمتعون بها. وكما كنت أقول، ستلزم للحلقات الخاصّة مقابلات. وبداهةً هناك مبلغ إضافيّ صغير لدورك الإضافيّ كمترجم.»

بداهةً. بقي أنطونيو، مكتفياً بالنظر إليه، ينتظر أن يواصل ذاك.

كان المدير قد ضغط على جهاز الاتّصال الداخليّ ونادى السكرتيرة، طالباً منها أن تحضر له العقد الذي مرّره فوراً إلى أنطونيو، مشيراً إلى حيث يوقّع.

«أستاذك،» قال أنطونيو أخيراً، وقد أثار عصبيّته أسلوب المدير المستعجل، «لا أودّ أن أبدو جشعاً، لكننا لم نتناول بعد الحديث الماليّ. لقد ألمحت الآن إلى مبلغ إضافيّ، لكنّي لا أعرف كم يبلغ هذا الإضافيّ. ولا أعرف حتى إضافيّ على ماذا. ما هو المقابل الأساسيّ؟ أتصوّر أنّه كلّ هنا في العقد؟»

كان المدير قد صنع وجهاً كأنّه يقول «حسناً، بديهيّ.»

«هل يضايقك أن أقرأه بسرعة؟»

«بالطبع لا» أجاب المدير، بلغة جسد تعني: بالطبع نعم.

يا للجنون كم كلّ شيء نسبيّ، كم يعتمد كلّ شيء على الجهة التي تنظر منها، فكر أنطونيو وهو ينزل الدرجات خارجاً من مقرّ ريتي نورتي، راضياً عن نفسه، فخوراً تقريباً. بل، دون «تقريباً»: فخوراً بكيف واجه المدير صدرّاً لصدر فارضاً عليه شروطه. وبالتأكيد كان مهماً أنّه لم يكن لديه، في المحصلة، ما يخسره.

كان العقد الذي وُضع أمامه ينصّ على مقابل لأنطونيو قدره 2000 ريال، أي نحو أربعة أضعاف راتبه القديم كمعلّم. صحيح أنّ أربعة عشر عامًا مضت في هذه الأثناء، وأنّ 2000 ريال تساوي أقلّ ممّا كانت تساوي حينها، لكن بالنظر إلى أنّ الطعام والسكن والتنقّل ستكون على حساب ريتي نورتي فذلك يعني أن يضع المبلغ في جيبه كاملاً تقريبًا. لا بأس أبدًا. وكاد يوقّع، حين خطر له شكّ فبدأ يعيد القراءة من البداية. تنهّد المدير بضجر دون أن يخفي انزعاجًا معيّنًا، لكنّ أنطونيو لم يعبأ به. أعاد قراءة الجزء المعنيّ، وفتح عينيه على وسعهما، ثمّ راح يمرّر العقد بسرعة بحثًا عن شيء لم يجده.

«عفوًا، لكن هنا كلام عن مقابلي أنا فقط. لا أرى مقابل الفتیان.»

«لا تراه لأنّه غير منصوص عليه. بداهةً فكّرنا في الأمر، أنعلم، لا تظنّ بنا سوءًا. لكنّ الحال المدنية لفتيانك، على ما بلغني، ليست واضحةً إطلاقًا. لمن ينبغي أن نسجّل هذه النقود؟ لا نعرف حتى ما أسماؤهم ولا أين يقيمون. أنسجّل الدفعة باسم السيّد الهنديّ، غابة الأمازون رقم 2؟»

كان المدير قد سعل سعلًا صغيرة لعلّها كانت ضحكةً، لكنّ أنطونيو لم يلتقط أيّ فكاهة.

«بداهةً استشرت مكتب المحاسبة عندنا ومكتبنا القانوني، وكلاهما يقول إنّ المسألة ستكون معقّدة أكثر من اللازم، ومصلحة الضرائب ستقفز فوقنا.»

«وإنّ، ما دامت المسألة معقّدة، قرّرتم ألاّ تدفعوا لهم. على كلّ حال هم هنود، وبعد شهر أو نحوه سيعودون إلى الغابة، فماذا يفعلون بالنقود؟»

«بالضبط» أوما المدير، مدرّكًا بلحظة تأخّر قاتلة أنّ كلام أنطونيو كان سخريةً موجهةً إليه هو بالذات، وأنّه كان عليه أن يفعل كلّ شيء إلاّ أن يعلن موافقته.

وضع أنطونيو العقد غير الموقّع على المكتب، ونهض، ومدّ يده إلى المدير: «انظر، أريد أن ألاقى مكتبك القانوني ومكتب المحاسبة وكلّ الآخرين في منتصف الطريق. وبما أنّ الأمر معقّد أكثر من اللازم قليلًا على إمكانياتكم، فلنجعله لا شيء. كلّ في طريقه ومع السلامة.»

لعلّ المدير كانت له بعض العيوب، لكنّ سنوات من المفاوضات التجارية كانت قد علّمته أن يتعرّف على خدعة حين يرى واحدة، وخدعة أنطونيو لم تكن كذلك. حاول أن يرفع العرض مقترحًا مقابل قدره 4000 ريال، ألفان لأنطونيو وألفان للفتيان، لكنّ شيئًا آخر كان يعرف كيف يفعله هو أن يتعرّف على اللحظة التي لا ينبغي فيها شدّ الحبل أكثر من اللازم. بقي أنطونيو هادئًا، ثابتًا في نيّته الحصول على ما كان ببساطة يراه عدلًا. والمدير، وهذه موهبة ثالثة، كان يعرف كيف يجري حساباته بسرعة، وكان يدرك أنّه حتى بتعاقد قدره ألفا ريال للفرد زائد المصاريف سيبقى للشبكة هامش ربح لا بأس به، فنادى مساعدةً لتعديل شروط العقد على الفور.

ألفا ريال للسيّد أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا، واثنان عشر ألفًا آخرون للسيّد روشا دي ألميدا نفسه بصفته وكيل الفريق ... «نعم، لم نقرّر بعد اسم الفريق. نحن هنا كنّا نفكر في نادي أمازونيا لكرة القدم، ما رأيك؟»

«إنّه اسم جميل لفريق من ماناوس» ردّ أنطونيو، الذي كان يحسّ نفسه مفعّمًا بثقة لم يشعر بها من قبل: «لكنّنا نأتي من الغابة ولنا لغتنا نحن. اسمنا أسو كآ فوتيبول.»

«آه. حسن. جميل. وماذا يعني، إن جاز لي أن أسأل؟»

«يعني الغابة الكبيرة. وعلى كلّ حال الريالات الإضافية أربعة عشر ألفًا.»

«عفوًا؟»

«أربعة عشر ألفاً. ياماندي أيضاً جزء من الفريق من كلّ الوجوه، وإن كان لا يلعب. اذهبوا وأجروا معه مقابلةً هو أيضاً، سترون أنكم لن تندموا. أما الإضافي لمقابلي كمتّرجم فأهبه لكم، إذ كنتم لطفاء إلى هذا الحدّ.»

3.25 المانيكان

مستقويًا بالثقة النابعة من السير الممتاز لمفاوضات ريتي نورتي، قرّر أنطونيو على البديهة أن يتوجّه إلى هيئة حماية غابات الأمازون ليبدأ تنفيذ فكرته في حماية الغابة حول القرية.

ورافقه كاوي بصفته الناطق باسم الفتيان، الذين كان قد شرح لهم باقتضاب أنّ هناك أناسًا أشرارًا يريدون قطع أشجار الغابة. أو على الأقلّ كانت نيّته أن يقدّم شرحًا مقتضبًا، لكنّ سيل الـ«لماذا» بدأ طبعًا.

لماذا يريدون قطع الأشجار؟ لأنّهم يريدون استعمال الخشب. حسنًا الغابة كبيرة جدًا، يمكنهم قطع بضعة أشجار، لا يحدث شيء. لكنّ الأشجار التي يقطعونها كثيرة، كثيرة جدًا، أكثر من اللازم، وقد تصير يومًا كلّها. لماذا كلّها؟ لأنّهم أشرار. ولماذا يستطيعون فعل ذلك إذن؟ لأنّهم يظنّون أنّ الغابة لهم. هذه المعلومة أغلقت الحديث، لأنّ الفكرة العبثية غير المتصورة بأنّ أحدًا قد يعتبر الغابة «له» أثارت في الفتيان ضحكًا عظيمًا إلى حدّ أنّ أنطونيو خرج من الغرفة تاركًا إيّاهم وهم ما يزالون يضحكون حتى تتشقق بطونهم من تلك السخافة.

وإذ اجتازا عتبة الرخام الزائف في المبنى الصغير، وجد أنطونيو وكاوي نفسيهما أمام سيّد ممتلئ أصلع بقبّعة بّواب، كان جالسًا إلى مكتب صغير أكثر من اللازم منصرفًا إلى الإيادة المنهجية للذباب بواسطة مجلّة ملفوفة. ولما سأله أنطونيو أيّ مكتب عليه أن يقصد ليعرض مسألته، هزّ الرجل رأسه، دون أن يقطع الضربات، وحكم: «لستما في المكان الصحيح، على ما أظنّ.»

«لكن أليست هذه هيئة حماية غابات الأمازون؟»

«بالطبع هي» طاخ!

«حسنًا لكن إذن لا بدّ أن يكون هناك مكتب مختصّ، أليس كذلك، يهتمّ بمعاملات الحماية...»

«لا أدري. على حدّ علمي لا. لكن إن كنتما حريصين حقًا فيمكنكما أن تجربا في مكتب العلاقات العامّة. الطابق الثاني» طاخ! طاخ!

لم يكن مكتب العلاقات العامّة يبدو لأنطونيو الأنسب، لكن بما أنّه لم يكن يبدو أنّ في الإمكان استخراج شيء آخر من البّواب، فقد اتّجه إلى المصعد، يتبعه كاوي حائرًا إلى حدّ ما.

تبين أنّ المكتب المعنيّ يسكنه شابّ عصبيّ بربطة عنق يشرف على زمرة من الفتيان والفتيات الجالسين أمام حواسيب بدت حتى لأنطونيو عتيقة. دفعهما الشابّ عمليًا خارج الغرفة قائلاً إنّّه لا وقت لديهم، ثمّ أيّ فكرة هذه، أن يقصدا هنا. فليذهبا، إن كانا يريدان حقًا، إلى الطابق الأوّل، إلى مكتب الخرائط والسجلّ العقاريّ.

ومن هناك وجّههما رجل ضئيل أصلع لطيف تفوح منه رائحة الخزامى والغبار إلى الطابق الثالث، إلى مكتب التقارير المالية، ثمّ من جديد إلى الثاني، إلى مكتب شؤون الأفراد. ثمّ مرّا بالطابق الأرضيّ، حيث قدّم لهما موظّف لطيف في قسم الصيانة كافيزينيو، وبالطابق الرابع حيث حاول موظّف محتقن الوجه أن يقنعهما بأن يشتريا، بدل الغابة الرطبة حقًا إلى أقصى حدّ، قطعة أرض جيّدة التهوية في نواحي سانتا ماريانا، منطقة ذات آفاق تطوير كبيرة، استثمار مضمون. ووضع الموظّف في يدهما بطاقة الوكالة العقارية التي يملكها زوج أخته مؤكّدًا أنّ من الأفضل دائمًا أن يستشير المرء خبيرًا حين يتعلّق الأمر بشراء الأراضي.

كان أنطونيو متعبًا مغتاطًا، وقد بدأ يجد منهكًا أن يضطرّ إلى الإجابة باستمرار على كاوي الذي كان ينظر إلى كلّ محاور بعينين شزراوين سائلًا بروح قتالية إن كان هو من يريد قطع الغابة، حين وجدا نفسيهما، دون سبب واضح، أمام مكتب المخصّصات، الذي كان اسمه على الأقلّ يدع الأمل في أن يكون الوجهة الصحيحة.

كان الباب مفتوحاً وكان يُرى في داخله رجل جالس إلى المكتب بقميص قصير الكمّين تشير إليه لوحة صغيرة باسم الدكتور توماس س. ميلو ألوغير. وعداه وعدا مانيكان بزيّ مستكشف مسند إلى كرسيّ في زاوية، لم يكن هناك أحد. طرق أنطونيو فأشار إليه الرجل أن يتفضّلاً إلى قاعة الانتظار، أي إلى الكراسي خارج الباب مباشرة، حيث خدع أنطونيو الانتظار بتصفّح بعض مجلّات علم الطيور المتداعية مع كاوي، ومراقبة الرجل عبر الباب وهو يحدّق بلا حراك في بعض الأوراق على مكتبه، دون أن يعطي انطباعاً بأنّه يقرأها ولا بأنّه يفعل شيئاً آخر.

بعد انتظار نصف ساعة بدا أنّ السيّد ألوغير قد استفاق من سباته فأشار إليهما بالدخول والجلوس. لم يكن في المكتب سوى كرسيّ واحد شاغر، جلس عليه كاوي بسرعة، فكان على أنطونيو أن يقرّر إن كان سيبقى واقفاً أم سينقل المانيكان من مقعده. إشارة جديدة من السيّد ألوغير دفعته نحو الخيار الثاني.

وما إن جلسا أمامه حتى أشار ألوغير إليهما أن يبتعدا قليلاً، ممثلاً حركة الحرّ. وعدا أنّه لم يكن يبدو لأنطونيو أنّ الجوّ حارّ بوجه خاصّ في المكتب، فإنّ أكثر ما أقلقته من وجهة نظره كان الدليل على أنّه يتعامل مع أخرس. كيف سيشرح لي ما ينبغي عمله؟ على كلّ حال كانا هناك الآن وليس هناك ما يُخسر بالمحاولة. تنحج أنطونيو وبدأ يتكلّم مخرجاً الكلمات حرّفاً حرّفاً.

«إذن، نحن ننوي شراء قطعة أرض في غابة الأمازون...»

نهض السيّد ألوغير دفعةً واحدة وذهب سريعاً ليأخذ ملفاً كبيراً من الخزانة، استخرج منه كراسيتين وخريطة نشرها أمام أنطونيو وكاوي مشيراً إلى نقطة من الغابة على الحدود مع البيرو.

«ممتاز!» قال السيّد ألوغير بصوت عميق جميل، جعل أنطونيو ينتفض من المفاجأة «يسرّني كثيراً أن أسمع بهذه النية عندكما. لقد أطلقنا منذ قليل برنامجاً من هذا النوع، البي/بي/إف/إم/سي/بي، لكن إن كنتما هنا فلا شكّ أنكما تعرفانه. بخمسين ربلاً يمكنكما أن تحميا - لا أن تشتريا، هاهاها، بالطبع لا كلام عن شراء - خمسين متراً مربّعاً من الغابة عند منابع نهر أوابيس، حيث تعيش قبائل شتى غير متّصل بها، أو كانت كذلك. صديقك من هناك، أتصوّر؟ كم من الغابة تريدان أن تحميا، خمسين متراً مربّعاً؟ مئة؟»

«إمم، لا، نحن نأتي من مكان أقرب بكثير، قريتنا في نواحي نهر جاري، أظنّها داخل حديقة توموكوماكي الوطنية.»

«قريتكما؟ أنت، يا سيّد...؟»

«أنطونيو روشا دي ألميدا، تشرفنا. وهذا كاوي.»

«تشرفنا. عفواً يا سيّد ألميدا، لا أودّ أن أهينك، لكنك لا تبدو من السكّان الأصليين.»

«لا، بلى، المهمّ إنّها معقّدة. أنا أمثّل شعباً أصلياً.»

«أيّ شعب بالتحديد؟ ما اسمه؟»

أخذ أنطونيو على حين غرة. فمن بين الكلمات الكثيرة التي لم يكن شعب يعيش معزولاً في الغابة بحاجة إليها كانت بالتأكيد الكلمة التي يسمّي بها نفسه. وكاوي، الذي كان يهتّز شوقاً لفهم ما يجري، اغتنم الوقفة ليطلب من أنطونيو أيضاً فترجم له الطلب.

«يريد أن يعرف ما اسمنا؟ كلّ سكّان القرية واحداً واحداً؟»

«لا، يريد أن يعرف ما اسم القبيلة.»

«أيّ سؤال غبيّ هذا؟ نحن نحن، نحن الناس.»

لم يكن أنطونيو واثقًا من أنَّ اسم شعب يسمِّي نفسه «الناس» سيروق للموظف، لكنَّ الدكتور ألُوغير اليقظ كان قد التقط سلفًا اللفظة وانطلق من عنده: «مانغواري؟ ما سمعت بهم قطّ. على كلّ حال هناك برامج عدّة جارية لحماية الغابة، لكنَّ الوحيد الذي ينصّ حاليًا على أخذها تحت الحماية من طرف ثالث يخصّ المنطقة التي ذكرتها لكما.»

«لكن ماذا لو أردنا على العكس أن نشترى فعليًا الغابة المحيطة بالقرية؟»

«هاهاها. الشراء ليس واردًا أصلًا. الغابة مال عامّ، إنّها للدولة، إنّها ملك الجميع. في الواقع هي بصفتمك برازيليّين ملككم سلفًا، يا سيّدَي العزيز. أمّا إذا تكلمنا عن الحماية، فكثّا نقول عن هذه المنطقة المثيرة للاهتمام جدًّا على الحدود مع البيرو التي...»

«لكنّ تلك المنطقة لا تهمّنا، تهمّنا منطقة أخرى تمامًا! إن لم يكن هناك بعد برنامج حماية فربّما أمكن إطلاق واحد، أليس كذلك؟ ماذا يلزم لإطلاقه؟»

«إي. إنّها أمور معقّدة. أمور مرّجبة. لا فكرة لديكما. لكن إن كنتما حريصين فيمكنكما تقديم اقتراح إلى الوزارة، مشفوعًا بكلّ الوثائق الخرائطية والهيدروجيولوجية وبداهةً بالمسوح النباتية والحيوانية. وخطة العمل المرفقة، الموثقة بداهةً لدى موظّف عموميّ مخوّل، يجب أن تورّد مجدولةً على النحو الملائم كلّ القياسات وبيانات المسوح، بما فيها بطاقات التعداد الإثنوغرافيّ لكلّ السكّان الموجودين هناك عند الاقتضاء، وخطةٌ تتضمّن فرضيات تقارير مالية على سنة وثلاث وخمس سنوات، تشهد، ويُستحسن مصادقةً من معهد...»

وضع أنطونيو كلتا يديه على الطاولة، وتنحنح قاطعًا الموظّف الذي كان وهو يتكلّم يستخرج من الأدراج والملفات حزمًا من الاستثمارات، وأخذ نفسًا وقال بصوت يتكلّف الهدوء: «حسنًا، اعتبر أنّي لم أقل شيئًا، فهمت. من يدري ماذا قفز في رأسي.»

نهض وخرج من المكتب مغلقًا الباب بقوة أكبر قليلًا من اللازم.

بقي كاوي والسيّد ألُوغير يحدّق أحدهما في الآخر بضع ثوانٍ، بينما بدأ الموظّف يشعر بالقلق من نظرة الفهد التي كان الشابّ يصوّبها إليه. ثمّ انفتح الباب من جديد، ودخل أنطونيو، وأعاد الكرسيّ إلى الزاوية، ووضع فوقه المانيكان، وقال للفتى ببرود: «تعال يا كاوي، لنمض. لنعد إلى اللعب بالكرة، فذاك ما نعرف أن نفعله.»

تبعه الفتى، لكن ليس قبل أن يفحّ بضع كلمات إلى الدكتور ألُوغير، الذي نظر إليهما يخرجان مذهولًا، وذراعا محمّلتان بالاستثمارات.

«ماذا قلت له؟ ماذا تعني أمبوا إساي إيتيه؟ إنّها كلمة لا أذكرها»

«تعني أمّ/أربع/وأربعين/لزجة/بعيني/ضفدع/سام.»

نعم، مناسبة جدًّا.

3.26 أصدقاء

كان ياماندي سيستعيد استعمال ساقه استعادةً تامةً، ولن يترك الحادث أثرًا حتى على قدراته الرياضية. بالتأكيد سيلزم بعض الوقت بعد، شهر على الأقل، وأيضًا لأنَّ أخصائية العلاج الطبيعي التي تتابعه أخذت المسألة على محمل الجد ووضعت هدفًا لا استعادة قوّة العضلات كاملةً فحسب بل العودة إلى النشاط الرياضي. لكنّه كان خبرًا ممتازًا، فقد قال الأطباء إنهم مندهشون جدًّا من السرعة التي يتعافى بها ومن صفات جسد الفتى. ولم يكن ردّ فعل ياماندي سيّئًا أكثر من اللازم حتى على خبر أنّ أصدقاءه وأنطونيو سيرحلون بعد أيام قليلة في جولة يلعبون خلالها مباريات كرة قدم حقيقية مع فرق حقيقية، سبعة ضدّ سبعة: في البداية تجهم، ثمّ فكّر بضع ثوان وحكم أخيرًا: «لكن من هو السابع؟ أتلعب أنت يا أنطونيو؟ هاهاها صحيح، وإلا كنّا أقوىاء أكثر من اللازم! لكن ما أجمل ذلك! إن شُفيت بسرعة فلعلّي أنجح في لعب مباراة أو اثنتين أنا أيضًا!»

منذ البداية كانت الجماعة تنقسم كلّ يوم للذهاب بالدور إلى المستشفى في مجموعات صغيرة من شخصين أو ثلاثة، وذلك اليوم كان دور أنطونيو وجاسي في سماع كلام رئيس القسم: وكان طريق العودة سلسلةً من الضحكات والتوقعات المتحمّسة بشأن تلك الرحلة للعب كرة القدم التي ستبدأ بعد قليل.

ولمّا وصلا إلى بضع مئات من الأمتار من البيت سمع أنطونيو بوضوح «جاسي!» آتيةً من الساحة الترابية المحاطة بالأعشاب الضاربة في الجهة الأخرى من الشارع.

كانت مجموعة من الفتيان الصغار تلعب بالكرة، وأصغرهم، حافيًا كالجميع، بقميص داخليّ أصفر كالكناري طويل أكثر من اللازم يقوم له مقام السروال القصير وربما مقام البيجاما، والمطر يخطّط وجهه الصغير الموحل حيث كان يبرز نقصان ثلاث أسنان أو أربع، كان يلوّح بيده تحيةً.

التفت أنطونيو نحو جاسي الذي، بما بدا له تعبير ارتباك، اتّجه نحو الساحة والطفل عابرًا الشارع دون أن يعبأ إطلاقًا باحتمال قدوم سيّارات، فأصاب أنطونيو بنصف جلطة ولم يتّسع له الوقت حتى ليفتح فمه.

انطفأ التوبيخ في حلقه حين رأى الطفل وجاسي يتبادلان التحية بإشارات القبيلة، مراسم صغيرة تكرّرت مع ثلاثة أو أربعة فتيان آخرين أكبر قليلًا. يعرفون بعضهم؟

انفصل جاسي عن المجموعة الصغيرة ليلحق بأنطونيو في الجهة الأخرى من الشارع، ودائمًا دون أن ينظر حوله إطلاقًا، فلامسته فعلاً درّاجة نارية عليها رجلان أطلقا وإبلا من الشتائم لم يقدر حتى أنطونيو على فهمها جيّدًا.

«أبقى قليلًا ألعب بالكرة مع ماركوس والآخرين.»

(ماركوس؟ الآخرون؟) لم يكن سؤالًا وشعر أنطونيو بإحساس غريب: كان قد نصّب نفسه حاميًا لهم، لكنّ لهؤلاء الفتيان استقلالهم وكلّ الحقّ في أن يعيشوا كما يرون.

«بالطبع يا جاسي... لكن أرجوك، انتبه حين تعبر الشارع.»

«الشارع؟ أه نعم بالطبع، الشارع، الشارع.»

عبر جاسي الشارع من جديد باللامبالاة نفسها، وبعد لحظات قليلة كان محاطًا بفتيان صغار يعدّون بصوت عالٍ تنطيطاته للكرة: رأس، رأس، ركبة، كعب، قدم يسرى (ضربات عدّة)، قدم اليمنى، كتف، كعب مرّة أخرى وهلمّ جرا. نظر إليه أنطونيو وقد بدأ يبتسم بينما كان جاسي يجلس على الأرض دون أن يقطع التنطيط – مثيرًا تصفيقًا عفويًا من الفتيان – ثمّ ينهض من جديد.

أكثر ما أدهش أنطونيو لم يكن تقنيته بل أنّه كان بشفتيه يعدّ بلا لبس، وكان قد بلغ الآن خمسمئة تنطيطة على الأقلّ. في لغة القبيلة لم تكن هناك سوى الأعداد حتى العشرين ثمّ بعض الكلمات لتحديد رتب مقادير غير محدّدة جيّدًا:

«كثير» ككثرة الأيام التي عاشها الشيوخ، «كثير» ككثرة الأسماك في النهر، «كثير» ككثرة كلّ أشجار الغابة. أمّا جاسي فكان يعدّ، وهذه الفكرة صدمت أنطونيو في العمق، وكان يفعل ذلك بالضرورة بالبرتغالية.

عند التنظيطة الألف تقريباً فقد الفتیان اهتمامهم وملّ جاسي هو أيضًا. يمكنه أن يواصل إلى ما لا نهاية، فكّر أنطونيو بينما كانت تبدأ مباراة صغيرة يلعب فيها جاسي والصغير ضدّ كلّ الآخرين. كان الاثنان يتواصلان: بعض الإشارات، وابتسامات كثيرة، وكرة القدم بالتأكيد لغةً مشتركة، و... بعض الكلمات؟ انتبه أنطونيو إلى أنّ جاسي كان قد علّم مبادئ بعض مخططاتهم لذلك الطفل الذي بدا أنّ السهمين المزدوجين يعجبانه بوجه خاصّ، نوعٌ من واحد/اثنين بالسرعة كانا يجربانه باستمرار، وحين كان ينجح، بعُشر السرعة التي ينقّذه بها جاسي عادةً مع رفاقه، كانا يحتفلان معًا قافزين ومكرّرين حركة شدّ وتر القوس ثم إطلاقه.

في الواقع إنّه حظّ، فكّر أنطونيو، أن يستطيع هؤلاء الفتیان في العشرين أن يعيشوا طفولةً ثانية، لا على نحو مختلف كثيرًا عمّا حدث لي في الغابة.

كان قد بقي مذهولاً يراقب المشهد في الوضع نفسه نحو ربع ساعة، وكان إدراك ذلك يطلّ فيه ببطء حين لوح أحد الفتیان بيده من جديد تحيّةً.

«مواسير! مواسير! جاء ليصدّ ركلات الجزاء، مواسير!»

لا، هذا أكثر من اللازم.

وصل مواسير عكس السير بسرعة مجنونة على درّاجة أنطونيو القديمة الصّرّارة، وكبح كبحًا أخرق بانحراف على أرض الساحة الزلقة جعله ينتهي رافعًا ساقيه في الهواء وسط ضحكات الفتیان. إن جرح هو أيضًا فنحن هالكون. لحسن الحظّ نهض بلا عواقب، بل بتعبير من الفرح الخالص مرسوم على وجهه. ومع أنّه لم يكن أطول من رفاقه إلا بقليل، فقد كانت ابتسامته وعيناه الماكرتان تشمخان فوق الجميع وسط هؤلاء الفتیان الصغار. وبعد أقلّ من دقيقة كان في المرمى يصدّ ركلات الجزاء.

كان المرمى جدارًا قديمًا متقشّرًا خُفر في قصارته على نحو رديء قائمان وعارضة. وكان الجدار كلّه مليئًا بثقوب صغيرة، أكبرها بحجم قبضة، وبكتابات بالطبشور الملون باهتة من الغبار والمطر. وقف مواسير أمام المرمى. كان يستقبل كلّ مسدّد بزئير صغير وبحركة المخالب بيديه، يتبعها كثيرًا ضحكة تخفّف الجديّة. لم يكن أيّ من الفتیان قادرًا على إقلاق الحارس البالغ الرشاقة، حتى إنّه كان، في بعض الركلات، ينتظر التسديدة متقرفصًا أو جالسًا على الأرض.

وقد هزّه وصول مواسير، عبر أنطونيو الشارع بدوره وذهب إلى جانب جاسي الذي كان يتابع الركلات على حدة قليلًا.

«انظر إلى الصغير» قال له جاسي مبتسمًا.

أمام ماركوس استعدّ مواسير واقفًا كأنّ أمامه خصمًا حقيقيًا. خطوتا اقتراب وتسديدة بمقدّمة القدم. لعلّها الكرة الخفيفة، ولعلّها مهارة الطفل الفعلية، لكنّ الكرة وُجّهت بدقّة كبيرة إلى التسعين الأيمن لمواسير، الذي أدّى قفزةً بالغة المرونة أتاح له أن يحولها إلى الخارج بأطراف أصابعه بالضبط. لو كانت التسديدة أسرع قليلًا لما وصل إليها.

«إنّه بارع جدًّا،» أجابه أنطونيو «يشبهك قليلًا حين كنت صغيرًا...»

لكنّ الجميع كانوا سلفًا ينادونه بالبرتغالية: «جاسي، جاسي، تعال سدّد ركلة جزاء!»

جملة أظهر جاسي أنّه يفهمها تمام الفهم، لدهشة أنطونيو المتجدّدة.

لم يجعل جاسي أحدًا يترجّاه. أخذ الكرة، وعدّ الخطوات الإحدى عشرة التي علّمه إيّاها أنطونيو منذ زمن طويل (من يدري إن كان يعدّ بالبرتغالية تساءل أنطونيو)، ووضع الكرة بعناية على الأرض كمحترف متمرّس (لكن أين رأى هذه؟ إنّي أفقد السيطرة حقًا). كان مواسير أمامه يزار ويخمش الهواء بمخالبه بمزيد من الاقتناع وقد صارت عيناه عينيّ

جاكوار. لم يمسك جاسي نفسه وأطلق تسديدةً بالغة القوة اقتلعت قطعةً كبيرة من القسارة قطرها نحو ثلاثين سنتيمترًا عند ارتفاع التسعين بالضبط حيث حاول الصغير أن يمرر ركلته. من جهة فرح وابتهاج، ومن الجهة الأخرى حركة الهزيمة من مواسير، الذي كان قد نجح على كل حال في ملامسة هذه الكرة أيضًا.

وفورًا ركض أحد الفتیان الأكبر تحت ذلك الثقب الكبير، الأكبر بكثير من كل ثقب الجدار، وكتب بطبشورة حمراء «جاسي» بخط متردد.

عندئذ فقط فهم أنطونيو أن الكتابات توقيعات، أنها ضربات كرة سددها الفتیان فأسقطت قطعًا من الجدار (كلها أو تكاد داخل المرمى)، أنها ثقب تذكّر بالمآثر الصغيرة لأولئك الشبان. والآن ترك جاسي هو أيضًا أثره.

حين قرر أنطونيو أن الوقت حان للعودة إلى البيت كان جاسي ما يزال يتأمل بفخر اسمه المكتوب تحت الثقب الأكبر.

3.27 الغابة

«الآن هم جميعًا في قرية أنطونيو، صحيح؟»

كانت جانائنا تحاول ألا تقلق - القلق يدخل في الحليب ويضرّ بالطفل، كانت المسنّات يقلن ذلك دائمًا - لكنّها لم تكن تقدر على الكفّ عن التفكير في أين رجليها، وماذا يفعل، وأيّ أخطار يخوضها.

«بالطبع هم هناك. الآن هم جميعًا في الشابونو الكبير حيث يعيش أنطونيو، حول النار كما نحن، ويأكلون لحم كايمان طريًا اصطاده محاربو القرية في النهر الكبير جدًا الذي هناك. إنّها كايمانات أكبر بكثير، بكثير من كايماناتنا، لكنّها ليست خطيرة، ليس فيها سنّ واحدة، لا تأكل سوى الباييا والأوركيديات.»

الثقة التي كان كيريمبا يتظاهر بها كانت بعيدة جدًا عن الثقة التي كان يشعر بها في الحقيقة، فقد مضى على رحيلهم قمران ولم يكن يعرف عنهم شيئًا، ولا فكرة لديه إن كانوا سالمين ولا أين هم. لكنّه لم يكن يريد أن تقلق جانائنا، ولا أن يقلق أحد في القرية. وقبل كلّ شيء لم يكن يريد بأيّ ثمن أن يقلق هو. كان قد قضى سلفًا ليالي كاملة بلا نوم، وأمام عينيه رؤية ساق ابنه المدمرة إلى حدّ أنّه اضطرّ إلى بذل جهد لا يكاد يُحتمل ليقنع نفسه بأنّ جرحًا كهذا لا يؤدّي بالضرورة إلى الموت.

وجد نفسه مضطرًا إلى الوثوق برجل ظنّ دائمًا أنّه يكرهه، الرجل الذي كان ما يزال حتى الآن يعتبره على نحو مشوّش مسؤولًا بشكل ما عن سخط الأرواح الذي سبّب الحادث لياماندي. لكنّه انتبه على نحو لا يُصدّق إلى أنّه كان يثق به حقًا. ربّما لأنّه لم يكن أمامه خيار، بالتأكيد، لكن ربّما لأنّه، في المحصّلة، كان قد صدّق حكاياته دائمًا، مهما كلفه الاعتراف بذلك لنفسه جهدًا هائلًا.

كان كيريمبا راويًا، وكان يعرف أمورًا كهذه. كان يعرف كيف يميّز حين يحكي أحدهم حكاية حقيقية وحين يحكي على العكس حكاية مخترعة. حين تحكي حكاية تخترعها تضيع عيناك عاليًا، في السماء، على قمم الأشجار، لترى صور حكايتك تطير، لتراها تتشكّل من العدم في الهواء كندف الدخان. أمّا حين تحكي حكاية حقيقية فالصور كلّها عندك في الداخل سلفًا، لا يلزمك أن تبحث عنها. حين تحكي حكاية حقيقية تنظر في وجوه من يصغون إليك، تريد أن ترى ماذا يفكّرون، أن تتأكّد من أنّهم يفهمون جيّدًا. حين تخترع حكاية لا يهّمك إن رآها من يصغي إليك مختلفة قليلًا، فهي على كلّ حال حكاية مخترعة، بل هي أجمل لذلك. لكن إن كان شيء موجودًا حقًا فأنت تريد أن يفهمه الآخرون على وجهه الصحيح. وكان أنطونيو ينظر دائمًا في عيون القرية حين يتكلّم، ولذلك كان كيريمبا، رغمًا عنه، يعرف دائمًا أنّه لا يخترع.

نظر إلى الغيوم فوق الأوراق: أمّا هو فكان عليه أن يخترع قليلًا، الآن، لأنّ أنطونيو حكى أشياء كثيرة لكنّه لم يتكلّم عن أشياء أخرى كثيرة جدًّا، وإن أراد أن يحكي أين فتيناهم فما لا يعرفه سيكون عليه أن يخلقه بالخيال. كان واثقًا أنّ القبيلة كلّها تعرف ذلك تمام المعرفة، لكنّ ذلك لم يكن يهّم أحدًا: كانوا مسرورين على كلّ حال، فحكاية مخترعة اختراعًا حسنًا تسكّن القلق كحكاية حقيقية.

«وعلى النار الكبيرة وسطهم تنضج أيضًا حيوانات أخرى من خارج الغابة، حيوانات تركض بأرجل ضفادع لا تُحصى، وحيوانات تطير إلى الورااء ويجب إصابتها بسهم في منتصف عيونها الثلاث بالضبط، وإلا كانت خالدة. لكنّ لحمها شهّي، بطعم البيرقة والتوت الناضج.»

ابتلع المستمعون المجتمعون حول الموقد ريقهم جميعًا، فعشاؤهم من لحم آكل النمل ما كان ليقارن حتى بكلّ تلك اللذة الغريبة.

«وبعد أن ينتهوا من الأكل سيصغون إلى الأناشيد التي تحملها الخيوط غير المرئية ويرقصون جميعًا، الليل كلّ، شاربين عصائر حلوة كالعسل، وسيرقص ياماندي بينهم، وساقه أشدّ استقامةً وقوّةً من قبل» تصدّع صوت كيريمبا لحظةً.

جاءت جانائنا لنجدته: «وسيرقص أنطونيو معهم أيضًا، صحيح؟»

«آه، هو من يضرب الإيقاع على الطبل وريش الطنّان مضفور في شعره، وهناك نساء جميلات جدًّا حولهم كلّهم، نساء من خارج الغابة بشعور صفراء وخضراء طويلة جدًّا...»

وكبيرهما، وقد أفاق من لحظة التأثر، لم يقاوم رغبته في أن يمزح قليلًا مع جاناينا، فتابع مبتسمًا في سرّه إذ رآها تفتح عينيها المشتعلتين غيرَةً سلفًا: «...لكنّ أنطونيو لن ينظر إلى النساء الصفراوات ولا إلى أراجيحهنّ المضفورة من الزهور، لأنّه سينظر في اللهب فيرى حبيبته جاناينا وابنه إيبيراتا يحيّيانه ملوّحين بأيديهما.»

ها هي جاناينا تبتسم من جديد، وهي تهدد الصغير.

«ما حكى لنا قطّ عن هؤلاء النساء الجميلات جدًّا، أنطونيو» لاحظ بيّاتا، مهتمًّا جدًّا.

«آه حسنًا، لا بدّ أنّه نسي. كان يفضّل أن يحكي حكايات ألعاب الكرة، تعرف.»

«ومن يدري كم من الحكايات الجديدة سيحكي لنا، سيحكون لنا، عند عودتهم.»

«حكايات كثيرة جدًّا، نعم. حكايات عن اللعب بالكرة، فهم لا يفعلون إلّا أن يلعبوا النهار كلّه، هناك في القرية الكبيرة. لكنّهم سيحكون أيضًا عن حين طاروا عاليًا جدًّا على ظهور الطيور الكبيرة المضيئة، وكلّ الخيوط غير المرئية تلامس شعورهم كالأصابع...»

كانت الطيور المضيئة مثيرة، لكنّ بيّاتا كان قد شرد، مفكّرًا في أنّه لا يطيق صبرًا حتى يسأل مواسير وياماندي عن مزيد من التفاصيل عن أولئك النساء ذوات الشعور المتعدّدة الألوان السائلة.

3.28 تناقل الكلام

كانت إيزابيل تحسّ نفسها سجيناً في برج من عاج. بعد أن قضت خمس سنوات من حياتها في جنيف (يشقّ عليّ أن أجد لها روحاً كانت تكرر لأمرها في مكالماتهما الهاتفية المتبادلة) نظرت بحماسة إلى عودتها إلى نيويورك، لكنها ما إن لمست الأرض في مطار جون كينيدي وندنت، كالعادة، أغنية يو تو التي لا بدّ منها، حتى وجدت نفسها سريعاً فريسةً للأسى. أهذه حقاً حياتها؟ أستبقى مترجمةً إلى الأبد؟

مهنياً لم يكن أمامها إلا أن تكون سعيدة. فمجرد العمل في الأمم المتحدة، بنظام انتقائها البالغ القسوة، كان برهاناً على كفاءتها؛ وفوزها فوراً بمسابقة دورة ثانية من خمس سنوات، وفي مقرّ نيويورك فوق ذلك، كان ينبغي أن يجعلها راضيةً إلى أقصى حدّ. ثم إنّ مهنة الترجمة الفورية مهنة رائعة، جسراً لا غنى عنه بين ثقافات مختلفة: بين حين وآخر، حين يكون مزاجها طيباً، كانت تقدّم نفسها قائلةً إنّها زميلة حجر رشيد.

لكنّها كانت تشعر الآن بثقل أنّها تكلمت، سنوات، عن أشدّ المسائل تنوعاً، من أصغرها إلى أهمّها، دون أن تلمس بيدها أيّاً منها على الحقيقة. كانت على تماسّ مع كلّ مشاكل العالم ومع ذلك كانت تحسّ نفسها بعيدةً عنها كأنّها على كوكب آخر.

ثمّ السوادادي، ذلك الشعور البرازيلي الفريد. حين كانت تعيش في جنيف خلطت بينها – كيف قدرت أن ارتكب خطأ كهذا! – وبين الحنين إلى آخر مكان سمّته بيتاً، شقّتها في الجادة السادسة والثلاثين. لكن الآن وقد حطّت نظرتها على الظلّ المألوف لجسر روزفلت، صفا ذهنها: أن تظنّ أنّ السوادادي يمكن أن يُشعر بها تجاه بلد غير البرازيل هو كأن تصدّق أنّ المرء قد يصاب بداء إفريقيا من أجل آسيا: مهما كانت أولان باتور أو كاتماندو فانتينين فذلك ببساطة مستحيل.

كانت تظنّ أنّها تعلّمت أن تكبح السوادادي، بكثرة الأسفار وبحياة مشغولة محمومة، لكنّ البعد عن البيت كان يعود دائماً ليُسمع صوته، كتلك الصديقة/العدوة التي لا نعرف كيف نفصل عنها، كانت تفكّر. والأدوات التي وفّرها التقدّم التقني لم تكن تفعل إلا أن تنفخ في النار: فمنذ استأنفت الخدمة في قصر الزواج صار لوحها متّصلاً أكثر فأكثر بوكالات الأنباء البرازيلية، بوسائل إعلام منطقة ماكابا.

كانت صغائر أحداث البيت تدقّ قلبها وتنتزع منها كثيراً ابتساماً وأحياناً – كأنّي صرت أكثر عاطفيةً في الآونة الأخيرة – دموعاً: ما سمعت قطّ باسم السيّد جاكو ساينز، لكن أن تقرأ أنّ موجةً من البوروروكا، المدّ النهريّ في غير موسمه، شتّتت ماشية مزرعته، أحزنها. مسكين جاكو. ومسكينات أبقاره. ومدرسة السامبا ماراكاتو دا فافيل، التي نالت للتوّ وصافة 2014، كانت قد بدأت سلفاً التحضير لكرنفال السنة التالية. من يدري إن كانت سيلفينا ما تزال في لجنة التنظيم، يا لها من إنسانة جميلة، مشمسة هكذا. وأمينة استثنائية جديدة لسياسات المرأة عُيّنَت للتوّ من حاكم ولاية أمابا: امرأة شابة بلامح لطيفة، هذا خبر طيّب.

كلّما رأت آنا، وهي مترجمة صربية تتكلّم برتغالية جميلة جدّاً وعقدت معها صداقةً فوراً، إيزابيل تعبت بلوحها، اقتربت فضوليّةً.

عدا الأخبار المحليّة، كانت الصحافة تتكلّم عن النساء وعن كأس العالم، رابطةً بين الموضوعين بكلّ الطرق الممكنة.

في أكثر قليلاً من أسبوع كانت قد سُمّيت في منطقة ماكابا: «ملكة جمال الكأس»، و«ملهمة الكأس»، و«قطة الكأس»، و«عرابة الكأس» وعشرة ألقاب أخرى، كلّها مشفوعة بصور شابّات عاريات بقدر أو بأخر وجماليات بقدر أو بأخر.

كانت آنا تجد الأمر ممتعاً إلى أقصى حدّ: «أنتم البرازيليّون لا تُصدّقون!»

لم تكن إيزابيل بالحماسة نفسها، وكلّما مرّ الوقت وجدت هذا النوع من المقالات أشدّ نشاراً.

«نعم، نحن كذلك. لكنّي أفضل حين يتجلّى تفردنا بطرق أخرى. انظري هنا،» ردّت إيزابيل «رجل عاد إلى ماكابا بعد أربعة عشر عاماً قضاها في غابة الأمازون» قرأت بصوت عالٍ.

«واسمعي:» استقبلته قبيلة لم تتصل بالخارج، وقد ظهر من جديد مع مجموعة من الهنود لإسعاف أحد أفراد القبيلة.»
انظري إلى هذه الصورة!»

كانت الصور رائعة، تُظهر مجموعة الهنود وهم يلعبون كرة القدم حفاةً، مع ذلك الرجل الأطول الملتحي.

وإذ أعادت النظر إليه جيّدًا خامر إيزابيل شكّ في أنّها تعرفه. غطّت بإصبع اللحية لتتأمل جيّدًا إلى العينين وحدهما: كانتا تذكرانها بأحد لكنّها لم تنجح في تحديده. وحين قرأت المقال عاد إلى ذاكرتها واضحًا كلّ الوضوح.

أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا.

«أنطونيو!» هتفت إيزابيل.

«لماذا، أتعرفينه؟» سألت آنا.

«نعم، أعرفه، أعرفه» أجابت إيزابيل مذهولة.

«يا للعجب، لا يُصدّق! أترسلين لي الرابط بالبريد؟» سألت آنا «إنّها حكاية أجمل من أن تُترك دون مشاركتها على فيسبوك.»

في اليوم التالي كانت آنا تحضر اجتماعًا للجنة الثالثة، وكعادتها وصلت مبكرًا بوقت لا بأس به لترتّب أشياءها، ولتتبادل، إن أمكن، بعض الدردشة. وكان منشورها على فيسبوك قد نال سلفًا نحو مئة إعجاب، فراحت تتصفّح القائمة لترى من أعاد مشاركتها. وإلى جانبها كانت واحدة من كبار الشخصيات، سفيرة عضو في المجلس الدائم وفي المكتب الشخصي للرئيس، تسترق النظر على نحو ظاهر إلى الصور المتوالية على الشاشة. كانت آنا تعرف أنّها وإيزابيل تعرفان بعضهما جيّدًا، فقد كانت إيزابيل معاونةً ثمينة للسفيرة قبل أن تدخل مسابقة الأمم المتحدة.

«إنّه صديق لإيزابيل،» قالت لها مشيرةً إلى صورة على الشاشة «ها هو، هذا هنا. ويبدو أنّهما كانا يعرفان بعضهما معرفة لا بأس بها.»

«لكن ماذا حدث؟ هل هم هنود؟»

«نعم، يبدو أنّه اختفى قبل أربعة عشر عامًا في غابة الأمازون وأنّه ظهر في الأشهر الماضية من جديد في مدينتهما حاملًا معه بعض أفراد القبيلة التي عاش فيها. والخبر الطريف أنّهم بارعون جدًا في كرة القدم!»

«في كرة القدم؟»

«نعم، يبدو أنّهم يلعبون على أحسن ما يكون.»

«لكن هل هذا إعلان لكأس العالم؟»

«لا، لا، حدث حقًا: أقول لك إنّ هذا هنا، اسمه أنطونيو، صديق لإيزابيل.»

«أترسلين لي رابط المقال؟»

«على بريدك الشخصي؟»

«نعم، من فضلك، إنّها حكاية جميلة جدًا.»

التقت السفيرة بإيزابيل بعد أيام قليلة، بمناسبة حفل استقبال في سفارة البرازيل، لكنهما لم يتّسع لهما الوقت إلا لتبادل تحيةً وكلمات قليلة قبل أن يفرقهما الزحام.

كانت إيزابيل، تعبت بكأس الباتيدا، تفكر مستمتعة في أن الجو في تلك القاعة حارّ تمامًا كما في ماكابا، حين سمعت من يخاطبها.

«ألا تشعرين بالملل يا سيّدتى؟»

رأت أن من يخاطبها مجهول في الخامسة والأربعين، الوحيد بلا ربطة عنق في القاعة التي يُقام فيها حفل الاستقبال، بهيئة واثقة جدًا من نفسها.

«أنا أمل دائمًا في هذه المناسبات» أضاف ببرتغالية سلسلة لكن خشنة قليلًا.

«لا، لا أمل»، أجابت إيزابيل بإنكليزية بلا لكنة «أحس فقط بتعب بعض الشيء، كان أسبوعًا مشغولًا. هل نعرف بعضنا؟»

«بالتأكيد لم نتعارف قط، كنت سأذكر ذلك. روبرت، تشرفنا.»

«ماريا إيزابيل باربوزا»، أجابت إيزابيل، منتظرة لحظات قبل أن تضيف «تشرفنا» التي لا بدّ منها.

لم يستطع روبرت إلا أن يلاحظ حاجب إيزابيل المرفوع، فغيّر أسلوبه، منتقلًا هو أيضًا إلى الإنكليزية.

«اللقب، صحيح. هوبيرت، روبرت هوبيرت. أتعلمين في السفارة؟ لمحتك تتكلمين مع السفارة.»

«لا، أنا مترجمة وأعمل في الأمم المتحدة، لكنّي والسفيرة نعرف بعضنا منذ سنوات كثيرة وملتقي دائمًا بسرور. انتظر لحظة، هوبيرت؟»

«نعم، روبرت هوبيرت» أجاب الرجل مبتسمًا.

«“ذلك” روبرت هوبيرت؟»

«نعم، أنا “ذلك” روبرت هوبيرت، صاحب الملاعب بمئات ملايين الدولارات. وخلال ورشة العمل الدولية الأخيرة ترأست مجموعة العمل “الاستدامة”: إن رأيي في كلّ هذا شيئًا من السخرية فأودّ أن أؤكد لك أن فيه سخريّة كثيرة، وإن لم تكن ربّما حيث تظنّين.»

قطعت الحوار السفيرة التي كانت قد اقتربت مبتسمة، وفي يدها كأس الماء الفوار المعتادة.

«أتحكين عن صديقك؟ هذه الحكاية على كلّ لسان هنا.»

«أي صديق؟» سأل هوبيرت فضوليًا.

«هل أنت مستعدّ لقليل من السخرية حيث لا تظنّ أنّها قد تكون؟» سألت إيزابيل، وتابعت: «صديق لي كان في عداد المفقودين في الغابة عاد بعد أربعة عشر عامًا، حاملًا معه أفراد القبيلة التي عاش فيها كلّ هذا الوقت.»

«وأيّن السخرية؟» قال هوبيرت بطريقة فظة أكثر من اللازم قليلًا.

«السخرية في أن أفراد هذه القبيلة التي لا تُصدّق يعرفون لعب كرة القدم، ولم أفهم إن كان أنطونيو، أحد معارفي، هو من علّمهم أم ماذا، وهم الآن منشغلون بجولة في أنحاء شمال البرازيل.»

«آه، فهمت. أتعرفين إن كانوا سيذهبون إلى ماناوس أيضًا؟» سأل هوبيرت بدوره، وهو ما يزال لا يرى أيّ سخريّة في هذه الحكاية، لكنّه تحاشى الإلحاح على النقطة.

«يبدو لي نعم، لكنني لست واثقة،» أجابت إيزابيل «على كلِّ حال لن يلزميني إلا لحظةً لتُحقِّق.»

بعد دقيقتين كان انتباه ثلاثتهم مركَّزًا على لوح إيزابيل الذي كانت تظهر عليه صور ومقاطع أغرب فأغرب. فيما بدا كان الهنود قد فازوا حتى تلك اللحظة بكلِّ المباريات، وبعضها بفارق واسع جدًّا (كان الأمر لا يُصدِّق إلى حدٍّ يجعل المرء يفكر في حيلة دعائية) ونعم، في ماناوس سُلَّعِبَ فعلاً آخر مباراة في الجولة.

«إنَّها مباراة افتتاح الملعب!» هتف روبرت إذ رأى التاريخ «ما كنت أعلم أنَّ الذين سيلعبون هنود، لكن حسناً، يبدو لي ذلك أكثر من عادل. أنا بدهاءٌ بصفتي المصمِّم سيكون عليَّ أن أشارك في الحفل، فلماذا لا تأتَيْن أنتِ أيضاً؟ ضيفتي، بدهاءً. السيِّدة باربوزا قد تمدَّ لي يد العون ببرتغاليَّتي العرجاء، وسأكون لها ممتنًّا.»

«آسفة، أنا لا أستطيع الحضور،» أجابت السفيرة «الأسبوع القادم أسافر إلى جنيف ثمَّ عندي سلسلة لقاءات في الشرق الأوسط، ولن أعود إلى أمريكا قبل نهاية يونيو.»

«وأنْتِ؟» سأل هوبيرت متوجِّهًا إلى إيزابيل.

أحسَّت إيزابيل من جديد بتلك العصرة في القلب التي كان الحنين إلى البيت يسبِّبها لها في تلك الفترة، وفي الوقت نفسه بانتفاضة أخرى ربَّما كانت بسبب نظرة الرجل، الغامرة جدًّا في الحقيقة، فحين أجابت خرجت الكلمات من تلقاء نفسها: «برتغاليَّتكَ لم تبدُ لي بهذا السوء، لا أظنَّكَ بحاجة إلى مترجمة. لكن في الواقع عندي إجازات متراكمة كثيرة وأشتاق إلى البرازيل كثيرًا. الفكرة تغريني، سأفكر فيها. لكنني أحذرك: إن جئت فستكون بالنسبة إليَّ مناسبةً لأُعلمك برأيي في كلِّ تلك الملايين من الدولارات التي أنفقت على ملاعب كرة القدم.»

«اتَّفَقْنَا. لكن عِدْني أنَّكَ قبل أن تقولي لي رأيك ستدعيني آخذك في جولة في الملعب.»

3.29 الجولة

كان أنطونيو قد فتح النافذة قبل أن يجلس على السرير والحاسوب المحمول في حجره. كان يعجبه صوت المطر يقرع كالطبل، وكانت تعجبه رائحة النهر الحارّة، النهر الذي كانت الرطوبة خلفه تحجب حدود البيوت المتكدّسة على الضفّة. بدت ماناوس مدينة جميلة حقًا، وكان يأسف قليلًا لأنّه لم يكن أمامه سوى نصف يوم للتجول، لكنّ ريتي نورتي كانت قد حدّدت مواقيت الجولة مسبقًا، وكان لا بدّ طبعًا من الالتزام بها.

وكان مسرورًا أيضًا لأنّ له غرفةً وحده، فالفتيان صاروا يدبّرون أمرهم أكثر من جيّدًا في أشياء كالنوم بمفردهم، وهو الذي كان عليه أن يعترف بأنّه وجد الجولة أشقّ ممّا توقّع – فمهما كانت حياة الغابة قد أبقته في لياقة بدنية ممتازة فلعّب كرة القدم مع شبّان في العشرين التزمًا لا يُستهان به، ثمّ كلّ ذلك السفر، وتلك الطرق المفكّكة الغارقة، وتلك الملاعب الملطّخة بالوحل – كان يتمتّع بسرور ببعض لحظات السلام. وكان قد فهم الآن أنّه لا ينجح في الاطمئنان إلّا حين يعرف أنّ الفتیان تحت السيطرة وفي أمان، انظر كم كانت عندي غريزة أبوة دون أن أعرف.

لكنّ الفندق الذي كانوا فيه تلك الليلة كان ظريفًا هادئًا، خاليًا من الإغراءات الخطرة للملاهي الملتبسة وصلات الألعاب المدخّنة التي اضطرّ إلى المناورة بينها في بعض المحطّات السابقة، باحثًا عن توازن صعب بين فضول الشبّان المشروع ورغبتهم في التسلية، وبين المخاطر التي قد تنطوي عليها مواقف وبيئات لم يكونوا مهيّئين لها إطلاقًا.

لست مدّربًا بقدر ما أنا عمّة عجوز، كان يفكّر: ذلك المشروب قويّ أكثر من اللازم، انتبه، تلك الآلات تأكل النقود، لا تدع الأضواء الصغيرة تسحرّك، لا تلك الفتيات لسنّ لك، إنهنّ هناك، إنهنّ هناك للعمل، يعني، دعهنّ وشأنهنّ، وأنت البس قميصًا، لا يمكن الذهاب إلى الأكل عاري الصدر هنا. عمّة عجوز، وصيفة، رئيسة دير.

لكنّ كلّ شيء كان الآن على ما يرام، فعلى الأرجح، ورغم أنّهم قسّموا على ثلاث غرف، كانوا كلّهم متكدّسين في واحدة يتنازعون جهاز تحكّم التلفاز والهاتف الذكي الذي لم يكونوا يملّون من النظر فيه إلى صورهم التي كانت غابرييليتا، بمثابرة تستحقّ الإعجاب، تلتقطها من أشرطة ريتي نورتي لتضعها على حساب إنستغرام الذي فتحت باسمهم، والذي كان مواسير يسهم فيه برفع صورة التقطها هو نفسه بين حين وآخر.

رتّب أنطونيو الوسائد خلف رأسه على نحو أفضل. حسنًا، وهذه أيضًا مضت، فكّر. ومضت جيّدًا جدًّا، بل على أحسن ما يكون. كان الفوز بكلّ المباريات قد صار الآن هو القاعدة، وكان أنطونيو يتساءل بين حين وآخر إن لم تكن الفرق التي لعبوا معها أضعف ممّا قدّموها له. على كلّ حال، غدًا آخر مباراة ثمّ نعود إلى ماكايا. ياماندي، إن كان كلّ شيء سار كما هو مقرّر، سيخرج من المستشفى بعد وصولنا مباشرة: بضعة أيّام أخرى لترتّب أمرنا ونحزم أمتعتنا ثمّ نعود أخيرًا إلى البيت، إلى الغابة.

ابتسم إذ راح يبحث في الحاسوب عن الغابة: خرائط غوغل تلك التي علّمت ابنة عمّته استعمالها كان ما يزال يبدو له سحرًا، ولم يكن يملّ من إعادة اجتياز نهر جاري، ومن تتبّع مجرى الطريق 210 الشهير الذي لم يجده قطّ، ومن إعادة النظر إلى محطّات الجولة، بيليم وتوكوروي وألتاميرا وسانتاريم، ومن توسيع الخريطة والنظر من عليائها إلى البرازيل كلّها، وإلى أمريكا الجنوبية كلّها. ثمّ العودة لتضييق الإطار، أكثر فأكثر، على أخضر الغابة الكثيف، كأنّه لو نظر جيّدًا لأمكنه أن يرى جانائنا ذاهبةً إلى النهر وإبييراتا معلق في عنقها، وبياتا عائداً من الصيد، وإيتاتاكوارا غافيًا في أرجوحته.

ضحك في سرّه، مفكّرًا في أنّ كلّ ذلك النظر إلى العالم من عليائه كان سيثير حسد بورانغا باجيه نفسه.

من يدري إن كنّا سنجد طريقةً لحماية هذه القطعة الصغيرة من عالمنا على الأقلّ؛ من يدري، تساءل ناظرًا إلى ذلك الأخضر الذي لا حدّ له، كم من القبائل الأخرى مثل قبيلتنا هناك. أطلق بحثًا، ونقر على رابط، ثمّ على آخر وآخر بعد، أشدّ قلقًا وحيرةً في كلّ مرّة: كانت هناك عشرات وعشرات الصفحات تتكلّم عن «مسألة هندية» لم يكن قد شكّ قطّ في حجمها.

في حياته السابقة على حياة الغابة كان قد سمع إلماحاً إليها، بدهشة، لكنه لم يصرف عليها كثيراً من التفكير، كما يحدث لأشياء كثيرة جداً نسمع عنها لكنها لا تمسنا إطلاقاً. لم يكن قد أدرك إطلاقاً أن وراءها إشكاليات بهذا التعقيد وهذا الجدل.

وكونه صار عملياً هندیًا كان يجعله يقرأ تلك الصفحات بذهول معين: فمن جهة كان يقرأ عن المسألة بصفته البرازيلي المتعلم ابن المدينة كما كان معظم حياته، محاولاً أن يفك الاشتباك بين المعلومات والآراء بتجرد وبرودة، ومن جهة أخرى كان يحس نفسه معنيًا بها شخصيًا، هو وأسرته وأصدقائه، وكان يشق عليه ألا يدع الغضب والاضطراب يحمالانه. أطفأ الحاسوب، وتمدد على السرير يصغي إلى انهمار المطر. حين نعود إلى ماكابا علي أن أرى تلك المرأة من غرينبيس، تلك الماريانا: هي عملت كثيرًا على هذا الأمر ولعلها تستطيع أن تساعدني على أن أفهم فيه شيئاً أفضل قليلاً، دون أن أدع الانفعالات تحملني أكثر من اللازم.

وبمناسبة الانفعالات، فكر وهو ينزلق إلى النوم، كنت مسرورًا لكن منفعلًا أقل بكثير مما كنت أظن إذ سمعت إيزابيل من جديد بعد كل هذا الوقت. كان قد سره أنها تعقبته واتصلت به، وسره أكثر بعد أنها هناك بالذات، في ماناوس، وأنها اقترحت عليه أن يتعشيا معًا بعد مباراة اليوم التالي. لكنه حين كان يفكر كم تألم من رفضها قبل سنوات كثيرة وكم كان غيبًا أخرج تلك الليلة، كان كل ذلك يبدو له بعيدًا جدًا، وكان يخيل إليه أنه يرى في الذاكرة أنطونيو آخر يتحرك، مختلفًا كل الاختلاف. وأدرك فجأة أنه كان حتى تلك اللحظة يظن أنه سيرى في اليوم التالي الفتاة ذات الثوب الأخضر تلك الليلة، يا لي من أبله، بديهي أن السنوات تمر عليها هي أيضًا: لقد تجاوزت الأربعين الآن، لا بد أنها سيّدة متزوجة رزينة. ونام وهو يفكر في أنه لا يذكر إطلاقاً ما لقبها.

3.30 ماناوس

ما نامت إيزابيل قط في طائفة في حياتها. لم تكن تشعر بخوف، بل كان الطيران يعجبها كثيرًا، وكانت تظن دائمًا أن في التحليق هكذا عاليًا فوق العالم، متحررًا من كل قيود الوزن والجاذبية، شيئًا مثيرًا بشكل ما. كانت تجلس هادئة في مقعدها وتبقي، حتى في الرحلات الأطول، مستيقظة تتأمل المنظر أو، ليلاً، سائر الركاب. نادرًا ما كانت تشاهد الأفلام المعروضة وأندر من ذلك أن تقرأ. كانت الطائفة بالنسبة إلى إيزابيل مكان مراقبة واستبطان.

أما هوبيرت فكان قد نام سلفًا أثناء الإقلاع، وعدا استراحتين قصيرتين لأكل الطعام «الفطيع» الذي تقدّمه مضيفات «صاخبات» لم يفعل شيئًا سوى أن يتقلب ذات اليمين وذات الشمال في مقعده المائل شاخرًا بصوت عالٍ. ومنذ أكثر من ساعة كانا يحلقان فوق الغابة وحدها، وكانت إيزابيل مرعوبة ومفتونة في آن. البحر الأخضر بحر حقًا، انظري، بل محيط، يمتد إلى ما لا يبلغه البصر في كل اتجاه، منتظم إلى حد أن كل انتظام يستقطب الانتباه استقطابًا تامًا. أنطونيو كان غريقًا، أدركت، من يدري ماذا شعر هناك تحت أربعة عشر عامًا، ضائعًا هناك في الداخل. كانت إيزابيل قد قضت شبابها على أطراف ذلك العالم الأخضر، ولأمسته مرارًا، والآن صار يقشعر له بدنًا. ماذا يحدث لي، تساءلت، ما كل هذه الهشاشات المفاجئة؟

انقلب هوبيرت دفعةً واحدة مطلقًا شخيرًا آخر وأسند خده إلى ذراع إيزابيل السخية، فابتسمت ولم تتزحزح مليمتراً، بل كبتت إغراء أن تصلح له غرته المبعثرة قليلاً قبل أن تعيد تركيز انتباهها على قمم الأشجار.

استقبلها حرّ ماناوس ورطوبتها الخائفة كصديقين قديمين، مع رائحة النهر والفاكهة الخدرة. ولم يكن روبرت على الرأي نفسه، فقد بدأ يتنهد بضجر ويتصبّب عرقًا غزيرًا ما إن خرج من المطار ومن حماية التكييف. أما إيزابيل فكانت تحس نفسها في بيتها، وابتسمت لنفسها مفكرةً كم هو حلو أن يتدفق كل دفء أرضها فيها عبر قدميها ويهتز في جسدها. كانت نشوتها تنمو لحظةً بعد لحظة وبلغت ذروتها في سيارة الأجرة التي كانت تمرّ في شوارع بدت لها مألوفة وإن لم تكن قد زارت ماناوس قط: الألوان، والأصوات، والوجوه، كل شيء كان يسهم في إحساسها بأنها في بيتها وفي سعادتها.

وكان يسهم فيها أيضًا، ولا بد أن تعترف بذلك، على نحو فيه شيء من الخبث، انزعاج روبرت الذي كان يمنحها إحساسًا بالتفوق والسيطرة.

لكنّ هوبيرت في صباح اليوم التالي كان قد تبدّل. كفّ عن التعرّق وكانت ابتسامة مشعة تضيء وجهه.

«يحدث لي هذا دائمًا، منذ جئت للعمل في البرازيل. الساعات الأولى شاقة إلى أقصى حدّ، ثم لا أدري كيف يتكيف جسدي فأحس نفسي على أحسن ما يكون.»

«لكن هل نمت هذه الليلة يا روبرت؟»

كان يبدو لإيزابيل مستحيلًا أن يكون قد نجح في النوم بعد أن نام في اليوم السابق معظم ساعات الطيران العشر، وهي نفسها بقيت مستيقظة حتى وقت متأخر جدًا.

«نعم، نعم. أنا نؤام، ليس نادرًا أن أنام نومات من عشرين ساعة أيضًا. والآن أحس نفسي بخير حقًا، أحس نفسي برازيليًا تقريبًا.»

«فعلًا حتى لكنتك تحسنت!» مازحته إيزابيل.

استمرّ الحديث بلطف طوال الصباح، حين أفطرا معًا ثم انتقلا بهدوء نحو منطقة ملعب المدينة. لكن بينما كان يُتنفّس في المدينة كلّها مناخ كسول صافٍ، كان شيء يجري في منطقة الملعب. كانت التجمّعات الصغيرة الأولى للناس تنتظم بلافتات احتجاجها على طول الجادات المؤدية إلى المنشأة، تحت أعين عدد كبير أكثر من اللازم من شرطة مكافحة الشغب.

«عار»، «غول لكأس العالم – البرازيل خارج البطولة»، «احترام!»، «الكأس لمن؟» لم تكن سوى بعض اللافتات التي راقبتها إيزابيل وهوبيرت، القلق قليلاً من أن يُتعرّف عليه، معاً.

«والآن قل لي إنهم على خطأ» قالت إيزابيل في لحظة ما.

«هم على خطأ إن ظنّوا أنّ هاتين اللافتتين اللتين لن تظهرا، إن ظهرتا، إلّا في الصحافة المحليّة تقدّران حقّاً على تغيير شيء.»

«كنت أقصد في الجوهر، بمعنى أنّ كلّ تلك المئات من الملايين التي أنفقت على الملاعب كان يمكن إنفاقها بطريقة أخرى. هناك أطفال يموتون من الفقر والإهمال، هنا، أتعلم.»

«حسناً، هم على خطأ في ذلك أيضاً. كانت النقود للملاعب، ولم تكن هناك مشاريع أخرى. وهذا ما نالوه: ملاعب، جميلة وحديثة. أياحبّ البرازيليّون كرة القدم؟ نعم. هذه هي الحجة الوحيدة على الطاولة. لا أقول لك إنّني مسرور برؤية الفقر منتشرًا في هذا البلد وبكلّ التناقضات التي تعرفينها أفضل ممّي. أقول إنّ منظومة نفوذ كبرى مرّت بالبرازيل هذه المرّة، وإنّه لا أنا ولا أحد ربّما كان يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك. وما فعلته، وما كان في رأسي أن أفعله منذ انتقلت إلى البرازيل لأتابع هذه المهامّ، هو أن أعطي البرازيل الأفضل: أقصى استدامة ممكنة بالتقنيات الحالية، وإعادة استعمال المواد، وأقلّ أثر بيئيّ ممكن. هذا ما ستناله البرازيل: أجمل ملاعب العالم.»

«ولن يستعملها أحد.»

«أعلم، هذه أشياء تحدث، لكن في هذه الحالة لم يكن في وسعي شيء أفعله لمنع ذلك.»

جرت مراسم الافتتاح نفسها ببساطة كبيرة. أراح حاكم ولاية أمازوناس الستار عن لوحة تذكارية لذلك اليوم، وغطّت ريتي نورتي الحدث بحلقة خاصّة، لكنّ هوبيرت بقي في الظلّ، ولم يظهر إلّا من ظهره في بعض الصور الرسمية. ولم يحقّق الاحتجاج الأثر المرجوّ، وفي النهاية تجاوز المشجّعون الذين توافدوا، نحو عشرين ألفاً، عدد المتظاهرين الذين لم يزيّدوا كثيراً عن الألف تجاوزاً واضحاً.

ولأنّ المباراة ستكون سبعةً ضدّ سبعة فقد أعدّ الملعب مُداراً 90 درجة في النصف الجنوبيّ من الاستاد، والمرميان على ما سيصير لاحقاً خطّي التماس. أمّا النصف الشماليّ من الملعب فكان ما يزال غير صالح جزئياً في انتظار اكتمال الأعمال.

وقبل ضربة البداية جرت مراسم صغيرة ثانية كان مقرّراً أن تُتوجّج بكلمة من قائد فريق الهنود.

حين دخل اللاعبون أرض الملعب أدركت إيزابيل أيّ صفقة في يد ريتي نورتي. لو أحسن استغلالها لكان يمكن أن تصير ظاهرة إعلاميّة على مستوى العالم. وصل الهنود عراة الصدور وأجسادهم ووجوههم مدهونة بألوان شتّى: كانوا جميعاً في غاية الشباب، فخورين، بمشية سائلة إلى حدّ أنّها تشبه رقصة. أنطونيو – ها هو! كم تغيّر! – كان يمسك ميكروفوناً ودعا أحد الفتیان، القائد بداهة، ليقول شيئاً.

وما إن تكلم الفتى حتى التفت أنطونيو دفعةً واحدة لينظر إليه.

لم تكن لغة الهنود تشبه أيّ لغة سمعتها قط. كانت مجموعةً من أصوات حادّة جدّاً، تتخلّلها نقرات باللسان وتمطيطات صوتية طويلة. وكلّ ذلك مصحوباً بإشارات واسعة بالغة المشهية. من يدري إن كان أجدادنا أيضاً، قبل قرون، قبل أن يفقدوا الصلة بالطبيعة، مسرحيين هكذا في الكلام فكّرت إيزابيل. وحين بدأ أنطونيو يتكلّم بالبرتغالية ليتّرجم ما قاله الفتى لم تستطع إلّا أن تبتسم. أنت أيضاً مترجم يا أنطونيو، أترى القدر؟

«شرحوا لنا ما هي النقود، وماذا يعني أن نبيع ونشتري. ونحن فهمنا ذلك، وإن كان يبدو لنا شيئاً غريباً.»

بدا لإيزابيل أنّ صوت أنطونيو مرتجف، ولم تكن تفهم إن كان ذلك من الانفعال أم من شعور آخر لم تنجح في التعرف عليه.

«ثم قالوا لنا إن الغابة ليست لنا. إن رجالاً يستطيعون أن يأتوا ليقطعوا الأشجار كأن الغابة لهم. وإنها ليست لنا نحن، نحن الذين نعيش فيها منذ كان القمر صغيراً فتياً.»

اقشعرّ بدن إيزابيل: ماذا قال؟ في كلّ مرّة يتكلّم فيها الفتى كان أنطونيو يأخذ وقفات أطول فأطول، كأنه يتأمل الكلمات التي هو على وشك ترجمتها. قال الفتى شيئاً آخر؛ صمت أنطونيو بضع ثوانٍ ولم يقرّر أن يفتح فمه إلا بعد إشارة دعوة حازمة من الفتى.

«نحن لا نستطيع أن نشترى الغابة. لكن لا أحد يستطيع أن يشتري الغابة. كيف يمكنكم أن تشتروا أو تبيعوا السماء، دفع الأرض؟ الفكرة تبدو لنا غريبة. إن كنا لا نملك نضارة الهواء ولا تالؤ الماء تحت الشمس، فكيف يستطيع أحد أن يعبدها له؟»

بعد الجملة التالية للفتى أبعد أنطونيو الميكروفون عن فمه وقال له شيئاً ردّ عليه الشاب بحزم. مضى الاثنان يشيران بأيديهما ويتكلّمان زمناً معيّناً حتى ختم أنطونيو بإشارتين أشدّ خشونة وأقلّ أناقة من الأخريات: بدا أنّ القائد يتردّد لكنّه في النهاية قرّر أن يواصل مقطّباً استياءً.

وجدت إيزابيل نفسها تتسلّى بعادتها المهنية: مع أنّها لا تعرف شيئاً من تلك اللغة، وجدت نفسها تحاول أن تحزر ماذا كان أنطونيو والفتى يقولان بناءً على النبرة وعلى إشارتهما وعلى ما قاله قبل ذلك. لو طُلب إليّ الآن أن أفترض ترجمةً على البديهة، لنسبّ إلى أنطونيو عبارة “كفى الآن، ليس هذا مكان هذا الكلام ولا زمانه”، لكن في الحقيقة كان يمكن بداهة أن يكون أيّ شيء آخر: فمع كلّ السنوات التي قضتها في الأمم المتحدة ما سمعت قطّ شيئاً يشبه تلك اللغة.

عاد أنطونيو يترجم، وقد اطمأنّ على نحو ظاهر: «لكننا اليوم هنا لنلعب أولاً في هذا البيت الجديد لكرة القدم، أكبر بيت لكرة القدم في الغابة كلّها، ونحن سعداء جداً. وللمناسبة لبسنا ألوان الأعياد الكبيرة ونحن منفعلون جداً لأنّ أناساً كثيرين جداً سينظرون إلينا نلعب، ونرجو أن يكون ذلك ممتعاً لهم جميعاً كما سيكون ممتعاً لنا.»

«سيكون ممتعاً لهم بالتأكيد» قال هوبيرت في أذن إيزابيل، حركة حميمة أكثر من اللازم قليلاً بالنظر إلى العلاقة التي كانت بينهما حتى تلك اللحظة، لكنّها لم تزعجها إطلاقاً.

«ماذا تقصد؟» سألته.

أراها روبرت مجلّة كان يتصفّحها، اشتراها قبل قليل، وعلى غلافها يتصدّر فتیان أسو كآ («في الداخل ملصق مواسيرا»): «في أسوأ مبارياتهم، وهي الأولى فوق ذلك، فازوا بأربعة أهداف نظيفة. بالطبع سيستمتعون، إنهم لا يلعبون مع أناس في مستواهم، انظري هنا: أربعة صفر، خمسة صفر، ثمانية واحد، ستة واحد...»

«لكن لماذا نَظُموا هذه الجولة ضدّ فرق بهذا الضعف؟»

«ضعف؟ ليس كثيراً. فيما يبدو هي كلّها أفضل فرق بطولات شمال البرازيل، بطولة أمازوناس، وبطولة بارا، وبطولة أمابا. وبالنظر إلى أنّه لا يلعب في الدرجة الأولى البرازيلية سوى فرق الوسط والجنوب، أقول إنّ أفضل ما كان يمكن أن يجذوه.»

وفي هذه الأثناء كان قد جاء الغول الأوّل لفريق الهنود بهجمة سريعة إلى حدّ أنّ إيزابيل، وقد شغلها الحوار مع روبرت، لم يتّسع لها الوقت لرؤيتها. وتعرّز عندها الإحساس بأنّ أولئك الفتیان يرقصون دائماً إذ رأتهم يلعبون، كانوا يبدون خفيفين إلى أقصى حدّ وهشين إلى أقصى حدّ ومع ذلك كانت تخرج من أقدامهم تسديدات وتمريرات بقوة غير عادية، وكانت لهم غريزة أو ربّما سرعة تجعلهم يصلون دائماً أولاً إلى الكرة، وبذلك الألوان المدهونة على أجسادهم كان لهم سحر منوّم، لم تكن تنجح في نزع عينيها عن الملعب.

وكانوا يحتفلون بطريقة غريبة حقًا، صانعين حركة رام يشدّ القوس، وانظري، بعض الجمهور صار يقلّدهم.

3.31 اتفاقات

«سامحيني لكني لم أعتد بعد كل الاعتياد على الأكل مثلكم.»

لم يكن سهلاً أن يفهم ما الهندي في أنطونيو: لم تكن له قسماتهم، وكان شعره بنيًا فاتحًا نادرًا جدًا في الغابة، وبشرته أقل دكنة من بشرة الهنود، ولحية غير مشدبة تطلّ بوقاحة على ذقنه. ومع ذلك كان قد صار بلا جدال هنديًا، لعلها حركاته أو نبرة صوته أو من يدري ماذا غير ذلك، ولم تكن إيزابيل تكف عن أن تسأل نفسها.

«أقصد أن أقول... مثلنا، أي مثلنا قبل أن تصيروا أنتم أنتم...»

ابتسمت إيزابيل. كانت هي وأنطونيو في مطعم أنيق بما فيه الكفاية في ماناوس، وكان لقاؤهما من جديد بعد سنوات كثيرة لقضاء أمسية معًا أمتع بعد بفضل الفوز المدوّي لفتيان أنطونيو في مباراة ذلك المساء.

حين أبلغت إيزابيل روبرت (متى صارا هي وهوبرت يتناديان بالاسم الأول؟ غريب، لا تذكر ذلك حتى) بخطتها للأمسية، علّق: «يبدو لي مكانًا أنيقًا أكثر من اللازم قليلًا، ربّما يحسّ هو نفسه بالحرَج.»

كان لطيفًا أن يقلق روبرت على مشاعر أنطونيو، لكنّ إيزابيل لاحظت، وقد أطربها ذلك، ذرّة الغيرة الكامنة في التعليق.

كانت في الحقيقة في غاية الفضول، فضوليّة أكثر من اللازم برأي روبرت، لمعرفة كلّ تفاصيل المغامرة التي لا تُصدّق والتي يعيشها أنطونيو.

«ماذا كنتم تأكلون في الغابة؟» سألت إيزابيل وهي تنهش كوستيلا ممتازة مشوية على الجمر «أتصوّر كلّ شيء، حتى الحشرات!»

«لكن ليس كلّ الحشرات،» أجاب أنطونيو «الطيّبة منها فقط.»

ضحكت إيزابيل من قلبها ظانّة أنّ أنطونيو ألقى نكتة: «لا، هيّا، بجدّ.»

«صدّقيني، أنا جادّ. نأكل كلّ شيء، حشرات، ويرقات، وأسماك، وطيور، وزواحف، وبرمائيات، وثدييات، وكميّة من النباتات لا أنجح حتى في تعدادها... ولعلّه الحنين، لا أدري، لكنّي أشتاق إلى تلك الطعوم وهذه الأشياء التي تأكلونها أنتم يخيّل إليّ أنّ لها دائمًا الطعم نفسه قليلًا. وكلّها مالحة أكثر من اللازم قليلًا.»

نظرت إيزابيل مباشرة في عيني أنطونيو لأوّل مرّة، ولعلّها لأوّل مرّة في حياتها.

«لا يُصدّق كم تغيّرت. يا إلهي، بل يُصدّق تمامًا، بالنظر إلى غرقك في ذلك المحيط الأخضر، لكنّه على كلّ حال مذهل أن تراه بعينيك.»

«وأنّ تغيّرت كثيرًا أيضًا. أنت... تتكلّمين بطريقة غريبة، يعني.»

يبدو دائمًا أنّها تكتب مقالًا في جريدة، فكّر أنطونيو، ما كنت أذكر هذه الاندفاعات البلاغية عندها. وما كنت أذكر أنّ لها بنية أموميّة هكذا، لعلّه أثر الوقت الذي مضى، كتلك التجاعيد الصغيرة عند زاويتي العينين.

كانت هناك لحظات صمت، ثمّ استأنف أنطونيو: «على كلّ حال، اليرقات...» لكنّ إيزابيل قاطعته بابتسامة: «كفى كلامًا عن القذارات، اتّفقنا؟»

«صدّقيني، ليست إطلاقًا قذا...»

«احكِ لي شيئًا طريفًا عن فتيانك أولئك الذين لا يُصدّقون، بالأحرى. هل شقّ عليهم التكيّف مع عالمنا؟»

«أقلّ بكثير ممّا كنت أظنّ. لعلّ كوني كلّمتهم عنه سنوات ساعدهم. بالتأكيد هناك أشياء ما زالوا لا يفهمونها، النفايات مثلاً: في الغابة النفايات حفنة من عظام منزوعة اللحم ونوى فاكهة، ولا يفسّرون لأنفسهم الأوراق والقناني وأعقاب السجائر والقمامة في الشارع. لكن أشياء أخرى كان ينبغي أن تربكهم لا تقلقهم إطلاقاً. حادثة دالّة هي حكاية أحذية كرة القدم. كنت في غاية القلق، وكنت قد أعددت خطبة طويلة كاملة لأشرح أنّ اللعب حفاة جميل جدّاً، طبعاً، لكنّه أيضاً خطر جدّاً إن كان الخصوم يلعبون بأحذية ذات مسامير. تخيّلني أنّ هناك أسطورة عن منتخب الهند الذي لم يشارك في كأس عالم 1950 لأنّهم لم يتركوهم يلعبون حفاة... عذراً، استطردت. كنت أقول: قضيت أياماً أفكّر في أفضل طريقة لإقناعهم، وإذا بهم حين وصلنا إلى القسم الرياضي في المركز التجاري ينقضّون عليها ليجرّبوها، والشيء الوحيد الذي سألوني إيّاه كان: "لكن هل أنت واثق أنّ ريتي نورتي تشتريها لنا؟ ألا يجب أن ندفع نقوداً؟"»

«هاهاه، ولماذا في رأيك؟»

«حسناً، أرادوا أن يشبهوا قدر الإمكان اللاعبين الكبار الذين رأوهم في التلفاز، فمنذ صاروا هنا لا تفوتهم مباراة.»

«ما ألطفهم. لكن اسمع، بمناسبة "الشراء" و"النقود": هل قالوا لك ذلك حقّاً؟ وكلام الفتى، عن شراء الغابة لكم؟»

«تلك كانت حادثة... أخذتني على حين غرّة، يعني: كنت مرّكزاً في الترجمة، ومن لغة القبيلة ليس ذلك سهلاً، إنّها لغة بالغة الملاءمة لحياة الغابة لكنّها غير ملائمة إطلاقاً لهذه الحياة، تفهميني، أليس كذلك؟»

«أفهمك جيّداً، يحدث لي ذلك كثيراً أنا أيضاً، مع أنّ البرتغالية والإنكليزية والإسبانية والفرنسية أشبه ببعضها بكثير.»

«وحين انتبعت إلى ما كان يقوله طلبت منه أن يكفّ.»

حدّق فيه ببؤبؤ إيزابيل المتّسعان قليلاً من الكايبيريّين بشدّة (بشدّة أكثر من اللازم قليلاً، لقال روبرت).

«نعم، لكن إن كنت فهمت جيّداً فهم يأتون، وأنتم تأتون، من قبيلة غير متّصل بها. الكسب وشراء الغابة يبدوان لي مفهومين "غريبين"، إن جاز القول. هل أعطيتهم في هذه الأعوام الأربعة عشر دروساً في المال؟»

كان أنطونيو قد طوّر نوعاً من نظام إنذار: فحين يُتكلّم عن الهنود أو عن الغابة أو عن الفروق بين الحضارة الغربية وحضارة السكّان الأصليين، كان إحساس التفوّق الذي كان يترسّح بانتظام عند محاوريه يجعله يستشيط غضباً بسهولة. أخذ لحظة ليتأمّل قسّمات وجه إيزابيل المستديرة وابتسامتها التي لا تكاد تُلمح.

لم ينطلق الإنذار.

«إنّه أمر كنت قد فكّرت فيه أنا حين عرضت علينا ريتي نورتي العقد، أمر ساذج إلى حدّ أكاد أخجل منه. في النهاية سيبقى في أيدينا بضعة آلاف من الريالات، لا تكفي حتى لدفع أجر أوّل موظّف نسأله معلومة.»

رنّ هاتف إيزابيل، فانتفض أنطونيو الذي لم يكن ما يزال ينجح في الاعتياد على أنّ الناس معهم المحمول دائماً وفي كلّ لحظة.

ردّت إيزابيل، وقد احمرّ وجهها قليلاً، متكلّمة بالإنكليزية. كانت لغة لم يعرفها أنطونيو قطّ معرفة جيّدة جدّاً ولم يمارسها منذ أربعة عشر عاماً، لكن لم تكن هناك حاجة إلى معرفة اللغة ليلاحظ أنّ نبرة صوتها صارت خفيفة فوّارة.

إنّه رجل، حزر، وقریباً ستعلّق إيزابيل أرجوحتها قرب أرجوحته.

وعلى كلّ حال كانت قد بقيت في رأسه بعض كلمات الإنكليزية: «باينغ ديرينفوريس» أليست تعني شراء الغابة؟ لعلّها كانت تحكي له أنّ أنطونيو يريد أن يشتريها لنفسه؟ لم يكن يفهم جيّداً. أتراهما يسخران منه؟

لم ينطلق الإنذار هذه المرّة أيضاً.

في نهاية المكالمة طلب إيضاحًا: «هل تريدون أن تشتروا أنتم أيضًا قطعة من الغابة؟ لتفعلوا بها ماذا؟»

استعادت إيزابيل رباطة جأشها وعادت جادةً، وإن كان النور في عينيها لم يفارقهما: «أنطونيو. لعلّه جوّ ماناوس السحري، أو لعلّها ببساطة الكايبيرينيا، لكنّي سأقدّم لك الآن عرضًا مجازفًا.»

لم يفهم أنطونيو، وخوفًا من أن يقول شيئًا غبيًا بقي صامتًا، مكتفيًا بإشارة يدعوها بها إلى المتابعة.

«أظنّني أعرف كيف أساعدك في هذه المسألة، مسألة شراء قطعة من الغابة. قبل زمن عملت في مشروع للأمم المتحدة يتعلّق بالبحث عن نماذج لتمويل المشاريع تصلح لحماية غابة الأمازون. كنت المترجمة لا واحدة من الخبراء، لكنّي تعلّمت شيئًا وأظنّني أعرف كيف أقيم مؤسسة لهذا الغرض.»

تجاهلت تعبير أنطونيو المندesh وتابعت: «لا أعرف بالضبط كم من النقود لديكم، لكن لإطلاق المشروع على الأقلّ يكفي القليل.»

بدا لإيزابيل أنّها ترى ملايين الأفكار تتصارع في رأس أنطونيو لتنجح في الوصول أولًا إلى فمه: «لكن هل أنت واثقة؟ حاولت أن أتعلم لكن بدا لي أنّي فهمت أنّه ببضعة آلاف من الريالات لا يمكن فعل شيء إطلاقًا، إلّا التعلّق بمشاريع جارية أصلًا في مكان آخر تمامًا لا تهمّنا إلّا نسبيًا. ناهيك عن الهديان البيروقراطي.»

«العقبات البيروقراطية تُتجاوز، وفي هذا بالذات أستطيع أن أساعدك. وبداهةً كلّما زادت النقود كان أفضل، لا أقول العكس، ولو ربحت مليار ريال في اليانصيب لكان كلّ شيء أبسط. لكن للبداية أظنّ حقًا أنّ نقودكم ستكون كافية. ثمّ سيلزم إيجاد راع أو سبيل تمويل، وهنا أيضًا عندي منذ الآن بعض الأفكار، وربّما تهتمّ ريتي نورتي هي أيضًا. وعلى كلّ حال أنا واثقة إلى أقصى حدّ أنّ الحكاية الجميلة، حكاية مجموعة الهنود التي تظهر من العدم وتلعب كرة القدم أفضل من أيّ أحد، ستلمس قلوب كثير من الناس. قلبي أنا، مثلاً، قد لمّس.»

«أنتِ تقولين لي إنّنا بمساعدتك قد نستطيع أن نشترى غابتنا. هذا ما تقولينه لي.»

«نعم. ولن ألومك إن لم تثق، لكنّي أقول لك على كلّ حال: ثق. نقودكم لن تنتهي في جيوبي ولا في جيوب أيّ أحد آخر. ستبقى دائمًا تحت سيطرتك مباشرةً، أو، إن احتجت إلى معونة في الإدارة، تحت سيطرة شخص تثق به.»

«لماذا تفعلين هذا؟ أعني، حياتك في نيويورك، أليس ذلك ما تمنّيته دائمًا؟»

«لا أدري، أتعلم، للوصول إلى عيش هذه الحياة درست وتعبت كثيرًا، وتخلّيت أيضًا عن كثير من الناس والأشياء. والآن أشعر بثقل هذا التعب. وأشتاق إلى البرازيل. أشتاق إلى الشعر، إلى طاقة هؤلاء الناس. ويبدو لي أنّي في موقع أستطيع فيه أن أفعل شيئًا لتحسين ما لا يسير على ما يرام. فبدا لي ظهورك المفاجئ إشارة، كما بدا لي إشارة وصول روبرت إلى حياتي...»

«صاحب المكالمة؟»

«نعم،» قالت إيزابيل مبتسمةً «هل كان ذلك واضحًا إلى هذا الحدّ؟»

«كان واضحًا أنّك علّقت أرجوحتك قرب أرجوحته.»

«ها ها، جميل هذا التعبير!»

«نعم.»

«لا.»

«لا ماذا، عفّوا؟»

«لم أعلّق أرجوحتي قرب أرجوحته.»

«لكنّك تودّين.»

«من يدري.»

استمرّ الحديث مسترخياً بقيّة الأمسية، واستمتعت إيزابيل كثيراً جداً بسماع حكايات أنطونيو في الغابة كما بحكايات وصولهم إلى المدينة، ضاحكة حتى الدموع حين حكى لها أنطونيو عن تيريزا والإذاعة. وافترقا على وعد بأن يتحدّثا في أقرب وقت لتحديد كلّ التفاصيل: فقد كان أنطونيو قد عبّر عن رغبته في العودة إلى الغابة إلى أسرته في أسرع وقت ممكن. وكون تلك الأسرة موجودةً وكونه يتكلّم عنها بكلّ تلك المحبّة وخز إيزابيل بلسعة خيبة صغيرة جداً، حاولت أن تنساها في أسرع وقت.

3.32 العودة

«أضيفي قليلاً من الفاصولياء بعد يا جانيتا. منذ أن عادوا من رحلة كرة القدم تلك يبدو لي أنَّ الفتيان جائعون أكثر فأكثر، لعله لأنَّهم تحرَّكوا كثيراً.»

جفَّفت مارسيل العرق فوق شفتها، فقد كان الحرُّ شديداً دائماً في ذلك المطبخ: «وربَّما بعض الفلفل أيضاً، الخضار مفيدة.»

قلَّبت الصلصة بعناية، وهي تحاول أن تتذكَّر إن كانت قد قالت لايتالو أن يمرَّ بالدَّكان ليأخذ صندوقي جعة: «جانيتا، هل نشر أحد الغسيل؟ يجب أن نشغِّل غسَّالةً أخرى فوراً، فسَلَّة الملابس المتَّسخة على وشك الانفجار.»

«نعم، الغسيل نشره أوبيراتان. إنَّه منتبه دائماً لهذه الأشياء.»

«حسن، فتى طيِّب. بيراي، يجب أن يكون ذلك البصل أرقي. انظر، هكذا. نعم، ممتاز.»

صار هذا الفتى بارعاً حقاً في المطبخ فكَّرت مارسيلا وهي تلامس كتفه بمداعبة، يمكن أن يجعل منه مهنةً، أنا واثقة أنَّ ذلك سيعجبه. أنطونيو ما أراد قطُّ أن يعرف شيئاً عن المطبخ، وأماندا كانت خرقاء كبيرة، وجانيتا في المقابل دقيقة جداً يُعتمد عليها لكن بلا أيِّ خيال. نعم، إنَّه حقاً الأكثر موهبةً للمطبخ من بين – قطعت مارسيلا الفكرة في منتصفها، مذهولة ومضطربة قليلاً – كانت على وشك أن تقول لنفسها: من بين أولادي.

هزَّت رأسها مبتسمةً وغرزت المغرفة في الطنجرة، كان الحرُّ شديداً حقاً في المطبخ. وكان ما يزال يلزم تحضير الفاروفا، كيلو على الأقلِّ لتكفي الجميع. والغسَّالة، كان يلزم حقاً أن تتذكَّر تشغيلها وإلاَّ فمن أين تجد بعدها سبعة سراويل قصيرة نظيفة. أعادت خصلة شعر عرقانة إلى مكانها مع تهيدة: إي، لم تعود فتاةً صغيرة يا مارسيلا، ليس غريباً إلى هذا الحدِّ أن تكوني متعبةً في المساء بعد أن سعتِ خلف أسرة من عشرة أشخاص. لا، أحد عشر، أحد عشر، فالآن هناك أيضاً ياماندي الخارج من المستشفى، ونشكر السماء أنَّه بخير، فتى جميل هكذا، كانت ستكون خسارةً حقاً.

كانت ابتسامة ياماندي تمتدَّ من طرف وجهه إلى طرفه منذ خرج من المستشفى: فأخيراً، بعد كلِّ ذلك الوقت الذي لم يكن يستطيع فيه إلا أن يصغي إلى حكايات ألف أعجوبة وشيء غريب و«لو تعلم هذا» و«لو رأيت ذاك»، أخيراً صار يستطيع أن يرى بعينه وأن يجزِّب كلَّ ما كان الآخرون قد ملَّوه قليلاً سلفاً، وكان يجول متأرجحاً على ساقه التي عادت إلى الخدمة وفي عينيه سعادة طفل في مدينة الملاهي. قالوا إنَّهم الآن وقد شُفي سيعودون إلى الغابة، لكنَّه لم تكن لديه أدنى رغبة في ذلك، لا قبل أن يرى ويجزِّب كلَّ ما فعله الأصدقاء.

كاد يتشاجر مع أوبيراتان وإيتاونا في المساء السابق، لأنَّهما لم يكفَّا عن الكلام عن أنَّهم سيعودون قريباً إلى القرية، قريباً جداً، وأنَّهما لا يطيقان صبراً لرؤية المرأة والطفل والأمِّ والأخ والشيخ وآخر المولودين، وربَّما حتى ذلك المزجج إيتاتاكوارا، ولم لا أكل النمل أو العنكبوت، يا لهما من صديقين مملَّين.

كان مواسير وكاوي في صفِّه، فلم يكن يبدو أنَّ عندهما كلَّ هذه العجلة للعودة إلى الغابة. كان لعب كرة القدم كما فعلوا في تلك الفترة الأخيرة يعجبهما كثيراً، وكانا يتسلَّيان بالإلماحة التي ألمحها لهما أنطونيو – ولم يكونا يعرفان كم عَضَّ لسانه بعدها – بشأن أنَّ فريقين اتَّصلا به بعد أن رأيا الفتيان يلعبون خلال الجولة ليعرفا إن كان الفتيان قد يهتمَّون بعقد.

ثمَّ إن بدا له أنَّهما متردَّان كان ياماندي قد فهم سلفاً أنَّه يكفي أن يذكر الدَّراجة ليجعل مواسير بمتعض عند التفكير في اشتباك الغابة، وأن يتكلَّم عن غابرييليتا ليرى الأمل يشتعل من جديد في وجه كاوي، أمل تلك الأرجوحة الشهيرة.

وفي الحقيقة، وبمناسبة الأراجيح، كانت عند ياماندي نفسه نصف فكرة بأن يعود لزيارة جوانا، أخصائية العلاج الطبيعي، التي كانت طويلة كبراً هكذا وببيدين عريضتين خفيفتين، ولعلها، لعلها كانت سترغب في مواصلة تعليمه البرتغالية.

عرض أنطونيو على إيزابيل جعة أخرى قبل العودة إلى البيت للعشاء: كان سيحس بشيء من الحرج لو ترك والديه وحدهما يتعشيان مع الفتیان، محاولين فكّ عُقد سوء مزاجهم وشجاراتهم الصغيرة دون أن يفهما حتى لغتهم. كانا يفعلان الكثير أصلاً، الكثير جداً، من أجلهم جميعاً، وحتى جانيتا التي وجدت نفسها تقوم مقام الأخت الكبرى لعصبة كاملة من الشبان الذين يفعلون واحدة ويفكرون في مئة، كانت بين حين وآخر، مهما كانت صبورة حنونة، تبدأ تبدي علامات ضجر.

قبلت إيزابيل بسرور، فقد كانت لها هي أيضاً خطط أخرى للعشاء وأرادت أن يتسع لها الوقت للعودة إلى الفندق الذي قرّرت أن تقيم فيه مع روبرت لتغيّر ثيابها: كان بيتاً أن أنطونيو لا يعبأ إطلاقاً بلباس محاوريه – لعلّه في رأسه يرى الجميع عراة أحراراً وليس على جلودهم سوى النسيم، فكّرت بضحكة صغيرة حاملة – لكن روبرت كان يستحسن امرأة حسنة اللباس، وكانت هي تستحسن أنه يستحسن.

استمرّ الحديث مسترخياً، فقد كان أنطونيو قد قرّر الآن أن اقتراح إيزابيل بأن تتولّى الجوانب القانونية والعملية لوضع جزئهم الصغير من الغابة تحت الحماية ليس الطريق الوحيد القابل للسلوك فعلياً فحسب بل هو أيضاً الأفضل الذي قد يجده. وكان قد عرفها بماريانا، ولأنّ الاثنين، والحمد للسماء، توافقتا كثيراً، فإنّ كفاءتهما مجتمعيتين ستكونان فعاليتين، أو هكذا كان أنطونيو يرجو.

بالتأكيد سيأخذ إتمام المسألة كلّها بعض الوقت وسيلزم تأجيل العودة إلى القرية، لكن كان لا بدّ بالضرورة أن يبقى أنطونيو في متناول الاتصال على الأقلّ ليوقع الأوراق ويوافق على ما تعمله إيزابيل وماريانا: فلو اختفى من جديد في الغابة لما أمكن للمشروع أن ينطلق أصلاً.

كان الاضطرار إلى الانتظار يؤسفه قليلاً، فقد كان قد كوّن سلفاً فكرة بأنهم، الآن وقد استعاد ياماندي عافيته تماماً، سيستطيعون في وقت قصير جداً أن يحدّدوا موعد الرحيل، وكانت لهفة رؤية جانائنا وإيبيراتا من جديد، ورؤية أخضر القرية العطر الرّنان، والعودة منتصرين إلى القبيلة وقد أتمّوا مهمّتهم، قد اشتدّت، ومن بعض الوجوه كان حقاً لا يطيق صبراً على الرحيل.

لكن ممّا كان يعزّيه، وكانت تعزيةً صالحةً إلى حدّ أنّ عينيه كانتا تضيئان بمجرد التفكير فيها، أنّ البقاء قليلاً بعد في ماكابا يعني أن يستطيع مشاهدة كأس العالم، وحسناً، لا يمكن القول حقاً إنّ ذلك أمر تافه. لكن بمجرد التفكير في ذلك غلبه الضحك: أمّي وأختي وأبي جالسين معي في الصالون مع سبعة هنود مصطفيين بأدب في حلقة أمام التلفاز، والنوافذ مفتوحة والأعلام جاهزة، بالملابس الداخلية، والفول السوداني والجعة للجميع، نشجّع.

3.33 صرخات

الصرخات والضحكات تتردّد من طرف الحافلة إلى طرفها الآخر. أصوات الطريق الألف تبدو وكأنّها تلاشت، يغطّيها ضجيج الشباب والطيش. وفي رؤوسهم يعرفون منذ الآن أنّ أشدّ الصرخات إشراقاً وابتهاجاً ستكون تلك التي ستخرج من حناجرهم بعد شهر. ليسوا بعدُ عالين بما يكفي ليطلّوا على العالم، لكنّهم قريبون. لا يبلغ هذا الارتفاع إلّا الأقوى والأشجع، فيجولون بالنظر على سعة المدرجات اللانهائية ويفهمون أنّك بلغت القمّة، وأنّه لا يمكن الصعود أعلى من هذا. لم يجزّبوا هذا الإحساس بعد، لكنّهم سمعوه يُروى مرّات كثيرة. واليوم هم الرجال الأقوياء الشجعان الذين عليهم أن ينجزوا المأثرة. قريباً سيكونون هم من يثقب الشباك البيضاء التي تحيط بهم، وسيكونون هم من يروي للأطفال ما الذي يشعر به المرء حين يصعد على سطح العالم.

صوت الضحكات وصيحات التشجيع التي يشجّعون بها أنفسهم يغطّي كلّ شيء: صوت الموسيقى الخارجة من سماعات من أراد أن يسترخي فحسب، صوت من يرددش مع جاره، غير مكترث بالمهمّة التي تنتظرهم. وصوت شيء معدنيّ ينحني تحت الدفعة الجبّارة للمركبة ثمّ ينكسر.

ثمّ تأتي لحظة صمت، ثمّ تصوير الأصوات قبيحة، تصوير ضجيجاً. ضجيج ما كان ينبغي أن يكون: ضجيج أجزاء معدنية أخرى تنكسر، ضجيج خوف، ضجيج ارتطام رهيب. ثمّ صرخات الألم واليأس.

”الفصل 4“

4.1 هذا من جهة

كانت الحافلة قد انقلبت على نفسها وترقد وعجلاتها في الهواء على حافة الطريق، وجانبها مشقوق كأنَّ أحدًا مرَّ ليخدشه بمنشار كهربائي بدل مفتاح.

أول السائقين الذين وصلوا إلى المكان ونزلوا من سيّاراتهم للمساعدة لاحظوا ألوان البرازيل مدهونةً على الجانب. ثمَّ لاحظ أحدهم أنَّ الحافلة تبدو جديدةً تمامًا وأنَّ الرسم مختلف عن رسم الحافلات الكثيرة التي تعلن عن كأس العالم لكرة القدم الوشيكة، وقرأ آخر العبارة «استعدّوا! السادس قادم»، التي كانت قد اختيرت عبارةً رسميةً للمنتخب، مثيرةً جدلاً كثيرًا بين كلِّ من يذكرون هزيمة 1950.

«ربّما كتبوها على كلِّ الحافلات؟»

«لا أدري، لا أدري، أنا قلت إنّها تجلب النحس.»

وكلّما كبر الشكُّ صارت عمليات الإسعاف الأولى أشدَّ اضطرابًا.

انكبَّ ثلاثة رجال أشداء بهمة على خلع الباب ليشقّوا لأنفسهم طريقًا إلى الداخل، وحين نجح أولهم في الدخول وحطّت نظرته على ذلك الوجه الذي رآه مرارًا كثيرة في التلفاز ثمَّ على وجه آخر وآخر بعد، جاء التأكيد، وعلت صرخات المسعفين اليائسة في شدّتها على صرخات الجرحى الذين كانوا يطلبون النجدة.

لم يمت أحد. هذا من جهة. ومن جهة أخرى كانت مأساةً مطلقة: فعلى متن الحافلة كان يسافر المنتخب البرازيلي بأسره، الذي كان يُفترض أن يبدأ مشواره في كأس العالم بعد أسبوعين، وبدا أنَّ كلَّ اللاعبين تقريبًا قد جُرحوا أو كُسِر لهم شيء. ومنذ أول التقارير التلفزيونية وأول مقالات الجرائد على الإنترنت، ومنذ أول النقاشات في الشارع وفي المقاهي وفي أماكن العمل، بدا أنَّ الجميع يفكّرون التفكير نفسه: فبعد أن يُستنفد في أول الكلام واجبُ الشعور بالارتياح لغياب عواقب أشدَّ مأساويةً، يُنتقل إلى فحص العواقب الخطيرة التي قد تكون لضربة بهذه القسوة على المنتخب البرازيلي. حتى إنّ العبارة صارت بسرعة لازمةً على كلِّ لسان: «لم يمت أحد. هذا من جهة...»

4.2 لايك

كسائر مواطنيها، كانت يايا هي أيضًا قد اجتاحتها دوامة عدم التصديق واليأس إثر الخبر (صار فورًا الخبر، ولم تكن هناك أي حاجة إلى تحديد أي خبر). رسالة صغيرة من داني على واتساب، مليئة بالوجوه الباكية وعلامات التعجب، جعلتها تشعل التلفاز، وطوال ساعتين شاهدت كل نشرات الأخبار، وكل التقارير من الطريق السريع ومن المستشفى، وردود الفعل من الخارج، ورسالة التشجيع من الرئيسة، وكل ذلك تتخلله نغمة تنبيه لا تنقطع تشير إلى وصول رسائل جديدة من أصدقائها عبر واتساب وفيسبوك وتويتر وكل تطبيق آخر ثبتته على الهاتف. وكان الكلام عنه حتى في محادثة روزل، بل عاد إلى الحياة نقاش قديم على أوركوت.

ثم، دفعةً واحدة، أطفأت التلفاز والحاسوب والمحمول، بحثًا عن سلام. كانت تريد أن تنام لكن السلام لم يأت، إذ كدّرتة الجلبة الآتية من المطبخ حيث كان والداها وأخوها يتشاجرون بشأن قانون ما عن سلامة الطرق لم تلتقطه ولم يكن يهتمها في تلك اللحظة.

وقد أسندت رأسها إلى وسادتها المحبوبة المحشوة بالحنطة، جالت بنظرها في العتمة على الصور المعلقة على الجدار، تلك التي تشير إلى التطور الجاري في غرفتها الصغيرة، غرفة فتاة في السادسة عشرة. الملصق الوحيد من الحرس القديم الذي كان ما يزال بصمد، لأسباب تتعلق بالمحبة التاريخية أكثر من أي شيء آخر، كان ملصق جاستن بيبير الذي أهدها إيّاها فاييو قبل ثلاث سنوات. أما الملصقات الأخرى فقد استبدلت بصور وقصاصات تظهر يايا أنضج وأوعى بمشاكل العالم المحيط بها. ملصق لغرينبيس، وتذكرة مؤطرة لحفلة لثيتانس، وصورتان لكاميليا فاييخو ولكينيدي. أما الجانب الرياضي فكانت تغطيه قصاصات من مجلات فيها ثلاثة من أوسم لاعبي المنتخب، والكرة في أيديهم والقليل على أجسادهم، يُبرزون مواهبهم خارج كرة القدم، وإلى جانبهم صورة مواسير، ذلك الهندي الشاب الذي لم يكن هو أيضًا سيئًا إطلاقًا (ليس سيئًا أبدًا، أبدًا) والذي كان، على ما رأت في التلفاز، يدبر أمره جيدًا جدًا في الملعب أيضًا.

عادت نظرتها لحظةً إلى جون كينيدي، الذي كان يدعوها لتسأل نفسها ماذا كان يمكن أن تفعل هي من أجل أمّتها. ثم من جديد إلى الوسماء الثلاثة في السيليساو وإلى مواسير، السيليساو ومواسير، مع ذلك الإحساس بفكرة تتشكل لا في الرأس بل في الصدر ثم تصعد أخيرًا وتتجلى بكل وضوحها.

أشعلت الماك من جديد، تنقر على المكتب بظفرها المطلي بالأخضر وهي تنتظر مرتجفة، وما إن أمكن حتى دخلت إلى فيسبوك. كشف لها بحث قصير عن مجموعات عزاء عدّة بشأن الحادث، منها «لنصلّ من أجل السيليساو والبرازيل كلّها» التي كان لها سلفًا أكثر من عشرين ألف منتسب. وكانت قد أنشئت سلفًا صفحات لا تُحصى لدعم استدعاء هذا اللاعب أو ذاك، ملأى بنقاشات كان يعرض فيها أشخاص عقلاء وجهات نظرهم بالرزانة المعتادة: «أوريستي قوي جدًا، كان ظلمًا ألا يستدعوه من قبل، القدر هو الذي حفظه لهذه المناسبة.» «إن استدعوه فأرجو أن تتعرّض الحافلة لحادث جديد.» «يُفهم أنّك لم تشاهد مباراة كرة قدم في حياتك (-)» «يُفهم أنّك أعمى -D- وهلمّ جرًا.

أعادت يايا خصلتها البرتقالية إلى مكانها ولاحظت مسرورة أنّ أحدًا لم تخطر له فكرتها بعد. نقرت على «أنشئ صفحة»، وكتبت «لنرسل أسو كآ إلى كأس العالم»، واختارت للغلاف صورة جميلة لأحد الفتیان منشغلًا بمقضية مذهلة، وضغطت «إرسال» ونظرت راضيةً إلى عملها. وبينما كانت تفكر في الخطوة التالية رأت أنّه ظهر على الصفحة أول لايكين: لايك فاييو (ويا للعجب! أنّه استغرق عشرين ثانيةً كاملة أمر يكاد يكون مريبًا: أترى إعجابه بي بدأ يزول؟) ولايك ابنة عمّتها باتريسيا.

ثم تتابعت اللايكات الأخرى من الأصدقاء المعتادين الذين تتفاعل معهم أكثر، بما فيها لايك جدّتها الذي ردّته يايا بقلب صغير متسائلة ماذا تفعل مستيقظةً في هذه الساعة (لكن ربّما جدّتي تتساءل الشيء نفسه عني، لول). تسعة وثلاثون لايكًا في نصف ساعة، في الواحدة ليلاً: كان بلا شك أكبر نجاح لها منذ صارت على فيسبوك. تردّدت قليلًا على زرّ «أبلغ كلّ أصدقائك بهذه الصفحة»، الذي كانت تعارضه عادةً أشدّ المعارضة، لكنّها هذه المرّة كانت لقضية طيبة. نقرت «إرسال» وفي غضون ربع ساعة كانت قد بلغت سبعة وستين لايكًا. أول استحسانين آتيين من مجهولين، أصدقاء لأصدقاء، اسمهما فيرناندا غرينبيس وفيكتور مينيزيس، منحاهما رضىً كبيرًا، ومع الرضى جاء أخيرًا الهدوء أيضًا.

أطفأت الحاسوب من جديد، وما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى أحسّت أنها على وشك النوم سلفًا، لكن اتّسع لها الوقت لفكرة أخيرة: تخيلي يا لها من روعة لو استيقظت صباح غد وكان هناك مئة لايك.

عند استيقاظها كانت اللايكات قد قاربت الألف وكانت قد ظهرت سلفًا نقاشات حول أيّ الهنود الستّة أنسب للذهاب لتعزيز السيليساو وفي أيّ مركز. كانت يايا مكهبة وقرّرت أن تتخطى الفطور لتعني بالصفحة على نحو أفضل. وجدت صورة لكل واحد من الستّة (أنطونيو استبعدته دون تفكير حتى. ولو فكّرت في الأمر، على كلّ حال، لكانت الفكرة «عجوز أكثر من اللازم ثمّ إنه ليس هنديًا حقيقيًا أصلًا») وأنشأت ستّة منشورات مخصّصة، مغنيّة إيّاها بالمعلومات القليلة التي نجحت في إيجادها في تلك العشرين دقيقة. ثمّ خرجت من البيت وركضت إلى المدرسة.

في مدرسة قلب مريم المقدّس في برازيليا كان يسري منع صارم لاستعمال المحمول في الصّف. ولم تكن يايا قد خرّفته قطّ في سنتين، لكنّ مقاومة الإغراء في ذلك الصباح كانت أشقّ بكثير من المعتاد. في أوّل استراحة ركضت إلى الحّمّام مع الصديقات الموثوقات وأشعلت المحمول، لكنّ نتيجة مخيبة استقبلتها: ألف واثنا عشر لايكًا. أطلقت داني صرخة غير مصدّقة وفعلت ليتيسيا مثلها، لكنّها لاحظت تعبير يايا المخيّب: «ألف لايك؟ يا لها من روعة، جنون! ما هذا الوجه؟»

«لا، الأمر أننا كنّا عند الألف سلفًا هذا الصباح حين خرجت من البيت، كنت أرجو أن يمضي الأمر أسرع. لعلّ الدفعة نفدت. لا بأس، يا خسارة.»

«هل جننت؟ هل تعرفين أحدًا عنده ألف لايك على صفحة ليست «أعشق جاستن بيبّر» أو «ليو دي كابريو تزوّجني»؟ ينبغي أن تتباهي من هنا إلى الأسبوع القادم، لا أقلّ!» حاولت ليتيسيا أن تسندها مرّة أخرى، فصعقتها فورًا نظرة الآخرين: كيف تجرؤ ليتيسيا على أن تنسى الإهانة التي وقعت على يد عدوّتهنّ اللدودة ماريا إدوارد، التي كانت تحمل الرقم القياسي المدرسيّ بأكثر من ثلاثة آلاف لايك على صفحة تملّقية إلى أقصى حدّ لوصف المدرسة.

«آه، نعم. أنسى دائمًا. لا بأس، لكن صفحة إدوارد يعرف الجميع أنّ لايكاتها اشتراها لها أبوها.»

«على كلّ حال،» اختصرت داني، وهي الأكثر عملية، «يجب ألاّ تستسلمي. هل وضعت الرابط على تويتر؟ واتساب؟ لا، أليس كذلك؟ هيا، لنشر هذه الصفحة، فأنا أريد أن أرى تقطيعًا مختلفة على وجه إدوارد.»

من: fernanda.silva @ greenpeace.br – الساعة: 10.39

إلى: [صديقات غرينبيس + أميغوس دا تيرا]

الموضوع: فكرة جميلة

مرحبًا يا بنات،

أمس مساءً كنت أجدول شبه يائسة على فيسبوك حين صادفت هذه الصفحة: «لنرسل أسو كآ إلى كأس العالم». إنّها فكرة جميلة، أليس كذلك؟ ما رأيك، نجرّب أن ننشرها ونرى إلى أين نصل؟

قبرات

ف

نحو الظهر، وقد استيقظ منذ ما لا يزيد على عشرين دقيقة، كان فيكتور مينيزيس يفطر أمام الحاسوب، باحثًا عن مدخل لمقال يرسله إلى «جورنال دي تاغواتينغا»، موقع الأخبار المحليّة الذي كان يتعاون معه. كان يريد بداهة أن يتكلّم عن الخبر، لكنّه كان يحاول أن يعطيه زاوية مختلفة عن آلاف المقالات الأخرى التي لم تكن تتكلّم عن سواه، حين خطرت له تلك الصفحة على فيسبوك التي وضع عليها لايكًا في المساء السابق. وجدها من جديد، وألقى نظرة على حساب الفتاة التي أنشأتها، وفكّر: تصلح، وفي غضون عشر دقائق أرسل مقاله.

في الواحدة وخمس دقائق، ما إن دقّ الجرس، أشعلت داني هاتفها وبحثت فوراً عن الصفحة التي أنشأتها يايا. من أول نظرة قُطِبَت خيبةٌ، لكنّها فهمت بعدها أنّها قرأت خطأ وأنّ في عدد المنتسبين رقماً زائداً عمّا كان في الصباح. ودون أن تُري صديقتها الشاشة حتى، ركضت إلى الصّف المجاور، في الوقت المناسب تماماً لتصادف ماريا إدواردًا وتصفعها بالواقع القاسي: «صفحة يايا فيها أحد عشر ألف منتسب ولا واحد منهم دفع ثمنه بابا!»

في الثالثة والنصف صادف جاسي، من غرفته الصغيرة في وسط ماناوس، صفحة يايا، التي كان فيها ستّة عشر ألف منتسب. كان جاسي في الثالثة عشرة. وحتى شهرين مضيا لم يكن اسمه، الذي قال له والداه إنّهُ اسم أصليّ قديم، يعجبه كثيراً. لكن منذ خرج خبر أولئك الهنود الذين يلعبون بالكرة على أحسن ما يكون وأحدهم يحمل اسمه هو نفسه، صار في غاية الفخر به بل اخترع سلسلةً من الحكايات الغامضة عن روابط دم مع محاربين قدماء في الغابة. كان قد سجّل كلّ مبارياتهم التي بثّها التلفاز، وأعدّ الآن مونتاجاً بأجمل حركاتهم. رفعه على صفحة يايا، مع التعليق: «بأبطال كهؤلاء، الكأس لنا.»

في السابعة مساءً لم تكن يايا تنجح في نزع نظرها عن الحاسوب. الصفحة التي أنشأتها قبل أقلّ من أربع وعشرين ساعة صار فيها أكثر من ثلاثين ألف منتسب، بفضل الفيديو الجميل جدّاً الذي رفعه جاسي 00 أيضاً، فتّى نبيه أنهت الدردشة معه قبل دقائق قليلة.

في اليوم التالي جاءت داني وليتيسيا لأخذها بعد الظهر، ثمّ مرّتا قريباً من هناك لأخذ ابنة عمّتها باتريسيا وذهبن للاحتفال. كانت يايا في نشوة، لكنّها كانت أيضاً تحسّ نفسها سخيّة قليلاً، لأنّها لم تكن تنجح في كبت الإحساس بأنّها شخص مشهور متخفّف. أه، لو تعرفون من أنا...

وبينما كانت الفتيات يرقصن، كان آلاف الصحفيين الرياضيين في غرف التحرير في العالم كلّ يحاولون تكرار مأثرة فيكتور مينيزيس الصباحية: أن ينجحوا في إيجاد زاوية غير مسبوقة للكلام عن الخبر المدوّي، خبر حادث حافلة المنتخب البرازيلي. إمار ستود، محرّر شابّ في سي إن إن مخطوب لطالبة أنثروبولوجيا في جامعة إيموري في أتلانتا بجورجيا، عاد بذاكرته إلى بعض المحادثات التي دارت في الأسابيع السابقة مع جيل بشأن تلك القبيلة الأمازونية التي برزت حديثاً. بحث عن بعض المعلومات على الشبكة فصادف أولاً فيديو جاسي 00 ثمّ صفحة يايا.

يخرج من هنا مقال صغير جميل، فكر راضياً.

عادت يايا إلى البيت في الثانية صباحاً وتطبّيراً قرّرت ألاّ تتفقّد المحمول ولا أن تشعل الحاسوب وذهبت رأساً لتنام. لنرّ غداً، كانت فكرتها الأخيرة.

وحين استيقظت أطالت الانتظار أكثر. كان أحد المعلّمين غائباً فتأخّر دخول المدرسة ساعتين: أخذت دوشاً طويلاً ثمّ فطورتاً وفيراً بالحليب وخبز الكاموت ومرّبي الليمون الأخضر. وكانت تقرّر أن تذهب لتشعل الحاسوب، حين سمعت وابلًا من الطرقات على الباب. فتحت، فاندفعت إليها باتريسيا التي من العجلة لم تكن قد ملّست شعرها حتى: «ألا تقولين لي شيئاً؟ أتدركين؟»

«لا أقول لك شيئاً ماذا؟ الصفحة؟»

«نعم! ألم تتفقّديها بعد، هذا الصباح؟»

«لا...» أجبتها يايا مرتجفةً سلفاً من الإثارة.

ركضتا إلى الغرفة وانتظرتا أن يشتعل الماك، ويايا تقهقه وهي تنظر إلى هياج ابنة عمّتها. فتحت فيسبوك ودفعته واحدة كفّت عن الضحك.

مليونان وأربعمئة ألف وسبعمئة وثمانية عشر لايكاً. كانت الصفحة قد ذُكرت في خبر على سي إن إن دوت كوم، ومن هناك نقلتها تباعاً كلّ كبريات صحف العالم، كلّما تحرّك خطّ الفجر على الأرض موقظاً سكّانها.

كانت غريزة يايا الفورية أن تتفقّد كم لا يَـكّا على صفحة الرئيسة: 450.000. ها! وأنا حتى أمس كنت أتسابق مع ماريّا إدواردّا. ثمّ تفقّدت صفحة الرئيس السابق: 765.000. صفحتها كان فيها لايكات أكثر حتى من صفحة السيليساو نفسها.

وحين انتهت من جولة المقارنات أحسّت نفسها فارغة، لا تدري ماذا تفعل غير ذلك. كان يمكنها أن تقضي الوقت تُنوّم بعدّاد اللايكات، الذي كان يصعد بمعدّل مئة في الثانية، لكنّها التفتت بعد ذلك إلى باتريسيا التي كانت في هذه الأثناء قد راحت تنتحب، وعانقتها: «والآن؟»

بعد دقائق قليلة دخلت أمّها الغرفة لاهثةً، مادّة إليها الهاتف: «إنّه محرّر في ريتي غلوبو. يريدون أن يكلموك.»

4.3 الاستدعاء

من المحمول الموضوع على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير انطلق النشيد الوطني الذي كان المدرب، بسخرية كان يمكن لمن يعرفه قليلاً أن يخلط بينها وبين التزلّف، قد خصّصه لرقم واحد بعينه.

«يا يسوع الفادي. وماذا تريد هذه من جديد؟ وماذا عساي أقول لها يختلف عمّا قلته مساء أمس؟»

«ربّما تريد فقط أن تسمع كيف حالك» اقترحت الممرضة التي كانت قد انتهت للتوّ من إعادة ترتيبه في السرير.

«أهلاً بك على كوكب الأرض أيتها الكائنة الفضائية الشابة»، خاطبها المدرب «هل في مجرّتك ساسة لا مصلحة لهم؟»

نهض بصعوبة، مرتكزاً على ذراعه غير المكسورة ومحاولاً أن يوقظ أقلّ ما يمكن الألم في أضلاعه، وخفض صوت التلّغاز الذي كان يعرضه وهو يبلغ الأّمّة ما قاله في المساء السابق وما سيكرّره الآن، وردّ: «سيّدتي الرئيسة! يا لسروري بسماعك اليوم أيضاً!»

وبعد تبادل طويل عديم الفائدة للمجاملات، أطلعها المدرب على حال الوضع، الذي كان هو نفسه حال اليوم السابق واليوم الذي قبله. فبالنظر إلى استثنائية الحدث، كانت الفيفا، بموافقة إجماعية من كلّ البلدان المشاركة الأخرى، قد قرّرت أن تمنح البرازيل أقصى مرونة في تحديد قائمة المستدعين، التي صار عليها أن تُحسم قبل الحادي عشر من يونيو، اليوم السابق لبدء كأس العالم.

من اللاعبين الثلاثة والعشرين المشمولين بالحدث خرج ثلاثة شبه سالمين، عدا بعض الرضوض أو الجروح الطفيفة. وخمسة آخرون، منهم فوغيتي، كانت إصاباتهم أخطر، وهي ستمنع مشاركتهم في المباريات الأولى، لكن ربّما - ربّما - يمكن استعادتهم للمرحلة النهائية من البطولة. أمّا الخمسة عشر الباقيون فكانوا غير صالحين، فبين سيقان وأذرع ورؤوس وأضلاع مكسورة كانت لهم جميعاً فترات نقاهة تتراوح بين شهرين وستّة أشهر.

«إنّها مأساة، هذا من جهة، لكن ما يزال يبدو لي معجزة أنّكم جميعاً أحياء» قالت الرئيسة شبه هامسة.

أوماً المدرب بقشعريرة وواصل التقرير: «وضعت سلفاً، بالاتّفاق مع معاوني، قائمة اللاعبين المطلوب استدعاؤهم، ونحن بصدد الاتّصال بهم في هذه الساعات. بدهاء كلّهم آسفون للمصير الذي أصاب الرفاق...» نعم، بالتأكيد، آسفون إلى أقصى حدّ، فكّر المدرب، كيف لا! «لكنهم في الوقت نفسه مشرّفون بأن يكونوا قد استدعوا لرفع رايتنا عاليًا في هذه اللحظة من الصعوبة الكبيرة. كلّهم لاعبون من مستوى لا يدع عندي شكًا في أنّ الكأس ستكون لنا على كلّ حال بعون الله وبعون التورسيديا البرازيلية.»

أوقف المدرب دماغه مؤقتًا، مستعدًا لتجاهل الترهات الأخيرة عديمة الفائدة من التتمّيات والتشجيعات، البلد يعوّل عليكم وبلا وبلا وبلا، وإذا به يفاجأ بسعلة الرئيسة الصغيرة، إذ تنحنحت وقالت: «إمم. حسّنًا، بهذا الخصوص...»

«لكن هل هم كلّهم أغبياء؟ هل هم كلّهم أغبياء تمامًا؟ أنت، هناك، ماذا، ما اسمك!» خاطب المدرب الممرضة التي كانت، في زاوية، تنقل نظرها مذهولة بين النتوء في الجدار وبقايا المحمول المتناثرة في نصف الغرفة.

«ناتاليا، سيّدي.»

«ناتاليا، قل لي: بعد حادثنا، وأنا مغميّ عليّ، هل ضربت الأّمّة كلّها رأسها على الطاولة مصادفةً وصرنا الآن محاطين بمئتي مليون أحمق؟»

«لا... لا أظنّ يا سيّدي.»

«لا، لأنّي لا أعرف كيف أفسّر الأمر بأيّ طريقة أخرى، يا سيّدة القديسة يا الله.»

مدّ يده ليأخذ المحمول من الطاولة الصغيرة وتذكّر باستياء أنّه قذفه للتوّ على الجدار.

«روزيتا، أتعيريني هاتفك لحظة؟»

«لا أحمله معي أثناء العمل يا سيّدي،» كذبت ناتاليا، وعيناها مثبّتان على بقايا الآيفون (من يدري إن كان شيكو ينجح في إعادة تركيبه وتشغيله من جديد، فكّرت).

«لا يهّم، فأنا على كلّ حال لم أعد أعرف رقماً واحداً عن ظهر قلب، تّبّاً للتقنية! اسمعي، اصنعي لي معروفاً: اذهبي إلى أحد اللاعبين الراقدين هنا وقولي له إنّ المدرب قال أن يتّصل بشياغو ويجعله يأتي إلى هنا في أسرع وقت.»

«حسنًا يا سيّدي.»

«واجعليه يقول له أن يحضر لي هاتفًا جديدًا أيضًا!» صرخ المدرب خلفها، ثمّ عاد يكلم نفسه، بينما كانت ناتاليا تخرج مسرعةً من الغرفة.

«فيسبوك. تويتر. الشبكة. لكن يا لع... لكن ماذا تقول بحقّ الجحيم؟ آممم لكنّي سأكسّر كلّ شيء، سأكسّر. يا إلهي، دعني أضع يديّ على ذلك الأبله الذي خطرت له هذه الفكرة!»

4.4 ثياغو

ساعد ثياغو المدرب على ارتداء البدلة الأنيقة التي كان قد أوصلها إليه للتو.

«لكن هل تدرك؟ لم تبقَ إلا أيام قليلة جدًا على بدء البطولة، وعلينا أن نبدأ عمليًا من الصفر، وهؤلاء المعتوهون يرغمونني على إضاعة الوقت خلف هذه... هذه... عريضة لإرسال الهنود إلى كأس العالم! هل تدرك، يا الله القدوس؟ آي، انتبه قليلًا!»

كان المدرب نهرًا فائضًا، وكان ثياغو يكتفي بمساعدته على اللبس وبالإيماء، أيًا كان ما يقوله.

«هؤلاء يطلقون عريضةً على فيسبوك وعليّ أنا أن أصغي إليهم، كأنه أمر جاد. لكنّ العالم جُنّ تمامًا، أقول لك! أوتش!»

أومأ ثياغو وعقد له ربطة العنق على أفضل ما استطاع بالنظر إلى أنّ المدرب لم يكن يهدأ لحظةً.

«وأَيّ عريضة! مجموعة من الفتيان الصغار لا يتكلمون البرتغالية حتى ولم يلعبوا مباراةً حقيقيةً في حياتهم قط. لكن لماذا لا نطلق مباشرةً عريضةً لإهداء الفيفا إلى الإيطاليين أو إلى الألمان، أقول لك. آي. انظر، كنت سأخذ على محمل أشدّ جديةً عريضةً تطالب باستدعاء رونالدو وزيكو وبيليه. لكن ربّما الأفضل أن أصمت، الأفضل ألا أعطيهم أفكارًا أخرى.»

فرضية «الصمت» ما كانت لتزعج ثياغو، لكنّه لم يبنِ عليها كثيرًا من الأوهام. وفعلاً.

«لا بأس يا ثياغو، شكرًا. اسمع، إلى استوديوهات التلفاز أذهب بسيارة أجرة، لا حاجة إلى أن ترافقني، أحتاج إليك على جبهة أخرى: التصق بالهاتف، وبالإنترنت، وبأي شيء، وجد لي مخرجًا قانونيًا يمنعني من استدعائهم، فلا يُعرف أبدًا، قد يكون هؤلاء العاجزون جادين.»

وقّع المدرب بذراعه العلية أوراق الخروج المبكر من المستشفى، وودّع بحرارة الطاقم الطبيّ الذي اعتنى به، وطلب أن تُستدعى له سيارة أجرة.

كان ثياغو على الهاتف، وقد بدأ يكلم أحدهم. فتى طيب، فكّر المدرب وأباح لنفسه أخيرًا ابتسامة.

4.5 بث مباشر

على بعد ألف كيلومتر فتحت أمّ يايا باب غرفتها على مصراعيه: «وصلت سيّارة ريتي غلوبو. هل أنت جاهزة؟»

«أصل حالاً» ألقت يايا نظرةً أخيرة في المرأة، ولمسةً أخيرةً جدّاً بأحمر الشفاه، ثمّ التفتت نحو باتريسيا وداني وليتيسيا فنالت موافقتهنّ وثلاث قبلات تشجيع. ألقت نظرةً أخرى على المحمول، المثبت على صفحتها في فيسبوك. أربعة عشر مليون لايك. تجاوزت بفارق واسع صفحة كأس العالم 2014 الرسمية. وكآخر شيء على الإطلاق ألقت نظرةً على ملصق جاستن بيبير: **أنحسّ بأنفاسي تلاحقك يا عزيزي؟** غمزت له بعين وخرجت.

كان السير على طريق دبلو 3 نورتي أشدّ اشتباكاً من المعتاد، فوصلت يايا إلى استوديوهات ريتي غلوبو متأخرةً عن الجدول. أدخلت مسرعةً إلى غرفة المكياج الصغيرة، حيث أجلستها خبيرة تجميل ودودة بقدر ما هي محترفة على كرسي صغير، وفي الوقت الذي قالت لها فيه: «أوي يا بنيّتي، يا له من مكياج رائع، واضح أنّها مرّتك الأولى في التلفاز وأنك حرصت عليها، أليس كذلك؟ أنت مثالية هكذا، مجرد لمسة صغيرة وبعد البرنامج نتبادل دردشةً وتشرحين لي بالضبط ماذا استعملت» كانت قد أزلت لها المكياج وأعادته وسرّحت شعرها من جديد على نحو مختلف تمامًا.

وما إن انتهت حتى دفعت مساعدة الإنتاج يايا إلى الاستوديو، ووُضع لها الميكروفون وأجلست على أحد الكرسيين. سلّمت بشرود على السيّدة ذات التايور الجالسة على الكرسي الآخر، وراحت تنظر حولها بفضول طفل: آلات التصوير، والمشغّلون المختلفون المحتشدون حولها، والشاشات العملاقة الثلاث، واحدة موصولة بالاستوديو المركزي والأخريان باستوديوهين أصغر شبيهين بالذي هي فيه.

يا خسارة أنّ الجمهور في الاستوديو المركزي وحده، فكّرت؛ لكن ربّما الأفضل هكذا، على الأقلّ لا أتوتّر. ثمّ إنّّه غريب، لماذا يخاف المرء من التوتّر أمام مئة شخص في استوديو، حين يعرف أنّ هناك ملايين الأشخاص ينظرون إليه عبر التلفاز؟ وعندئذ فقط خطر لها أنّ ملايين الأشخاص المنتبهين أمام التلفاز موجودون حقّاً وأنّ وقعهم أشدّ بكثير من وقع ملايين الأشخاص الذين وضعوا لايفكاً شاردًا على صفحتها في فيسبوك. يا إلهي! ملايين الأشخاص! نرجو ألاّ أظهر بمظهر مريع، أنا واثقة أنّ ماريا إدواردا هناك لا تنتظر سوى ذلك.

«هل أنت متوتّرة يا عزيزتي؟» سألتها السيّدة بلطف «لا تكوني. أنت شابّة وأنتم الشباب كلّكم جميلون، تظهرون دائماً على أحسن ما يكون في التلفاز. ويبدو لي أنّك شابّة قديرة أيضاً، لا جميلة فحسب. سيسير كلّ شيء على ما يرام.»

«أه؟ آه، شكراً» أجابت يايا بابتسامة. وردّاً على اللطف قرّرت أن تجاري محاولة الحديث هذه وكانت على وشك أن تسأل السيّدة إن كانت هي، على العكس، قد ظهرت في التلفاز مراراً من قبل، حين تعرّفت عليها أخيراً: «يا يسوع! سامحيني، ما تعرّفت عليك إطلاقاً. تبدين في الواقع أصغر بكثير» أضافت، متسائلة فوراً لماذا قالت جملة كهذه.

«إنّ سيلزمني أن أجعلهم يطردون أحداً» ردّت الرئيسة غامزةً لها بعين.

«جميلة، صفحتك في فيسبوك» قالت يايا عندئذ، وهي ما تزال تتساءل: **لكن ماذا أقول؟ يا إلهي، فقدت السيطرة على دماغي.**

«هذا من خبيرة كبيرة مثلك مديح كبير جدّاً.»

وقبل أن تستطيع يايا مواصلة هذيانها، أشار مساعد الإخراج سلسلةً من الإشارات، وتحرك الجميع بمهارة متمرّسة، وتغيّرت شدّة الأضواء، وبدأ البرنامج.

«سيّداتي سادتي، مساء الخير ومرحباً بكم في هذه الحلقة الخاصّة من “بوم ديا كوبا دو موندو”، أعلن المقدّم من الاستوديو المركزي في ريو دي جانيرو، وهو يتلذّد مسبقاً بنسبة المشاهدة القياسية التي سيحقّقها البرنامج «معنا في الاستوديو جيرسون لويس ريبيرا كاردوزو، رئيس اتّحاد كرة القدم البرازيلي، والبروفيسور إيفيرالدو كونرادو دي ميلو دياس، عالم الأنثروبولوجيا في جامعة ريو دي جانيرو.»

[تصفيق]

«وعلى الخط من ساو باولو معنا المدرب أليكساندري سيرجيو غونسالفيس، مدرب السيليساو، الذي نود أن نصق له فوراً تصفيقاً كبيراً لوجوده معنا رغم إصابته الخطيرة قبل ثلاثة أيام.»

[تصفيق عاصف]

«وعلى الخط من ماكابا معنا السيد أنطونيو كارلوس روشا دي ألميدا وفتيانه في فريق أسو كآ فوتيبول. ونحاول أيضاً أن نقيم اتصالاً مع رئيس الفيفا، هانس مالور، الذي هو في هذه اللحظة بالذات مسافر إلى ريو دي جانيرو: سنرى إن كنا سننجح في الوصول إليه. وعلى الخط من برازيليا معنا أخيراً الشابة المقدمة يايا أنيتا غيرمايس بيريرا، ولنختم بمفاجأة كبرى، رئيسة البرازيل نفسها سيلفينا ميلو. أهلاً بالجميع وشكراً لوجودكم معنا.»

[تصفيق]

«وقبل الدخول في الصميم، تحية حارة لأبطال السيليساو المنكوبين: ننتظر عودتكم أصلب وأقوى من قبل!»

كان التصفيق مدوياً ومتأثراً. وبعد سلسلة أخرى من المقدمات التي لا تنتهي، وصل المقدم أخيراً إلى صلب الموضوع.

«لكن لنبدأ فوراً من السبب الذي نحن هنا من أجله. يايا، أتحيين أن تكلمينا عن فكرتك وعن النجاح الذي حققته؟ نذكر المشاهدين الكرام بأن صفحة فيسبوك “لنرسل أسو كآ إلى كأس العالم” فيها في هذه اللحظة أكثر من 19 مليون منتسب، في نمو مستمر وسريع جداً.»

وحين أنهت يايا حكايتها، دون أن تتلثم ولو مرة واحدة (وقد وجدت فيها ماريادواردا أيضاً مكاناً لظهور قصير)، أعطيت الكلمة للمدرب للتعليق.

«المأساة التي حلت بنا هي، بالفعل، مأساة. وبصفتي المسؤول عن الفريق وباسم كل اللاعبين أود قبل كل شيء أن أشكر البرازيل كلها على المحبة والدعم الذي منحتمونا إياه في هذه الأيام.» قال غونسالفيس ناظراً مباشرة إلى الكاميرا «هناك حاجة إلى معونة الجميع، ومبادرات كهذه مثال على مدى استعدادكم جميعاً لبذل الجهد. لكن إن كان الحادث مأساة إنسانية، فإني أريد أن أطمئن مواطني: إنه ليس مأساة رياضية.»

[همهمات]

«بالتأكيد لن نستطيع أن نُشرك كثيراً من رجالنا الأساسيين ويؤسفني ذلك من أجلهم ومن أجلنا ومن أجل العالم كله الذي لن يستطيع أن يتمتع بثمارهم. لكننا لسنا بلدًا حالفه الحظ مصادفةً في 2014 بوجود بعض النجوم الاستثنائيين في فريقه. نحن البرازيل. نحن، كلنا، نجوم كرة القدم في العالم. حتى فريقنا الثالث سيكون مرشحاً للفوز النهائي، فتصوّروا إذن كم عندي من الثقة في أن المستعدين الجدد سيتيحون لنا أن نرفع الكأس للمرة السادسة.»

«ولماذا لم يُستدعوا من قبل، قد يسأل أحدهم؟» سأل المقدم، متحدّثاً باسم ذلك السائل.

«لأنه، كما يعرف كثيرون، لا يمكن استدعاء أكثر من ثلاثة وعشرين لاعباً. البرازيل في كرة القدم كالنمسا في التزلج الانحداري أو الصين في كرة الطاولة: لا مكان يكفي للجميع، نحن أقوىاء أكثر من اللازم» ختم المدرب بابتسامة صغيرة.

[تصفيق فاتر]

«لكن لماذا لا نمنح فرصة لأحد من هؤلاء الفتيان أيضاً؟» ألح المقدم، بينما كانت آلات التصوير تؤطر مجموعة الهنود الصغيرة، وأنطونيو جالساً خلفهم يقوم مقام المترجم الفوري. كان معظم الفتيان يبدو عليهم الملل الشديد، لكن اللقطة القريبة لياماندي ومواسير أثارت شيئاً آخر تماماً غير الملل في يايا وفي مئات آلاف القلوب في البرازيل كلها. تبث

المخرج عليهما قدر الإمكان، لكنّه حين رأى ياماندي على وشك أن يتثأب أدخل بالتراكب مونتاجًا لبعض حركاتهم في مبارياتهم السابقة، وهو ما شدّد عليه المقدّم متوجّهًا إلى غونسالفيس: «يبدو لي أنّهم يدبّرون أمرهم جيّدًا جدًّا على العموم، أليس كذلك؟»

«بالطبع يدبّرون أمرهم جيّدًا. هم برازيليّون أيضًا، أليس كذلك؟ لعلّه شيء في هوائنا.»

[ضحك]

«المزاح جانبًا، إن واصلوا الاجتهاد فليس مستحيلًا أن نتصوّر لهم مستقبلًا وريديًا.»

كان المدرب قد اختار أن يدع العصا جانبًا وأن يستعمل الجزيرة قدر الإمكان: «لكنّه، بالفعل، مستقبل ممكن، لا الحاضر بالتأكيد. فهؤلاء الفتيان ليست لديهم أيّ خبرة دولية فحسب، بل كما نرى من هذه الصور لم يلعبوا حتى كرة قدم بأحد عشر لاعبًا في حياتهم قطّ.»

هذه الجملة، ما إن ترجمها أنطونيو، أثارت همهمات استنكار في استوديو ماكابا.

«ولا نستطيع حتى أن نعرف إن كانوا يعرفون كلّ القواعد و...» نهض ياماندي واقفًا دفعةً واحدة حين ترجم أنطونيو، لكنّ أنطونيو سارع إلى إجلاسه قبل أن يلتقطه المصوّر.

على أنّ المقدّم هو من قاطع المدرب من جديد: «بعد الظهر سمعنا آراءً أخرى أيضًا: لنسمع ماذا يظنّ هؤلاء السادة، الذين لعلّ بعضهم سيتعرّف عليهم.»

انطلق شريط كان فيه بعض نجوم كرة القدم السابقين، الذين أُجريت معهم مقابلات للمناسبة، ينسجون مدائح اللاعبين الهنود الشبان. ومن مجد برازيليّ قديم استعمل المقطع الذي يقول فيه إنّ مقصّية كاوي تذكره بمقصّيته هو، بينما جعل بطل أرجنتينيّ سابق الكاميرا توظّره وهو ينقر «لايك» على صفحة يايا. صقع المدرب المقدّم بنظرة.

وحين انتهى الشريط حاول المقدّم أن يعطي الكلمة لأنطونيو، لكنّ غونسالفيس فرض نفسه ليكمل الفكرة التي بدأها، وما دام في الأمر، ليعطي رأيًا في الشريط.

«كرة القدم إلهام وخيال، نعم، لكنّها تطوّرت كثيرًا منذ كان هؤلاء الأبطال يلعبون، مضت سنوات كثيرة جدًّا.» (خُذ!) «اليوم لا يكفي الخيال، وقبل كلّ شيء، وإن بدا غريبًا قول ذلك، لا يُرتجّل. تلزم أشياء أخرى كثيرة، منها الإعداد والاعتياد على اللعب معًا. سيكون مشكلةً حتى أن ندخل في الفريق بعض أبطال إيطاليا الكبار، أو ألمانيا، أو الأرجنتين. فتصوّروا أن ندخل في الفريق ستّة فتيان لا يعرفون شيئًا تقريبًا عن كرة القدم، ولا يعرفون سائر اللاعبين، ولا يتكلّمون لغتهم حتى.»

[همهمات]

أعلن المقدّم أنّه يريد أن ينقل الخطّ إلى ماكابا، لكنّ ذلك سيسبقه فاصل إعلانيّ قصير. أتاح ذلك لأنطونيو والفتيان أن يتبادلوا بعض الأفكار حول ما ينبغي أن يُقال.

وحين سنحت له أخيرًا فرصة الكلام، نقل أنطونيو ما اتّفقوا عليه، منتبهًا إلى أن يدع جانبًا الشتائم التي خصّ بها كاوي ومواسير خاصّة غونسالفيس:

«قبل كلّ شيء أودّ أن أقول إنّني أتفق مع الزميل.»

جيّد! فكّر المدرب مندهشًا. لكن أيضًا: زميل؟ لكن أين؟ لكن من يظنّ نفسه؟

«كرة القدم لا تُرتجل،» تابع أنطونيو مكرراً كلمات المدرب «الخطط التكتيكية والإعداد أساسيان. لكن ليس صحيحاً إطلاقاً أن هؤلاء الفتيان لا يعرفون كرة القدم. هؤلاء الفتيان يعرفون كرة القدم على أحسن ما يكون. بالتأكيد لم يلعبوا قط في ماراكانا أمام مئتي ألف متفرج، لكنهم يلعبون منذ كانوا أطفالاً تماماً كأبي لاعب برازيلي آخر، ويعرفون كل حكاياتنا في كرة القدم ويكرهون باولو روسي وزيدان ككل برازيلي يحترم نفسه.»

[ضحك]

«وبالطبع يعرفون اللعب بأحد عشر. في هذه الأشهر اضطرّوا إلى اللعب بسبعة، وفوق ذلك مع عجوز مثلي عليهم أن يتحمّلوه، لأنّ المجموعة التي غادرت القرية بشجاعة لنجدة ياماندي...»

[وقفة مؤثرة. تصفيق عاصف. لقطة بالغة القرب لياماندي. آلاف القلوب المكسورة في البرازيل كلّها]

«...كان يجب أن تكون محدودة. لكن في ملعب القرية لعبوا دائماً أحد عشر ضدّ أحد عشر. وأستطيع أن أؤكد لكم أن مردودهم بأحد عشر مساوٍ إن لم يكن أعلى ممّا استطعتم أن تروه في التلفاز في هذه الأشهر في اللعب بسبعة. بعضهم، فردياً، من أقوى لاعبي كرة القدم الموجودين اليوم...»

[همهمات من الجمهور]

«...وكفريق، حسناً، من الصعب أن يتصوّر فريق أشدّ تلاحماً. أمّا التلميحات بشأن اللغة، ففي الملعب يُتكلّم بالأقدام قبل كل شيء وتلك اللغة يفهمونها على أحسن ما يكون.»

كان المقدّم على وشك أن يضيف شيئاً لكنّ أنطونيو رفع صوته قليلاً وتابع: «ونودّ أن يكون شيء واضحاً: نحن لم نطلب شيئاً من أحد. حتى قبل يومين كنّا هادئين سعداء نعيش حياتنا. إن أراد أحد أن يطلب معونتهم فسيوفر هؤلاء الفتيان بتقديهما، لأنّهم وإن لم يولدوا في ريو دي جانيرو أو ساو باولو فهم برازيليون بقدر أيّ أحد آخر في هذا الاستوديو وفخرون بذلك. وإن تبين أنّ معونتهم لا تلزم فلا مشكلة إطلاقاً: نشاهد كأس العالم في صالوني في ماكابا، ونشجّع البرازيل، ثمّ نعود إلى قريتنا.»

«أظنّ أنّ علينا أن نحافظ على هدوئنا.»

رئيس اتحاد كرة القدم هو من أخذ الكلمة: «ليست هناك تلميحات ولا نكران جميل، لكن يجب أن يفهم أنّها أيضاً مسألة ملاءمة. اللاعبون الذين استدعاهم المدرب غونسالفيس كلّهم محترفون شقّوا طريقهم من القاع بمشقة بالغة، و...»

قاطعه أنطونيو: «لكن ماذا تظنون، أظنّ أنّ الحياة في الأمازون تجري سهلةً بلا مشاكل؟ أنتم تشددون على كلمة محترفين، لكنكم لا تصوّرون حتى الجهد والتفاني اللذين يلعبن بالكرة في قلب الغابة. لا مشقة تُقارن بمشقة اثنين وعشرين فتى عليهم، ليلعبوا بالكرة، أن يعتنوا بالملعب بأيديهم وأن يصنعوا الكرة بأنفسهم!»

«بلى، بلى، لم أقصد الإهانة بالتأكيد،» سلّم رئيس الاتحاد، «لكنّها أيضاً مسألة لوائح، لا يمكننا بالتأكيد أن نتجاهلها لمجرّد أنّ الأمر يبدو لنا جميلاً.»

[ضحك سخرية من الجمهور في البيوت]

«هؤلاء الفتيان لا أعرف حتى إن كانت لديهم وثيقة بالمعنى الدقيق، لكنهم بالتأكيد غير مسجلين في اتحادنا، وأشكّ في أنّ الفيفا ستقبل مشاركتهم.»

عاد المقدّم يأخذ الكلمة: «شكراً يا سيّدي الرئيس. أقاطعك لحظةً لأحيي بالمناسبة رئيس الفيفا مالور، الذي هبطت طائرته للتوّ وتفضّل بالاتصال بنا مباشرةً من المطار.»

[تصفيق خجول]

«سَيّدي الرئيس مالور: بدايةً نشكر الفيفا على منح تمديد في مواعيد الاستدعاءات.»

«كان ذلك حقًا أقلّ ما نستطيع فعله.»

قدّم المقدّم ملخصًا سريعًا للمواقف المعبر عنها حتى تلك اللحظة، فعلق عليها مالور، ببرتغالية جيّدة ولكنها إسبانية وإنكليزية خفيفة:

«يدور عمل الفيفا حول النشر الكوني لهذه اللعبة الرائعة وحفظها. ولهذا نحن من جهة نتحفّظ دائمًا عن تعديل القواعد، لأنّ كرة القدم بديعة كما هي. ومن الجهة الأخرى نستقبل بأذرع مفتوحة كلّ من يريد أن يدخل عائلتنا الكبيرة. ومن سياسة الفيفا أن تتدخل أقلّ ما يمكن في قرارات الاتحادات المفردة، وبالتأكيد لا نريد أن نحشر أنوفنا في القرار بشأن اللاعبين المطلوب استدعاؤهم. لكنّي أريد أن أطمئن كلّ الحاضرين وكلّ المشاهدين على مسألة: القواعد التي نناضل بضراوة من أجل حفظها هي قواعد اللعبة. أمّا المسائل البيروقراطية فهي في خدمة اللعبة ويجب ألا تكون عقبة أمام من يلعب بروح رياضية. ولهذا أريد أن أطمئن رئيس الاتحاد: كنّا مرّتين في التواريخ وسنكون كذلك، إن لزم الأمر، في مسائل تنظيمية أخرى أيضًا. فلتستدعِ البرازيل اللاعبين الذين ترى من الملائم استدعاءهم. شرط أن يكونوا برازيليّين» ختم مالور بنكتة.

استقبل المدربّ هذه الكلمات بعدم تصديق وبحث في إحدى الشاشات عن نظرة رئيس الاتحاد، الذي كان على وجهه تعبير طفل أسقطت للتوّ الحجة التي أعدها كي لا يكتب واجباته. كان البرنامج يقارب نهايته ولم تكن الرئيسة سيلفينا قد تكلمت بعد. وبحكم دورها المؤسسي تركت لها الكلمة الأخيرة.

«البرازيل بلد عظيم أفخر، كلّ يوم يبعثه الله على الأرض، بأن أكون رئيسته. والأمازون واحدة من ثرواتنا الرئيسية ونحن مسرورون بأن تسنح لنا الفرصة لنبرهن كم نحن واعون بذلك. لا شك إطلاقًا في أنّ هؤلاء الفتيان الشجعان مواطنونا وأنهم برازيليّون بقدرتي أنا وبقدر هذه الفتاة المقدمة الجالسة إلى جانبي. ولا شك أيضًا في أنّ على كلّ امرئ أن يقوم بعمله، وأنّ عمل إعادة تركيب الفريق بعد هذه المصيبة التي لا تُصدّق هو من شأن رئيس الاتحاد كاردوزو والمدربّ غونسالفيس ومعاونيهما. لكن لا شك كذلك في أنّ هذه حالة طوارئ، شعرت فيها الأمة كلّها بأنّ عليها أن تقدّم دعمها. وباسم الأمة طلبت إليهم أن يأخذوا في الاعتبار فكرة الشابة يايا، الفكرة التي دعمتها الأمة بكلّ هذه الحرارة.»

ابتسمت الرئيسة وصمتت، مُفهمة أنّ مداخلتها انتهت، وإن لم يُظهر أحد أنّه فهم معناها. أكانت تقصد أنّ الهنود يجب أن يُستدعوا؟ أم أنّ المدربّ حرّ في اختياراته؟

ولكسر الجمود، أعطى المقدّم الإشارة لمكالمات المشاهدين.

«وبمناسبة نبض الأمة: لنجسّه قليلًا بعد. وفي هذه الأثناء تحديث عن الصفحة: نحن عند ستّة وعشرين مليون لايك، ثلاثة ملايين إضافية وصلت خلال هذا البرنامج. لكن لنسمع أيضًا صوت أحد من هؤلاء الستّة والعشرين مليونًا. ألو؟»

«ألو؟»

فتح أنطونيو عينيه على وسعهما لحظة ثم انفجر ضاحكًا.

«نعم، مساء الخير. اسمك؟»

«مساء الخير للجميع. يا سيّدة القديسة، ما أشدّ تأثري! اسمي تيريزا، وأتصل من ماكابا.»

«آه، ابنة مدينة السنيور ألميدا!»

«نعم. ولست ابنة مدينته فحسب، بل أيضًا من كبار معجبيه، بل أجرؤ فأقول صديقتّه. كنت أستمع إليه دائمًا، دائمًا، في الإذاعة منذ خمسة عشر عامًا، هل سمعتم يا له من صوت جميل؟ وعليّ أن أوكد أنّه أجمل في التلفاز منه في الواقع.»

[ضحك في الاستوديو. حرج أنطونيو، الذي لم يترجم الجملة للفتيان]

«قولي لنا يا تيريزا..»

«حسنًا، نعم. أردت أن أقول إنني لا أفهم جيدًا كل هذه النقاشات. كيف يُحدّد من يفوز بكأس العالم؟ باللعب، أليس كذلك؟ إذن، لماذا لا تقيمون مباراةً جميلة، فتيان أنطونيو ضدّ الفريق الذي اختاره ذلك السيّد الآخر، ومن يفوز يذهب إلى كأس العالم ليمثّل البرازيل. مَنْ لا يغامر لا يفوز.»

سذاجة تيريزا العبقريّة تركت الجميع مذهولين. أوّل من أفاق كان مالور والرئيسة سيلفينا، اللذان فتحا فميهما في اللحظة نفسها ليقولا إنّها فكرة جميلة جدًّا. وأعلن المدرب فورًا موافقته، فارغًا يديه عند التفكير في التخلّص من ذلك الصداق الكبير دون أن يظهر بمظهر العنصريّ، بل ومقدّمًا تدريبًا لائقًا لمستدعيه الجدد.

في استوديو ماكابا الصغير دارت مشاورة محتدمة، أخذ أنطونيو بعده الكلمة وقال: «بالنسبة إلينا على أحسن ما يكون. لكن إن كان علينا أن نحدّد أيّ فريق يجب أن يُرسل إلى كأس العالم، فالأفضل في رأينا أن نلعب بأحد عشر.»

«لكّثكم سبعة فقط» اعترض المقدّم.

«لا مشكلة. نعود إلى القرية لنأتي بالآخرين.»

4.6 بيروقراطية

من بين ملايين المشاهدين المنكبّين على متابعة الحلقة الخاصة «يوم ديا كوبا دو موندو» كان ثياغو غائبًا، منشغلًا بالقفز بالدراجة النارية من محلّ إلى آخر في نسيم المساء بحثًا عن هدفه، رجل اسمه سيزار أزيفيدو حدّثه شبكة معارفه بوصفه الرجل المناسب لأمرهم. ولأنّه مساء جمعة لم يكن يمكن إيجاده في مكان عمله كمسؤول رفيع في السجلّ المدنيّ المركزيّ في ساو باولو، ولم يكن يردّ على المحمول أيضًا، ف وقعت على ثياغو عملية البحث هذه على الطراز القديم، وهي على العموم كانت تسليه - ولا سيّما أنّ السؤال اقترن في أكثر من محلّ بكأس جعة صغيرة - وحين وجده أخيرًا كاد يأسف.

«السنّيور سيزار أزيفيدو؟»

«نعم؟» أجابه سيزار دون أن ينزع نظره عن التلفاز الذي كان يشاهد عليه، مع سائر رواد البار الصغير، الحلقة الخاصة عن كأس العالم.

جلس ثياغو إلى طاولته الصغيرة وقدم نفسه بصفته مساعدًا في اتحاد كرة القدم البرازيليّ. ألقي سيزار نظرةً جانبيةً سريعةً جدًّا قبل أن يعيد نظره إلى الشاشة: «نعم، أعرف من أنتم. ماذا تحتاجون؟»

وقبل أن يستطيع ثياغو أن يبدأ الكلام أضاف فورًا: «بديهيّ أنكم تحتاجون إلى شيء لا يحتمل الانتظار فيما يبدو، لكنّي أودّ أن أشاهد البرنامج، فأسرعوا وادخلوا في صلب الموضوع.»

لم يكن ثياغو متحمّسًا للكلام عن الأمر هكذا، علنًا، لكنّ انتباهه البار كلّه بدا مأسورًا بالتلفاز، فاقترب وقال له بصوت خافت: «إمم، الواقع أننا نخشى أن يكون الاضطرار إلى إدخال تلك المجموعة من السكّان الأصليّين في الفريق مضرًا بالفريق نفسه.»

«أمم...»

«ولذلك كنّا نتساءل إن... يعني... إن كان استدعاؤهم قانونيًا أو إن كان هناك قانون ما، لائحة ما، قد تمنعنا من فعل ذلك.»

لم يقل سيزار شيئًا بضع ثوانٍ، وكانت العلامة الوحيدة على أنّه أصرغى إلى ثياغو، ربّما، هرّة خفيفة بالرأس.

«هل استغرقتم وقتًا طويلًا لتجدوني؟» سأله بعدها.

«نعم، بعض الشيء. لماذا؟»

«استغرقتم وقتًا طويلًا لأنّي من بعد ظهر الجمعة حتى صباح الاثنين لا أحبّ الكلام في العمل، ولا أحمل معي المحمول ولا أقول لأحد أين أذهب لأستريح. لا تعرفون كم من الناس يحتاجون إلى خدمات، باستمرار.»

اختار ثياغو أن يلعب ورقة «أتعرف مع من تتكلّم؟»: «مع كلّ الاحترام يا سنّيور أزيفيدو، نحن لسنا “ناسًا”. المسؤولون عن السيليساو قبل عشرة أيّام من كأس العالم لا يطلبون خدمةً لأنفسهم. إنهم يطلبون معونةً للأمة كلّها.»

«إنّ عمليًّا كأنّ كلّ الناس الذين يطلبون مّيّ خدمات باستمرار قد حضروا إلى هنا جميعًا معًا، مع كلّ الأقارب. أمسية الراحة التي كنت أحلم بها بالضبط.»

«...»

«اسمع يا فتى: فوزوا بكأس العالم، وإن أراد رئيسك وثيقة تثبت صفته إمبراطورًا للبرازيل أعدتها له في دقيقة. لكن هذه ليست سنة 1950. نحن لم نعد نوقّع شيكات على بياض. وانظر قليلًا هناك،» قال سيزار مشيرًا إلى المدرب الظاهر على شاشة التلفاز «أبيدو لك وجه إمبراطور البرازيل؟ يبدو لي وجه شخص لا يستطيع حتى أن يقول لعاملة النظافة أن تمرّ الخرقه بقوة أكبر.»

نظر ثياغو إلى الأعلى وفكّر أنّ الرجل ليس مخطئًا تمامًا.

«يبدو لي وجه شخص،» تابع سيزار «على وشك أن يفعل بالضبط ما قالت له فتاة في السادسة عشرة أن يفعله. فتصوّر أن يأتي إليّ ليقول لي ماذا أفعل أنا.»

«لكنّي... لكننا لا...»

«والآن اعذرني يا فتى، لكنّي أودّ أن أكمل مشاهدة البرنامج.»

نهض ثياغو مهزومًا وخرج من المحلّ حاملاً معه كأس الجعة. جلس على الدراجة النارية وراح يرتشفها، ناظرًا بشرود نحو التلفاز داخل البار ومتأملًا فيما ينبغي فعله. وحين انتهت الجعة لاحظ أنّ البرنامج قد انتهى على ما يبدو هو أيضًا. أخرج المحمول من جيبه مع تنهيدة، متوقعًا بدقة أنّه سيرنّ بعد قليل جدًا.

«يا مدرب!»

«ثياغو! هل وجدت الرجل؟»

«نعم. في الواقع...»

«أوقف كلّ شيء! لم تعد هناك أيّ مشكلة. هؤلاء البلهاء لم يتبيّن في النهاية أنّهم مضرّون، بل بالعكس. نواصل الاستدعاءات كما هو مقرر.»

لم يكن هناك ما يُوقّف، لكن ليس بالضرورة أن يعرف المدرب هذا، فكّر ثياغو. الأفضل أن أترك عنده الانطباع بأنّي أنجزت المهمة الأولى على أحسن وجه وأنّ عليّ الآن أن أحلّ تعقيدًا جديدًا. عاد إلى الدراجة وانطلق مرتاحًا ليتجول في أكبر مدينة في القارة الأمريكية.

4.7 مصوّر صحفي

لم تكد تمضي دقيقتان على نهاية البرنامج حتى رنّ محمول مواسير.

نظريًا كان محمول الفريق لكنّ مواسير كان قد استولى عليه فعليًا. صار مصوّرًا متحمّسًا، ولدهشة أنطونيو كان بارعًا إلى حدّ ما أيضًا: فمتابعوه على إنستغرام يزدادون يومًا بعد يوم، وفيما يبدو لم يكونوا مولعين بكرة القدم أو بشؤون السكّان الأصليين فحسب.

وحين كان الأمر يتعلّق بالاتّصال هاتفيًا كان يمدّ الجهاز مكرهًا إلى أنطونيو الذي كان يأخذه من جهته مكرهًا بالقدر نفسه، إذ لم يكن قد اعتاد بعد كلّ الاعتياد على هذا النوع من الحضور الهاتفيّ في كلّ مكان.

«ألو؟»

في الطرف الآخر كان مدير ريتي نورتي.

«أنطونيو العزيز جدًّا. شاهدت البرنامج للتوّ، تهانّي الحارّة. وتهانّي الحارّة لنفسي أيضًا على الفراسة التي أظهرتها، ها ها. وبداهةً سيلزمني أن أهتئ جورج أيضًا، بل لعلي سأضطرّ إلى أن أزيد راتبه، اللعنة. كان الأفضل لو لم نلتقكم، ها ها!»

لم يعرف أنطونيو كيف يعلّق فتابع ذاك.

«أمزح بداهةً، فكما تعلم جيّدًا نحن في ريتي نورتي نحبّ أن نعامل معاونينا وشركاءنا معاملَةً ملائمة.»

بداهةً، فكّر أنطونيو.

«وبهذا الخصوص، فكّرت أنّ تعاوننا الأخير كان مُرضيًا للطرفين، ألا تظنّ؟»

«نعم، نعم، بالتأكيد» كان على أنطونيو أن يعترف.

«حسنًا. إن كنت قد فهمت جيّدًا فقد أُتيحت لكم للتوّ فرصة هائلة، لكن عندكم مشكلة عملية في تنفيذها. الوقت المتاح للعودة إلى الغابة لأخذ بقيّة الفريق والطيران إلى ساو باولو ضيق جدًّا، هل عندكم فكرة كيف تفعلون؟»

«إمم، لا، لكنّ كلّ شيء حدث قبل دقائق قليلة، أنا واثق أنّنا سنخترع شيئًا، أفترض أنّ الاتحاد سيساعدنا...»

«ما كنت لأعوّل على ذلك كثيرًا لو كنت مكانك. على شاشة التلفاز لم تبدّ لي وجوه ممثلي الاتحاد ودودةً كثيرًا. لا يا أنطونيو، أنا أقترح عليك أن تتعاون مع من أثبت من قبل أنّه جدير بثقتك: أصدقاؤك الأعزّاء في ريتي نورتي. هل لي أن أقدم لك عرضًا؟»

«تفضّل.»

«نستأجر مروحية. وبها نقوم ببضع رحلات ذهابًا وإيابًا وننقل الفريق كلّ من القرية إلى ماكابا. ثمّ ندفع لكم أيضًا ثمن الرحلة إلى»

«لا مجال للكلام في هذا» قاطعه أنطونيو.

«لا تتعجّل، أردت أن أعرض عليك أولًا الجانب العمليّ: أضمن لك أنّي كنت سأصل إلى الوجه الماليّ، لقد تعلّمت الدرس.»

«لا، ليس ذلك. الأمر أنني لا أريد أن يُكشف الموقع الدقيق للقرية، وبالتأكيد ليس قبل أن أناقش الأمر مع سكانها.»

«أفهم،» فكر المدير سريعاً في بديل «إذن اسمع هذه: بشكل ما ستريدون أن تبلغوا القرية، أليس كذلك؟ إذن نساعدكم على تنظيم العودة، بحسب متطلباتكم، ثم نتولى الانتقال إلى ساو باولو. وفي المقابل تمنحونا الحصرية في مرافقتكم على طول الرحلة في المقاطع التي تسمحون لنا فيها بذلك...»

«همم... إن كان الأمر هكذا ففي الواقع...»

كانت غمغمة أنطونيو على وشك أن تتحول إلى نعم، فاغتنم المدير ذلك ليطلق طلبه الأخير.

«...وتمنحونا حصرياً مواد الصور والفيديو لعودتكم إلى القرية.»

«عذراً، لكن بدا لي أنني كنت واضحاً كلّ الوضوح في أنني لا أريد كشف موقع القرية. لن نقود أيّ صحفي إلى القرية، ولا حتى جورج.»

«لا، لا، لم أقصد ذلك. مواد الصور والفيديو ستنتجونها أنتم، فتكون عندكم ضماناً أنها ستحترم متطلباتكم.»

«آه» تأمل أنطونيو بإعجاب مهارة المدير.

بدا أنه فكر في كلّ شيء. أو في كلّ شيء تقريباً: «أمم، يبدو لي عرضاً معقولاً، وإن كان عليّ على كلّ حال أن أتكلّم فيه مع سكان القرية. لكن للأسف عليّ أن أكون صادقاً: لست بارعاً كثيراً كمصوّر فوتوغرافي، وأقلّ من ذلك بكثير كمصوّر فيديو.»

«آه، لكنني لا أريد أن تقوم أنت بالتصوير. كنت أفكر في ذلك المدعوّ مواسير. أتابع إنستغرامه منذ زمن، إنه بارع حقاً.»

4.8 غامبوني

حين وضعت دونا جيزيتا سماعة الهاتف كانت يدها عرقانة كلها. كأس العالم لكرة القدم، لا أقل. لكن انظري إلى أولئك الأربعة الرثين الذين وصلوا عراءً كالديدان وفي أنوفهم ريش، انظري إلى ما نجحوا في إقامته. هذه فرصة لا تُفوّت، وإن سار كل شيء على ما يرام أعدت دهن الواجهة السنة القادمة بالوردي العتيق وبنيت الشرفة مع جلسة خارجية. جففت يدها بثوبها ورفعت السماعة من جديد.

«ألو، باولو؟ دائماً أنا من أتصل بك، ها، فلأمت إن اتصلت مرةً ولو لتعرف إن كنت ما أزال حيّة. لا، لا، لا أتصل لأعرف كيف حالك، فالأعشاب الضارة مثلك بخير دائماً. لا، الأمر أن بين يديّ شيئاً طريفاً: قل لي، هل ما زال عندك ذلك القارب الخرب؟ نعم؟ جيد جداً، اسمعني: هذا شيء كبير، أقول لك فقط إن في الأمر ريتي نورتي والسيليساو. نعم، منتخب كرة القدم، هو بالذات، وإن قلت لك كرة القدم فلأنه منتخب كرة القدم. وليكن واضحاً تماماً أنني أنا من أدير كل شيء، فأنت جدير بالثقة بقدر ما يوثق بجاكوار، لكن إن أصغيت إلى أختك الصغيرة وأنجزت الأمور كما ينبغي اشترت الشهر القادم زورقاً سريعاً.»

كانت جيزيتا تعرف أخاها أفضل من أي أحد في العالم، فقد حملته بين ذراعيها حين وُلد، وكانت تعرف جيداً أن في العالم ثلاثة أشياء فقط تجعله يتحرك، وبسرعة. الأول النقود، والثاني النساء. والثالث، السلاح الأقوى من كلها، السلاح الذي لا يُقهر ويُشهر في الطوارئ، كان الذكرى المؤثرة لأمهما المسكينة، التي قالت وهي على فراش الموت وهي تداعب غرّته: «عندي يا باولينيو أنك ستطيع أختك دائماً، دائماً. وإلا بكت أمك في السماء بعد ذلك.»

لم تكن النساء داخلّة في الظروف الحالية، أما النقود فنعم، وبكميّة أكثر من كافية لتجعل اللجوء إلى فراش موت الأم زائداً عن الحاجة.

وهكذا حين أنزلت الحافلة القادمة من ماكابا زمرة أسو كآ أمام مرسى لارانجال، وجدوا غامبوني راسياً ومستعداً في وقفة استعداد. كان القارب قد نال طبقة من الدهان الأصفر، وكان عذاب – كلب آخر، بدهاءة، لكن لم التعب في البحث كل مرة عن اسم جديد – يحمل بفخر طوقاً من الترتر، كان قبل ذلك رباط ساق آخر راقصة تعرّ صادقها غامبوني.

أما غامبوني فكان يتباهى بقبّة قبطان في البحرية الإنكليزية: لمسة زائدة قليلاً، لكنّه حين كلّمته أخته عن الأرقام أحس فوراً أنّه على أتم استعداد لأن يبذل من الزيادة كل ما قد يلزم. وكان في الواقع قد طلب من جيزيتا دفعة مقدّمة معتبرة: «لكن لماذا تحتاج إلى كل هذه النقود؟ القارب عندك أصلاً، والمازوت يكلف عُشر ذلك.»

«عندي مصاريف. مصاريف تمثيل. عليّ أن أشتري قبّة.»

كان أنطونيو قد ضمن لكل المعنيين، من مدير ريتي نورتي إلى كبار مسؤولي اتحاد كرة القدم، أنّه لا مشاكل: فما إن تُحل مسألة القارب ومسألة دليل يعرف النهر معرفة تامة حتى يصير كل شيء تحت السيطرة تماماً، ألا تقدرون أنتم ربّما على إيجاد الطريق إلى بيوتكم؟ لكنّه في الحقيقة كان أبعد ما يكون عن الاقتناع بذلك. كان غامبوني قد لعب عليه لعبة قذرة قبل أربعة عشر عاماً، لكن في ما يخص معرفة النهر كان أنطونيو واثقاً أنّه لا يُبارى. والمهارة التي تخلص بها، قرب المنعطف لتفادي الشلال، من قاربين حاولا أن يتبعاهما، لصحفيين على الأرجح، عزّزت هذا الاقتناع أكثر. لكن أين يرسون؟ كان أنطونيو يذكر تمام الذكر أنّهم بعيد إنزال الطوف في الماء تجاوزوا ملتقى غريباً لثلاثة مجارٍ مائية كان واثقاً إلى حد ما من أنّه سيتعرّف عليه. لكن من هناك إلى إيجاد النقطة الدقيقة التي بزغوا منها من الغابة – في ثلاثة أشهر لا بدّ أنّ النبات محا آثار مرورهم – والنجاح في سلوك الطريق عكسياً حتى القرية، حسناً، ذلك كان ما يزال في عالم المجهول المطلق.

نفكر في ذلك حين نكون هناك قال لنفسه، متسائلاً بشيء من القلق إن كانت جاناينا قد اعتبرته في هذه الأثناء ضائعاً وعلقت أرجوحته قرب أرجوحة أحد آخر. قطع أفكاره غامبوني وهو يخبره أنّ المقبلات قدّمت: إذا فعلنا شيئاً فلنفعله كما يجب، هكذا. ليس هذا قارب فقراء، قارب جميل جداً، الاختيار الأفضل لمن يريد أن يزور شلال سانتو أنطونيو ويصعد مجرى نهر جاري. لأنّ صعود جاري لا يلزمه قارب جميل جداً فحسب بل أيضاً رجل يعرف كيف يقوده، ختم غامبوني ناظرًا مباشرةً إلى الهاتف الذي كان مواسير يمسكه بيده. هو يعمل، نعم؟ هل تصوّر؟ أنطونيو، أسأله إن كان

يصور. وليس الأمر من أجل النقود، حاشا، النقود لا بأس بها، طبعًا، لكن ما يهم هو أن تقدّم مساهمتك الجميلة جدًا للفريق، أن تقدّم مساهمتك للبلد. حتى عذاب ينتبه إلى ذلك، انظر كم يجلس أنيقًا، لم يبق إلا أن يقدم هو الكابيريّينا مع المقبّلات.

من وجوه شتّى كان المنطقيّ أكثر أن يعود إلى الغابة لاستعادة اللاعبين الناقصين شخصان، ربّما أنطونيو وواحد أو اثنين من الفتيان. لكنّ أحدًا لم يشأ أن يفوّت فرصة رؤية أحبائه من جديد، وإعطائهم الأخبار من مصدرها، وحكاية كلّ ما رآه وجزّبه واكتشفه بنفسه، ووصف عجائب العالم خارج الغابة (وربّما تمرير الأشياء المقلقة وغير المفهومة والمخيفة في شيء من الصمت). لا أحد إلا بيراي، طبعًا، الذي غمغم شيئًا عن رغبته في البقاء أياّما أخرى ليعود إلى المطبخ مع دونا مارسيليا ويتعلّم أخيرًا صنع البيجينيّو كما ينبغي. كان الوقت ضيقًا والأشياء الواجب فعلها كثيرةً إلى حدّ أن أنطونيو لم تكن عنده رغبة في الدخول في نقاش: اكتفى بأن يسأله إن كان واثقًا حقًا من رغبته في البقاء، وعند جوابه بالإيجاب طلب من أهله أن يسدوا له هذه الخدمة الأخيرة أيضًا بأن يبقوا عندهم على الفتى ويرافقوه إلى المطار حين يحين وقت السفر إلى ساو باولو.

أما الشبان الآخرون فكانوا من الحماسة ونفاد الصبر بحيث كانوا سيعملون القارب على أكتافهم لو أفاد ذلك في الوصول أبكر. كانوا يفتحون الحقائب بالهدايا للأقارب والأصدقاء ويغلقونها، وينشرون ويتأملون ويعيدون باستمرار القمصان والقبعات، والقلائد والحلي، وأكياس البلاستيك والقصعات، والمظلات القابلة للطيّ والشوك، والمرايا والسكاكين وعلب الكوكا-كولا.

وكان ياماندي يحمل أيضًا حقيبةً بتجهيز خاصّ أعدته له جانيّتا خصيصًا: مطهّرات من كلّ نوع، وضادات ولاصقات، وقطرات ومراهم مضادّة للجراثيم (وقد ظلّت متردّدة حتى اللحظة الأخيرة في دسّ علبة واقيات، فلا يُعرف أبدًا، لكنّ الحرج عند التفكير في شرح استعمالها لياماندي جعلها تعدل).

اضطرّ مواسير آسفًا إلى التخلّي عن حمل الدراجة معه (أزل أولًا ما يكفي من الغابة لتستطيع أن تدير المقود ثم نرى، نرى بعد ذلك حين نعود المرّة القادمة)، بينما كان كاوي يتلهّف شوقًا ليحكي لأصدقائه عن مجموعة الفتيات اللواتي التقاهنّ خلال الجولة، واللواتي انتقل معهنّ، بحسّ عمليّ كبير، إذ لم يكن قادرًا على المحادثة، إلى الأفعال، مكتشفًا أنّ الفتيات الكبيرات في السنّ بعض الشيء أيضًا، فوق السابعة عشرة، يمكن أن يمنحن رضىً عظيمًا.

ورغم الشكوك في المسار ونفاد صبر الفتيان، القلقين كالدبابير، كان أنطونيو يستمتع بالرحلة، برائحة الغابة المستعادة، وبطيران البيغاوات، وبلطف القبطان الذي لا تشوبه شائبة والذي كان يكاد يعوّض عن طبعه الذي بقي رديئًا. لكن بقي عنده همّ، ظلّ غير معقول من الإحساس بالذنب لم يكن يدعه مطمئنًا: «لكن اسمع يا غامبوني، ابن عمّك ذاك، صاحب الجيب...»

«ليس عندي أبناء عمّ أنا، سبع بنات عمّ فقط، الواحدة أشدّ ملأًا من الأخرى. لا أبناء عمّ، مع أنّ العمّ المسكين كان يودّ ذلك. هل يحبّ السادة كأسًا صغيرةً أخرى؟»

«لا، لكنّي أعني صاحب الجيب الحمراء، ذلك البيبي المسكين الذي...»

«آه، بيبي! ليس ابن عمّي ذاك. تعرّفت عليه هناك في سانتاريم، في أناكوندا فورتيكس نايت كلوب، مكان صغير جميل، أتعرفه؟»

«لا، ليس لي هذا الشرف. لكنّي أردت أن أقول، يعني، إن كان صديقًا لك، أردت أن أقول إنّي آسف حقًا لأنّه مات هكذا...»

«مات؟ أيّ موت هذا، التقيته الشهر الماضي: يعمل مندوب مبيعات مشدّات نسائية في بيليم.»

4.9 بيراي

ممدّدًا على سرير أنطونيو، كان بيراي يتذوّق الطعم الحلو للحرية. كان طعمًا لم يبدأ يشك في وجوده إلا حديثًا، لكنّه الآن وقد ذاقه صار يتساءل كيف قدر على الاستغناء عنه كلّ تلك السنوات. كان هناك دائمًا شيء لا يعجبه في حياة القرية، لكنّه الآن فقط كان أخيرًا يفهم جيّدًا ما هو. أحيانًا، وهو فتى صغير، كان إذ يصغي إلى حكايات أنطونيو يفترض أنّ الأمر متّصل بما يسمعه من حكايات. لكنّه على خلاف مواسير وكاوي لم تكن الاختراعات التي لا تُصدّق هي ما يلفته، ولا كانت حكايات كرة القدم التي كانت تفتن ياماندي وبياتا وكلّ الآخرين إلى هذا الحدّ. كان شيئًا أشدّ إبهامًا. ثمّ إنّ بيراي كان يذكر أنّه شعر بضيق حتى حين كان صغيرًا، قبل وصول أنطونيو، فكيف يمكن إذن أن تكون حكاياته هي التي تكلمت عمّا كان يحسّ بنقصه منذ الأزل؟

خلال الوقت الذي قضاه في ماكابا وفي التجوال مع الآخرين، بدأت الأفكار أخيرًا تتّضح لديه، ويفهم ما الذي يجذبه في هذا العالم الجديد وما الذي كان يخنقه في عالمه الأصلي: الفسحة وافتقارها.

كانت الحياة في القرية هادئةً ولها محاسنها، ولم يكن بيراي ينكر ذلك. لكنّها، صار يفهم ذلك الآن، كانت دائمًا مزدحمةً أكثر من اللازم. كان الأمر غريبًا، غريبًا جدًّا، بالنظر إلى أنّ في ماكابا ناسًا أكثر بكثير، بكثير، بكثير جدًّا ممّا في القرية، لكن في القرية كان الناس دائمًا معًا، معًا أكثر من اللازم، متلاصقين أكثر من اللازم، بينما في ماكابا كان هناك، على نحو متناقض، فسحة أكبر. ولم يكن هناك ذلك الإحساس، الذي وجده دائمًا مثيرًا للأعصاب بعض الشيء، بأنّ الجميع يعرفون دائمًا أين أنت، وماذا تفعل، وإلى جانب من تعلّق أرجوحتك، بل حتى أين ومتى تتغوّط. غريب، كان يفكر، كان في المدينة هواءً أكثر، كأنّ التنفّس أسهل. وكان يمكن أيضًا أن يبقى المرء وحده، قليلًا، دون أن يجد أحد ذلك غريبًا.

لا يعني هذا أنّ لحظات الوحدة كانت كثيرة، بالعكس. كان أنطونيو رجلًا عظيمًا، ومأثرةً إنقاذ ياماندي ستُتوارث أجيالًا، لكنّه كان أيضًا لحوحًا بعض الشيء. لم يعرف بيراي أمّه قطّ، وأخذ جاكوار أباه أيضًا في وقت مبكر جدًّا، فهو لا يكاد يذكره، ولذلك كان يعرف أنّه ليس الأقدر على إجراء هذه المقارنة، لكنّ أنطونيو في تلك الفترة بدا أنّه يقوم لهم جميعًا مقام الأمّ والأب في آن. بل لعلّها كانت المقارنة الصحيحة بالذات: فأنطونيو لم يكن أباهم الحقيقي، ولسبب ما كان ذلك يدفعه إلى مضاعفة انتباهه، وهو أمر كان بيراي قد جرّبه من قبل، إذ عاش بنفسه تجربة قبيلة بأسرها تقوم لك مقام الأب والأمّ.

لكن مهما بذل أنطونيو من جهد لم يكن يستطيع أن يكون في كلّ مكان، فكان لا بدّ أن يترك له بعض لحظات الحرية. ويا له من إحساس لا يُصدّق كان في المرّة الأولى، وما يزال يفقد أنفاسه إن فكّر فيه: خلال إحدى الجولات الأولى في ماكابا، حين ذهبوا لأول مرّة إلى ضفّة النهر. سعة النهر، والضفّة المقابلة البعيدة جدًّا، شبه غير مرئية، في الجهة الأخرى.

كانت هناك مشكلة ما مع جاسي وبائع فاكهة، فاضطرّ أنطونيو إلى التدخل وذهب الآخرون خلفه، كلّهم إلّا هو وأوبراتان، اللذين بقيا هناك، على بعد خطوات قليلة أحدهما من الآخر، يتأملان كلّ تلك الفسحة. يا للغرابة، كان هناك كلّ هذا الهواء لا تنفّسه وكنت أحسّ بشيء غريب في صدري، أكاد أفقد أنفاسي. لكنّه كان إحساسًا جميلًا، فهم ذلك إذ عاد يفكر فيه.

سرعان ما جاء أنطونيو ليقطع أفكاره المشوّشة، وجمع المجموعة وأخذهم إلى البيت ليلقي عليهم درسًا في النقود. طريف، كسائر ما كان يشرحه، لكنّ بيراي كان يودّ أن يبقى ينظر إلى النهر قليلًا بعد.

ثمّ إنّ كلّ أقارب أنطونيو كانوا دائمًا حنونين لطفاء، لكنّهم كانوا يعاملونهم كأثم أطفال صغار. وعلى ما تدلّ عليه كلمات أنطونيو، بدا أنّهم جميعًا مهتمّون أكثر من اللازم أيضًا بأن يعطوهم دورًا محدّدًا جيّدًا: ياماندي هو صاحب الساق المكسورة، وإيتاونا هو الذي يخاف من كلّ شيء، وكاوي هو الذي لا يخاف من شيء. وأنا الذي يطبخ.

لهذا اغتنم دون تردّد الفرصة التي سنحت له. فاليومان اللذان تليا الظهور في التلفاز كانا في غاية الفوضى، وكان أنطونيو أشدّ انشغالًا من قبل. كفى أن يقول له «أنا أبقى هنا» وأن يغمغم شيئًا عن رغبته في أن يتعلّم صنع البيجينيو جيّدًا فلم يكّد يتّسع لذلك الوقت ليردّ: «هل أنت واثق؟ إذن نلتقي في مطار ماكابا حين نعود.» «نعم، حسنًا» وصار أخيرًا حرًا.

يا إلهي، حرًا. ما تزال هناك تلك المشكلة الصغيرة الأخرى التي يجب حلّها، فكّر بقشعريرة. أنا صيّا، باسم الأناكوندا الكبيرة. قتلت كايماً وحدي قبل كلّ الآخرين. والآن أخاف من امرأة مسنّة، أخاف أن أرح مشاعرها. لكن كيف أشرح لها ما أريد، إن كنت لا أعرف لغتها؟ نظر من النافذة. كان المطر ما يزال ينزل، لكن بدا واضحاً أنه سيتوقّف بعد قليل. نهض عن السرير واتّجه إلى المطبخ.

كانت مارسيلاً منكبةً تعالج طنجرة. ولما سمعته قادماً حيّته بالحرارة المعتادة: «بيراي! هل استرحت قليلاً؟ حسن. بدأت أحضّر الفاتابا، تعال أشرح لك شيئاً عن زيت الدندي.»

وضع بيراي يده برفق على كتفها، وانتظر أن تلتفت تماماً وأن ينال انتباهها الكامل. اتّجه نحو صينية البيجيني، وهي، كما ثبت الآن، طعامه المفضّل بفارق كبير. أكل واحدة ورسم على وجهه تعبير «لذيذة جداً». أكل أخرى، بالوجه نفسه من جديد، ثم أشار إليها أن تنتظر.

كانت مارسيلاً تحدّق فيه بانتباه.

عندئذ تظاهر بيراي بأنه يأكل واحدة أخرى، ثم أخرى وأخرى وأخرى بعد. وبعد أن كرّر الحركة نفسها عدداً كبيراً من المرات، همّ أن يأكل واحدة أخرى، لكنّه توقّف، واضعاً يداً على بطنه ومائلاً بزاويتي فمه إلى الأسفل. ثم نظر إلى مارسيلاً ليتأكّد إن كانت قد فهمت.

همّت مارسيلاً أن تتكلّم، لكنّ بيراي غيّر رأيه وأوقفها. اتّجه نحو صينية كعكة الماراكوجا، شغفه الآخر، وتظاهر بأكل شريحة منها، هذه المرة بهيئة سعيدة من جديد. ثم أشار إلى بوديم دي ليتي، لذيذ، وإلى الأروز دوسي، ليس سيئاً إطلاقاً، وإلى التشوروس، أووه، ما أشهاها. وأخيراً عاد إلى صينية البيجيني. أكل واحدة حقاً، بهيئة سعيدة من جديد.

نظر إلى مارسيلاً ليتأكّد أنّها تتابعه وقام بحركة أخيرة: حاول بيديه أن يشير إلى المطبخ كلّ وإلى مارسيلاً نفسها ثم أشار إلى البيجيني. ثم توقّف ونظر من جديد إلى مارسيلاً، بهيئة مستفهمة.

ابتسمت له مارسيلاً: «فهمت ما تريد أن تقوله لي، أتعلم؟ الطبخ يعجبك، لكنّه ليس شغفك الوحيد، الأوحد. أنت على حقّ. وأنطونيو ابني كان هو أيضاً هكذا دائماً: الإذاعة، والمدرسة، والرياضة. الرياضات. أحسنت يا بيراي، أنا مسرورة.»

كان بيراي بدهاء لا يفهم أكثر من كلمة أو كلمتين، لكنّ نبرة صوت مارسيلاً وتعبير وجهها لم يدعاً شكاً: فهمت. عانقها، ثمّ تنهّد تنهيدة ارتياح واستعدّ للخروج: فمذ رحلوا في الجولة وعنده رغبة في أن يتمشّى حتى الفورتاليزا على النهر. لكن كان عند مارسيلاً شيء آخر تسأله عنه: أشارت إلى صينية التشوروس ورمقته بنظرة مستفهمة.

تردّد بيراي لحظة، لكنّه فهم فوراً بعدها أنّها تسأله ما هي اهتماماته الأخرى. فتح النافذة، التي بدأت الشمس تطلّ منها، وأخذ نفساً عميقاً.

4.10 قشعريرة

من كان ليقول إنَّ حكاية عقلة الإصبع التي حُكيت من يدري متى، قبل سنوات، ستنفع يومًا. وقبل كلِّ شيء إنَّ إيتاونا - الذي كانت ذاكرته جيِّدةً بالتأكيد لكنَّ أنطونيو لم يتصوَّرها إلى هذا الحدِّ - سيتذكَّرها في اللحظة المناسبة.

كان إيجاد النقطة التي أنزلوا فيها الطوف إلى الماء، على خلاف مخاوفه، سهلًا إلى حدِّ ما، إذ تبَيَّن أنَّه، إضافةً إلى ملتقى فروع النهر الثلاثة الذي كان في ذهن أنطونيو والذي يمكن التعرّف عليه، كانت لكلِّ واحد ذكراه ومعلمه: «قرب أبنوسة عالية جدًا»، «كان هناك منعطف ضيق وفيه جذع قديم في الماء»، «ما إن انطلقنا كانت هناك مجموعة من أشجار الجاكاراندا، لا بدَّ أنَّها هناك خلفها مباشرةً». لكن من يدري إن كانوا سينجحون، بعد أن يرسوا، في سلوك الطريق الصحيح فورًا في الغابة لولا أنَّ إيتاونا كان قد حرَّ في الذهاب حزوًّا عميقة في الأشجار: «فكَّرت في تلك الحكاية، حكاية الإبهام الصغير، فكَّرت أننا هكذا نعرف كيف نعود.»

كان ذكيًّا إذ فكَّر في ذلك، فالعلامات على الجذوع قادتهم مسافةً لا بأس بها في الاتجاه الصحيح، القدر الكافي ليجد مواسير وكاوي - اللذان كانا قد قطعنا ذلك الطريق ذهابًا وإيابًا حين وجدا النهر الكبير - معالمهما بثقة.

وبينما كانوا يمشون الآن مسرعين نحو القرية، كان أنطونيو يتأمل كم من الأشياء تغيَّرت في تلك الأشهر الثلاثة، وكم صار كلُّ شيء مختلفًا عمَّا كان حين مرَّوا تحت تلك الأشجار نفسها حاملين ياماندي نصف ميِّت، متجهين بين ألف خطر نحو المجهول.

كان سعيدًا بأنَّه فعل ذلك، فيكفي أن ينظر إلى الفتى يخطو نشيطًا وسط المجموعة الصغيرة كي لا يكون عنده أدنى دم على إنقاذه، لكنَّه صار الآن يدرك أنَّ شيئًا لن يكون كما كان. فبعد أيام قليلة سيكونون من جديد في المدينة، وفتيان آخرون لم يخرجوا قط من الغابة سيَجْرَبُون ما يُسمَّى الحضارة وسيُفتنون بها ويضطربون هم أيضًا، ثمَّ سيحاولون جميعًا معًا أن يجربوا حظهم في هذه الفرصة العبثية للمشاركة في كأس العالم - ما يزال لا ينجح في تصديق أنَّ شيئًا كهذا يحدث - ثمَّ، ثمَّ سيعودون إلى البيت، إلى الغابة. أم لا؟ أيُمكنهم حقًّا أن يعودوا إلى عيش الحياة السابقة؟

ولن تكون على كلِّ حال الحياة السابقة، ولن يمكن أن تكون كذلك أبدًا وقد حملوا إلى القرية ثيابًا وسكاكين، وقد رأوا سيَّارات وطائرات وتلفازات أدرك أنَّه، أيًّا كان مآل الأمور، فإنَّ ذلك النمط من الحياة الممتدَّ آلاف السنين قد تغيَّر، وتلوَّث إلى الأبد. من يدري إن كان ذلك خيرًا، من يدري. الأفضل ألا أفكِّر في الأمر، إنَّها مسؤولية كبيرة أكثر من اللازم، والتفكير فيها يجلب القشعريرة.

لكن كانت تأتيه قشعريرة أيضًا إذ يعود يفكِّر فيما حكاها له غامبوني: «أجِّ موت هذا. أولئك الناس جلدتهم قاس، ناس يأتون من الأحياء الفقيرة. ليسوا مثلنا. أولئك لا تقتلهم بهذه السهولة. كان الحظُّ أنَّ عنده تلك الجيب بذلك الأحمر الجميل جدًا. مروحية من مروحيات الحديقة كانت تقوم بجولة استطلاع. رأوا الأحمر ونزلوا لإلقاء نظرة. رفعوا الجيب بالونش، ذلك ابن الأرماويلو بيبي كان مهروسًا كجوزة لكنَّه حي. بقيت له ساق أقصر قليلًا، والوجه مرضوض، لكنَّه على كلِّ حال ما كان جميلًا قط. ليس مثلنا. ثمَّ إنَّ المشدَّات قطاع نائم، يقول إنَّ السيِّدات مجنونات بالدانتيل، دائمًا وسط الملابس الداخلية، مهنة جميلة.»

كان أنطونيو سعيدًا بأنَّ ذلك اللصَّ لم يمت، فقد بقي عنده دائمًا شيء من الهمِّ لأنَّه ربَّما لم يفعل ما فيه الكفاية، ولأنَّه لم ينجح في إيجاد معونة: وأن يعرفه بين الدانتيل في بيليم، وإن صار أعرج، رفع عن قلبه ثقلًا. لكنَّ القشعريرة، الاضطراب، كانا من فكرة أنَّه لو لم يبتعد، لو بقي قرب الجيب، لعاد إلى ماكابا بعد يوم لا بعد أربعة عشر عامًا. وكلِّ شيء، كلِّ شيء كان سيكون مختلفًا. من يدري أين كنت الآن، وأفعل ماذا، ومع من. المؤكَّد، المؤكَّد تمامًا أنَّه ما كانت لتنتظرني بعد أسبوع مباراة فاصلة للمشاركة في كأس العالم.

4.11 مفاجأة!

كان قد تخيل المشهد مئة مرة في مئة نسخة مختلفة، وكلما اقتربوا من البيت ازدحمت في رأسه واحدة فوق الأخرى. وكانت المفضلة عنده تصوّرهم سبعة يمشون جنباً إلى جنب وهو في الوسط، بالحركة البطيئة، كما في أفلام هوليوود. لكن في الغابة يشق أن يمشي اثنان جنباً إلى جنب، فكيف بسبعة، وهذا التدقيق الواقعي كان يفسد عليه خياله. ثم كانت هناك مشاهد أخرى تتضمن نظرات صامتة طويلة جداً: هو وجانينا، وياماندي وكيريما، ومواسير وبياتا. أو ابتهاج صاحب غير منضبط. تخيله بمئة طريقة مختلفة ولم يكن أي منها هو الصحيح: فما اقترب منه لم يكن الخيال بل الذكرى.

لم تكن القرية بعيدة كثيراً الآن – يخيّل إليّ أنني تعرّفت على شجرة. أمممكن؟ كم شجرة في الأمازون، مليار؟ مئة مليار؟ ويخيّل إليّ أنني تعرّفت للتوّ على واحدة! – ووجد أنطونيو نفسه يعود يفكر في لحظاته الأولى في القرية وفي ضربة الكرة التي استقبلته. من يدري من ركلها. لعلّه كان ياماندي، صاحب الجوربين. أو كاوي. لا، لا يمكن أن يكون أبو الخدود، كان حينها صغيراً أكثر من أن تكون له ركلة كهذه. حين تعلّم أن يتكلّم اللغة جيّداً سأل من رماها عليه، لكن لم يعد أحد يذكر. لعلّه كان بيتا، فقد كانت له ركلة قويّة منذ كان فتى صغيراً. تخيل لو دخلنا القرية وكان أول ما يحدث لي أن أتلقي ضربة كرة في البطن.

لم تكن هناك أيّ ضربة كرة في المعدة، لكنّ عودة العصبة، ككثير من وقائع أنطونيو في القرية، كانت موسومةً بالكرة.

«شش!» مواسير هو من أسكتهم وحدّد الطريقة التي سيظهرون بها من جديد: «أسمع أصواتاً. هناك أحد في المتّسع، إنهم يلعبون بالكرة.»

همّ ياماندي أن ينطلق إلى الأمام، لكنّ مواسير أمسكه من ذراعه: «انتظر، لنقترب دون أن نسمع. أريد أن أصنع الفيلم دون أن ينتبهوا.»

كان مواسير قد أخذ دور موثّق البعثة بجدية وحماسة كبيرتين. زوّده ريتي نورتي بخمسة هواتف حديثة وبخمس بطاريات احتياطية مشحونة. وبما أنّه لن يضطرّ إلى الاتّصال ولا إلى الدخول على الإنترنت، فمع حدّ أدنى من الانتباه ستكفي لإنجاز تحقيقه المصوّر. وكان قد استنفذ هاتفاً أول خلال الرحلة في القارب، إذ أجرى مقابلات مع كلّ أصدقائه والتقط صوراً لا تُحصى لعذاب. وبطلب من أنطونيو تجنّب توثيق الأجزاء الأخيرة من الطريق في القارب والأجزاء الأولى من الطريق مشياً («لماذا لا تريد أن يُعرف أين تقع القرية؟» «الشرح معقّد أكثر من اللازم. أطلب منك ذلك رجاءً يا مواسير: في هذا المقطع لا تصنع الفيلم، ريتي نورتي موافقة على ذلك»)، وحتى حين أعطاه أنطونيو الإذن باستئناف التصوير لم يصوّر كثيراً، قليلاً كي لا يبطئ سير المجموعة وقليلاً لأنّه أدرك سريعاً أنّ الحيوانات يصعب تصويرها وأنّ الأشجار، عند الصورة الثلاثين، ليست إلى هذا الحدّ من الإثارة.

لكنّ الفرصة سنحت له الآن أخيراً ليلتقط لقطةً هائلة. مجموعة من سكّان القرية يلعبون بالكرة، غير عالمين بأنّ عيّناً خارجية تصوّرهم. فكرّ مواسير أنّه ربّما في تلك اللحظة فقط، لأوّل مرّة في حياته، كان قريباً من فهم ما شعر به أنطونيو عند وصوله إلى القرية. ثمّ طرد تلك الفكرة، وخطا الخطوات الأخيرة في صمت مطلق، وركّز على المشهد أمام عينيه.

كان بيتا على وشك تسديد ركلة حرّة.

«حائط الصّدّ موضوع على أسوأ ما يكون» علّق ياماندي بصوت خافت، بينما كان يعالج حقيقته لإخراج الهدية التي اشتراها لأصدقائه في القرية.

«شش!» أسكتهم مواسير من جديد. لكنّه لم يقدر بعدها على كبح نفسه عن أن يضيف: «حائط الصّدّ يزعجني أكثر ممّا ينفعني، يحجب رؤية الكرة.»

«على كلّ حال هو موضوع بشكل سيّئ.»

«إنّها مسألة...» تدخّل أنطونيو: «قبل أن نحكم علينا أن نأخذ في الحسبان خطأ... يعتمد على الجهة التي تنظر منها.»

«بأي معنى؟ إن كان موضوعًا بشكل سيّئ فهو موضوع بشكل سيّئ» أضاف إيتاونا.

«ششششش!»

كان بياتا يحبّ أن يتمهّل قبل تسديد ركلة حرّة. كان يعجبه أن يأخذ كلّ الوقت ليدرس من أيّ جهة يمرّر الكرة، وإن لم يكن هناك مع حائط صدّ سيّئ هكذا كثير ما يُدرس، فيكفي أن يرمي حجرًا نحو المرمى ويكون الغول مضمونًا. لم يكن أكامين سيّئًا كحارس، لكن لا شيء يُقارن ب... لا بأس. لكنّه في تلك المرّة تمهّل أكثر من المعتاد: نظر حوله، كان هناك شيء غريب، فقبل قليل خيّل إليه أنّه سمع أصواتًا والآن على العكس كان في جهة من المتّسع صمت غريب، كأنّ كلّ الحيوانات في تلك الجهة قرّرت أن تصمت معًا. ثمّ هزّ كتفيه وانطلق مقتربًا، وهو في قرارة نفسه يتنهد مسبقًا لأنّه سيضطرّ بعد ثوانٍ قليلة إلى أن يذهب للبحث عن الكرة في كثافة الغابة.

اختفت الكرة بين الأشجار، كالعادة. رأى ذلك الجميع. فحين كان بياتا يسدّد ركلة حرّة كان الجميع يصوّبون أعينهم نحو الغابة خلف المرمى، لتسريع عمليات البحث. ولهذا استقبل ظهور ذلك الشيء الغريب في وسط الملعب، الذي كان يشبه كرةً لكنّه يرتدّ أكثر بكثير، بقدر مضاعف من الدهشة والحيرة. اقترب الفتیان كلّهم منه ببطء، بينما كان ينهي ارتداده. واقترب أيضًا الأكبر من بين الأطفال الذين كانوا يشاهدون المباراة، بينما كانت الأمّهات، وقد أرهبهنّ الأمر، يمسكن الأصغر.

«ما هذا؟» سأل جيروجيرو.

«ثمرة؟» اقترح إيسيكاريبا.

«ثمرة كهذه ما رأيته قطّ من قبل،» قال بياتا، وهو يواصل النظر حوله «ولم أفهم من أين سقطت. هل رأى أحد من أين سقطت؟»

«ربّما سقطت من الطائر الكبير المضيء الذي مرّ بعد الظهر؟» اقترح تايني، غير عالم كم اقترب من الصواب.

«إن كنّا ما نزال نلعب فذلك يعني أنّه لم يمرّ بعد، أليس كذلك؟» ردّ عليه إيسيكاريبا.

«يبدو لي أنّها جاءت من هناك!» رنّ صوت إحدى الطفلات من الجمهور.

كان بياتا أوّل من وجّه نظره في الاتجاه الذي أشارت إليه الطفلة، وبالتالي أوّل من كاد يُغمى عليه حين تحرّكت الأوراق، وانفصلت الأغصان، وبزغ من الغابة شبح ياماندي.

4.12 أظافر

وكَلَّمَا بزغ في المَتَّسَع عضو آخر من المجموعة الصغيرة، وبعضهم يلبس على جسده شيئاً غريباً يمنع رؤية صدره، حَلَّت محلّ الذهول الصامت عند الحاضرين صرخات فرح. ركض بعض الأطفال إلى الشابونو صارخين: «ياماندي! ياماندي! أنطونيو، مواسير، عادوا كلهم!» وفي غضون دقائق قليلة كانت في المَتَّسَع فوضى تجعل الكرنفال بالمقارنة تسليّة لمحبّي الصمت. رأى أنطونيو وجه جانائنا وجانب وجه إيبيراتا، بين ذراعيها، فشعر بإحساس دافئ بالطمأنينة، سرعان ما حلّ محلّه إحساس أشدّ إزعاجاً. كانت جانائنا تتقدّم بخطوة هادئة، ناظرةً حولها برويّة. كانت تبتسم، بل تضحك، وإلى جانبها، يبتسم بل يضحك معها، كان كيريمّا. أمممكن؟ غيرة. ذلك الإحساس المزعج كان بلا شكّ غيرة. أمممكن بتساءل أنطونيو مرّة ثانية، لكنّ عينيّ جانائنا التقتا بعينيّه بعدها وصفت الابتسامة الأجمل في الغابة كلّ غيمة. قبلته جانائنا ونقلت إيبيراتا إلى بين ذراعيه. بالطبع غير ممكن، إلى أين ذهب بي التفكير!

كان واضحاً منذ البداية أنّهما سيكونان يومين من أعياد كبيرة وانفعالات شديدة، تسقيها جرعات وافرة من مشروب التحول.

لكنّ الغيرة حلّ محلّها عند أنطونيو، بعد فاصل قصير من السعادة، إحساس مزعج جديد: الشعور بالذنب. فشرح أنّهم هناك ليومين فقط وأنّ عليهم أن يرحلوا فوراً لم يكن سهلاً إطلاقاً.

كان قد حمل هديّة لجانائنا طنجرتين لامعتين تركتها فاعرة الفم، وعشرات القلائد والأساور، أشدها ألواناً ممّا نجح في إيجاده، وقد استبدلت بها فوراً ما كان عليها من قلائد البذور والريش، وأرجوحة جميلة جدّاً من قماش متين مخطّط بالأحمر والأزرق، أعجبتها كثيراً. لكنّ الهدايا لم تكفّ إطلاقاً لإزالة عبوس كئيب كان يعتم وجهها.

«لكنّنا سنغيب شهراً واحداً على الأكثر ثمّ نعود إلى الأبد، أعذك.»

«ما هو شهر؟ غبت ثلاثة أقمار وعدت تتكلّم مثل أنطونيو زمان.»

«سامحيني. الشهر مثل أن تقولي قمراً.»

«وإنّ لماذا لم تقل قمراً؟»

«ألف عذر إذن! أنا متعب ومنفعل ومشوّش، تّبّا، كوني متفهّمة قليلاً!»

نظرت إليه جانائنا لتفهم إن كان يفعل ذلك عمدًا. وعندئذ فقط أدرك أنطونيو أنّه تكلم بالبرتغالية. وحاول أن يحوّل الأمر إلى مزاح وإلى طلب صبر.

«أمزح يا ضفدعتي. أحبك، وأحبّ إيبيراتا، وأريد أن أعود إليكما في أسرع وقت ممكن. عليّ فقط أن أفعل هذا الشيء أوّلاً.»

داعب خدّها وأخذ إحدى قلائد البذور التي كانت قد تركتها على الأرجوحة فسحب منها اثنتين وعشرين بذرةً بنيّة كبيرة وثمانية بذرات حمراء وأعاد نظمها بعناية في عود طويل: «هكذا، انظري. هذه الحمراء أيّام المباريات وهذه البنيّة الأيام بين مباراة وأخرى. الآن نعلّقها على باب الشابونو وكلّ يوم تسحبين بذرة. هكذا تعرفين متى نلعب، وتعرفين، وتعرف القرية كلّها، أنّنا بعد كلّ مباراة إن لم نكن قد عدنا خلال ثلاثة أيّام فذلك يعني أنّنا فزنا وأنّنا سنلعب التالية أيضًا. وتعرفين كم بقي من الوقت قبل أن نعود: انظري، حتى لو فزنا دائمًا لن نغيب أكثر من قمر واحد. ثمّ أعود إليكما وننام إلى الأبد معاً على هذه الأرجوحة الجديدة الجميلة، هل أنت أكثر سرورًا الآن؟»

وحين استعيد السلام مع جانائنا، أخذها أنطونيو بيدها وقادها نحو النهر، بحثًا عن ركن هادئ. وحين تأكد أنّهما وحدهما، قال أنطونيو: «أتذكرين حكاياتي عن الشاشة وعن الأشياء التي يمكن رؤيتها داخلها؟»

«بالطبع أذكر.»

«حسنًا. في الوقت الذي بقيت فيه هنا اخترعوا شاشات يمكن حملها ويمكن أن تُحفظ فيها الصور التي رأتها هذه الشاشات نفسها في الماضي.»

«لا أدري إن كنت فهمت.»

«انظري، أريك الآن.»

أخرج أنطونيو من حقيبته آيادًا. وضعه في يد المرأة، التي أخذته بشيء من الرهبة، ثم شغل التطبيق لمشاهدة الأشرطة. وهكذا تعرّفت جانائنا، مذهولة مفتونة، على مارسيليا وبابا إيتالو وسائر أسرة أنطونيو المتعدّدة الألوان، الذين كانوا يرسلون إليها تحيات كثيرة، كثيرة حقًا، وانظري ما أجمل حفيدنا، لكن ماذا تقول، هم من سيروننا، لسنّا نحن من نراهم الآن، لا يهمّ أنا واثقة أنّه جميل جدًّا، أليس كذلك يا نورمينيا؟

وكذلك لم يكن سهلًا تمامًا أن يكلم إيتاتاكوارا ويشرح له أنّهم لن يرحلوا بعد قليل جدًّا فحسب بل يحتاجون إلى أن يأخذوا معهم لاعبين أكثر بكثير. ومن جديد لجأ أنطونيو إلى آياده، عارضًا بعض صور الجولة التي انتهت للتوّ.

وكان شيخ القرية، رغم أنّ تلك الأداة تركته في حيرة كبيرة، متفهمًا إلى حدّ بعيد: «أنطونيو، أنت تعيش معنا منذ زمن طويل، أنت جزء منا. تعرف ذلك، صحيح؟»

«نعم، أعرف. أنا كذلك.»

«وإذن ينبغي أن تعرف أنّي مجرّد شيخ القرية، ولست مالك مصير أحد سواي. أنا سعيد بأنك تحكي لي خطّتك، لكن ليس عليكم أن تطلبوا إذنًا من أحد. إن أحسستم أنّ عليكم إنجاز هذه المأثرة فلا أستطيع إلّا أن أتمنّى لكم أن تكون الأرواح معكم.»

أصعب ما في الحديث كان الحفاظ على الرزانة والتواضع بينما كانت القيامة تقوم خارج الشابونو.

كان مواسير قد فهم تمام الفهم مطالب ريتي نورتي. ولهذا طلب أيضًا من رفاق مغامرته أن ينتظروا قليلًا قبل تسليم الهدايا، فقد كان يريد أولًا أن يصوّر سگان القرية منشغلين بأعمالهم اليومية. لكن ما إن أخرج أحد هواتفه من الحقيبة والتقط بضع صور وأرى النتيجة على الشاشة حتى تغيّرت حياة القرية إلى الأبد. صار على مواسير الآن أن يواجه هجوم عشرات الأشخاص الذين كانوا يتسابقون ليصوّروا في أغرب الوضعيات. وبما أنّ الضرر قد وقع الآن، فلا بأس من تهدئتهم قليلًا: أشار مواسير إلى أصدقائه أنّ الطريق مفتوح، يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون.

وبعد أن مرّت الموجة الأولى من الذهول والدهشة بكلّ الهدايا، «جميل جدًّا، هذا لي»، «وما هذا؟»، «إذن كلّ ما حكاها لنا أنطونيو في هذه السنوات صحيح!»، جاءت لحظة الحكايات. حكى كيريما عن أنثى آكل النمل التي ولدت صغارها تحت شجرة الزهور الحمراء بالذات، وأطلعهم بيّاتا على طقس البلوغ الذي جرى قبل قمر والذي أبلى فيه كثير من الشبان، من جديد، بلاءٌ ممتازًا «وإن لم يكن في مستوانا.»

وأثارت اهتمامًا كبيرًا أيضًا الانتقاءات السريعة، التي أشرف عليها بيّاتا وأنطونيو وياماندي وأوبيراجارا، لتحديد من سيكون الستّة عشر الآخرون الذين يؤلّفون المجموعة التي ستتحدى البرازيل. كانت الوجوه السعيدة لأبطال الرحلة الأولى دعاية كبيرة للمغامرة الجديدة التي كانوا يعرضونها: «ببراي استمتع كثيرًا جدًّا حتى إنّني بقي هناك ينتظرنا.»

وقليلون جدًّا من المختارين أبدوا تردّدًا، وفي النهاية قبلوا هم أيضًا وقد انتقلت إليهم عدوى الحماسة العامّة.

لكنّ ما تصدر المجلس كان بداهة مغامرات مجموعة الفتیان: جوقة من المدائح لأسرة أنطونيو، ولماكابا، وللبرازيل عمومًا. وكما في كلّ جوقة، لا محالة، كان هناك أيضًا الصوت الخارج عنها، صوت إيتاونا. فلكلّ من كان عنده صبر

ليصغي إليه، كان إيتاونا يحكي نسخةً من الحياة في ماكابا مختلفةً كثيرًا عن الصورة المثالية التي كان الآخرون يرسمونها.

«الفراغ. غريب جدًا: هناك في الوقت نفسه فراغ وفوضى. هناك ناس كثيرون جدًا، أكثر بكثير ممّا في القرية، وفي كلّ لحظة من النهار والليل هناك ضجيج شديد جدًا، ومع ذلك كأنّه فراغ، كأنّ الناس بعيدون بعضهم عن بعض. هناك أكواخ عملاقة كثيرة جدًا ولا يعيش داخلها إلا أشخاص قليلون، أحيانًا اثنان أو ثلاثة أو حتى واحد فقط. وهناك أشجار قليلة جدًا. وتلك الأشجار القليلة كلّها صغيرة، ذابلة كما يكون الرجل حين تكون عنده حمّى. وهناك أيضًا حيوانات قليلة. وفي هذا الفراغ هناك أغرب شيء على الإطلاق: شيء يسمّونه الريح. إنّه هواء يتحرّك، لكن ليس كما هنا. يتحرّك بقوة، ويحني الأشجار، وإن وضعت ريشةً على رأسك أخذها منك بيد غير مرئية، بل له صوت خاصّ به.

ثمّ إنّ الناس لهم شغف بصنع الأفلام، لكن ليس كتلك التي في شاشة أنطونيو. أحيانًا يتظاهرون في الأفلام بأنّهم يقتلون بعضهم، ويذهب الناس إلى نوع من الشابونو ليروا الناس يتظاهرون بأنّهم يقتلون بعضهم ويكونون مسرورين.

وهم يلعبون بالكرة، نعم، لكنّهم أضعف منّا بكثير. فريق أطفالنا سيفوز على كبارهم.

لكن قبل كلّ شيء: الناس مختلفون. كثيرون شاحبون. تعرف أنّه يُقال إنّ أنطونيو أيضًا كان أبيض حين وصل إلى هنا. لكنّ هؤلاء أفتح بعد، أشحب من سمكة ميّنة. وآخرون على العكس داكنون كالخشب بعد النار. إنهم سود كالليل، حتى في النهار. تنظر إليهم فلا تنجح حتى في أن تفهم إن كان لهم وجه أم لا. وكانوا جميعًا ينظرون إلينا كأنّ الغرباء نحن.»

فكان من الطبيعيّ إذن أن يبلغ إيتاونا قراره لأنطونيو عند لحظة الرحيل: «أنا لا آتي.»

«كيف لا تأتي؟ والمباراة مع البرازيل؟ وكأس العالم؟»

«ستفوزون بالمباراة من دوني أيضًا. أمّا كأس العالم فأفضّل تلك التي علّمنا أن نلعبها أنت هنا، ونحن أطفال. لتكن الأرواح معكم. أبلغوا تحياتي إلى بيراي.»

العجلة اللعينة، فكّر أنطونيو. بقيت أربعة عشر عامًا في أشدّ الهدوء والآن عليّ أن أفعل كلّ شيء راکضًا. فكما لم يكن هناك في ماكابا وقت للكلام مع بيراي وإقناعه بالعودة إلى الغابة، لم يكن هناك الآن وقت للكلام مع إيتاونا وإقناعه بأن يأتي معهم إلى ساو باولو.

«حسنًا يا إيتاونا. كما تفضّل. يؤسفني ذلك كثيرًا. لا أستطيع الآن، لكننا سنلتقي قريبًا ونتكلّم كثيرًا.»

«نعم.»

وحين رحلوا عند الفجر، بعد يومين ونصف من وصولهم، كان إيتاونا في الصّف الأوّل يودّعهم، ويده ممدودة إلى الأعلى ونظرته فخورة، بشمّم يجعل كلّ من يرى الصورة البديعة التي التقطها مواسير يظنّ أنّه هو شيخ القرية.

لكن ما إن اختفت مجموعة الثلاثة والعشرين عن ناظره حتى انتهت تلك اليد نفسها داخل فم إيتاونا، الذي قضى الساعتين التاليتين يقضم أظافره كما لم يعد يفعل منذ كان طفلًا.

كانتا ساعتين من قلق متزايد، قضاها إيتاونا يستعرض في ذهنه مرّة بعد مرّة كلّ ما أقلقه في الأشهر الثلاثة السابقة. لكن صور الأكواخ العملاقة الفارغة، والناس ذوي الوجوه الغريبة، والإسبرطيين الثلاثمئة الذين يذبح بعضهم بعضًا، كانت تتراكم عليها باستمرار صور أصدقائه، ومباريات الكرة، وعدد المتفرّجين المتزايد في مبارياتهم. وعلى ذكرى ضجيج السيارات كان يتراكم هدير الجمهور عند كلّ غول.

نظر إيتاونا إلى السماء، الأشدّ إضاءةً بكثير ممّا كانت حين رحل أصدقائه. رحلوا منذ زمن، فكّر. لكنّه فكّر أيضًا أنّ مجموعة من ثلاثة وعشرين شخصًا تتقدّم في الغابة أبطأ بكثير من رجل وحده. وخاصةً إن كان ذلك الرجل هو من خطرت له الفكرة العظيمة بأن يعلم الطريق مثل الإبهام الصغير. ثمّ سيضيّعون وقتًا كثيرًا في بناء الد... غامبوني!

ليس هناك أي طوف يُبنى! أخذ الحقيبة الصغيرة التي حملها من ماكابا، ودسّ فيها مسرعًا بعض الطعام، وركض إلى إيراسيما فوجد أخيرًا الشجاعة ليقبلها، ثم ذهب إلى إيتاتاكوارا: «سأذهب للحاق بهم. لعلهم سيحتاجون إليّ.»

«بلا شك» قال إيتاتاكوارا، بينما كان الشاب قد انطلق راكضًا يتوغّل في كثافة الغابة.

4.13 مونتي دورادو

نجح إيتاونا، لاهتًا لكن راضيًا، في اللحاق بالمجموعة قبيل وصولها إلى النهر. ارتاح أنطونيو لرؤيته، لكن ذلك لم يكن شيئًا بالقياس إلى الارتياح الذي شعر به إذ رأى أن غامبوني، فلا يُعرف أبدًا، كان قد انتظرهم حقًا.

وما إن وطئت أقدامهم القارب الكبير، أول احتكاك بالعالم الخارجي، حتى انقسمت المجموعة فورًا إلى قسمين. من جهة المستجِدّون، أولئك الذين تطأ أقدامهم لأول مرة ما وراء الغابة، ومن الجهة الأخرى الخبراء. والآن إذ عاد أنطونيو يفكر في ذلك، كان الفتیان شجعانًا حقًا، منذ اللحظات الأولى تمامًا. شجعانًا إذ تركوا عالمهم، ولا يهابون إذ عانقوا عالمًا جديدًا دون رهبة تُذكر. لكنهم لم يبدوا قط واثقين من أنفسهم كما كانوا الآن بالمقارنة مع الآخرين. كان مضحكًا أن يرى كيف تكفي تلك الرحلات القليلة بالقارب على النهر وعلى جاري ليشعروا بأنهم أعظم خبراء الملاحة النهرية في العالم. ناهيك عن بقية إقامتهم في ماكابا وعن الجولة، التي حوّلتهم إلى ماجلانات جدد. كانت جوقة الأصوات لا تنقطع، وموضوعها الرئيسي تنويع على الموضوع الكلاسيكي «آه، جاري لم يعد كما كان»، وهو ما كان يسلي أنطونيو كثيرًا وغامبوني أيضًا، الذي كان أنطونيو يترجم له بين حين وآخر مقتطفات من الحديث.

«آه، هذه المرة عندنا القارب جاهز، أمّا المرة الماضية فكان علينا أن نبنيه بأنفسنا. أتذكر يا جاسي؟» قال أوبيراتان.

«بالطبع، لا ينسى ذلك إلا مجنون. ويا له من قارب. الإبحار عليه كان مختلفًا جدًا. أخطر، لكن أمتع أيضًا.»

«وحين كادت الأرجوحة وفيها ياماندي تنزلق إلى الماء وأمسكناها بشعرة؟» اقترح كاوي.

هذه لا أذكرها، فكر أنطونيو، لكن ربّما حدث وأنا نائم.

«ثم قضينا الليل كلّ ساهرين لنطرد الجاكاريه» أضاف مواسير.

هذه أنا واثق أنها لم تحدث، فكر أنطونيو، لكنّه لم يتدخل لأنّه كان فضوليًا للإصغاء.

وحين وصلوا إلى حكاية الشلال كاد يستحيل فهم شيء، لأنّ الجميع - حتى ياماندي، على غير عادته - أرادوا أن يحكوا نسختهم من الحكاية، مقاطعين بعضهم بعضًا ومغطّين أصوات الرفاق. وفي هذه النسخة الجديدة من الحكاية كان كلّ واحد منهم قد غطس في الماء لإنقاذ الطوف أو فعل شيئًا حاسمًا بالقدر نفسه لنجاح البعثة. والحق أنّ الأمور، إن تركنا التفاصيل الصغيرة جانبًا، جرت هكذا فعلًا. كانوا جميعًا أبطالًا وحاسمين، واضطرّ أنطونيو إلى مصارعة العقدة التي كانت تتشكّل في حلقه.

لكنّ الشلال كان أيضًا سبب أول خيبة عند مجموعة الجدد. فقد تفاداه غامبوني بعناية، ومع أنّه اقترح، بعد أن تجاوزوه، أن يعودوا أدراجهم قليلًا ليتأملوه، فقد عارض أنطونيو لأنّه كان يقصد الوصول إلى مونتي دورادو في أسرع وقت ممكن: فالجدول كان ضاغطًا جدًا أصلًا وكان يريد أن يحاول إتعب الفتیان أقلّ ما يمكن. قبل القرار من الجميع، لكن بدأ يدبّ بين المستجِدّين شك في أنّ «الخبراء» استغلّوا الأمر ليبالغوا قليلًا.

بياتا هو من عبّر عن هذه الشكوك ما إن لاحت أولى سطوح مونتي دورادو.

«هذا كلّ شيء؟ من حكاياتكم بدا الأمر من يدرى ماذا وإذا به أكبر قليلًا فقط من قريتنا. أواثقون أنكم لم تحملوا بكلّ ذلك؟»، قال نصف مازح ونصف جاد.

أمّا سائر المستجِدّين، متراصّين كرجل واحد خلف ناطقهم، فأومأوا مقتنعين. لكنّ ياماندي والآخرين اكتفوا بالهقهقهة: «سترى. سترون.»

ما كان الوصول إلى مونتي دورادو ليكون أشدّ اختلافًا عن المرة السابقة. حينها وصلوا في صمت، شبه متسلّين. أمّا الآن فكان ينتظرهم على المرسى حشد من الفضوليين كثيف إلى حدّ ما - وقد ازداد عددًا بسرعة ما إن انتشر خبر

رسوهم الوشيك - وعدد لا بأس به من آلات التصوير أيضًا. لحسن الحظ كان أنطونيو قد فكّر في هذا الاحتمال مسبقًا وقرّر أن يواجه الوضع وجهاً لوجه. فإن كانت المجموعة الأولى من السبعة قد اضطرت إلى التكيف مع الحياة البرازيلية بسرعة إلى حد ما، فهؤلاء سيكون عليهم أن يفعلوا ذلك أسرع بعد: ولعلّ الحلّ الوحيد ألا يُعطوا الوقت حتى ليفهموا ماذا يجري. لهذا كان قد وُزّع في القارب سراويل قصيرة وقمصانًا للجميع، ليتفادى على الأقلّ مشكلة العري الجماعي، وكان قد بدأ أيضًا يجعل القادمين الجدد يجربون أحذية كرة القدم.

وقبل أن يرسوا حتى، انطلق من المرسى الهتاف: «جاسي! بيراي! كاوي ومواسير! أقوى من إسبانيا والأرجنتين بكثير!» لم يفهم أنطونيو في البداية، ثم ابتسم وبدأ يحيّي بيده، بينما كان كثير من الفتیان يتزاحمون مرتاعين نحو مؤخرة القارب، كأنهم يريدون أن يؤجّلوا قدر الإمكان الاحتكاك بذلك الحشد الصارخ.

وما إن نزلوا حتى بحث أنطونيو عن جورج بين الناس. لمحّه على الفور تقريبًا، واقفًا جانبًا بعض الشيء، منشغلًا بإعطاء توجيهات لأحد زملائه. تبادلًا التحيّة، لكنهما قرّرا بإشارة وباتفاق مشترك أنّ المقابلات الأولى ستنتظر حتى يكونا في مكان أهدأ. وخيّل إلى أنطونيو أنّه يرى بين الحشد أيضًا النظرة المشتعلة لذلك الصحفيّ المجنون الذي أجرى معه مقابلة، أو بالأحرى الذي اخترع المقابلة عند عودتهم إلى ماكابا، بيبو، بيسبو، ما اسمه. ففي النهاية كان له هو أيضًا فضل بشكل ما في كلّ ما يجري الآن، وجد أنطونيو نفسه يفكّر، وإن كان الشعور بالامتنان لشخصية كهذه على كلّ حال فوق طاقته.

وفي موكب من المشجّعين، اتّجهوا مع جورج وطاقمه نحو البوزادا، التي علّق على لافتتها للمناسبة شريطٌ يقول «آل بيلورينيو - البوزادا الرسمية للمنتخب الهنديّ للبرازيل». وكان ينتظرهم على العتبة، كحارسين، من جهة الطبيب الذي سيتولّى التطعيمات ومن الجهة الأخرى السيّد أرماندو، الذي منحه جيزيتا، تكريمًا لذكرى المرّة السابقة، شرف أن يكون النزول الوحيد في البوزادا من خارج البعثة.

«أهلاً وسهلاً!» قال أرماندو رافعًا جعته «انتظروا حتى أذهب لأنادي جيزيتا.»

لكن لم تكن هناك أيّ حاجة إلى ذلك. فبعد ثوانٍ قليلة، وقد استدعاها ضجيج الحشد، ظهرت صاحبة البوزادا على العتبة بابتسامة عريضة بحثت عن كاميرات ريتي نورتي فوجدتها فورًا. أشارت إشارات واسعة للعصبة كلّها بالتفصّل وحيّتهم واحدًا واحدًا وهم يدخلون، بين خجول وجسور.

وآخر من دخل، بعد أن دخل الطاقم التلفزيوني أيضًا، كان مواسير، الذي أخرج من حقيبته الصغيرة زهرة جميلة جدًّا كان قد قطفها في القرية، وقال لها ببرتغالية تشي بأنّها جرّبت عشرات المرّات: «هذه لك يا دونا جيزيتا» فاستقبله دويّ قادم من داخل البوزادا.

«هذه لك يا دونا جيزيتا» صارت بسرعة العبارة المتكرّرة عند المجموعة. فمذ كانوا في القارب، وهم يحضرون بروفات مواسير، طلب بعضهم مرارًا أن تُوصف لهم جيزيتا هذه وساعده على تعلّم الجملة البرتغالية، مكرّرينها معه بنبرات مختلفة. واكتفى آخرون بمراقبة ما يجري بفضول، وكان لآخرين، وخاصةً أفراد البعثة الأولى، موقف أكثر مزاحًا، فكلمًا وصل الأمر إلى وصف جيزيتا أضيفت تفاصيل عديدة، وخاصةً عن ملابسها التي كانوا يعرفون أنّه لن يفهم تمام الفهم عند المستكشفين الجدد. «نعم، جميلة، يا خسارة على تلك الأوراق الكبيرة من النخيل التي تنبت من أذنيها...» أو «جميلة؟ أواثقون؟ ما دامت مختبئة في الجذع الذي لا تبرز منه إلّا اليدان والقدمان لا أدري ماذا أقول...» وهلمّ جرًّا.

لكن حين صاروا جميعًا في الداخل، اقترب إساي من مواسير وقال له بصوت خافت: «كنت على حقّ، إنّها جميلة. غريبة جدًّا لكن جميلة.»

«هكذا هو سائر العالم أيضًا، ستري.»

4.14 هدوء

«ثياغو!»

«نعم يا مدرّب.»

«انظر إليّ جيّدًا.»

نظر إليه ثياغو، غير فاهم ما الذي ينبغي رؤيته لكنّه يستشعر مسبقًا قدوم مهمّة عبثية بشكل أو بآخر.

«أأبدو لك مختلفًا؟»

«بأيّ معنى؟»

«لا أدري، أأبدو لك كما كنت؟ كما قبل شهر؟»

«اعذرني يا مدرّب، لكنّي لا أفهم.»

«لا يا ثياغو، أنا من لا أفهم. أنظر إلى نفسي في المرآة فيبدو لي أنّي ما زلت هو هو، عدا هذه الذراع المكسورة اللينة. لكنّي في الداخل لم أعد أنا، أخشى أن يكون الفضائيون قد خطفوني واستبدلوا بي نسخةً أهدأ، أرزن، أسكن.»

«آه، فهمت. لا، أضمن لك أنّك ما زلت هو هو.»

«بمعنى أنّي ما زلت غاضبًا؟»

«لا لا، لم أقصد...»

«لا يا ثياغو، ليس الأمر كذلك. ليس كذلك. أنا لا أغضب إطلاقًا. لكن ينبغي أن أغضب. بعد ثلاثة أيام تبدأ كأس العالم وأنا ما زلت لا أعرف بأيّ فريق سألعب. أعني، أعرف، لكنّهم لم يعطوني بعد الإذن الرسمي باستدعائهم. ومجرّد كوني مضطّرًا إلى طلب إذن أحد لاختيار من أخذه إلى كأس العالم، انظر، كان يكفي وحده لأطلب منك أن تذهب لتشتري لي مطرقةً لكسر كلّ شيء. لكنّ الأمر لم ينتهِ هنا، لا. هؤلاء المعتوهون يطالبون بأن أجعلهم، قبل 48 ساعة من الافتتاح، يلعبون أيضًا مباراةً ضدّ فريق من... من... من... ناس لم يروا ملعب كرة قدم في حياتهم قطّ. لكن هل تدرك؟»

كان ثياغو صامتًا، فقد كان يعرف أنّ دوره في هذه الحالات هو فقط أن يكون هناك كي لا يشعر المدرّب بأنّه يكلم نفسه.

«كنت أظنّ أنّها كلّها سخافات للتودّد إلى الأمتة. وكنت أظنّ أنّ ذاك الآخر على الأقلّ، طرزان كرة القدم ذاك، ستكون عنده تلك الذرّة من حسن التقدير فيعود من حيث جاء ويبقى هناك. وإذا بشيء من هذا لم يحدث. ألو، نصل هذا المساء، نلتقي في الملعب غدًا في الثانية، كالأطفال. وأنا، بدل أن أكسر كلّ شيء، هنا هادئ كبحيرة.»

ليس تمامًا، فكّر ثياغو دون أن يفتح فمه.

«أنظر إلى هؤلاء البلهاء وهم يحاولون إفساد كلّ شيء، وأنظر إليهم بتجرّد، كأنّ الساق التي يبول عليها هذا الكلب ليست ساقي.»

أيّ كلب، كاد ثياغو أن يسأل، لكنّه أمسك نفسه في الوقت المناسب تمامًا.

«لا بأس، على الأقلّ نجحت في إقناعهم باللعب شوطًا واحدًا فقط، فأيا كان الفائز (أيًا كان، تصوّر) لن يكون متعبًا أكثر من اللازم حين يلعب ضدّ كرواتيا. لكن إن آذى أحد من أولئك السكّان الأصليين أحدًا من رجالي فأقسم إنّي آخذ النابالم وأحرقها كلّها، تلك الغابة اللعينة.»

4.15 الطائر الكبير المضيء

ما كانت تعليمات أنطونيو لتكون أوضح: «ثابتون وصامتون. ثابتون كما حين تُرصد فريسة وصامتون كما حين تُرصد فريسة. بسيط أليس كذلك؟»

لا، ليس بسيطًا. بل صعب جدًا.

الانفعال الذي لا يُصدّق في الطيران الأوّل، ورؤية مونتي دورادو تصير أصغر فأصغر تحت أعينهم، ومنظر الغابة الهائلة من الأعلى، كلّ ذلك أعاد الجميع إلى المستوى نفسه: لم يعد هناك خبراء وغير خبراء، فلم يكن أحد منهم قد صعد من قبل على الطائر الكبير المضيء وأنطونيو نفسه لم يركبه إلاّ مرّتين قبل سنوات كثيرة جدًا. لكنّ الطيران الأوّل كان قصيرًا، وكان هدير الطائرة الصغيرة، التي تصرّ تقريبًا كقارب غامبوني، عاليًا مزعجًا إلى حدّ طغى على أيّ انفعال آخر. توقّفوا في مأكابا، حيث انضمّ إليهم بيراي وهو في غاية الانفعال، ثمّ حملهم طيران قصير آخر قضوه كلّ تقريبًا وأيديهم على آذانهم إلى بيليم.

في مطار بيليم الحديث عادت المسافة بين المخضرمين والمستجدين واسعة ظاهرة. وكانت خطّة أنطونيو للنجاة من ساعات التوقّف الأربع، وهي دهر، أن يعهد إلى كلّ مخضرم بحراسة اثنين أو ثلاثة من القادمين الجدد ليبقوا تحت السيطرة.

كانت الواجهة الزجاجية الكبيرة تطلّ على المدرج، الذي كانت تتحرّك عليه بتكاسل بضع طائرات. كبيرة هكذا، ولامعة هكذا، وقويّة هكذا، كان يمكن النظر إليها ساعات. لكنّ من يرفع بصره كان يشهد المشهد الجديد المروّع للأفق: خطّ داكن يحدّ المرئيّ، حافة الغابة، وفي العمق على اليسار عمود نحيل من الدخان الرماديّ يقطع النظر فيمنح الرؤية عمقًا.

هكذا مضت الساعة الأولى، في التآلف مع وجود زجاج بهذا الكبر ومع أنّه، كما كان يُكرّر كثيرًا، ليست هناك أشجار في كلّ مكان، وأنّ كلّ تلك المساحة الخالية من النبات تكاد لا تُتصوّر. **سنتجاوز هذا**، كان أنطونيو يكرّر لنفسه كثيرًا وهو يواصل النظر إلى الساعة ويشعر بأكثر من لسعة حنين إلى حياة الغابة.

بدأت الساعة الثانية بمواء لم يعبأ به أيّ من الحاضرين، إلاّ بداهة تلك المجموعة من الصيادين البالغين المهارة، الفتيان الخارجين للتوّ من الغابة. تحرّكوا بحذر حول كراسي الصالة عاجزين عن تمييز مصدر الصوت بسبب المكان الواسع الذي كان يولّد صدّ يشوّشهم. وفي النهاية عثر جيروجيرو، المشهور بسمعه المرهف وببيده الكبيرتين، على مصدر الصوت مخبأ جيّدًا في سلّة الخيزران التي تركتها صاحبها لحظة على كرسيّ. كان أنطونيو، إذ رأى فتياه يتحرّكون هكذا، قد استنفر فورًا لكنّ نظرة سريعة إلى كاوي وبياماندي طمأنته: في تقديرهما أيضًا لم يكن الأمر جدّيًا. ثمّ سمع فجأة المواء، ورأى سلّة الخيزران والمجموعة المتزايدة عددًا وهي تحتشد حولها، ففهم.

«إنّه جرو جاكوار!»

«أسود؟»

«توجد جاكوارات سوداء، سمعت الكلام عنها.»

«لكنّه صغير!»

«لعلّه وُلد للتوّ.»

«لكنّه يبدو كبيرًا، لا أعرف كيف أشرح، يبدو جروًا بالغًا.»

«ويصدر صوتًا غريبًا جدًا أيضًا.»

«لماذا هو محبوس هناك في الداخل؟»

«الآن أحرره...»

وصل أنطونيو بعد فوات الأوان، وكذلك صاحبة القطة غير العالمية بشيء، التي خرجت من الحمامات ربّما بسبب الجلبة فوجدت نفسها وسط عشرة فتيان أو أكثر منكبين على مطاردة قطة مطاردة بهلوانية، وقد كانت هي في هذه الأثناء قد ارتأت أن تتسلق إحدى العوارض الحاملة للبناء وأن تختبئ خلف لوح معدني على ارتفاع لا يقل عن خمسة أمتار.

«سأصعد أنا!» رنّ صوت ياماندي الذي لا يخطأ في الصالة الواسعة.

«لا يا ياماندي...» بدأ أنطونيو يقول بصوت في غاية القلق.

«لا تقلق، لن يصيبني شيء.»

«ياماندي أقولها لك بكلّ الحبّ الذي أكّنه لك. إن حاولت أن تصعد على تلك العارضة فسأقت...»

لم يُنه أنطونيو الجملة. كان ياماندي قد بلغ القطة، وهي أظهرت له فوراً كلّ احتقارها بضربات مخالب على ساعديه.

لزمت نصف ساعة كاملة من الاعتذارات ليعود كلّ شيء إلى طبيعته. فكّر أنطونيو في ألف حجة لتوبيخ ياماندي على تلك الفعلة لكنّه قرّر أن يبقى كلّ شيء لنفسه. لماذا لم يبدّل لي الأمر صعباً هكذا في المرّة الماضية؟

أما الساعة التالية فكان الحمام محورها، حين بدأت تصل إلى أنطونيو التقارير الأولى عن حاجات الفتيان المختلفة. فرغم أنّ شبّان الموجة الأولى كانوا يقومون مقام المشرفين، ورغم أنّ أنطونيو كان يكرّر كتعويذة «ثابتون وصامتون. ثابتون كما حين تُرصد فريسة وصامتون كما حين تُرصد فريسة»، كانت الحماسة أمام الصنابير التي تبصق الماء وحدها – وكانت صنابير البوزادا قد أذهلتهم من قبل، وما كانوا ليظنّوا قطّ أنّ هناك طريقةً أغرب بعد لرؤية الماء ينبثق – وأمام المرايا الهائلة، وشكل المراحيض الناصعة (لكن إن استعملناها ستتنسخ كلّها، سيوبّخوننا!)، وفتحات الهواء الساخن لتجفيف الأيدي، تبدو لا تُكبح، حتى إنّ بعضهم لم يتذكّر حاجاته إلّا بعد أن صعد إلى متن الطائرة.

ورنّت فجأةً في الصالة الصرخة المستعملة في القرية لإطلاق الإنذار: كانت طائرة لامعة كبيرة جدّاً تهبط ساطعةً بانعكاس الشمس، فركض الفتيان بلا نظام نحو الواجهة الزجاجية، واصطدم أحدهم بالزجاج فعلاً، وكان بعضهم في نشوة، وبعضهم خائفاً، وسأل أحدهم أين قوسه. لحسن الحظّ أمسك مواسير وكاوي بزمّام الوضع وبدأ محاضرةً صغيرة أظهرها فيها لأنطونيو أنّهما فهما جيّداً جدّاً جوانب طيرانية شتّى كان هو نفسه سيسقّ عليه كثيراً أن يحكيها باللغة.

كانت اللحظة مشحونةً بالسحر: هنديان يشرحان بلغة كثيفة بالإشارات والزقزقات والصفير كلّ ما يعرفانه عن الطائرات لجمهور مؤلّف من مجموعة من غير المتّصل بهم غادروا قريتهم للتوّ لأوّل مرّة. أمّا سائر المسافرين والحراس والموطّفين فكانوا قد ركّزوا انتباههم منذ ساعات على هذه المجموعة الغريبة إلى هذا الحدّ، وكانوا الآن يحضرون مشهداً كان سيكون مسرحاً عظيماً لولا أنّ أحداً لم يكن يمثل.

وأنطونيو، على حدة، كان قد استعاد ثقته من جديد، بل كان يستمتع حقّاً، مستقوياً قبل كلّ شيء بكونه الوحيد الذي يفهم كلّ الشروح ويقدر على وضعها في سياقها الصحيح.

«إنّهما يشرحان كيف تعمل الطائرات، صحيح؟» سأل جورج الذي كان مسافراً معهم وكان قد اقترب منه في هذه الأثناء.

«يفعلان ما في وسعهما» أجاب أنطونيو مبتسماً.

«الإشارات تُفهم إلى حدّ ما، الأصوات هي الغريبة حقّاً.»

«نعم؟ أتقول إنها تُفهم؟ أنا شقّ عليّ كثيرًا أن أتعلّمها، إنها جزء من اللغة أتعلم؟ الصوت نفسه مصحوبًا بإشارة مختلفة قد يعني شيئًا آخر تمامًا.»

«نعم، أصدّق. لكن حين يشيران إلى الطائرة، حين يفتحان ذراعيهما للدلالة على الطيران، ذلك يُفهم.»

اقتربت صاحبة القطة بدورها، فضوليّة، ووجدت الشجاعة لطرح السؤال الذي بقي محبوبًا في داخلها ساعات: «من أنتم؟ ما أنتم؟»

فكّر أنطونيو بضع ثوانٍ ثمّ أجاب: «فريق كرة قدم يا سيّدتني.»

«آه، أنتم ذلك الفريق؟ الذي تكلم عنه التلفاز؟»

«أظنّ ذلك، لم أشاهد التلفاز في الآونة الأخيرة، أتعلمين، لكنّي أظنّ ذلك، إن كانوا تكلموا عن فريق فأظنّ أننا قد نكون نحن.»

«لكن هل فهمت خطأ أم أنكم ذاهبون للعب في كأس العالم؟»

«سنحاول يا سيّدتني، سنحاول.»

«والفتيان هم...» صنعت بيدها إشارة تدلّ على المجموعة كلّها تقريبًا، «أولئك هناك؟»

«نعم، هم أولئك هناك.»

بدت السيّدة راضيةً عن الجواب، قلبت الأمر لحظةً وابتعدت. ثمّ غيّرت رأيها وعادت إلى أنطونيو، وأخذت يده، وقالت له «بالتوفيق. أنتم تعجبونني. أنا واثقة أنكم ستنجحون. بالتوفيق حقًا» وعندئذ فقط عادت إلى الكرسيّ الصغير قرب قطنها، مسرورة.

وحين وصلت طائرتهما أخيرًا واصطفوا للصعود في النسيم اللاهب، استرخى أنطونيو، كدنا ننجح، جهد أخير بعد.

«أسنذهب من جديد قرب الشمس الآن؟» سأل جاغاريونا مواسير الذي أخذه السؤال على حين غرة قليلًا ففكّر قليلًا.

«أتعلم أني أظنّ أنّ الشمس سحرية؟ قبل قليل، من داخل الطائرة، نظرت إليها فلم تكن أكبر ولا حتى أشدّ حرارة. نقترّب وهي تبقى كما هي، يعني أنها سحرية أليس كذلك؟»

صنع جاغاريونا الإشارة التي تعني «لا أدري»، بينما كان أنطونيو ينتقل إلى عدّهم للمرّة الثانية.

«هل من خطب يا أنطونيو؟» سأل جورج.

«ينقصني واحد،» قال أنطونيو حائرًا «أعيد العدّ لآتي لست واثقًا.»

«إن أردت أساعدك.»

«نعم، شكرًا.»

وهكذا، بعد كلّ تلك الساعات من الانتظار، اضطرّا إلى العدّ وإعادة العدّ ثلاث مرّات ليبلغا معًا الاستنتاج بأنّ نعم، ينقص واحد فعلاً.

وجدوا إبيسيكاريبا محبوبًا في أحد الحمامات، جالسًا وظهره إلى أحد الجدران، والدموع تخطّ خديّه – حدث نادر بين بالغى القرية.

«علينا أن نذهب يا إيسيكاريا، علينا أن نذهب لنلعب بالكرة.»

نظر إيسيكاريا إلى أنطونيو بنظرة فارغة ولزمه بعض الوقت ليستوعب كلماته.

«أنطونيو...» كان هناك شيء يريد أن يقوله لكنه لا ينجح في التعبير عنه، كان يصنع إشارات واسعة بيديه كأنه يدلّ على شيء: «أنطونيو...» ثمّ نجح أخيراً في تحديد ما يريد أن يعرفه: «حيث نحن ذاهبون هل هناك أشجار؟»

ساعده أنطونيو على النهوض، ولّف ذراعه حول كتفيه ورافقه ببطء نحو الباب.

«ليست كثيرة، لكن هناك أشياء أخرى كثيرة تستطيع أن تحمينا. أظنّ أنّك تستطيع؟»

كان إيسيكاريا يمشي ببطء ومطأطئ الرأس، مفكّرًا بشدّة.

«تحمينا؟ تنجح في حمايتنا؟»

«نعم، أعطيك كلمتي.»

«إذن نعم، أظنّني أستطيع.»

4.16 تاريخ

أيمكن لمباراة أن تكون من طرف واحد وأن تدخل التاريخ في الوقت نفسه؟ المتفرجون الحاضرون في ملعب مورو مبي في ساو باولو كانوا سيثقفون على أن نعم، ذلك ممكن.

كان الموعد النهائي لحسم الاستدعاءات، كما يعرف الجميع، قد حُدد في الحادي عشر من يونيو، اليوم السابق لبدء كأس العالم. لكن في انتظار معرفة إن كانت مجموعة أنطونيو ستعود من الغابة ومتى، بقيت آلة التنظيم في وضع الاستعداد (مصطلح تقني يعني أن أحدًا لم يفعل شيئًا): فلم يُحدد موعد للمباراة التي يجب أن تقرّر من سيذهب إلى كأس العالم، ولا طُرحت التذاكر للبيع بطبيعة الحال.

بات حتى خبر الحرب يعجز الآن عن البقاء الخبر الرئيسي عشرة أيام، فكيف بمجموعة متعدّدة الألوان من الهنود عادت إلى الغابة بعد يومين من قفزها إلى الواجهة الوطنية. فانتباه الجمهور القصير الأمد كان قد أسره العدّ التنازلي لكأس العالم، الذي صار في أيامه الأخيرة، واشتداد الاحتجاجات المناهضة لكأس العالم في المدن الكبرى.

وما إن خرجت أسو كآ من الغابة من جديد – خلافاً لتوقعات كثيرين – حتى بُحث على عجل عن ملعب متاح، وعادت الإذاعات والتلفزة تتناول الخبر بإلحاح، وحُدّد للتذاكر سعر رمزي، لكن النتيجة كانت أن مورو مبي كان عند صافرة البداية نصف فارغ وأن عدد المشاهدين أمام التلفاز لا يتجاوز عدد مشاهدي مباراة ودّية.

لكن بعد عشر دقائق بدأت خطوط الهاتف البرازيلية تنقل وتكرّر ملايين المرات الرسالة نفسها: هل تشاهد المباراة؟ جنون، أشعل التلفاز حالاً. وهرع عدد كبير من سكان الحيّ نحو الملعب، أملين أن يصلوا في الوقت المناسب لحضور دقيقة على الأقل من حدث كان يدخل تاريخ كرة القدم.

في الدقائق الخمس الأولى من اللعب كان فريق الهنود قد ألحق بالبرازيل غولين، باللاعبين المحترفين الذين كان عليهم بعد يومين أن يلبسوا القميص الأخضر الذهبي في كأس العالم. صحيح أن كلّ النجوم كانوا غائبين، وأن هؤلاء كانوا احتياطيّ الاحتياطيين، لكنهم كانوا مع ذلك لاعبين على مستوى دولي: وكون فريق من المجهولين يصقّهم بهذه السهولة كان مذهلاً. كان الهنود قد راهنوا كثيراً على أثر المفاجأة: فقد أندفعوا إلى الهجوم منذ ثواني اللعب الأولى وسجّلوا فوراً بتسديدة هائلة من بعيد لجاسي. ولم يكد اللعب يُستأنف ويُستوعب ما حدث حتى تلقت البرازيل الغول الثاني، سجّله كاوي من هجمة جماعية أديرت وفق مخطط لم يره أي من البرازيليين في الملعب من قبل.

ثمّ التقطت أسو كآ أنفاسها قليلاً وحاولت البرازيل الهجوم، لكنّ كثيرين ممّن كانوا حتى خمس دقائق قبل ذلك يتصرّفون كمهاجمين صاروا الآن يدافعون كأنهم وُلدوا في منطقة جزائهم، وهذا ولدٌ مزيّداً من الارتباك لدى البرازيليين المرتبكين أصلاً. وتصدّ سهل من مواسير تبعته هجمة مرتدة خاطفة رفعا النتيجة بيسر إلى ثلاثة صفر للهنود في الدقيقة الخامسة عشرة.

قبل المباراة كان المدربان قد اتفقا على اقتراح المدرب غونسالفيس بأن تُلعب المباراة الفاصلة في 45 دقيقة. وما بدا اختياراً تكتيكياً حصيفاً من المدرب الخبير كي لا يرهق فريقه استعداداً للافتتاح العالمي، صار الآن المسمار في نعش إمكانية المشاركة في كأس العالم نفسها. فثلاثون دقيقة لم تكن تبدو كافية لقلب النتيجة، وفي الحقيقة كان الانطباع أنهم لو لعبوا ثلاث ساعات أخرى لما كان يمكن أن ينتج عن ذلك إلا فوز أكثر إبهاراً للهنود. وهكذا كان: عند الصافرة الأخيرة كانت النتيجة قد صعدت إلى أربعة صفر لأسو كآ، دون أن تنجح البرازيل بعدها في إقلاق الخصوم.

وبينما كان الاثنان والعشرون في الملعب وكلّ الاحتياطيين ينظرون حولهم مذهولين، وإن لسببين متعاكسين، بدأت تُسمع من المدرجات أولى الهتافات غير المنظّمة مهلّة لفتيان أسو كآ.

على حافة الملعب كان مبعوث «يوم ديا كوبا دو موندو» الخاصّ يجري مقابلة مع المدرب غونسالفيس؛ وإلى جانبهما كان رئيس الاتحاد وأنطونيو ينتظران دورهما في الكلام.

«لا، لا أتفق»، كان غونسالفيس يشرح «هذه ليست هزيمةً للبرازيل، بل هي برهان جديد، من براهين لا تُحصى، على أنَّ مشكلتنا الوحيدة في كرة القدم هي حيرة الاختيار.»

أصغى أنطونيو إلى كلمات المدرب - الذي يجب الاعتراف له بأنه أخذ الأمر بفلسفة كبيرة - لكن بشروط، إذ كان منشغلاً بكبح الانفعالات التي كانت تدور في دماغه. ومنشغلاً قبل كل شيء بمحاولة إعداد كلمة في ثوانٍ قليلة لا تبدو متعجرفة أكثر من اللازم ولا متواضعة أكثر من اللازم أيضاً: ففي نهاية المطاف كان منذ دقائق قليلة - جنون، عليّ أن أكررها لأنني لا أنجح في تصديقها - المدرب الذي سيقود البرازيل إلى كأس العالم. شيء عن الهنود، وشيء عن البرازيل، وشيء عن قيمة المهزومين، لا أقول كلمة تبقى في التاريخ، لكن ولا شيئاً محرّجاً أيضاً. فكّر يا أنطونيو، فكّر.

وفي هذه الأثناء انتقل الميكروفون إلى رئيس الاتحاد.

«...وكلمات المدرب غونسالفيس الصائبة يجب أن تقودنا في الأسابيع الأربعة المقبلة. اليوم ليست هناك برازيل مهزومة وأخرى منتصرة، اليوم أظهرت مجموعة من اللاعبين أنها أجدر من أخرى بتمثيل بلدنا العظيم في كأس العالم وهكذا سيكون.»

أحسنّت، كلمات جميلة، فكّر أنطونيو.

«طبعاً اللغة عقبة، لكننا بالاتفاق مع المدرب غونسالفيس فكّرنا في أن نقترح على السنيور ألميدا أن ينضمّ إلى الفريق بدور المترجم، وبصورة أعمّ، خبير شؤون السكّان الأصليين. ونحن واثقون أننا بهذه الطريقة سنستثمر كفاءات كل واحد من الأبطال على أفضل وجه وسنتيح لهؤلاء الفتيان الرائعتين أن يمثلونا على أحسن وجه.»

ها؟

كلّ الكلمات التي أعدها أنطونيو تبخّرت في اللحظة نفسها، وخيّل إليه أنه يراها تتبخّر أمام عينيه. ولم يفهم أنه تكلم إلا حين سمع المبعوث يشكره وينقل الخطّ إلى الاستوديو، لكن لم تكن لديه أدنى فكرة عما قاله.

”الفصل 5“

5.1 قواعد

كأنهم يقولون لك إنك ربحت في اليانصيب لكن عليك بعدها، لتسحب الجائزة، أن تتلقى ضربة عصا في وجهك. بل لا، كأنه يمكنك أن تسكن في أجمل بيت في العالم لكن المدخل نتن ولا سبيل إلى إزالة الرائحة الكريهة. لا، ولا هذا أيضًا.

عقل أنطونيو، الذي كان في حالة غشاوة منذ نحو ساعة، عاد إلى النور متعلقًا بنظرية قديمة عنده: المقارنات لا تصمد إلا إلى حد، وبعده تصبح بسرعة هراء. ثم لأي غرض تُجرى؟ ينبغي أن تفيد المقارنات في شرح شيء يصعب فهمه. وضعي مقرف، لكنه ليس صعب الفهم.

والحق أن النظرات المستفهمة لم تكن قليلة في غرفة الملابس. كان فتیان الموجة الثانية يشقّ عليهم فهم ما يجري: فكأس العالم كانت لهم ما تزال ذلك الشيء الذي تكلم عنه أنطونيو كثيرًا والذي حوّلوه إلى لعبة جميلة حين كانوا أطفالًا، والبرازيل كانت ذلك المكان الذي يجب فيه بين حين وآخر أن يُقال «هذه لك يا دونا جيزيتا»، العبارة المتكررة التي ولدها مواسير.

أما رجال الحرس القديم فكانوا يفهمون جيدًا وكانت ردود فعلهم تتأرجح بين الدهول والاستنكار والغضب.

«لكن ماذا يعني بالضبط أن رئيسنا من الآن هو ذاك هناك وأن علينا أن نفعل ما يقوله لنا؟»

«يعني ما يعنيه يا مواسير. أم لعلّي لم أعد أعرف لغتنا؟» كان أنطونيو يعرف أن الفتیان لا ذنب لهم وأنّ السخرية اللاذعة لا تفيد في شيء لكنه كان يشقّ عليه أن يمسك نفسه.

«أتصوّر أن المدرب غونسالفيس سيأتي بعد قليل إلى هنا مع مساعديه،» تابع أنطونيو «وسيشرح لنا ما يجب فعله الآن. إلى أي فندق نذهب، وكيف نتدرب، وماذا نأكل، وبأيّ تكتيك نلعب المباريات المقبلة، كلّ شيء.»

«ماذا نأكل؟» قال إيتاونا، بذهول موجّه قبل كلّ شيء إلى إثارة ردّ فعل بيراي، الذي نظر إليه بدوره بهيئة نصفها استسلام ونصفها «ماذا تريد متّي».

أما انتباه ياماندي فكان كلّه للجانب الكروي: «وبأيّ تكتيك تريد أن نلعب؟ نذهب ونفوز، كما فعلنا دائمًا حتى الآن.»

«هذه كأس العالم يا ياماندي، إنها مختلفة جدًا. الخصوم أقوى بكثير، بكثير.»

«لكننا هزمنا البرازيل 4 صفر في شوط واحد!»

لم يجد أنطونيو الوقت ليفهمه أن تلك لم تكن بالتأكيد برازيل الأساطير بل نسخة شاحبة منطفئة منها، إذ كان بريجاوفا وإساي قد نقلوا الحديث إلى مكان آخر.

«لماذا علينا أن نغيّر المسكن؟ حيث نمنا أمس كان جميلًا جدًا!»

«فعلًا! نحن الآن البرازيل! البرازيل يجب أن تنام في أجمل مكان.»

ابتسم أنطونيو عند التفكير في أن الفندق الصغير الذي نزلوا فيه (ميزانية ريتي نورتي لم تكن تسمح بترف مفرط) يبدو لهم، وهم الذين لا يعرفون مقياسًا للمقارنة سوى بوزادا جيزيتا، ذروة الترف. لم يشرح شيئًا، فسيفهمون بأنفسهم خلال ساعات قليلة، لكنه تأمل بمرارة كم يكفي القليل لبعضهم ليصيروا نجومًا مدّلين.

ثم، كما هو متوقّع، سُمع طرق ودخل غرفة الملابس رئيس الاتحاد والمدرب غونسالفيس وسرّب من مجهولين آخرين، استقبلوا بائنتين أو ثلاث من «هذه لك يا دونا جيزيتا»، وربّما كان السبب اللبس في أخذ هذه الصيغة تحية عامة،

وربما الفوضى العامة الناتجة عن كل تلك الحوارات المفاجئة بالبرتغالية. المهم أنه بينما كان غونسالفيس يتكلم، كان قد ترسّخ في ذهنه نهائياً الاقتناع بأن أمامه مجموعة من الأغبياء.

أصغى الفتیان في صمت تام إلى كلمات الرئيس والمدرّب وإلى ترجمة أنطونيو. لكن ما إن أغلق الباب وبقوا وحدهم من جديد حتى قامت القيامة في غرفة الملابس.

«الليلة علينا أن نذهب للنوم باكراً؟ لكني كنت أريد أن أحتفل!»

«كنت أريد أن أذهب لأرى القرية. حين كنّا نطير داخل الطائرة رأيت أكواخاً عالية جداً، أريد أن أراها عن قرب.»

«وهذا الجنون بأننا لا نستطيع أن ندهن أنفسنا؟»

«حقاً؟ كنت أظنّها مزحة.»

«انظر إلى وجه أنطونيو، لا يبدو لي أنه يمزح.»

«لكني ما زلت لم أفهم من قال إن علينا أن نفعل ما يقوله ذاك هناك وإننا لا نستطيع أن نفعل ما يحلو لنا.»

«هذا العالم مصنوع هكذا،» اختصر كاوي «فهمت أنهم يسمونها قواعد. أما أنا فيبدون لي كلهم بلهاء.»

رَنَ محمول الفريق. مرّره مواسير إلى أنطونيو الذي أخذه بتبرّم أشدّ من المعتاد. وقبل أن ينجح في الردّ انفتح باب غرفة الملابس من جديد وظهر وجه غونسالفيس، بابتسامته الصغيرة اللعينة تلك، ومعه ذلك الشاب الآخر الذي كان دائماً معه ولا يفهم إن كان يبدو أكثر استسلاماً أم أكثر تذلاً.

«ألميذا، بل: أنطونيو. هل لي أن أناديك أنطونيو؟ نحن في الفريق نفسه الآن. هل يمكنك أن تقول للاعبين إنهم لا يستطيعون بعد أن يغادروا الملعب؟ أودّ أن آخذهم إلى الفندق في أسرع وقت لكن للأسف هناك سلسلة كاملة من المعاملات البيروقراطية يجب إنجازها. استدعينا على عجل مدير السجل المدني المركزي في ساو باولو، وسيكون هنا في أسرع وقت ممكن. شكراً.»

حدّق أنطونيو في الباب الذي كان قد أغلق للتوّ خلف غونسالفيس.

لاعبين أنا؟

ثم رَنَ الهاتف من جديد. نظر إليه أنطونيو دون أن يكاد يراه، ووزنه في يده ثم قذفه على الجدار بكل ما لديه من قوّة.

في الجهة الأخرى من الباب، اتّسعت ابتسامة غونسالفيس الصغيرة.

«هل سمعت هذا الصوت يا ثياغو؟ يبدو أنّ بيني وبين ألميذا شيئاً مشتركاً واحداً على الأقل.»

5.2 ثقة

«قبل قليل ما كان يردّ، والآن يقول إنّه غير متّصل» قالت إيزابيل واضعةً الهاتف.

«لا بدّ أنّ عنده ما يشغله في هذه اللحظة. أعيدي المحاولة لاحقًا» قال لها روبرت، جالسًا على الكنبه يشاهد التقارير في التلفاز، وهي مكتظة بمعلّقين ما زالوا غير مصدّقين ما حدث للتوّ.

«نعم، سأعيد المحاولة لاحقًا. لكن يا له من ظلم. يا له من ظلم فظيع أن يُنزع منه دور المدرب. مسكين أنطونيو، حين أجروا معه المقابلة بدا كأنّه في غيبوبة. في رأيي لم يقولوا له شيئًا واكتشف الأمر هناك على حين غرة.»

«في المقابل حللت للتوّ مشكلة تمويل المؤسسة.»

«ماذا تقصد؟»

«حسنًا، مهما بدا ذلك عبثيًا، فقد كسبت أسو كآ فوتيبول للتوّ حقّ الذهاب إلى كأس العالم. لا أعرف بالضبط كم من النقود ستستحقّ، لكنّ الكلام بلا شكّ عن أرقام كبيرة. أكاد أسف لأني لن أجعل رؤسائي يدفعون بعض النقود، فقد كانت عندي فكرة شبه مكتملة بأن أعرض عليهم رعاية...»

فتحت إيزابيل المتصفّح في هاتفها وأجرت بحثًا سريعًا: «أنت على حقّ. هكذا على عجل لم أجد البرازيل، لكن هنا يقول إنّ الفرق المتأهّلة تستحقّ نحو ستّة ملايين دولار. يا للعجب! إنّها كمّية كبيرة حقًا من النقود. لا أدري إن كانت تذهب إلى الاتحاد أم إلى اللاعبين مباشرةً، لكنهم بالتأكيد سينالون منها حصّة لا بأس بها.»

«أو هذا ما أرجوه على الأقلّ» أضافت فورًا بعدها.

«لماذا تقولين هكذا؟»

«حسنًا، حكى لي أنطونيو أنّه كانت هناك في البداية مشاكل مع ريتي نورتي في دفع أجور الفتيان، بل إنّ المدير حاول ألا يدفع لهم إطلاقًا.»

«يا له من وغد!»

«أجل. ثمّ ستكون هناك بالتأكيد مشاكل بيروقراطية، تعرف بسبب أنّ هؤلاء الفتيان ما زالوا رسميًا لا يملكون حتى وثيقة ولا شهادة ميلاد ولا حسابًا مصرفيًا...»

«عمليًا ليس لهم حتى اسم!»

«بأيّ معنى؟» في هذا لم تكن إيزابيل قد فكّرت قطّ.

«أعني، بلى لهم أسماء، لكن أتعلمين، تقليد اختيار الاسم الذي يوضع على القميص. إنّهُ أمر أعجبي دائمًا فيكم أيّها البرازيليّون: يقول الكثير عن الروح التي تخوضون بها الرياضة، كأنّها ما تزال لعبة أيام الطفولة.»

أطرب المديح إيزابيل. كان يعجبها حين يشدّد روبرت، المهندس المعماريّ الألمانيّ الصلب، على ميزة ما في برازيلها، فذلك كان يجعلها تحسّ بحضور الجذور المشتركة لتلك الإنسانية التي كثيرًا ما كان معناها يفلت من يدها.

«لكن، أتعلم، هم برازيليّون فقط بمعنى أنّهم وُلدوا داخل حدودنا، وأشكّ في أنّهم يعرفون تقليدنا هذا بالذات.»

«بالنظر إلى كيف يلعبون بالكرة سأندهش إن لم يكونوا يعرفونه. أنا واثق أنّ ألميدا كلّهم عنه. لكن بالأحرى، قلت قبل قليل إنّهُ ليس لهم حتى حساب مصرفي. لكن إذن كيف حوّلت إليهم نقود ريتي نورتي؟»

«حَوْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى حِسَابِ أَنْطُونِيو.»

«آه» قال روبرت. «آه» ذات معنى واضح جدًا.

«لا، هاهاها، لا تظنّ سوءًا! حَوْلَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى آخِرِ رِيَالٍ إِلَى حِسَابِ فَتَحْنَاهُ لِلْمُؤَسَّسَةِ.»

«أمم، حسنًا.»

«لماذا هذا الوجه؟ ما الذي لا يقنعك؟»

فكّر روبرت في الأمر بضع ثوان. كان قد فهم فورًا تقريبًا (تقريبًا) أنّه ليس بين أنطونيو وإيزابيل ما ينبغي أن يقلقه. فالشغف الذي كانت إيزابيل تضعه في الأحاديث التي تخصّه كان سببه طبيعتها العاطفية إلى حدّ ملامسة الخطابية (والوقوع فيها تمامًا في غير قليل من الأحيان)، إضافةً بداهةً إلى الاهتمام الذي اشتعل عندها من جديد في الآونة الأخيرة تجاه أرضها الأمّ. كان أنطونيو بالنسبة إلى إيزابيل مجرد منافخ للنفخ على هذا الاهتمام المتجدّد. كان روبرت يفهم ذلك ولهذا احتفظ لنفسه حتى تلك اللحظة بكلّ تحفّظاته تجاهه. لكنّ الأمر صار الآن يتعلّق بشيء يخصّ المؤسسة أكثر ممّا يخصّ أنطونيو، فقرّر أن يتكلّم.

«سامحيني على السؤال، لكن هل يعرف الفتيان بوجود المؤسسة؟»

«بالطبع يعرفون!» أجابت إيزابيل مستنكرةً، دون أن تكاد تتركه ينهي سؤاله. لكنّ روبرت لم يرتدع.

«عبّرت تعبيرًا سيئًا، عذرًا. ما أقصده هو أنّ فتيتانًا هنودًا عاشوا حياتهم كلّها في غابة الأمازون ولم يخرجوا منها إلّا قبل ثلاثة أشهر... يعني، يبدو لي غريبًا أن يكون عندهم كلّ هذا الوعي بوضعهم. فليست في الغابة جريدة اسمها «بريد الأمازون» تُطلعهم على مشكلة إزالة الغابات أو على حال الهنود في برازيل اليوم.»

«وإن؟» سألت إيزابيل، بنبرة دفاعية وعدوانية في آن.

«وإنّ يلفتني أن يقرّروا استثمار أوّل نقودهم في حلّ مشكلة لم يكونوا على الأرجح يعرفون حتى قبل ثلاثة أشهر أنّها عندهم.»

وقبل أن تستطيع إيزابيل أن تقول شيئًا، تابع روبرت: «بل، الآن إذ أفكّر في الأمر، يلفتني أكثر بعد أن يكون مفهوم المال واضحًا عندهم. وخاصّةً أن يكون واضحًا عندهم تمامًا مفهوم كمّية المال. وأن يفهموا، بفرض أنّهم يعرفون العدّ، فهمًا ملموسًا، وأشدّد على ملموس، ما الفرق بين ثلاثة آلاف ريال وثلاثمائة ألف.»

لم يكن وجه إيزابيل يبشّر بخير. رفع روبرت يديه وشعر بواجب أن يوضّح فكرته أكثر.

«اسمعي، لا أريد أن ألمّح إلى شيء. أقسم لك. لا أعرف أنا نفسي جيّدًا ماذا أردت أن أقول. أنا واثق أنّ مبادرتكم هذه، مبادرتك هذه، هي الأفضل لهم. أن تكون... لكنّا قرأنا للتوّ، أليس كذلك؟ قرأنا أنّهم سيحصلون الآن على كثير من النقود. ثمّ إن تقدّموا في كأس العالم – وقد أظهروا للتوّ أنّ عندهم القدرة على ذلك – ستأتيهم نقود أكثر بعد. وأنا واثق مئة في المئة أنّ كبريات وكالات الإعلان في العالم تفرك يديها في هذه اللحظة. فإن هزموا كرواتيا بعد غد، أتظنّين أنّ وكلاء نصف العالم لن يأتوا ليحاولوا التعاقد معهم؟ وأنا أتكلّم عن الشرفاء فقط. أتعرفين كم من أسماك القرش هناك في الخارج تشدّ أسنانها عند التفكير في ثلاثة وعشرين فتى ليس عندهم حتى مفهوم المال وقد صاروا فجأةً أغنياء؟»

نهضت إيزابيل واقفةً، وأعدت شعرها إلى مكانه، واتّجهت إلى نافذة مكتب روبرت. كان يقلق عليّ أنا قبل كلّ شيء، فهمت. وخطرت لها أبيات هاملت: «لا تُقرضَ مالًا ولا تستقرض، فما يُقرض كثيرًا ما يضيع مع الصديق، والدين يُذهب حسّ الاقتصاد.»

لكنّ ما لم يكن عند روبرت، أو كان عنده وتجاهله، هو حدسها. كانت تعرف، وتحسّ كصوت يكلم قلبها، قلب امرأة وبرازيلية، أنّ ذلك هو الصواب. كانت تحسّ أنّ حماية القرية، والدفاع عن تلك القطعة غير الملوثة من الغابة، هما أفضل سبيل لحماية أولئك الفتيان وعالمهم وبيئتهم وأسره من أسماك القرش التي يتكلّم عنها روبرت بالذات. لكنّها لم تكن تستطيع أن تكلمه في ذلك، فالحدس ليس حجةً تصلح لروبرت.

«ثق بي»، اكتفت بالقول بعد صمت طويل «أعرف ما أفعل».

التقط روبرت تلك الكلمات إشارةً إلى أنّ الوقت قد حان لنقل الحديث إلى موضوع آخر. لكنّه لم يكن قد نجح قبل قليل في التعبير عن فكرة تعبيرًا تامًا، وكانت حاجته إلى توضيح فكرته أقوى.

«هذا بالضبط ما كان يحيرني: حماية غابتهم هي الصواب. لكنّ حماية أحد من خطر ليس واعيًا به تمام الوعي أمر يفعلُه الآباء مع الأبناء. هؤلاء رجال. رجال يأتون من وضع خاصّ، لكنّهم رجال. هل نحن، هل أنتم واثقون من أنّهم لا يشتهون أن يبدّدوا كلّ ما يملكون على النساء والسيّارات كزملائهم في الأمم الأخرى؟ ومع أنّ ذلك سيكون خسارةً بلا شكّ، فمن حقّهم الكامل أن يفعلوه إن كانت تلك إرادتهم. هذا ما أردت أن أدعوك، أن أدعوكم إليه: أن تتأكّدوا من إرادتهم. إرادتهم هم، لا إرادتكم أنتم، مهما كانت حسنة النية.»

«أنت على حقّ. أنا واثقة أنّ أنطونيو سيسألهم أو قد سألهم، ومن باب الاحتياط سأسألهم أنا أيضًا. لكنك على حقّ أيضًا في أنّهم رجال لا أطفال. وأنا واثقة تمامًا أنّهم قد فهموا بأنفسهم أنّ المزاح سيقلّ من الآن فصاعدًا.»

5.3 باولوروسي

«ماذا يعني باولوروسي؟ أهذا الأحمق يسخر مني أيضًا؟»

كان إنجاز المعاملات البيروقراطية، بفضل معونة مدير السجل المدني في ساو باولو، سيزار أزيفيدو، قد سار سلسًا. سلسًا على نحو مدهش. فيما يبدو كان هناك أصلًا إجراء معتاد لتزويد الهنود الخارجيين من الغابة بوثيقة هوية وبالجنسية البرازيلية. ولاحظ أنطونيو في سره أنه لم يبذل قط في حياته جهدًا بهذه الضالة في معاملة بيروقراطية، وما كان شيء ليُخرج من رأسه فكرة أن كل ذلك يعود حصراً إلى وضعهم الجديد كلاعبي السيليساو. وخُيّل إليه لحظة أن أزيفيدو ومساعد غونسالفيس يعرفان بعضهما، لكن أيّا كان سبب ذلك الإجراء الخالي من العقبات فالهدية لا يُسأل عن مصدرها.

لكن جاءت بعدها لحظة البيروقراطية الكروية: توزيع أرقام القمصان وتحديد الاسم الذي سيحمله كلّ منهم على ظهره في الشهر التالي. هناك اكتشف أنطونيو أن عمل المترجم يمكن أن يكون شاقاً جداً. نعم، مضى أكثر من ثلاثة أشهر وهو يترجم من البرتغالية إلى اللغة وبالعكس، لكن الأمر كان الآن مختلفاً جداً. فعدا أن توقيع عقد للتو يغيّر طبيعة العلاقة كلّها، وأن الأشخاص الذين يترجم لهم كانوا قبل ذلك سبعةً وصاروا الآن ثلاثة وعشرين، كان أكثر ما يوقعه في الحرج أن يترجم مخفّفاً أو حاذفاً تماماً الشتائم التي كان غونسالفيس والفتيان يتبادلونها دون علم الطرف الآخر.

«يقول إنّه يريد أن يعرف إن كنت جاداً أم تسخر منه.»

«بالطبع أنا جاد، لست مهزّجاً مثله.»

«يقول إنّه جاد.»

وبعد سلسلة من الأخذ والردّ صار واضحاً أن ياماندي لن يلين. فبفضل أنطونيو كان يعرف تمام المعرفة التقليد البرازيلي في استعمال الألقاب بدل الأسماء، وبفضل أنطونيو أيضاً كان يعرف حكاية باولو روسي الذي عاد بعد غياب طويل قبل أيام قليلة من بدء كأس عالم 1982 ثمّ جرّ إيطاليا إلى الانتصار: كان ياماندي يرجو أن يكون أخذ اسمه فألاً حسناً.

«هذا المنتفخ يرى نفسه بطل العالم سلفاً، ها؟ يريد أن يعيد سيرة باولو روسي، ها؟ إذن لنُعدها كلّها: في المباريات الثلاث الأولى لعب باولو روسي على أسوأ ما يكون، وبما أننا أذكّاء ونعرف كلّ شيء مسبقاً فأنت يا شاتي الجميل تذهب بعد غد إلى دكة البدلاء.»

وما إن أنهى أنطونيو ترجمة قرار غونسالفيس حتى خيم الصقيع على غرفة الملابس. رُشق بنظرات تحدّ كثيرة، لكنّ غونسالفيس صمد أمام نظرات الجميع، وحين سأل إن كانت عند أحد آخر فكرة جميلة للاسم الذي يوضع على القميص لم يجب أحد بضع ثوانٍ وانخفضت عيون كثيرة نحو أرض غرفة الملابس.

ثمّ نهض جاسي وقال: «أنا أودّ أن أكتب على القميص ماركوس. أنا واثق أن ذلك سيسرّه.»

بحث أنطونيو في أرشيفه الذهني لأبطال الرياضة الكبار عمّن يكون ماركوس هذا، ثمّ تذكر فتیان الأحياء الفقيرة الذين كان جاسي يلعب معهم بالكرة، وذلك الطفل الصغير الذي كان يسدّد ركلات الجزاء جيّداً. شرح الأمر لغونسالفيس، الذي لم يكن عنده ما يعترض به، وأعاد ذلك شيئاً من الصفاء إلى غرفة الملابس.

«أحد آخر؟»

«أحد آخر؟»

لاحظ كاوي أنَّ الانسجام قد عاد، فرفع ذراعه ليعكّر المياه من جديد: «أنا أودّ أن أكتب يايا. بفضلها نحن هنا. ثمّ إنّها جميلة جدًّا.»

توجّه أنطونيو، كئيبيًا، إلى غونسالفيس: «يريد أن يُسمّى يايا.»

«ولماذا؟»

«لم أفهم.»

«...هل يمزح؟»

«نرجو ذلك.»

«يا إلهي. أعنّا أنت.»

«كاوي، هل أنت جادّ؟»

أجاب كاوي، بنظرة بليغة: «وهل تظنّ حقًا أنّي أريد أن أضع اسم امرأة على قميصي؟»

5.4 حوائط الصدّ

مواسير
ماركوس
بياتا

أوبيراجارا
إيتاونا
تايني

أوبيراتان
جاغاريونا
إيسيكاريا

كاوي
بيراي

«ما كنت فهمت أنّ علينا أن نلعب ضدّ الشيوخ.»

«ليسوا شيوخًا، كلّهم أصغر بكثير من أنطونيو.»

«إنّهم شيوخ. بعضهم عليهم أيضًا تلك الشعيرات على الذقن، مثل أنطونيو. ثمّ ما شأن ذلك، هم أصغر من أنطونيو لكنّ أنطونيو شيخ جدًا: إن فكّرتم في الأمر فكأنّه عاش حياتين وكان منذ الأولى شيخًا.»

«على كلّ حال قال أنطونيو أن نحترمهم لأنّ هؤلاء...»

«الشيوخ؟»

«...اللاعبين كلّهم أقوياء جدًا ويلعبون كلّهم في الأوروبا، وهي مكان قديم جدًا وبعيد.»

كان أنطونيو مغمض العينين في شمس ما بعد الظهر. الثرثرة الآتية من الفتیان الجالسين على الدكّة على بعد أمتار قليلة منه، وهم ثرثارون كنساء الحيّ، كانت تشغله على نحو ممتع عن قلق ما: لم يكن مطمئنًا تمامًا بسبب الجدالات التي استمرّت حتى خمس ثوانٍ قبل مغادرة غرفة الملابس.

«من يدري كيف هي هذه الأوروبا ها؟ ومن يدري كيف هو هذا المكان، كرواتيا...»

«كم من الناس هناك، أيأتون كلّهم من القرية نفسها؟»

«لا.»

«نعم.»

«يقال مدينة.»

«لعلّ أولئك البيض والحمير يأتون كلّهم من المدينة نفسها. إنّهم قليلون جدًا.»

«ليسوا قليلين جدًا، إنّهم أكثر منّا بكثير، أعني منّا في القرية.»

«لعلّ كرواتيا قرية كبيرة جدًا.»

«يقال مدينة.»

«صمتًا، صمتًا، بدأت موسيقى!»

«أي موسيقى هذه؟»

«إنّهُ نشيد أعياد كرواتيا، لا أذكر كيف يقال بالبرتغالية...»

«شيء وطني، مثل “صوت وطني”، “نشيد وطني”...»

«نشيد،» همس ياماندي، «نشيد وطني.»

«آه، صحيح.»

«صحيح.»

«هكذا.»

«الآن دور نشيد البرازيل، أتذكرونه؟»

«أنطونيو غناه بين حين وآخر.»

«أنا لا أذكره.»

«اصمتوا فقد بدأ.»

«اصمتوا!»

كان أنطونيو واقفًا يغني النشيد الوطني بشيء من التردد. مترددًا لأنّه لا يذكر كلّ الكلمات جيّدًا، ولأنّ انفعال الحدث اجتاحه، انفعال ملعب مليء بالناس يغنون معه نشيد افتتاح كأس العالم، ولأنّه أيضًا كان يدرك أنّ فتياهه هم الوحيدون الذين لا يعرفون كلمات النشيد، عدا بيراي وكاوي اللذين كانا يذكران بعضها بشكل ما، وأنّ هذا المشهد في التلفاز لن يكون دعاية جميلة لهم.

«كان الجميع يغنون، كان ذلك جميلًا جدًا.»

«ساقاي ترتجفان من الانفعال، أظنّ ذلك لأننا لم ندهن أجسادنا.»

«وأنا أيضًا دون جسد مدهون أحسّ نفسي فارغًا، ضعيفًا.»

«نعم.»

«وأنا أيضًا.»

«مواسير دهن نفسه.»

«دهن نفسه؟ حقًا؟»

«نعم، ليس على الوجه بل على الجسد والذراعين. بواحد من أقلام أنطونيو الملونة. هو عليه أن يلبس الثوب الذي يغطيه كله، قال إنَّ أحدًا لن ينتبه.»

لا بدَّ أنه اغتنم الفوضى التي حدثت في غرفة الملابس، فكَّر أنطونيو، لم أنتبه أنَّه فعل ذلك.

كان المدرب غونسالفيس قد صَفَّ الفتيان بـ4-4-2 كلاسيكي، لكن رغم اجتهد أنطونيو في ترجمة إرشاداته على أفضل ما يمكن، صدر عن اللاعبين أكثر من غمغمة وأكثر من شكوى.

«لا يُلعب هكذا،» احتجَّوا «ليست هذه لعبة الكرة!»

لم تطاوع أنطونيو نفسه على نقل هذا النوع من الحجج بأمانة إلى مدرب أعرق منتخب في التاريخ، فاكتمى بأن يقول لفتيانه إنهم بهذا الترتيب في الملعب أيضًا سيكون عليهم أن يقدموا أفضل ما عندهم.

«ألا تزعجكم هذه الأحذية ذات الأسنان؟»

«مسامير» صحَّح ياماندي.

«كثيرًا.»

«أنا ليس كثيرًا، لكنني آسف لأنني وقعت حين أوقفونا قبل الدخول إلى الملعب.»

«كان المكان زلَّقا.»

«كثيرًا.»

«وأنا أيضًا كدت أقع.»

«أحد من كرواتيا راح يضحك.»

«لم أر!»

«ذلك لأننا لم ندهن أنفسنا.»

«أنت على حق.»

«صحيح.»

كانوا مضحكين في المنظر، متدثرين بسترهم الرياضية وقلانسهم مسحوبة حتى العينين: فلأول مرَّة كانوا يجربون حرارة أقلَّ من خمس وعشرين درجة وكان عليهم أن يقبلوا شرح أنطونيو بأنَّ لا، ليسوا مرضى، وأنَّ ذلك يُسمَّى «برودة» أو، إن فضَّلوا، «بردًا». ولأول مرَّة فهموا ما يمكن أن تكون وظيفة معقولة للباس. لكن بينما كان الفتيان على الدكة يعلِّقون، بدا الذين في الملعب منشغلين بالالتزام بالتعليمات والعدَّ حتى أربعة أكثر من انشغالهم باللعب ضدَّ الكروات، الذين بدأوا باقتحام حقيقي. وبدا جاسي خاصَّة، وهو المعتاد على التحرك في مساحات واسعة جدًّا، في ضيق شديد إذ عليه أن يلعب ظهيرًا خالصًا، وأن يتبع الرجل نفسه دائمًا، وأن يقتصر على منطقة من الملعب ضيقة إلى هذا الحدِّ في عينيه. ولعلَّ الذنب كان أيضًا ذنب أنطونيو الذي قال له إنَّ عليه أن يتأكَّد من أنَّ المدافعين أربعة دائمًا وأنهم يؤلِّفون خطأ دائمًا: فقد كان الوقت الذي يقضيه في المناداة والاصطفاف وإعادة العدَّ أكثر من الوقت الذي يقضيه في اللعب.

وفي الدقيقة الخامسة من الشوط الأول كان غونسالفيس قد وقف محتقن الوجه يزعم بشتائم كان أنطونيو من على الدكة – إذ لم يكن مسموحًا له أن ينهض (ولا تقنيًا أن يكلم اللاعبين، عدا ما تقتضيه الترجمة) – يحاول نقلها كما يستطيع. ومن تلك اللحظة فصاعدًا صارت اللازمة «أغبياء أغبياء أغبياء!» تشكل كلّ بضع دقائق خلفية للشوط الأول.

«هؤلاء يضربون رجالنا.»

«والحكم لا يصفر أبدًا.»

«ها، انظر، ركلة أخرى لتاييني.»

«هذه كانت قويّة.»

«حين يرسم تاييني ذلك التعبير على وجهه فذلك يعني أنّه يشعر بألم شديد.»

«ومع ذلك انظر كيف يركض!»

«أحسنّت يا تاييني!»

«هيا!»

«ضربة مرفق!»

«أوبيراتان!»

«ينزف!»

«الحكم يشير إليه بالخروج.»

«نعم،» تدخّل أنطونيو «يجب إيقاف النزيف، وإلا لا يستطيع أن يلعب.»

«حقًا؟»

«ولماذا؟»

«نعم، لماذا؟»

«أنطونيو...» سأل أوبيراتان مشوشًا بينما كانوا يضمّدون أنفه: «كيف نفعل؟ يضربونا والحكم لا يصفر!»

«لستم مركّزين، فحتى خلال الجولة دخل أحدهم بقوة لكنكم ما اشتكيتم قطّ.»

«اليوم مختلف.»

«نعم، هذا أراه.»

في الدقيقة العاشرة من الشوط الأول تطوّرت هجمة كرواتية على طول خطّ التماس الأيسر. انزلق بياتا قرب خطّ منتصف الملعب (لم يكن قد تكيّف بعد تمامًا مع الاضطراب إلى انتعال الأحذية) فتسرّبت تمريرة إلى كوفادريتش الذي أرسل، شبه ملاصق لخطّ المرمى، عرضيّة مشدودة إلى أقصى حدّ. كان جاسي يدخل نحو الوسط محاولًا تغطية مهاجمين انسلاّ بسرعة. والكرة، التي دخلت في غابة من الأرجل ولمسها وحولها رفاق وخصوم، خرجت فجأة أمام قدميه، ولم يكن في وسعه أن يوقف اندفاعه، فضربها وأسكنها شباك مرماه.

«لا!»

«كيف فعلها!»

«ما رآها تمرّ!»

«واحد صفراً!»

«لهم!»

«لا!»

حلّ صمت غريب على ملعب ساو باولو وعلى الأمة بأسرها. وانفجر الكروات الحاضرون في المدرجات، وهم بضعة آلاف، بفرح غير مأمول لا يُكبح. انهار غونسالفيس على الدكة بنظرة شرسة، وأشار جاسي بيديه وصرخ بلغته لا يُعرف ماذا. نظر أنطونيو إلى لاعبيه التائهين، في الملعب وعلى الدكة: **ما يحدث ليس عدلاً، فتياي يستطيعون أن يلعبوا أفضل من هذا بكثير.** لم يكن الوضع الذي هو فيه يمنحه أي مجال للمناورة تقريباً، لكن كان عليه أن يفعل شيئاً.

استؤنف اللعب وكرواتيا أشدّ حذراً، وهو ما أتاح للبرازيل أن تتنفس ولغونسالفيس أن يهدأ.

«قطيع من الأغبياء،» همس لأنطونيو بزمجرة مكبوتة «جننا نلعب كأس العالم بقطيع من الأغبياء.»

«ماذا يقول المدرب؟»

«يواصل تكرار الكلمة نفسها دائماً.»

«ماذا تعني؟»

في تلك اللحظة فهم أنطونيو ما عليه أن يفعل. **إنّها فكرة مجنونة لكنّها قد تنجح، فكّر.** عليّ فقط أن أنتظر اللحظة المناسبة.

«أرأيت أنّهم شيوخ؟ قلت لك!»

«لم يعودوا يلعبون، ينتظروننا في وسط الملعب ليضربونا.»

«لم يعودوا يركضون كما قبل.»

«إنّهم متعبون.»

«نعم، لأنّهم شيوخ.»

وفي الواقع، رغم الانطلاقة المشوّشة، وصلوا إلى الدقيقة الخامسة والعشرين دون مخاوف كبيرة أخرى: فقد بدا أنّ جاسي قرّر أن يتجاهل التعليمات التي أعطيت له وأن يبدأ اللعب أكثر تقدّماً، وكلّما مرّ الوقت ازداد شجاعة، وصار الآن ينجح في الوصول إلى العرضية بانتظام وفي أن يكون حاضراً في التغطية على كلّ حال.

وأوّل من اتّبع مثاله كان كاوي الذي، وقد ملّ البقاء هناك في الأمام معزولاً، بدأ يعود ليستعيد الكرات. ولاعبان لأنطونيو على الرواق الأيسر كانا أكثر من كافيين لبناء «سهم مسموم».

وفي الدقيقة التاسعة والعشرين دفعت انطلاقة جديدة من انطلاقات جاسي الكثيرة المدرب الكرواتي، وقد أقلقته نضارته البدنية البينة، إلى نقل مركز ثقل الفريق نحوه. وهذا أعطى كاوي مساحةً أكثر ممّا كان يلزمه: تمريرة دقيقة،

وانطلاقاً مفاجئة، وانطلق السهم مستقيماً لا يُصدّ نحو الزاوية الأرضية اليسرى لحارس المرمى الكرواتي الطويل جداً لكن البطيء.

انفجر الاحتفال. الجمهور البرازيلي الذي بدا بعد الغول الذي تلقاه فريقه في حالة صدمة استعاد أنفاسه دفعةً واحدة وهزّت صرخة تحرّر أسس الملعب نفسها. وقفز من على الدكة واقفين وبدأ الفتيان يحتفلون على طريقتهم بينما لم يفوّت أنطونيو، في غاية التركيز، الفرصة. أخذ أوبيراتان وبيراي على حدة وفي غصون دقيقة، متظاهراً بترجمة إرشادات غونسالفيس، أعطاهما كلّ التعليمات التي استطاع. وحين استؤنف اللعب لم يعد الفتيان يتّبعون ال4-4-2 وإن لم يبدُ أنّ غونسالفيس انتبه.

«هكذا أفضل.»

«نعم.»

«يمكن أن نلعب الجاكوار الصامت.»

«وسهم مسموم آخر.»

«وهناك مكان أيضاً لقوس مشدود أكثر من اللازم.»

«أحسنت يا أوبيراتان! انتبه هو أيضاً!»

«نعم!»

وفي الدقيقة الأربعين أخذ لاعب الوسط الكرواتي مودوليتش الكرة في وسط الملعب وبانطلاقاً مفاجئة وصل إلى منطقة الثلاثة أرباع حيث اعترضه جاغاريونا، فسقط أرضاً.

«رمى نفسه.»

«ليست مخالفة.»

«هل صفّر الحكم؟»

«لكنّها لم تكن مخالفة!»

«إنّهم شيوخ، يقعون بسهولة أكبر.»

«لكنّه لم يقع، رمی نفسه!»

كان اللاعبون البرازيليون ينظر بعضهم إلى بعض غير مصدّقين لا يعرفون جيّداً ماذا يفعلون. ومما زاد الأمور تعقيداً أنّ مواسير كان يصرخ ألا يضعوا حائط صدّ وأن يتركوا رؤية الكرة حرّة. وحتى اللاعبون الكروات لم يصدّقوا أعينهم.

«ماذا يقول الأحقق في المرمى؟» سأل غونسالفيس وهو يعرف الجواب سلفاً.

تجاهله أنطونيو تجاهلاً ظاهراً، لكنّ فتيانه كانوا قد بدأوا يصرخون من الدكة بلا فائدة: «حائط الصدّ! حائط الصدّ! مواسير! ضع حائط صدّ! انظر إنّ هؤلاء يسدّدون بقوة تقارب قوّتنا!»

انطلقت الركلة الحرّة دون أحد أمامها سريعةً دقيقةً نحو الزاوية العليا. ونجح مواسير بكلّ ردود فعله شبه الخارقة في أن يتمدّد ويلامس الكرة بالقدر الذي كفى لجعلها تنتهي على العارضة على نحو مدوّ. كانت مسألة سنتيمتر واحد.

وصار غونسالفيس الآن يبدو ظلّ نفسه. كان يجلس على الدكّة مستديرًا على جنبه يتمتم وحده ولا يوجّه إلى أرض الملعب إلا نظرات نادرة.

خلال الاستراحة أتمّ أنطونيو فكرته. فبدل أن يترجم بأمانة كلمات غونسالفيس النارية اخترع تراجعًا من المدرب عن رأيه وأعطى الفتیان إرشادات عن كيفية توزّعهم في الملعب على نحو أشبه بكثير بما اعتادوه، مستفيدًا أيضًا من تبديل تايّني، الذي كان ما يزال يتألّم من الضربة التي تلقّاها في بداية اللقاء، ببريجاوا.

بدأ الشوط الثاني بتوغّل من بيراي على اليمين: تجاوز رجلين ثمّ انسلّ إلى المنطقة حيث نجح لوفروكا في سلبه الكرة بتدخّل يائس بالانزلاق قبل التسديد بجزء من مئة من الثانية. تدخّل سليم تمامًا، وإن كان بيراي وقد حمّله الاندفاع قد هوى أرضًا على نحو مذهل. لكنّ الحكم لم يتردّد: احتسب ركلة جزاء للبرازيل.

كان فتیان أنطونيو قد لعبوا الشوط الأوّل كلّهُ بموقف متواضع جدًّا سواء تجاه الخصوم أو تجاه قرارات الحكم التي احتملوها أحيانًا دون أن يفهموا معناها. لكن في الشوط الثاني كان شيء قد تغيّر. اندفعوا جماعةً إلى الحكم محتجّين بقوة، ورغم تعذّر التفاهم صار واضحًا سريعًا للمتفرّجين الحاضرين ولمن يتابعون في بثّ عالميّ طبيعة الاحتجاجات: كانوا يقولون إنّها ليست ركلة جزاء، وإنّ الحكم أخطأ لأنّ بيراي وقع وحده، وكانوا يصرخون: «لا ركلة جزاء! لا، لا!»

وصرخ كاوي أيضًا: «ظلم! ظلم!»

لم يكن الجمهور المحتفل يفهم ما يجري ولا كان يفهمه غونسالفيس الذي انتفض واقفًا عند صافرة الحكم.

والحكم، وقد أخذ على حين غرّة تمامًا بوضع لم يحدث على الأرجح من قبل قطّ في ملعب كرة قدم، ردّ بالغريزة فأنذر بيّاتا وطرّد إيسيكاريا، الذي كانت احتجاجاته حادّة بوجه خاصّ، قبل أن يتشاور مع مساعد الحكم ومع الحكم الرابع: كان يجب تنفيذ ركلة الجزاء على كلّ حال.

كاوي هو من تكفّل بالتسديد، بينما كان ملعب وكوكب بأسره يتساءلان عن نيّاته. كان غونسالفيس واقفًا لا يطلق الآن إلا صرخات بلا كلمات، بينما لم يأخذ كاوي، بعينيه المشتعلتين، حتى مسافة للركض، بل دحرج الكرة ببطء إلى الحارس الذي صدّها موقفًا إيّاها بقدم وأرسلها فورًا إلى خارج الملعب.

حبس الجمهور أنفاسه طويلاً، ولم يتحرّك كاوي: الكروات، البرازيليّون، لم يجرؤ أحد على أن ينبس، وبقي غونسالفيس نفسه متحجّرًا. حتى بدأ فتّي صغير في قطاع من الحلقة الأعلى من المدرجات يصفّق فكسر السحر وأحدث ردّ فعل متسلسلاً ولد أطول تصفيق يُذكر في ملعب ساو باولو. وفاجأ غونسالفيس نفسه يصفّق، وبعد دقيقة كانت وكالات الأنباء في العالم كلّهُ ستجعل هذا الحدث الأشهر على الإطلاق في تاريخ كرة القدم كلّهُ.

أمّا الفوز الذي تحقّق في النهاية 1/8 لفتیان أنطونيو، وسعادة ياماندي الذي لعب الدقائق العشر الأخيرة وأصاب أيضًا القائمين معًا بتسديدة واحدة (وكان غونسالفيس ليقسم أنّه فعل ذلك عمدًا)، والاحتفالات التالية، فكادت تمرّ كلّها في الظلّ.

فقد صارت عينا كاوي المشتعلتان رمزَ المباراة، ولعلّهما رمز كأس العالم كلّها.

5.5 أوبيسبو

لم يكن أوبيسبو رجلاً يضر الحقد. فإضمار الحقد يضيّع الوقت ويعتّم الذهن، وهو كان أميل إلى سرعة الساقين والفكر. ولو نظر إلى الوراء، لكّنه لم يكن رجلاً ينظر إلى الوراء، لكن يمكن أن يزعجه أن يُنسب الاكتشاف الإعلامي لفتيان ألميدا إلى ريتي نورتي لا إلى جريدته، الغازيتا. لكنّ أوبيسبو كان رجلاً مقتنعاً بأنّ النجاح يبتسم لمن ينظر إلى الأمام. فبالنظر إلى الأمام وحده كان يمكن لجريدة بإمكانات محدودة كجريدته أن تصل أولاً، وخاصةً الآن وقد صار الهنود مشهورين حقاً ودخل الميدان كبار الإعلام. وبالنظر إلى الأمام كان قد رأى ماذا سيصرون، من زاوية إعلامية، لو نجحوا في التأهل إلى كأس العالم: وكما في مرّات كثيرة من قبل، أصبّث في تقديري، كان يكرّر لنفسه راضياً.

لكن أحياناً للنظر إلى الأمام يجب النظر إلى الوراء كثيراً: لذلك ذهب إلى مونتي دورادو، بحثاً عن معلومات عن أصل فريق أسو كآ فوتيبول. فقبائل الهنود غير المتّصل بهم مادّة طريفة عموماً، وهؤلاء كانت تحيط بهم فوق ذلك تلك الهالة من الغموض التي تفيد دائماً حكاية جميلة: وأن يكون أول من يكشف المكان الذي جاؤوا منه بالضبط سيكون ضربة معلّم.

كانت الفكرة الأولى أن يتبعهم خلسةً حتى القرية – صحافة استقصائية، كانت دائماً قوّته – لكّنه عاد فغيّر رأيه سريعاً: خطر أكثر من اللازم، قد تكون هناك جاكوارات، وحيوانات سامّة، وقبائل آكلة لحوم بشر ومن يدري ماذا غير ذلك. فقرّر أن يمارس قدراته الاستقصائية على أرض أكثر راحة وبقي يجول بين مونتي دورادو ولارانجال بحثاً عن مدخل. لكنّ المنافسة هناك كانت شديدة أصلاً، ولايجاد حكاية أصلية حقاً كان يجب النظر إلى الأمام أكثر، وإلى الوراء أكثر، وإلى العمق أكثر، وإلى اليمين أكثر، وإلى الجانب أكثر. كان يجب تقديم الجعة، والكلام واستدراج الناس إلى الكلام والإصغاء، والإصغاء قبل كلّ شيء: وصيّة كلّ صحفي ميدانيّ مقدام حقيقيّ.

لعلّ هذا في الحقيقة ما كان يميّزه عن الآخرين، كان يفكّر: لا سرعة الساقين، وإن لم تكن مهمة، بل على العكس الصبر. فالآخرون يصلون بالحكاية جاهزة الصنع ولا يبحثون إلّا عن أخبار تسندها. أما هو فلا، هو يملك الصبر لينتظر أن يأتيه الاتّصال الصحيح، والأهمّ الفكرة الصحيحة، من تلقاء نفسها. وبعد كلام كثير أنته الآن.

لعلّه سيصير أكثر رجل مكروه في الأمّة: فالآن بالذات وقد بدا أنّ البرازيل وجدت سيليساو الأحلام، قد يكون تحطيم حلم بلد بأسره محفوفاً بالمخاطر. لكنّ الصحفي الحقيقي لا يتخلّى عن فكرة جميلة.

لهذا السبب كان الآن في سانتاريم، آملاً أن يكلم من سيساعده على النظر إلى الوراء في النقطة الصحيحة. وفي هذه الأثناء لم لا ينظر إلى الأمام ويتمتّع بمحاسن هذه الأنسة بزيّ يفترض أنّه جلد أناكوندا وهي تتلوّى بكلّ هذه المهارة هنا بالذات على بعد خطوات؟ وحين انتهى من تأملها أشار إليها أن تقترب وسألها: «يا عزيزتي، أنت بارعة إلى أقصى حد! هل فكّرت يوماً في العمل في السينما؟ عندي معارف كثيرة، أستطيع أن أضع كلمة طيّبة. لكن ما دمنا في الأمر يا كنزي، هل تعرفين مصادفةً شخصاً اسمه بيبي؟ إنّه مندوب مبيعات مشدّات نسائية، يقولون لي...»

ما العبقرية؟ إنّها الحدس والمثابرة وذرة من الحظّ. إنّها أن تكون عندك فكرة رابحة وأن تكون عندك القدرة على الوصول إلى حيث لم يصل أحد من قبل. قرية ذلك الألميذا الهندية أين تقع؟ في الغابة، اتفقنا، لكن هل تسأل أحد أين تقع حقاً؟ لأنّ الحدود في الغابة، لنقلها بصراحة، ليست بهذه الدقّة. في لحظة تكون في البرازيل وفي اللحظة التالية، دون أن تنتبه، ها أنت تجد نفسك في سورينام. فليس هناك حرس حدود في كثافة الغابة.

«مشدّات؟ بهذه الأشياء يهتمّ زوج أمّي، أتعلم، هو من يشتري لي ما ألبسه، له ذوق حسن ألا ترى؟ إن أردت أن تنتظر حتى يُغلق المحلّ سيأتي ليأخذني، وربما تسأله. وهكذا تكلمه أيضاً في تلك المسألة، مسألة السينما.»

مثابرة وحظّ. وماذا لو كانت قرية ذلك الألميذا في سورينام؟ من غير مراسل من الحقيقيين، من أولئك الذين لم يعد لهم اليوم مثيل، يستطيع أن يكشف حقيقةً بهذه السخونة؟

في الساعتين اللتين قضاها يتصَبَّ عرقًا ويشرب جعةً رديئةً كان أوبيسبو قد وضع على الورق كميةً كبيرة من الملاحظات، مسوَّدة ما سيكون أعظم مقال في حياته. لم يكن يحتاج إلى تأكيدات وإن كان واثقًا أنه سينالها، آه نعم. هذا البيبي سيؤكد كل شيء، أنا واثق، حدس الصحفي لا يخدع.

«بيبي؟ بيبي؟ ذلك السكير العجوز، بالطبع أعرفه. لكنّه أكثر ممّا هو ملتصق بدانتيل المشدّات ملتصقًا بالزجاجة من الصباح إلى المساء، صدّقني.»

كان زوج أم الفتاة رجلًا قصيرًا ممتلئًا، مليئًا بالوشوم والندوب، لا من النوع الذي يلتقى به بسرور بعد الغسق.

«مغامرته في الغابة؟ ذلك المجنون يحكي من الأكاذيب ما يحكي! بالطبع حكى لي عن مغامرته في الغابة، أيّها تريد أن تسمع؟ تلك عن الكايمان الذي قتله بيديه العاريتين؟ أم تلك عن القبيلة التي كلّها نساء والتي خطفته أسبوعًا؟ أم تلك عن التمثال بارتفاع مترين من الذهب الخالص الذي لم يعد يجده؟»

«لا، في الحقيقة لا، ربّما في مرّة أخرى،» فكّر أوبيسبو لحظةً «أودّ أن أسمع تلك عن السائح من ماكابا الذي فقده عند الحدود مع سورينام.»

أطلق الرجل ضحكةً جافّةً لا تُميّز عن صوت أوروبو: «هذه تنقصني، لكنّي واثق أنّك بالجرعة المناسبة من الريالات تستطيع أن تنال منه اعترافًا موقعًا، إن كنت تحتاج إليه.»

«هاهاها، تصوّرت ذلك يا عزيزي، أعرف النوع!»

لكز الرجل بمرفقه لكزةً ودّية، فقد كان يحبّ أن يقيم جوًّا صديقًا: «لكن أين أستطيع أن أجده؟»

«ومن يدري، ربّما يبيع ملابس داخلية في أعالي النهر أو ينقل أحد السدّج في درب نائي في بارا. فمن كلّ عشر رحلات يخترعها هناك واحدة يقوم بها حقًا. لكن اطمئنّ، سيعود إلى هنا عاجلاً أو آجلاً.»

صعد الرجل – غير الوديّ إلى هذا الحدّ في نهاية الأمر – إلى السيّارة وأدارها، مغلقًا النافذة على احتجاجات الفتاة التي كانت تقول إنّ عليها أن تتكلّم في السينما. نظر إليهما أوبيسبو يبتعدان بين جناحي غبار في ليلة شديدة السواد.

أعاد في ذهنه قراءة مقاله. كأنّه يراه مكتوبًا سلفًا، مقالٌ صاعق، من النوع الذي يغيّر مسيرة مهنية، نعم. لكنّ القراء للأسف، مهما كانوا مستعدين لابتلاع أيّ شيء، يحتاجون إلى ما يساعدهم على الهضم: شريط، صورة، شيء يمكن أن يُستعمل في أعينهم للقول «الأمر هكذا بالتأكيد، رأيت الصورة!». يا إلهي، يا لهم من حفنة أغبياء. تذهب إلى السينما فتري تبيّنًا مجنّنًا يتحوّل إلى تي/ريكس يقود سفينة فضاء، ثم تخرج فتري صورةً في الجريدة فتعاملها كألواح الشريعة، ولا يخامرك شكّ حتى في أنّهم يضحكون عليك. لكنّه الجمهور والجمهور يجب أن يُرضى يا شباب: صورة جميلة لبيبي على متن جيبه ستكون مثالية.

بالطبع، المشكلة أن نعرف أين بحقّ الجحيم هذا البيبي الآن ومتى سيعود. لكن من جهة أخرى، إذ أفكّر في الأمر، لو خرج السبق نحو نهاية البطولة لكان له رنين أكبر بعد: «أبطال البرازيل هم في الحقيقة كلّهم من سورينام!» شيء يشعل حربًا.

المهم إطلاقه قبل أن تُقصى البرازيل، لكنّهم أمام كرواتيا دبّروا أمرهم على أحسن ما يكون: العبور إلى الدور التالي لا يبدو موضع نقاش. أعاد أوبيسبو التفكير في الفتيات اللواتي تعاقبن على المنصة على مدى السهرة: كلّهنّ واعدات إلى أقصى حدّ، ما فيهنّ واحدة ليس لها مستقبل في السينما. أستطيع أن أنتظر، قرّر.

5.6 حافة الموج

هذا ما يسمونه البحرياء جيروجيرو، المحيط الكبير.

كان جيروجيرو صيادًا عظيمًا شجاعًا، ولعله أعظم صياد عرفته القرية قط، وكان يظن دائمًا أنه لا يعرف الخوف. لكنه كان مخطئًا.

وقدماه في الماء الفاتر، والأمواج الصغيرة تداعب كاحليه، كان ما يشعر به خوفًا عميقًا يكاد يشلّه. كل ذلك الماء، كل ذلك الماء.

مرت فتاتان يدًا بيد على الشاطئ، كانتا شابتين مبتسمتين بلون الفاكهة الناضجة. نظرنا إليه بنظرة مأكرة: كان يلبس قميص المنتخب البرازيلي الخاص بأيام الراحة، لكن من لم يكن يلبس شيئًا من المنتخب البرازيلي في تلك الأيام؟ وإن كانتا قد تعرّفتا عليه فلم تُظهرا ذلك، لكنه كان مستبعدًا: فمن خرج منهم من الغابة حديثًا لم يكن مشهورًا إلى هذا الحدّ بعد. جاسي وكاوي وياماندي الشبيه إلى هذا الحدّ بالبطل الجريح كانوا الآن على أغلفة كلّ الجرائد، أما هو، جيروجيرو، فلا: كان يمكن رؤية نظرتة النათة في الصورة الرسمية للفريق ولا شيء غير ذلك تقريبًا.

أنطونيو سيساعدك على تجاوز هذا الخوف أيضًا، ستري، لكن الآخرين يتعدون الآن، عليك أن تذهب، يوم الحرية على وشك الانتهاء، وستعودون قريبًا إلى الشابونو حيث تتدربون جميعًا معًا.

كانت الشمس تغيب على شاطئ فورتاليزا، وكان الفتیان من المدينة كلّها يتقاطرون، والكرة تحت الإبط، لبدأوا أمسية كرة القدم المعتادة. قليلون محظوظون سيلعبون في الملاعب داخل الشباك، أما الأغلبية الساحقة من الآخرين فسيرتجلون المرميين بحقيبتين أو، وهم الأكثر تنظيمًا، بمرميين صغيرين اشترى من البازار. سيلعبون المساء كلّ، وستنشأ صداقات جديدة، وستولد قصص حبّ جديدة.

كانت مجموعة رفاق جيروجيرو قد توقّفت أمام كشك صغير تفوح منه رائحة شواء. وكان حشد صغير من الناس يتابع على تلفاز صغير مباراة الكامبيرو/كرواتيا التي كان المدرب يسجلّها بالتأكيد. وسيعرضها عليهم بعد ذلك عشرات المرات، كما فعل، بلا فائدة، مع المكسيك/الكامبيرون.

التسجيل مثل الذاكرة يا جيروجيرو، إلا أنه يحدث على الشاشة. إنه أدقّ من الذاكرة – فأحاسيس الغابة التي تركت منذ أيام قليلة فقط بدأت تتلاشى – لكنه أشدّ نقصًا، إذ تنقصه الروائح والدفع والروح.

كانت مجموعة من الفتیان والفتيات تنظّم مباراةً صغيرة: لم يكن الأمر كما في القرية، فعلى الشاطئ كانت الفتيات اللواتي يلعبن (وجيدًا!) كرة القدم بالمئات، وربما بالآلاف، وكان إغراء الانضمام إليهنّ أقوى من أن يُقاوم، قويًا بما يكفي ليعبده عن رفاقه وعن حافة الموج التي كان يشعر نحوها بانجذاب سحريّ.

«أتريد أن تلعب؟» سأله لكن جيروجيرو لم يفهم. أخذ كرةً وبدأ ينطّطها بالرأس وبالركبتين وكان ذلك أكثر من كافٍ. في المساء السابق ضدّ المكسيك دخل ليلعب في النهاية فقط، وقتًا قصيرًا جدًّا، حين تلقى أوبيراتان ضربةً قويّةً جدًّا وبدأ يعرج. كان قد نظر في عينيّ ذلك الشيطان، حارس المرمى المكسيكيّ، فخاف منه، كما حدث لكلّ رفاقه. لم يكن يظنّ أنّ الخوف يمكن أن ينال منه، ما عرفه قطّ قبل خروجه من الغابة.

كان اللعب على الرمل غريبًا، إذ يصعب الركض والقفز وضرب الكرة جيّدًا. لكنّ اللعب حافياً من جديد كان جميلًا، بلا تلك الأحذية المروّعة التي جعلته يقع (من جديد!) وهو يدخل أرض الملعب. لم يضحك المكسيكيّون، كان في عيونهم وفي لون بشرتهم شيء مألوف، أعجبه، إلا بدهة ذلك الشيطان، حارس المرمى.

لكنّ إنهاء مباراةً صفرًا صفر كان إحساسًا مقررًا، لم يحدث لأيّ منهم من قبل قطّ. كثير من رفاقه أرادوا مواصلة اللعب، لم يصدّقوا أنها يمكن أن تنتهي هكذا. وتصرف المدرب من جديد كمريض، وإن أقلّ ممّا فعل خلال المباراة الأولى. كان

جيروجيرو يعرف أنه يجب النظر إلى عيني المدرب وتجاهل ما يفعله سائر جسده، فالمدرب هو الرئيس، ويجب أن يكون حكيماً وإن جعل جسده يتصرف كجسد مريض.

كان نسيم البحر يبرد النهار الشديد الحرارة، وكانت المباراة على الشاطئ تلعب بين فريق «بقميص» وفريق «بلا قميص». لحسن الحظ وجد جيروجيرو نفسه مع بلا قميص، وكان خلعه راحة حقيقية. وكانت إحدى الفتيات اللواتي يلعبن معهم يمكن جداً أن تكون آتية من الغابة، فقسماتها تشي بأصلها الهندي: نظر إليها جيروجيرو طويلاً وكان يود أن يسألها لماذا لا تبقى عارية الصدر مثلهم لكنه لم يكن يعرف الكلمات ليقول ذلك.

في المساء السابق حين ناداه أنطونيو للدخول إلى الملعب أحس بقشعريرة طويلة جداً على طول ظهره. وكان ياماندي - سمعه - قد كرر مراراً: «أنا ضعيف، أنا ضعيف» حين صد حارس الخصم تسديدات كثيرة له كانت ستدخل الشباك ضد أي أحد آخر «ليس الحارس هو القوي، بل أنا الذي ما زلت ضعيفاً».

لكن اللاعب الذي عانى أكثر من غيره من حضور الشيطان المكسيكي في المرمى كان مواسير. مواسير الرشيق، مواسير السريع، بدا فجأة وقد عاد طفلاً. فسرعة الشيطان وردود فعله الخارقة سلبته قواه، وفي أكثر من مناسبة لم يمنع الغول للمكسيك إلا روح خيرة.

كان اللعب مع الفتيات ممتعاً. كن يفكرن بطريقة مختلفة، أبطأ لكن أدهى، وأحياناً ليس أبطأ بكثير. كن يدبرن تمريرات يصعب التنبؤ بها، ويدافعن برؤية للملعب غير عادية، وكن يذكرن جيروجيرو بياماندي قليلاً. كان يشرد كثيراً لينظر إليهن، كما كان يشرد لينظر إلى القوارب وإلى الطيور المعدنية وإلى أشياء أخرى كثيرة. لكنه حين كانت الكرة بين قدميه كان يعود صياد الغابة، قاسياً شجاعاً. كان المرمى الصغير يصعب إصابته لكنه كان ينجح في ذلك من كل أنحاء الملعب. عانقته الفتاة ذات القسمات الشبيهة بقسماتهم حين نجح جيروجيرو في التسجيل بكرة مقووسة بزاوية حادة جداً فاجأت الجميع، اللاعبين والمتفرجين الذين ازداد عددهم أكثر فأكثر لحضور عرض ذلك الغريب الذي لا يتكلم البرتغالية حتى ويلعب كرة القدم بهذا الجمال. كان الجميع يصفقون، وكانوا يستمتعون أيما استمتاع.

وفي المساء السابق أيضاً عانقه كثيرون. فاللاعبون المكسيكيون في نهاية المباراة كانوا في غاية السعادة، يعانقون بعضهم بعضاً، وكان بعضهم يبكي أيضاً. وحين ذهب رفاقه إليهم لأجل تلك العادة الغريبة، عادة تبادل القمصان، عانقه ثلاثة أو أربعة من الخصوم عناقاً صادقاً حقيقياً، كما يعانق أخ عائد من الصيد، أو فتاة علقت أرجوحتك قريباً للتو.

إنهم مثلنا، فكر جيروجيرو. بدهة كلهم مثلنا، الناس داخل الملعب، والناس الذين يعيشون في المدن. لكن هؤلاء أشبه بنا من الآخرين. ردّ العناقات آملاً أن يقدر على امتصاص شيء من قوة أولئك الرجال، وخيل إليه أن الأمر كذلك بالفعل، فقد أحس نفسه فوراً أقوى وأشدّ اقتناعاً. لكن أكثرهم عناقاً كان حارس المرمى/الشيطان. فقد أنقذ النتيجة مراراً، وكان بطلاً حقيقياً، وكان الجمهور البرازيلي نفسه يصفق له بلا توقف. قرر جيروجيرو أن يذهب ليعانقه هو أيضاً، كان يريد أن يمتص شيئاً من قوة الشيطان، أراد أن يصير لا يُقهر مثله. لكنه حين بلغه وضمه بين ذراعيه فهم أن الشيطان قد رحل، وأن الحارس عاد رجلاً ضعيفاً مرتجفاً. نظر جيروجيرو حوله ليحاول أن يرى إلى أين طار الشيطان لكن كل ما رآته عيناه كان الضوء الخاطف للكشافات. أراد أن يسأل ياماندي، فهو يرى كل شيء دائماً، لكنه كان على حدة يتكلم مع أنطونيو من يدري في ماذا، ولعله كان ما يزال يكرر «أنا ضعيف، أنا ضعيف».

عند غول العشرة صفر جاء العناق من كل رفاقه ورفيقاته. كان جميلاً اللعب على الشاطئ، لماذا لا يقيمون كأس العالم على الشاطئ؟ العالم مكان غريب.

«أنطونيو، قل لذلك الأحقق إنه إن التوى كاحله وهو يلعب على الرمل فسأتي أنا لأجهز عليه وهو ما يزال على الأرض!» كانت الجملة التي قطعت المباراة، بينما كان غونسالفيس برفقة أنطونيو والطاقم والفتيان يقترب بين جناحي حشد صار فجأة موقراً صامتاً. وكأنما بسحر تعرف الجميع على جيروجيرو، وبقيت الفتاة نفسها ذات الوجه الهندي فاعرة الفم تنظر إليه، وذراعها معلقة في الهواء متجمدة في حركة تحية.

كان جيروجيرو، المجهول الذي أنقذ البرازيل. ففي المساء السابق، على بعد دقيقتين من النهاية، أطلق بيرالديز المخيف من حد المنطقة تسديدة بزاوية حادة جداً. كان مواسير المعتاد سيصل إليها بسهولة، لكن مواسير في المساء السابق كان مسحوراً، فهم ذلك الجميع، حتى الخصوم. كان جيروجيرو عائداً نحو الدفاع بأقصى سرعة وكان كثيرون ليقسموا

أنه كان عند لحظة التسديد ما يزال خارج المنطقة، بعيدًا أكثر من اللازم. لكنّ ساقيه صارتا برقًا وقدمه كأقوى الجذور نجحت في تحويل الكرة على خطّ المرمى بالذات، الكرة التي كانت متّجهةً بالتأكيد إلى الغول. ومن تلك اللحظة فصاعدًا لم يعد أيّ من الفريقين يقترب من التسجيل، وبعد دقائق قليلة انتهت المباراة صفرًا صفرًا.

انضمّ جيروجيرو إلى مجموعته وفي تلك اللحظة تذكّر العادة الغريبة، عادةً تبادل القمصان. كانوا قد شرحوا له أنّ القميص يُتبادل مع خصم لكنّه أراد بالضبط أن يبادلّه مع الفتاة ذات الوجه الجميل. وبينما كانت هي حائرةً تعطيه في مقابل قميصه قميصًا داخليًا أصفر اشتدته قبل أيّام قليلة من السوق، فهم جيروجيرو ما حدث. كان الشيطان. فبينما كان يدخل الملعب حدّق في حارس الخصم: تخلى الشيطان عن رجل المكسيك وخرج من الملعب مارًا عبره هو. وجّره نحو إنقاذ الغول، لا تفسير آخر.

عليه أن يكلم ياماندي في ذلك، عليهم أن ينتبهوا أكثر، ففي تينك الدقيقتين الأخيرتين عاد حارس الخصم رجلًا عاديًا وكان يمكنهم أن يستفيدوا من ذلك ويفوزوا، لكنهم لم يفعلوا: يجب ألا يحدث ذلك مرّة أخرى أبدًا.

5.7 مترجم

«ياماندي – أم علينا ربّما أن نناديك باولوروسي – أداء عظيم جدًّا، مبارك. أتحبّ أن تحكي لنا عن الغول؟»

أن يكون الرجل الوحيد في العالم القادر على الكلام مع بعض أشهر الناس على وجه الأرض وضعه في موقع فريد، وكان أنطونيو قد بدأ يستطيب الأمر.

في المساء السابق، بينما كان مستلقيًا وعقله يدور فيصعب عليه النوم، أدرك مندهشًا أنّ موضوع تأملاته لم يكن مباراة اليوم التالي مع الكامبيرون، الحاسمة للعبور من الدور الأوّل، بل نطاق الإمكانيات التي يفتحها دوره كمترجم. يا خسارة أنّه لم يكن عندي وقت أطول للتفكير في ذلك، كنت أستطيع أن أخلق ثلاثة وعشرين شخصيةً مخترعةً تمامًا، وأن أجعلهم يقولون كلّ ما يمرّ بدماعي، ولما استطاع أحد أن يقول لي شيئًا.

أنّ «ما على الرسول إلّا البلاغ» أمر معروف؛ أمّا ما لم يكن قد فكّر فيه قطّ حتى تلك اللحظة فهو أنّ الرسول يستطيع أيضًا أن يقول ما يحلو له وأنه يصعب (أو، في حالته، يستحيل) التحقق من صحّته.

بالتأكيد، لو نمت شهرة الفتیان أكثر، وكانت كلّ الإمكانيّة لذلك، لاهتمّ بهم عاجلاً أو آجلاً عالم أنثروبولوجيا فدرس لغتهم واكتشفت لعبته. لكنّه على كلّ حال سيكون عندئذ قد عاد إلى الغابة. وعلى كلّ حال لم يكن يريد في الحقيقة أن يستغلّ ذلك ليفعل من يدري ماذا: كان عنده هدفان فقط، أسهلّهما – والذي لا يُقاوم – أن يصقّي بعض الحسابات الصغيرة.

«يهنّك ويسأل أن تحكي له عن الغول.»

نظر ياماندي إلى أنطونيو مندهشًا: «رأيت زاويةً خاليةً فسدت هناك ظانًّا أنّ الحارس لن يصل إليها. وما الذي يُحكي؟»

«يقول إنّّه يأسف لأنّكم لم تروا الغول، لعلّكم كنتم تعملون؟ لكنّه يعرف أنّ هناك عادة تسجيلها، ويقول ألا تقلقوا، ستنجحون في رؤيته هذا المساء.»

تابع الصحفيّ دون أن يُظهر أنّ الضربة أصابته.

«في المجمل، ما رأيك في كأس العالم حتى اليوم؟ هل هي كما توقّعتها؟ هل هناك شيء لفتك بوجه خاص؟»

كان هذا سؤالًا معقولًا فاختر أنطونيو أن يترجم جواب ياماندي ترجمةً صحيحة، فالسخرية هذه المرّة جاءت من ياماندي نفسه.

«يقول إنّّه يستمتع كثيرًا. وممّا يلفتّه أنّه يكفي أن تلامس أحد هؤلاء الضخام لتجعله يقع أرضًا يتلوّى من الألم. حتى حين انكسر فخذه لم يشعر بالألم بقدر ما يبدو أنّ هؤلاء يشعرون. لكنّه منبهر أيضًا بقدرتهم على التعافي، ففي وقت قصير جدًّا يعودون واقفين بينما لزمه هو ثلاثة أقمار ليُشفى.»

وبينما كانا يتكلّمان كان الصحفيّ ينظر حوله باستمرار، ولعلّه لم يكن يصغي حتى إلى الأجوبة، فأجرى أنطونيو تجربةً صغيرة. عند السؤال التالي، شيء عن آفاق بقيّة البطولة إثر هذا الفوز الممتاز 1/4 على الكامبيرون، وبعد أن ترجم السؤال لياماندي تظاهر بأنّه أخطأ ونقل جوابه غير المفهوم باللغة.

لم يرمش الصحفيّ: «شكرًا جزيلاً. الخطّ إلى الاستوديو!»

أمّا الهدف الآخر، الأشدّ تعقيدًا في بلوغه بكثير، فكان أن يستغلّ الوضع ليقود الفريق رغم تدخلات غونسالفيس.

كانت ترجمة «كفى من هذه السخافة، سخافة ألا تكون هناك مراكز» بـ«العبوا أحرارًا كما تعرفون وكما فعلتم دائمًا» سهلة. لكن غونسالفيس لم يكن غبيًا، ومع أنه لم يقل له شيئًا صراحةً بعد، فقد حدس بوضوح ما يجري. لكن، ودائمًا لأنه لم يكن غبيًا، كان الأداء الممتاز الذي رآه في الشوط الثاني من مباراة كرواتيا قد أقنعه بأن يتقبل الأمر الواقع بوجه باسم، وكان مؤتمره الصحفي التالي كله مديحًا لكرة القدم الشاملة التي يمارسها الفتيان، تتخلله رواية متواضعة تواضعًا زائفًا عن كيف اقتصر هو والطاقم على مساعدتهم في التكيف مع كرة القدم العالمية (وهو ما كان صحيحًا في جزء منه، وكان على أنطونيو أن يعترف بذلك).

وإن كان اعتراض التعليمات التكتيكية وتعديلها في مرحلة الترجمة سهلًا نسبيًا، فقد كان التدخل في التشكيلة مهمّةً أشدّ تعقيدًا بكثير.

كان أنطونيو قد فكّر في إمكانية خلق توتر بين غونسالفيس واللاعبين الذين يرى الأفضل تركهم على الدكّة، وذلك باختراع ردود وقحة، لكنّه استبعد ذلك بعدها بوصفها فكرةً خسيصةً أكثر من اللازم. بل كان عليه في الحقيقة أن يفعل العكس: أن يلطف كلمات ياماندي، وكاوي قبل كلّ شيء، اللذين استثقلا المدرّب وكانا يواصلان شتمه (وكان كاوي من جهة أخرى قد بدأ يطرّو بالتوازي إعجابًا معيّنًا بكون غونسالفيس يواصل إشراكه رغم الشتائم).

بعد التعادل مع المكسيك كان غونسالفيس ينوي تغيير بعض اللاعبين، وياماندي بوجه خاص لم يقنعه إطلاقًا. لكن أنطونيو كان يعرف أنّها بالنسبة إلى الفتى مسألة وقت فحسب، وأنّه يحتاج إلى مواصلة اللعب ليعود في أسرع وقت ممكن نجمَ كأس العالم المحتمل. وبعد تفكير وتفكير، اخترع في النهاية، لإبقائه في الملعب، سلسلةً من الألام العضلية الخفيفة عند كلّ المهاجمين المحتملين الآخرين: فخضع كيسيه وبيراي وسانياسو، لدهشتهم الكبيرة، لفحوص طبيّة وجلسات إضافية من التدليك والعلاج الطبيعيّ، ونزل ياماندي إلى الملعب ضدّ الكامبيرون. والملعب أنصفه بعد ذلك.

بعد غول كاوي الأوّل جاء تعادل عرضيّ للكامبيرون. لكن بعد دقائق قليلة أعاد كاوي البرازيل إلى التقدّم بنخلة ماثلة، واحدٍ من المخططات الكثيرة المدروسة على مرّ السنين مع أنطونيو، والتي كانت تفاجئ الجمهور كما تفاجئ الخصوم.

وجاء الغول الثالث إثر ركلة حرّة من جاسي دخلت في الزاوية بالذات. وبينما كان الجميع يبتهجون، اتّجه جاسي بهدوء نحو المرمى وصنع بإصبعه حركة الكتابة في الهواء: م ا ر ك و س، في النقطة التي دخلت منها الكرة. أراد بذلك تكريم رفاق لعبه في حيّ ماكابا، لكنّ لاعبي الكامبيرون فسروها حركةً استهزاء، ولم يمنع اندلاع العراك إلّا أنّهم لاحظوا أنّ غونسالفيس أخذها بالسوء نفسه وبدأ أشدّ غضبًا وصراخًا منهم.

أما غول الأربعة/واحد النهائي فسجّله ياماندي بالذات، منهياً قوسًا مشدودًا أكثر من اللازم: وبدأ أنّ جمهور ماني غارينشا في برازيليا لا ينتظر سوى ذلك، فابتهج سبعون ألف متفرّج مطلقين في نفس واحد سهمًا خياليًا في آخر ومضات الغسق. مشهدٌ ظلّ أنطونيو سنوات لا يستطيع أن يتذكّره دون أن تكسوه قشعريرة سمكها متر.

5.8 عرق

جالسةً على الكنبه البنيّة في صالون ليتيسيا، الطريّة أكثر من أن تكون مريحة حقًا، كانت يايا تتأمل في أنّه منذ حدثت تلك الحكاية، حكاية صفحة فيسبوك، صارت دعوة أحد إلى بيتها مهمّة شاقّة: فالصديقات يفضّلن أن يأخذنها في جولة أو أن يدعونها إليهنّ، ليتباهين بها أمام الأقارب والأصدقاء. ولم يكن ذلك يزعج يايا، فهو بالتأكيد أفضل من أن يُسخر منها كإدوارد. ثمّ إنّ المرء بهذه الطريقة يتعرّف على ناس كثيرين، وبعضهم مثير للاهتمام أيضًا، وإن لم يكن أحد بدهاء مثيرًا للاهتمام مثل... يا إلهي! حرّكت يايا يدها إلى جانبها لتستعيد المحمول، لكنّها لم تجده حيث كان ينبغي أن يكون فتعثّرت فورًا بفخذ فابيو الجالس قربها. نهضت دفعةً واحدة لتتحقّق من الحقيبة: ومع ذلك أنا واثقة أنّي أخرجته... وفعلاً لم يكن في الحقيبة. مسحت الصالون بنظرة سريعة: من عساه أخذه منّي؟ ينبغي أن تكون صديقاتي قد فهمن الآن أنّي مستعدّة للقتل إنّ مُس هاتفي.

«يايا، هل من خطب؟» سألها فابيو مهتمًا، ناهضًا عن الكنبه ومزيجًا بذلك الوسادة قليلاً. ها هو! أوووف، كان قد انزلق فقط بين الوسائد.

«لا شيء، لا شيء، كلّ شيء تمام، شكرًا.»

وجّهت إليه ابتسامة جميلة، غير عابئة بكم كانت تلك الابتسامة تُثيره، وأدخلت رمز الأمان في المحمول، ووضعت نفسها بحيث لا يستطيع أحد أن يسترق النظر إليه، وفتحت تطبيق الصور.

«انتبهوا، انتبهوا!» قالت داني «بدأ البرنامج.»

حيّا مقدّم «بوم ديا كوبا دو موندو» الجمهور في البيوت وفي الاستوديو، وقدم الضيوف، ثمّ أطلق التقرير الأوّل، مقابلة أجراها جورج مع يايا وكاوي، مسجّلة في المساء السابق بترجمة أنطونيو المعتادة.

كانت العلاقة المميّزة بين جورج وأنطونيو قد تبين أنّها مفيدة جدًّا لريتي نورتي: فمن محطة شبه مجهولة في شمال البرازيل صارت واحدة من أهمّ المراجع في التلفزيون الوطني. وبوجه خاص، جعل اتفاق أبرمه مديرها مع ريتي غلوبو جورج يُدعى كثيرًا محلًّا في البرنامج الرياضي المسائي، وجعل تقارير خاصّة تُطلب منه، كالتقرير الذي كان يُبثّ في تلك اللحظة. والمدير، بدهاء، كان يرى أنّ كلّ هذه الشعبية الإضافية تغني تمامًا عن زيادة الراتب، ولم يكن جورج، على العموم، يخالفه الرأي.

«وسيم جورج هذا، ها؟» قالت ليتيسيا، ملتفتةً نحو يايا وغامرة لها بعين.

«ماذا تقولين؟ لا بدّ أنّه في الثلاثين على الأقل!» عارضتها باتريسيا.

«وحسنًا، بين حين وآخر يوجد أيضًا بعض الوسيمين في الثلاثين» تابعت الصديقة.

«وكاوي ليس سيئًا أيضًا» علّقت داني.

«في رأيي هو صغير قليلًا،» قضت ليتيسيا «يا خسارة أنّهم أجروا المقابلة معه لا مع أولئك الوسيمين إلى حدّ الجنون، ياماندي أو مواسير.»

«لكنّه سجّل أمس غولين» تدخّل ماتبوس، صديق لفابيو دُعي للمناسبة، «والثاني فوق ذلك، باستعمال القائم للارتداد، كان غولًا خرافيًا. وعمومًا، كان حتى الآن البطل الرئيسيّ للتأهل إلى دور الستّة عشر. كان من العدل أن تُجرى المقابلة معه.»

كان ماتبوس صامتًا حتى تلك اللحظة، ومنذ بداية السهرة كان يبحث عن طريقة ليقول شيئًا ويلفت الانتباه إلى حضوره. نظرة الفتيات أفهمته أنّه كان من الأفضل له أن يواصل الصمت.

«كنت أرجو أنهم بعد أن دعوك لمشاهدة المباراة في منصّة الشرف سيدعونك أيضًا إلى حفل مسائي بعد المباراة وأنا سنستطيع أن نتسلّل نحن أيضًا، كلنا بثياب أنيقة!» تنهّدت ليتيسيا.

«كفى!» رفعت يايا رأسها لحظةً عن هاتفها «ليسوا ممثلين في حفل ساهر، إنهم لاعبو كرة قدم في معسكر. سنرى، أنا واثقة أنهم سيذكرونني في نهاية كأس العالم.»

«أنا أوكد أنّ كاوي هذا له هيئة من يعرف كيف يمتّعك في السرير» أصرّت داني.

«شش! يا حمقاء! اخفضي صوتك. أبي هناك!» وبّختها ليتيسيا.

لا تعرفين كم أنت على حقّ يا عزيزتي داني، فكّرت يايا، متأمّلةً مرّةً أخرى الصورة الذاتية التي التقطتها في المساء السابق، بعد ساعات قليلة من المباراة ومن المقابلة. لم يكن يُرى فيها إلّا وجهها المتعرّق، وترقوة، ووجه كاوي، المتعرّق بالقدر نفسه، ملتصقًا بوجهها. ومن احمرار خديها ومن لمعان عينيها كان يُفهم أنّهما لم يكونا متعرّقين لأنّهما ذهبا للتوّ ليركضا معًا.

5.9 سجانر

أنهت تيريزا ترتيب عصائر الفاكهة والبسكويت الصغير على طاولة صغيرة مغطاة بمفرش بلاستيكي أصفر، وضعتها أمام الكراسي الثلاثة المصفوفة قبالة التلفاز. ما شاهدت مباراة كرة قدم في حياتها قط من قبل، لكن كأس العالم تلك التي يلعب فيها فتيان أنطونيو – وهو نفسه في الملعب على الدكة، وما أجمل الزي عليه – كانت بداهة مما لا يُفوّت.

منذ المباراة الأولى استقرّ أن تتابع هي وسافيريو اللقاءات معًا، هناك في إذاعة نوبا أميزادي، لكن سرعان ما انضمّ جواو أيضًا، إذ كان يجد رضى أكبر في التعليق عليها مع من يعرف الأبطال شخصيًا مثله. وفي دور الستة عشر كان يُفترض أن تكون لويزا معهم أيضًا لكن أصابتها نوبة ألم أسنان، فحلّ جواو محلّها في برنامج «أو كاروسيل دو غوسيب»، الذي سينتهي بعد دقائق قليلة، في الوقت المناسب تمامًا لصافرة البداية.

أشعلت تيريزا المروحة، وذهبت لتأخذ من درج المكتب علم البرازيل – أكبر علم نجحوا في إيجاده، وقد جمعوا له مالا شاركت فيه ريبिका السكرتيرة أيضًا – ونشرته بعناية خارج حافة النافذة المفتوحة. رمت قبلة صغيرة في هواء الظهيرة المتّقد في الاتجاه الذي افترضت أنه اتّجاه بيلو أوريزونتي: «هيا يا أنطونيو، هيا يا فتيان!»

كان كلّ شيء جاهزًا.

كانت مشاهدة المباراة الأولى مشوّشة قليلًا لأنّ تيريزا تركت الصوت مرتفعًا لتسمع التعليق، لكنّ سافيريو كان يواصل سؤالها عن تفاصيل لا يتكلّم عنها المعلق: «كيف الناس، ما تعبيرهم، أيبدون مسرورين؟ هل الحكم رجل وسيم؟ أسمين هو أم نحيل؟ كيف صار وجه أنطونيو الآن؟ ما لون أحذيتهم؟»

وكانت هي، لتجيبه، تفوّت أجزاء من اللعب ثمّ تضع بعد ذلك.

لذلك وجدوا منذ المرّة التالية طريقة أريح بكثير: أن يخفضوا الصوت حتى الغممة – بالقدر الذي يكفي لسماع إيضاح إن لزم – وأن يتركوا تيريزا تشرح المباراة لسافيريو شرحًا حسنًا، كما كان يحبّ.

«ها هم، ها هم، يدخلون الملعب! يلبسون الأصفر، كالعادة: يليق بهم كثيرًا، أرى، ثمّ إنّه لون يبعث المرح، معروف. أنطونيو قصر لحيته، تليق به حقًا. لكنّه يبدو لي نحيلًا قليلًا، لا بدّ أنّ الأمر مرهق له: كلّ هذا التوتر، كلّ هؤلاء الناس، من يدري إن كان يأكل بما فيه الكفاية. يا إلهي ما أقبح الحكم، لو تراه. كلّه أنف، وقصير ومفلطح كأنّهم عصفور. نرجو ألا يكون شريرًا أكثر من اللازم، له عينان صغيرتان لا تعجبانني. أما تشيلي فلها قميص أحمر جميل. لهم وجوه لطيفة ومرحة أيضًا، نرجو أن يكونوا في نهاية المباراة أكثر حزنًا قليلًا. لكن انتظروا، أرفع الصوت لنسمع النشيدين فهما جميلان جدًا...»

صمتوا جميعًا، جواو مرفوع الذقن فخورًا كأنّه في الملعب، وسافيريو يهزّ رأسه على الإيقاع في غاية التركيز، وتيريزا تحرك شفيتها متابعًا الكلمات. كان النشيد يؤثّر فيها دائمًا، كلّ الأناشيد، ثمّ رؤية أولئك الفتيان الجميلين، الشبان هكذا، الجادّين المنتصبين هكذا، يا لهم من أعزاء، من يدري كم هم منفعلون. جفّفت بسرعة دمعًا في زاوية عينها. كفى عاطفيّة الآن، هيا، سنبدا.

«يركضون كثيرًا جدًا يا سافيريو، إنهم بارعون حقًا. ولهم طريقة في الحركة جميلة جدًا، لو تعلم، أظهرت الكاميرا الفتيات بين الجمهور، كنّ يأكلن فتياننا بأعينهنّ... أه! انتبه يا بيتا! ذلك القصير صاحب الرقم سبعة ملتصق به كالقرد، في رأيي حين لا تكون الكاميرا عليه يركله أو يقرصه، فله وجه خبيث. ها هو جاسي ينطلق الآن، انظر كيف يركض، كأنّ له ست سيقان، يرمي الكرة إلى كاوي الذي، أوه! لا بدّ أنّه ركّلها لكنّها لم تُر حتى من شدّة سرعتها، كأنّ الكرة ارتدت! يأخذها أوبراتان فيرميها فورًا إلى تاييني الذي صار هناك في الأمام، ما اسمه، بعد الخطوط.»

«يا إلهي، تسلّل!» قلق سافيريو.

«ها؟»

«لا، لا،» تدخّل جواو «ليس تسللاً بشعرة!»

«هذا الذي قَلْتُمَاهُ لم أفهمه جيّداً، ستشرحانه لي بعدها، لكن انتبه الآن، لأنّ بيراي صار هناك على اليمين، وياماندي يمرّر له الكرة وهو بالرأس، أوه! أوه! غول! غول! غول يا سافيريو، غووول!»

ولم تكن هناك حاجة حتى إلى قول ذلك: فمن النوافذ المفتوحة دخل دويّ ثمّ صرخة، ترتدّ الآن كصدى بين بيت وآخر وتهزّ النخيل على جانب الشارع: «غول! غول! غول! غوووووووول!»

عادوا ليجلسوا، بينما اغتنمت تيريزا الفرصة لتدير عصير الأناناس وجوز الهند، وأشعل سافيريو وجواو سيجارة. هيا، نحن بخير.

وما إن أطفاها حتى نَبَّهت تيريزا مضطربة: «يا إلهي لم أفهم جيّداً ماذا حدث لكنّ الكرة الآن مع واحد من تشيلي، ضخم أُخِرْقَ فظّاً يشتهي المرء أن يصفعه، ها هو يرميها إلى ذلك الآخر صاحب الرقم 10 والشعر القصير جدّاً، يا للسماء مدرّب فتياننا يصرخ شبيّاً، وأنطونيو يصرخ شبيّاً أيضاً لكن في رأيي إن صرخا معاً لا يفهم الفتيان، أترى، صاروا كالمشوّشين، صاحب الرقم 10 يسدّد بقوة شديدة، ومواسير يرمي نفسه كجاكوار لكن لا، لا، لا، لم يقدر بشعرة... لا! غول لهم. مواسير يائس، الطفل المسكين، بقي مذهولاً من كلّ ذلك الصراخ، لكنّي لا أدري، لا أدري، كيف يحدث هذا...»

كانت الساعة والنصف التالية عذاباً من التكافؤ، فنفتد عصائر الفاكهة والبسكويت الصغير، ودخّن جواو علبةً كاملة، وطلب سافيريو، وهو عادةً أكثر من معتدل، من تيريزا إن لم تكن عندها في الجوار زجاجة رمّ، جرعة كاشاسا، شيء قويّ لتحمل ذلك الغياب المنهك للتسديدات الحاسمة. فوضعت تيريزا، وقد أخجلها أنّها لم تتجهّز كما ينبغي، المحفظة في يد جواو وأرسلته ليشتري رمّاً وبينغا وعلبةً كبيرة من بوطة البابايا.

«انتهت عمليّاً يا سافيريو، المدرّب لا يفعل إلّا أن يلوّح بذراعيه ويزعق وأنطونيو جالس وذقنه بين يديه، سيلعبون ركلات الترجيح، أتعلم، أنا تخيفني ركلات الترجيح كثيراً.»

«ستخيفهم هم أيضاً،» لاحظ سافيريو «على ما فهمت ليسوا معتادين عليها إطلاقاً.»

«لا، فعلاً،» أكّد جواو «وأنا أيضاً أظنّها شيئاً جديداً عليهم كليّاً تقريباً... لكن ماذا يفعل ذاك الآن، يا يسوع...!»

«يا سيّدة القديسة يا سافيريو، صاحب الرقم 9 ذاك انطلق كصاروخ، إنّه قريب أكثر من اللازم، لم يوقفوه ها هو يسدّد، يا إلهي لا، إنّه غول، انتهت! لا! لا! إنها، إنها الخشبة، أصابت الخشبة، لم تدخل يا سافيريو، لم تدخل! الملاك الحارس نظر إلى الأسفل، لم تدخل!!!»

«العارضة، العارضة!» كان جواو يصرخ غير مصدّق «لا يُصدّق، إنّها العارضة، لا يُصدّق!»

«ها هو يصفّر، انتهى الوقت، يا سيّدة القديسة كدنا نخسر في الدقيقة الأخيرة، يا يسوع، كاد قلبي يتوقّف، أنا كليّ عرق، لحسن الحظّ أنّك لم ترّ يا سافيريو، انظر، أقسم لك!»

واستعداداً لركلات الترجيح ذهبت تيريزا تنبش في أدراجها ووضعت فوق التلفاز صورةً صغيرة لنوسا سنيورا دو روزاريو وتمثالاً صغيراً لأوغوم، إله النار والمعرفة: «الأفضل أن نستعين بالجميع، الأفضل أن يكون لمواسير كلّ الدعم الممكن، الفتيان المساكين يا لها من مسؤولية، أنا كنت سأموت، صدّقني.»

وفي غاية التوتر، أشعلت سيجارة: آخر سيجارة دخّنتها كانت مع رفيقات المدرسة قبل عقود، وكانت تمسكها بين أصبعين وتنثف، دون أن تسحب، نفثات دخان صغيرة محمومة. يا إلهي يا له من قلق.

5.10 نصائح

«ألميدا! أنطونيو! أنظني أعمى؟ أتحسبني أحمق؟»

«ها؟» كان أنطونيو في قاعة التلفاز الصغيرة في الفندق، منكبًا على إعادة مشاهدة أبرز لقطات مباراة كولومبيا/الأوروغواي للمرة التي لا تُعدّ.

«أقول، هل تراني أتجول بعصا؟ بكرة؟ بنظارة سوداء؟»

«اعذرنى يا غونسالفيس لكّني لا...»

أوقفه غونسالفيس بحركة يد ووزنه بنظره: «توقّف. الإنكار، الإنكار دائمًا، حتى للبديهيّ. أحسنت. أحترمك. ولذلك أعفك من المراوغة. أعرف أيّ لعبة تلعب.»

حاول أنطونيو أن يتخذ أكثر التعابير حيادًا واكتفى بالنظر إليه. فتابع ذاك.

«أكرّر لك: عندي عيوب طبع كثيرة، لكّني أعرف شيئًا في كرة القدم. لست غاضبًا لما فعلته، وعلى الأرجح كنت سأفعل مثله لو كنت مكانك. يغضبني قليلًا أنّك ظننت أنّي لن أنتبه، هذا صحيح. لكن ما دامت النتائج في صفك قرّرت أنّ الأفضل ألاّ أتدخل، فعلى العموم أنت تعرف هؤلاء الفتیان أفضل ممّي بكثير.»

واصل أنطونيو صمته.

«لكنّا اليوم كنّا قاب قوسين من الإقصاء، فأصغ إليّ جيّدًا: حرّية اللعب هذه التي تمنحهم إيّاها لا بأس بها. لا يُصدّق أنّها تنجح، لكّني أذعن للواقع. إنّها تنجح. لكن عليك أن تعطّهم بعض النقاط الثابتة، شيئًا يتعلّقون به حين تسير الأمور على غير ما يرام. وإلاّ انتقلت من الحرّية إلى الفوضى ثمّ إلى التخبّط وهذا لا يصلح إطلاقًا.»

لم يكن أنطونيو ينجح في تقرير ما إذا كان غونسالفيس صادقًا أم ينصب له فخًا كبيرًا. لكن بما أنّه عبّر للتوّ عن تقديره لمن ينكر دائمًا، قرّر أنطونيو أنّ الطريق الأضمن هو مواصلة التغايب: «غونسالفيس، أوّكد لك أنّي لا أفه...»

صرفه غونسالفيس بحركة يد وجلس إلى جانبه.

«ناولني جهاز التحكّم» أمر.

حمل شريط مباراتهم بعد الظهر، التي فازوا بها في آخر رمق بركات الترجيح، وعاد إلى النقطة التي تهّمه. شغل الشريط، فعرض لحظة تخلّص فيها الدفاع البرازيلي فقط بفضل خطأ محظوظ من الخصوم. ثمّ قدّم قليلًا، حتى لحظة تُظهر هجومًا برازيليًا خاليًا من الأفكار على نحو غريب. ثمّ توقّف وأعاد تشغيل مباراة كولومبيا، التي ستكون خصمهم التالي.

«أرايت؟ الخصوم الذين سنواجههم من الآن فصاعدًا أصعب فأصعب. كلّ مباراة أصعب من سابقتها بشكل أسّي. تكتيكاتكم كانت تصلح في اللقاءات الأولى ويمكن أن تواصل النجاح، لكن عليك أن تعطي الفتیان نقطة ارتكاز للدفاع وأخرى للهجوم.»

التفت غونسالفيس نحو أنطونيو ليتأكّد أنّه يتابعه وتابع.

«للدفاع هو بلا شكّ بيّات. أبقى عيني عليه، لفتني لأنّ له موقفًا شبه أبويّ تجاه الدفاع. حين يتقدّم يبدو أنّه يفعل ذلك مكرهًا تقريبًا. عنده تسديدة جميلة، لكنّ التسديدة الجميلة عند الآخرين أيضًا، أنا كنت سأتركه في الخلف ليمنح الأمان. أمّا للهجوم فأنا أكثر تردّدًا: ذلك الأحمق بولوروسي، يؤلمني أن أقولها لكنّه قدير حقًا. لكنّ لعلّ الأفضل أن يُترك حرًا،

يعطيني انطباعاً بأنه بارع في كلِّ مكان، حتى في المرمى. الأفضل رفيقه الجدير به: لا أطيعه هو أيضاً، ذلك الفتى اللعين ذو الوجه المذوّر الذي يظنُّ أنني لا أنتبه حين يتسلَّق سياج الفندق في المساء. لكن في الهجوم له فاعليّة لا تُصدّق، عليّ أن أعترف له بذلك.»

«أتقصد كاوي؟»

«نعم. لا أقول أن نثبته في نقطة ثابتة من الهجوم، بداهةً. لكن من الحسن أن يعرف من يرسل كرةً طويلة من الدفاع أنه سيجده هو في الهجوم. لا أيُّ أحد كان، بل هو. هذا يغيّر إيقاع الهجوم كلّهُ وأؤكد لك أنه يغيّرها إلى الأفضل.»

نهض غونسالفيس وأطفأ التلفاز تشديداً على أنّ الحديث انتهى.

حافظ أنطونيو على وجه البوكر حتى النهاية: «سأنقل تعليماتك إلى الفتيان يا مدرّب.»

5.11 فاليريو

استيقظ فاليريو غارقًا في العرق في سرير المستشفى صارخًا «كولومبيا! كولومبيا!»

في العيادة الخاصة الباهظة في ساو باولو، «العلاج الطبيعي والانسجام»، حيث كان يُعالج مع رفاق الفريق، كان فاليريو ألمانوس، محور الدفاع البرازيلي المكسور، يتنقل منذ أسبوع بعكازين بعد أن تخلّى عن الكرسي المدولب الذي كان يُشعره بالعجز ويثير قلقه أكثر من اللازم. لكنّ القلق فيما يبدو لم يكن طرده بهذه السهولة.

«فاليريو؟»

«نعم...»

«آه، أنت مستيقظ. ظننتك تحلم.»

«جاءني كابوس آخر من تلك الكوابيس. هذه المرّة كان فيه أيضًا ذلك الرجل الذي يلعب مهاجمًا صريحًا...»

«من؟ باولوروسي؟»

«نعم، هو، هو. كان عليّ أن أرافقه إلى مكان ما مع أشخاص آخرين لا أذكرهم لكننا كنّا ننتهي دائمًا في كولومبيا.»

«طبعًا، اليوم المباراة، لا بدّ أنّه بسبب ذلك.»

«كان حلمًا محمومًا، أتعرف تلك التي تحسّ فيها دائمًا أنك متأخّر؟ كان عليّ أن أرافق باولوروسي ثمّ أذهب إلى الملعب لألعب وكنت أتأخّر. كان يخيل إليّ أنّي أعرف الشوارع وكلّ شيء لكنّي في كلّ مرّة أخطئ منعطفًا فأجد نفسي في كولومبيا.»

«كابوس حقيقيّ، ها؟» قال أوريبز مقهقها.

«أجل،» أجاب فاليريو بشبه ضحكة «كابوس واقعيّ جدًّا.»

في الأيام التي تسبق مباراةً للبرازيل كان شعوره بالذنب يتضخّم ويتحوّل إلى أحلام شديدة الاضطراب أو إلى كوابيس حقيقية ينتظر الجميع فيها منه، بانتظام إلى حدّ ما، شيئًا لا يقدر عليه. في هذه الحالة حلم أنّ عليه مهمّة نقل مجموعة من اللاجئين إلى برّ الأمان لكنّهم كلّما عبروا الحدود، بحرًا أو جوًّا أو برًّا، وجدوا أنفسهم في كولومبيا لا محالة. لم يكن يعرف ما وجهته، لكنّها بالتأكيد لم تكن كولومبيا.

بحث عن العكازين، فلن ينجح الآن في العودة إلى النوم، يعرف ذلك، والأفضل أن يتمشّي قليلًا. تمشّ، إن جاز القول... لم يكن فاليريو يستوعب كم يشقّ المشي بالعكازين. أنا رياضيّ على مستوى عالمي، كان يكرّر لنفسه، أيعقل أن يلزمني التوقّف كلّ خمس دقائق لألتقط أنفاسي؟ ولماذا لا يخرجوني لا أدري، يقولون إنّ عليهم أن يبقوا هذا الكاحل تحت المراقبة لكن لا يبدو لي أنّ حالتي أخطر من حالات آخرين عادوا إلى بيوتهم.

أمّا ديفيل فلم يكن أمامه خيار: فمن بين كلّ جرحى الحادث المروّع الذي أعاد استدعاءات المنتخب البرازيلي إلى الصفر كان واحدًا من أكثر من كانت لهم فرصة أن يكونوا أساسيين. وكان من أشدّهم إصابة: رصّ في الجمجمة مع كسر في الفكّ وعجز كليّ مؤقت عن الكلام. وإلى أن تُحلّ نهائيًا آثار رصّ الجمجمة – ومنها صداد مستمرّ كالمطرقة – وإلى أن يصير قادرًا على التغيّذ طبيعيًا، سيكون مضطرًا إلى البقاء في المستشفى.

«ديفيل البطل الخارق المقنّع أيضًا كان عنده في البداية صداد شديد» قال له فابري، القارئ النهم للقصص المصوّرة الأمريكية، فنجح في أن يجعله يبتسم بعينيه على الأقلّ إن لم يكن بفمه المتضرّر.

قبل نصف ساعة من البداية كانوا كلهم قد تجمّعوا أمام التلفاز يتناقشون بحماسة. المباراة الأولى بدأ كل واحد يتابعها وحده، من جهة لأنّ حالاتهم جميعاً كانت عمومًا أخطر، ومن جهة لأنّهم لم يطاوعهم قلبهم على تقاسم تجربة كان الجميع ليراهنوا أنّها ستكون كارثية. لكنّهم في النهاية وجدوا أنفسهم عشرين، بحساب الأقارب والأصدقاء أيضًا، في غرفة فاليريو وأوريز يبتهجون ويتعانقون لفوز المنتخب. ومن تلك اللحظة قرّروا ضمّن أن يتابعوا المباريات في قاعة مشتركة.

كانوا يصلون جلسةً، وينتقدون بضراوة كلّ شيء وكلّ أحد: المدرب والاتحاد واللاعبين والساسة، لكنّ التشجيع كان يغلب بعدها فيتابعون المباراة ويعانون أكثر من سائر الناس.

قبل البرازيل/كولومبيا كان موضوع الخلاف فكرةً فوغيتي بأن يقوم بحركة استعراضية فيهدي قميصه إلى المهاجم الهندي، باولوروسي. كان الاثنان متشابهين جدًّا، وباولوروسي أقصر قليلًا (وهذا ما كان يجب تخمينه، إذ كان فوغيتي على كرسيّ مدولب بسبب رضّ في عموده الفقريّ) وأقلّ ارتياحًا بوضوح أمام آلات التصوير: كان يبقي نظره منخفضًا، ويتحرّك على نحو خاصّ تمامًا، ويشعر في انحناءات أو حركات تبدو مقطوعةً في مهبها. أمّا فوغيتي فكان يتصرّف كأنّ من سيدخل الملعب بعد دقائق قليلة هو: الوشوم بارزة، والقبّعة الأمريكية مائلة، والسّماعات التي لا تتخلّف على العنق، وحركات تحيّة باليدين، وعينا من يعرف أنّه قد ظفر بالنجاح.

«أنا قلت دائمًا إنّ فوغيتي وغدا!» قال رومينيو بصوته الحادّ المعتاد.

«ليس وغداً، بل يعجبه أن يكون في مركز الانتباه» أجاب فابري.

«في مركز كلّ شيء تريد أن تقول» أضاف رومينيو.

«أبدأ. بعد دقيقتين سيكونون قد نسوه، فهنا دور ربع نهائيّ يجب الفوز به» ذكر كارلوس دوغال.

«متشابهان بالتأكيد هذان، ها؟» لاحظ فاليريو.

«أجل، بيدوان أخوين» قال فابري.

«إنّ ذاك الآخر وغدا أيضًا،» تدخّل رومينيو من جديد «ثمّ كم يمكن أن يكون وغداً من يُسمّى باولوروسي؟ ثمّ انظروا إليه، يتصنّع كلّ الارتباك وفي المساء الماضي بعد الغول بدا ممسوسًا.»

«حسنًا، سجّل غولًا عظيمًا» لاحظ أوريز.

«لا أدري إن كان وغداً، أمّا قويّ فقويّ،» اعترف فابري «لا أدري إن كان أقوى من فوغيتي لكنّه قويّ.»

«صار فوغيتي قويًّا الآن إذن» غمغم رومينيو.

«ثمّ إنّ حركة القوس المشدود تلك لا تزعجني، عليّ أن أقول لكم» ردّ فاليريو متظاهرًا بأنّه لم يسمع تعليق رومينيو الأخير.

كانت مشاهدة المباريات مع ديفيل شبه الأخرس متعةً حقيقية، إن نجح المرء في أن ينسى لحظة المأساة التي يعيشها. فكلّما بلغت الكرة ولو على نحو غامض منطقة هجوم البرازيل كان ينهض واقفًا مطلقًا صرخات مبهمة «مغااااه! غباااااه!» ومشيرًا بيديه إشارات مروّعة تعويضًا عن نقص الكلمات، حتى إنّ الفراغ كان يتكوّن حوله في خمس دقائق بعد أن ينتقل الجميع، بمن فيهم خطيبته، أمتارًا إلى الوراء تفاديًا لصفعات محتملة غير مقصودة.

ولصرخات ديفيل كان أحدهم دائمًا يهتمّ بأن يردّ كآته فهم، فكانت مباراة كالبرازيل/كولومبيا، الغنيّة جدًّا بفرص البرازيل، تبدو، بالصوت، هكذا: «غباااااه!! ااااه!»

«أنت على حق، كانت لعبة جميلة.»

«مغاااه! بغبيبيه!»

«طبعًا.»

«وأنا أيضًا أرى ذلك.»

«مبوووه؟»

«لا.»

«أبدًا، ولا في الحلم.»

«مغاااه! غباااه!»

وهلمَّ جرًّا.

في الدقيقة الخامسة والثلاثين من الشوط الأول نفذ ياماندي ركلة ركنية من يمين الدفاع الكولومبي. كانت الكرات الثابتة تُستقبل من ديفيل بنوع من طقس استجلاب الحظ: كان يبقى واقفًا مفتوح الذراعين يغرغر من يدري ماذا. وعند انطلاق الكرة يبدأ بـ«أااابوه! أااانغ!» جهوري بوجه خاص.

لكن ياماندي نجح في تلك اللحظة في أن يمنح الكرة مسارًا ملتفًا لا يُصدّق قطع الدفاع كلّ. هذه المرة لم يتسع لأحد الوقت للتعليق. انتهت الكرة بدقة على قدم بياتا الذي وضعها في المرمى بلا جهد. وفي القاعة المشتركة في «العلاج الطبيعي والانسجام» في ساو باولو انفجر دوي لم يسبق له مثيل. انهار ديفيل باكيا على الكرسي بينما كان الرفاق والأهل، رغم حدود كلّ منهم البدنية، يحتفلون قافزين متعانقين بلا توقّف.

وبدا فتیان غونسالفيس، كأهم يسمعون حقًا تشجيعات ديفيل غير المفهومة لكن الصادقة، لا يمكن إيقافهم: ولم يمنع مضاعفة النتيجة في الدقائق الخمس والأربعين الأولى إلا سوء الحظ وتصديان مذهلان حقًا من حارس المرمى الكولومبي.

وحملت الاستراحة معها نقاشًا جديدًا.

«هل رأيتم غونسالفيس؟ بدا زاهلاً» قال مارسيليني الذي كانت رضة وجهه، التي تُبقي عينيه المنتفختين شبه مغلقتين، لا تسمح له برؤية إلا ظلال غامضة أو أكثر قليلاً.

«ليس زاهلاً، هكذا يكون حين يعمل الفريق كما يجب» أجاب فاليريو.

«لكنّه لا يبدو فريقًا لغونسالفيس، يبدو تقريبًا هولندا الكرة الشاملة» لاحظ كارلوس دوغال.

«صحيح، من يدري ماذا يجري»، قال فابري «كأنّ الفتیان هم الآمرون في الملعب، لكن أيّمكن ذلك؟ كيف تكون عندهم كلّ تلك الخبرة؟»

«أما أنا فأراهم اليوم أكثر انتظامًا من المباريات الأخرى» عارض كوروجاو، الذي كان يرى كلّ شيء دائمًا بنظارة التكتيك.

«غونسالفيس أحق» قال روميني في سرّه، ومن جديد لم يلتفت إليه أحد.

نحو منتصف الشوط الثاني صَفَّر الحكم ركلة حرةً للبرازيل على بعد ثلاثين مترًا على الأقلّ من المرمى. وبعد نقاش قصير مع الرفاق وضع جاسي الكرة على الأرض وانتظر أن يرسم الحكم بالبخاخ علامات مسافة حائط الصّد. كان البخاخ قد استُقبل من الفتيان الهنود دون دهشة خاصّة، فلم يكن سوى واحد من آلاف الغرائب التي كانوا يتعرّضون لها يوميًا: وأكثر من فوجئ به واستمتع بهذا الابتكار كان أنطونيو.

كان ديفيل قد وقف وذراعا الطويلتان مفتوحتان يتمتم لازمته المعتادة غير المفهومة. وكان جاسي وياماندي غير بعيدين أحدهما عن الآخر، يحدّقان في الكرة في غاية التركيز.

«يسدّد ذلك الوغد باولوروسى» قال رومينيو.

«لا»، أجب مارسيلينيو «يسد من وضع الكرة، جاسي. تذكروا الركلة الحرة ضد الكامبيون».

لكنّ ياماندي هو من أخذ مسافة الركض وسدّد. ضُربت الكرة بقوة لا تُصدّق، وسافرت تحت الكشافات بيضاء مسطحة بلا أدنى بادرة التفاف نحو المدرجات خلف حارس المرمى الكولومبيّ. وبعد عشرة أمتار انكسر المسار على نحو لا يُفسّر وبدأت الكرة تسقط نحو المرمى. وانطلق الحارس، وقد تأخّر تأخراً واضحاً الآن، نحو يساره. وكان ديفيل قد بدأ «أااابوه! أاااإييينغ!!» والكرة لم تكن قد دخلت المرمى بعد. أما ياماندي فكان قد استدار بعد التسديد وراح يمشي عائداً، وذراعه إلى السماء، نحو مرماه دون أن ينظر حتى إلى نتيجة الركلة. وأنطونيو، إذ رأى تصرف ياماندي، وهو يعرف تلك التسديدة جيّد المعرفة، بدأ يبتهج حتى قبل الغول الفعليّ. ورفع غونسالفيس نفسه ذراعيه إلى السماء بالغريزة قبل الأوان. وحين انتفخت الشبكة كان الفتیان في عيادة «العلاج الطبيعيّ والانسجام» يصرخون فرحاً حتى نُحِتَ جناجرهم.

«ذلك الفتى عبقرى!» كان رومينيو يواصل التكرار «قلت دائماً: باولوروسى عبقرى!»

عاد ديفيل ليجلس منتحِبًا ضامًا قميصه، وهكذا سيبقى حتى النهاية، معانيًا مع كل هجمة. اندفعت كولومبيا إلى الهجوم بكل ثقلها ونجحت قبل عشر دقائق من النهاية في تقليص الفارق من ركلة جزاء: فسجّل خوليو الشابّ جدًّا غول الواحد/اثنين هازمًا مواسير بتنفيذ مثالي من علامة الجزاء. لكنّ ما رآه العالم كلّ كان جرادة هائلة حطّت على كمّ خوليو الأيمن دون أن ينتبه، ولاعبين برازيليين، أو بيراجارا وإيتوانا، أمسكاها في الهواء وأكلها هناك أمام الجميع.

ولم تهدأ صرخات الاشمئزاز التي خرجت من القاعة المشتركة في العيادة إلّا قبل دقيقة من النهاية حين خرجت من قم ديفيل صرخة جديدة أغرب: «مبغياااايحياا!» التفت الجميع ينظرون إليه بهيئة مستفهمة بينما كان هو قد بدأ ينطق، أبحّ لكن مفهوماً «ييح... ييح... ياحيا! فال... يريو! أس... تطيع الك... لام!»

لم يكن كلامه طليقًا تمامًا بعد، لكنّ الشلل المؤقت بدأ وقد تلاشى.

«بالطبع، يا له من سوء حظ،» ختم رومينيو «يستعيد المرء الكلام فيكون أوّل من يخاطبه فاليريو.»

5.12 مؤتمرات

نظر أوبيسبو إلى بريد التأكيد شبه غير مصدق أنه نجح: «الثلاثاء 8 يوليو الساعة 16.00؛ ملعب مينيراو، جادة أنطونيو أبراهام كارام 1001، بامبوليا، بيلو أوريزونتي، ميناس جيرائيس.» بعد العبور إلى دور الستة عشر كان قد قرّر أنه انتظر بيبي أكثر من اللازم بكثير، وبشيء من التدبّر وجد طريقة للانضمام إلى القافلة الإعلامية المحيطة بالمنتخب البرازيلي. لم تكن الأموال المتاحة له كثيرة (ولا سيّما أنّ جزءًا منها أنفق بشيء من الاستهتار)، لكنّ عقد مؤتمر صحفي في مكان يعجّ بصحفيين من العالم كلّ فرصة لا يمكن أن يفوتها.

«جوزيه، أنت أحمق.»

في الطرف الآخر من الخطّ الهاتفي حاول جيوفاني باريتو، مديره، أن يعيده إلى رشده: «قبل ساعة من صافرة بداية نصف النهائي الذي لعله الأهمّ في تاريخ البرازيل لن يكون أحد في مؤتمر الصحفي.»

«جيوفاني يا صديقي، ثق بي، تعرف أنّ أوبيسبو يوثق به ثقة عمياء، أليس كذلك؟ أرجو أن تفعل كما اتّفقنا. سيبدأ المؤتمر الصحفي في الرابعة وعشر دقائق، وربّما، إن كان هناك متأخرون، في الرابعة والربع. أمّا أنت ففي الرابعة وعشرين دقيقة انشر على الموقع تلك المقاطع التي أرسلتها لك.»

«جوزيه، أنت أحمق. لن يكون هناك متأخرون لأنّه لن يكون هناك أحد.»

«افعل كما قلت لك، انشر المقطع في الرابعة وعشرين دقيقة، اتّفقنا؟»

كان جيوفاني قد أغلق الخطّ. إن كان هناك شيء يفتقده مع هذه الهواتف الحديثة فهو حركة إنزال السّاعة بعنف على الهاتف. كان يكاد يشعر بافتقاده جسديًا.

بدأ أوبيسبو يتدوّق مسبقًا أعظم انتصار مهني في مسيرته، الخالية حتى تلك اللحظة من الرضى الذي كان واثقًا أنّه يستحقّه. جاءته فكرة صاعقة، وتتبعها بمثابرة، وكتبت تحقيقًا يليق بأفضل أقلام البلد، سبقًا عظيمًا، شيئًا سيفجر الأمة بأسرها، والآن تكاد تحين أخيرًا لحظة انتصاري.

بالتأكيد كان بارعًا جدًّا أيضًا في حصر حقيقة أنّ السبق زائف في زاوية من دماغه، فالصوت الصغير الذي كان يسمعه بين حين وآخر ويقول له «زائف! زائف!» صار يومًا بعد يوم أضعف حتى دُفن تحت عشرات الأصوات الأخرى الأكثر إثارة بكثير التي كانت تعمر ذهنه.

وما بقي لا يُدحض (لا يكاد يُدحض): منطقة الغابة التي جاءت منها القبيلة الهندية التي بلغت نصف نهائي بطولة كأس العالم لا تقع في البرازيل بل في غويانا. لا تكاد تُدحض: كان أوبيسبو يعرف جيّد المعرفة أنّ ذلك غير صحيح – بل لم تكن لديه أدنى فكرة عن النقطة الدقيقة التي جاءت منها القبيلة – لكنّه كان يعوّل على أنّ غابة الأمازون كبيرة، عملاقة، وأنّ أحدًا لا يضع في رأسه قطّ أن يجري حسابات دقيقة عن الموقع الدقيق للقبائل، لا أحد من البرازيليين على الأقلّ. يستحيل تحديد أشياء كهذه بدقة، كان يكرّر لنفسه كثيرًا، يستحيل ببساطة.

عادةً لا تُعقد مؤتمرات صحفية قبل ساعة من بدء مباراة، فكيف بمباراة بهذه الأهمية، لكنّه ألحّ إلحاحًا شديدًا على مسؤولّة المكتب الصحفي للمنتخب – فتاة جميلة بالمناسبة، وقد دَوّن رقم هاتفها بعناية – حتى إنّها، وقد أنهكت، حدّدت الموعد في الرابعة.

«في الرابعة لن يأتي أحد يا سنيور أوبيسبو» قالت له.

«لا تقلقي، لا تقلقي يا أنسة... روكسانا قلت، صحيح؟ يا له من اسم جميل يا عزيزتي، جميل بقدرك تقريبًا. لا تقلقي، سترين كم سيُتكلم عن هذا المؤتمر الصحفي، أوهوهوهووه نعم، كم سيُتكلم عنه.»

كان الاشتراك في الممعنة الإعلامية الكبيرة يعني أيضًا خوض تنقلات طويلة جدًّا؛ وانتظار ساعات وساعات حتى يظهر أحد من الوفد ليقول شيئًا، وهي مشكلة زادها إنهاكًا أنَّ أحدًا من اللاعبين لا يتكلَّم البرتغالية بحيث كانوا كلُّهم افتراضيًّا غير قابلين للمقابلة إلا بوساطة ذلك الأنطونيو؛ واحتمال مؤتمرات صحفية في أشدَّ الموضوعات تباينًا يعقدها أشخاص يبحثون يائسين عن فئات من الظهور. هذه المؤتمرات الصحفية كان يحرص دائمًا على الابتعاد عنها، لكنَّه في ذلك اليوم لم يكن يعبأ: فعدًّا في الرابعة ستكون لحظتي، أما اليوم فيمكنني أن أجلس في الصف الأخير وأرى أولئك الشخصيات المثيرة للشفقة يمرُّون أمامي.

كان المؤتمر الأوَّل بعد ظهر 7 يوليو مزدحمًا إلى حدٍّ ما بالفعل، لاحظ أوبيسبو بمرارة (أم كان حسدًا؟): امرأة اسمها إيزابيل باربوزا – وهي أبعد ما تكون عن القبح، هي أيضًا – تعلن إنشاء مؤسسة لحماية جزء من غابة الأمازون. والخصوصية الطريفة التي دفعت صحفيين كثيرين إلى الحضور أنَّ تمويل المؤسسة يأتي مباشرةً من جوائز اللاعبين. كان على أوبيسبو أن يعترف بأنَّه خبر كان يمكن أن يثير ضجةً كبيرة – الهنود يشترون قطعة جميلة من الغابة، لا أقلَّ – لولا أنَّه كان واثقًا أنَّ إعلانَه في اليوم التالي سيطمس كلَّ شيء.

في ذلك الصباح كانت إيزابيل قد قضت وقتًا طويلًا تنظر من نافذة غرفتها في الفندق، في واحد من المباني العالية في وسط بيلو أوريزونتي. كان الهواء ثقيلًا رطبًا، وقد خرجت من الدوش دون أن تجفَّ شعورها، فبعد أكثر من نصف ساعة كانت ما تزال تحسُّه مبللًا. وكان خريبر الدوش الطويل الذي لا ينتهي لروبرت خلفيتها الصوتية بينما كانت تنظر إلى السيارات تنحسر في زحام المدينة. كانا قد عملا حتى وقت متأخَّر لتشذيب آخر تفاصيل العرض، وتناقشا في كرة القدم، وناما معًا، وهي الآن لا تنجح في نزع عينيها عن تلك المدينة.

«هذه المؤسسة أخذت عقلك تمامًا، ها؟» سألها وهو يخرج من الحمام في سحابة بخار.

«البرازيل هي التي تأخذ عقلي، إنَّه شعبي، وهذه المدن، وهؤلاء الأطفال، وتلك الغابة الهائلة التي نواصل تجاهلها، والفريق الذي لا يُصدَّق والذي أوصلنا إلى نصف نهائي كأس العالم...»

«وأنا؟»

«أنت ماذا؟»

«وأنا لا آخذ عقلك قليلًا؟»

التفتت إيزابيل مبتسمة: «لا، أنت لا!» أجابت، مخرجةً لسانها ومبتدئةً سلسلةً من المناوشات أعادتهما إلى السرير.

ولم يعودا إلى الكلام إلا عند الفطور.

«أرجو أن يأتي هذا المؤتمر الصحفي قريبًا لأتِّي أحسَّ أنَّي لم أعد أستطيع أن أساعدك أكثر» قال روبرت في غاية الجدِّية.

«ماذا تقول؟ لماذا لم تعد تستطيع أن تساعدني؟»

«لأنَّنا كلُّما اقتربت المباراة صرنا أعداء أكثر، أنا ألماني وأنت برازيلية، نحن عدوَّان مثاليَّان. أستطيع أن أحاول قليلًا بعد لكنِّي أحسَّ أنَّ مقاومةتي على وشك الانهيار.»

«وماذا سيحدث لو انهارت مقاومتك؟»

«لا شيء خاص، تصيرين عدوَّتِي وأبدأ أكرهك.»

تفحَّصت إيزابيل روبرت لحظةً. لكنَّته الألمانية لم تكن تتيح لها أن تلتقط فورًا نبرةً مازحة محتملة عنده: كان ما يزال في غاية الجدِّية لكنَّها بعد شيء من التردد قرَّرت أنَّه يمزح.

«ما كنت أعلم أنّ كرة القدم تهّمك إلى هذا الحدّ، فحتى قبل أيّام لم تكن تكاد تتكلّم عنها.»

«بالطبع تهّمني كرة القدم، أنا ألماني.»

«بالطبع تهّمني كرة القدم...» ردّدت هي مقلّدة كلامه.

«أترين؟ صرنا عدوّين أكثر من قبل!» أجاب ضاحكًا.

«دعيني أتّصل بأنطونيو، فالمشاركة في المؤتمر لن تكون سهلةً عليه.»

«أنطونيو، ها؟»

«أعلم أنّك تغار منه غيرّة مروّعة ولك كلّ الأسباب: أنطونيو برازيليّ وبالتالي أجمل بكثير منكم أنتم الألمان الذين هم أعداؤنا، وقد عاش في الغابة في تكافل مع أشدّ الطبيعة توحّشًا وهذه الطبيعة المتوحّشة تلمع في عينيه، حتى إنّ من الدميم الذي كان عليه حين عرفته في ماكابا صار جميلًا أيضًا.»

«جميلًا، ها؟»

«بل أكثر، جميلًا جدًّا. وهو بطل أغرب حدث في تاريخ كرة القدم، أوّاصل؟»

«أترين أنّا صرنا عدوّين أكثر فأكثر؟»

كانت القاعة الصحفية في ملعب بيلو أوريزونتي مكتظةً بالصحفيّين. فقلّة المعلومات الخارجة من معسكر المنتخب كانت تجعلهم متعطّشين للأخبار، ومؤتمر صحفيّ يشارك فيه أنطونيو – ولو في موضوع جانبيّ كحماية الغابة – قد يكون فرصةً للحصول على بعض المعلومات: من أيّ نوع كان، يكفي أن تكون هناك مادّة لكتابة شيء.

كان أوبيسبو جالسًا في آخر القاعة يحاول تحليل الصورة الأولى التي ظهرت على الشاشة الكبيرة. كانت مقسومةً قسمين: في اليسار صورة تُظهر مجموعةً من الهنود يلعبون كرة القدم في ساحة واسعة شبه مستطيلة الشكل خالية من النبات، محاطة تمامًا بالأشجار. وأفهمته المهمة في القاعة الصحفية أنّ أحد الفتیان المصوّرین، المنكبّ على تسديد ركلة حرّة، هو بيّاتا. وفي اليمين خريطة لشمال البرازيل يُرى فيها ماكابا، والجزء الأخير من مجرى نهر الأمازون، ونقطة زرقاء كبيرة تحدّد بداهةً بخطوط عريضة منطقة الغابة التي الثّقّطت فيها الصورة اليسرى، وفي الأعلى، في الأعلى كثيرًا، الخطّ الأحمر المتقطّع الذي يمثّل الحدود مع غويانا الفرنسية وسورينام.

لزمه بعض الوقت ليفهم ماذا يعني كلّ ذلك. أوّلاً كانت هناك الصور لإيزابيل ولأنطونيو ولرجل ثالث، مدير ريتي نورتي. ثمّ مشكلة تقنية صغيرة في الميكروفونات حلّها بسرعة شابّ في غاية النشاط. وأخيرًا مداخلّة قصيرة من أنطونيو يؤكّد فيها للصحفيّين الحاضرين أنّ الدقائق الخمس الأخيرة ستخصّص للأسئلة عن الفريق. ولم يفهم أوبيسبو إلّا حين كانت إيزابيل تتنحّج لتبدأ الكلام، ففهم فجأةً كأنّ برقًا لمع في رأسه.

بعد هذا المؤتمر الصحفيّ لن يصدّق أحد كلمةً من تحقيقي. فمن أفضل من أنطونيو ليكون صوتًا موثوقًا في تحديد موقع القرية التي عاش فيها؟ ومن جهة أخرى، قال لنفسه، بالتقنيات الحالية من السهل جدًّا حساب أشياء كهذه بدقّة. سهل جدًّا.

«جيوفاني؟»

«جوزيه! مرحبًا، ماذا يجري؟»

«جيوفاني، مرحبًا، أتعرف تلك المسألة، مسألة مقطع تحقيقي؟»

«بالطبع أعرفها، تكلمنا قبل نصف ساعة، ماذا يجري؟»

«اسمع يا جيوفاني. أتعلم، وقعت بعض الأحداث، أشياء كبيرة، كبيرة جدًا، لا أحكيها لك على الهاتف... يعني باختصار، تعرّضت لضغوط من أناس في مواقع عالية جدًا...»

«ضغوط؟ أيّ ضغوط؟»

«حسنًا يا جيوفاني، أنت تعرفني، تعرف أنني أفضل الكلام في أمور دقيقة كهذه وجهًا لوجه. على كلّ حال، نعم، يعني، سيكون من الأفضل أن ننتظر وألا ننشر ذلك المقال فورًا.»

«كيف ذلك! كان شيئًا متفجّرًا، سبق الألفية!»

«نعم، نعم، إنّه شيء متفجّر، نعم، لكن، أتعرف، هنا أناس بارزون جدًا...»

«جوزيه أتريد أن تقول لي ماذا حدث؟»

«جيوفاني، لا تنشره، حسنًا؟»

حين أغلق أوبيسبو الاتصال كان قد بلغ أسفل درج الخروج من الملعب. ذهب إلى الفندق ليحجز رحلة عودة ولم يفكر في ذلك المقال بعدها. ونسي أيضًا أن يلغي المؤتمر الصحفي في اليوم التالي، الذي لم يحضره على كلّ حال سوى شخص واحد.

في الرابعة وعشرين دقيقة، وبعد عشرين دقيقة قضاها يتأمل سخرية القدر التي حملته في شهر واحد من البحث عن طريقة لمنع استدعاء الهنود إلى أن يكون ملاكهم الحارس («كلّ شيء يعتمد» كثيرًا ما كان يسمع أنطونيو يكرّرها، وكان على حق)، قرّر ثياغو أنّ المؤتمر الصحفي ألغي بوضوح، بما أنّ المتحدث نفسه لم يحضر، وأنّ من الممكن تصنيفه إنذارًا كاذبًا. وبينما كان يتّجه بخطى سريعة نحو غرف الملابس، أخرج المحمول: «روكسانا؟ أنا ثياغو. شكرًا لأنك نبّهتني إلى ذلك الرجل الغريب. أردت فقط أن أقول لك إنّه لم يحضر أحد بعد ذلك إلى المؤتمر. لا، ولا هو. لا أدري، من يدري. الأفضل هكذا. بالطبع. شكرًا مرّة أخرى.»

5.13 انتظار

كانت نصائح غونسالفيس مفيدة جدًا، ولم يشقّ على أنطونيو أن يعترف بذلك: فقد خاض الفريق ضدّ كولومبيا أفضل مبارياته رغم أنّ الخصم كان الأقسى الذي صادفوه حتى تلك اللحظة. لكن أنطونيو، بعيدًا كلّ البعد عن أن يكون مسرورًا، كان يتأمل الغيوم القاتمة المتكاثفة في الأفق.

في النهاية المضطربة للمباراة نال بياتا إنذاره الثاني في البطولة، وهو ما سيوقفه عن المباراة التالية. وكاوي أيضًا كان محلّ شكّ، بسبب الضربة القبيحة التي تلقّاها في ظهره في دقائق اللعب الأخيرة والتي أجبرته على الخروج على نقالة. وكان الاضطرار إلى التخلّي عن اللذين حدّدهما للتوّ محوري الدفاع والهجوم سيكون مشكلةً في أيّ حال، والمباراة التي تنتظرهم غدًا لم تكن بالتأكيد لقاءً كأيّ لقاء: فالمانيا كانت حتى تلك اللحظة أكثر الفرق إقناعًا في كأس العالم كلّها.

لكنّ أقتم الغيوم على الإطلاق، التي تبدو الأخرى بجانبها غيمات بيضاء صغيرة منتفخة، كان أنّ الأمر يتعلّق بنصف النهائي. نوعُ المباراة الذي كان أنطونيو يخشاه أكثر من غيره، مبارياته الملعونة. ومثكّنًا على مردود الفريق الطيّب كان أنطونيو يحاول أن يُبقي القلق المتصاعد تحت السطح وألاّ ينقله إلى غيره، لكنّ ذلك لم يكن سهلًا. لم يكن سهلًا إطلاقًا.

جالسةً في قاعة التلفاز الصغيرة في انتظار العشاء، كانت مجموعة صغيرة من الفتيان تنغمس في واحدة من تسلياتها المفضّلة: تغيير القناة بسرعة البرق، بحثًا عن تقارير تتكلّم عنهم أو عن كأس العالم عمومًا.

«ارجع. خُيّل إليّ أنّي رأيت شيئًا.»

عاد تايّني إلى القناة السابقة، التي كانت تبثّ شريطًا قديمًا بالأبيض والأسود.

«ما أغرب هذا، لعلّ هذه القناة معطّلة، لا ألوان فيها.»

«والكرة غريبة أيضًا، ليست هي التي نستعملها. تابع، هيا.»

«انتظر. خُيّل إليّ أنّهم قالوا مواسير.»

«لا، أيّ مواسير. لا بدّ أنّها واحدة من تلك الكلمات التي عندهم والتي تشبه كلماتنا لكنّها تعني شيئًا آخر تمامًا.»

صمتوا جميعًا. لبضع ثوانٍ لم تسجّل آذانهم سوى صوت البرتغالية المألوف الآن لكن غير المفهوم بعد، ثمّ سمعت بوضوح كلمة «مواسير». وبعد لحظات قليلة ظهرت على الشاشة صورة رجل وسيم ذي شاربين. ومن بقيت عنده من الفتيان ذكرى دروس الكتابة عند أنطونيو قرأ على الشاشة: «م و ا س - مكتوب مواسير! لكنّ ذاك ليس مواسير إطلاقًا!»

ركض جيروجيرو لينادي أنطونيو ومواسير، ورويدًا رويدًا، وقد جذبتهم الجلبة، وصل الآخرون كلّهم تقريبًا أيضًا. ألقى أنطونيو نظرةً على التلفاز وفهم على الفور. كان تقريرًا عن الماراكاسو، المباراة النهائية في كأس عالم 1950 التي كانت البرازيل كلّها قد عدّتها مضمونة الفوز ثمّ وجدت نفسها أمام أعظم هزيمة في تاريخ الرياضة البرازيلية.

«لكنّ أيعقل،» قال أنطونيو في سرّه لكن بصوت عالٍ «أن يبتّ هؤلاء البلهاء قبل يوم من نصف النهائي حكايةً من هذا النوع؟»

«أيّ حكاية هذه؟» سأل مواسير.

«لا شيء، لا شيء،» تردّد أنطونيو «في الحقيقة إنّها حكاية بدبعة، في مأساويّتها. ولعلّها أعظم حكاية كرة قدم في كلّ العصور، ما عدا حكايتكم.»

«ولماذا لم تحكها لنا قط؟» ألح ياماندي.

«لم أحكها لكم قط لأنّ الأبطال كانوا كثيرين، والأخطاء كانت كثيرة، لكنّ البرازيل اختارت بعد ذلك أن تلقي الثقل كلّ على كتفي رجل واحد، حارس المرمى. وهل تعرفون ما كان اسمه؟ كان اسمه هو أيضًا مواسير. هو الرجل الذي رأيتموه قبل قليل. مرّة قبل سنوات، في الغابة، كنت على وشك أن أحكيها لكم ثمّ فكّرت في مواسيرنا وقرّرت ألا أفعل.»

صمت أنطونيو. كان الفتیان يحدّقون فيه معلّقين بشفتيه. وعاد لحظةً بذاكرته إلى السنوات الماضية، حين كان قد بدأ منذ قليل يتكلّم اللغة على نحو لائق، إلى إحساس التحرّر الذي شعر به، وإلى كم كان مهمًّا له أن ينجح في حكاية الحكايات الأولى. ودون أن ينتبه تقريبًا، عاد يتكلّم: «هذه الحكاية حكاها لي جدّي. في ذلك اليوم كان جدّي في ماراكانا عضوًا في الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف النشيد...»

بعد نصف ساعة كان أنطونيو، شبه رغماً عنه، قد أنهى حكايته. ثمّ أفاق وفكّر لكن ماذا أقول؟ لماذا بحقّ الشيطان حكيت لهم هذه الحكاية؟ كانت قد ظهرت على وجوه الفتیان سلسلة من العلامات المقلقة، فرأى أنطونيو من الحسن أن يحاول إصلاح ما أفسده.

«لكن لا تصنعوا تلك الوجوه، هيّا. أنتم أقوى بكثير من برازيل ذلك الزمان ومن ألمانيا اليوم. ستفوزون بلا مشاكل.»

يا إلهي، هل جُننت؟ غيّر الموضوع يا أنطونيو، غيّر الموضوع.

«ليس عندكم ما تقلقون منه. لعنة نصف النهائي أمر يخصّني أنا وحدي.»

عبدًا، لعلّ الأفضل أن أصمت، فكّر أنطونيو أيضًا، ناهضًا وتاركًا خلفه فتياه مذهولين.

كانت الأيام التي تلت ربع النهائي مع كولومبيا قد مرّت ببطء شديد. وكان أنطونيو قد صار يستنفد كلّ حيلة ليشغل نفسه، ولئلاّ يدع القلق يتصاعد فيه ولئلاّ ينقله إلى فتياه. المكالمات مع والديه لم تسعفه، فوضى أكثر من اللازم، وتوصيات مضطربة وتمنّيات متلعثمة. أمّا المكالمات مع تيريزا فقد رفعت معنوياته قليلًا: فلم يكن أحد يُضحكه كما تُضحكه هي، ولو دون قصد. وقائمة التعاويذ وجالبات الحظّ التي حشدتها لصالحهم جعلته يبتسم أكثر.

والمكالمة مع إيزابيل سرّته أيضًا، فالأخبار على جبهة المؤسسة كانت طيّبة جدًّا، لكنّ شيئًا قالت له زرع في نفسه شكًّا مزعجًا. هل يستطيع أنطونيو، بكلّ صدق، أن يقول إنّّه كان مستقيمًا مع فتياه؟ نعم، على العموم نعم. تصرّف كأب حريص مع أبناء صغار: اعتنى بمصالح لم يكونوا يعرفون أنّها عندهم، وحماهم من مكائد كثيرة دون أن يُطلعهم على وجودها.

لكنّه ليس أباهم حقًّا وهؤلاء الرياضيون على مستوى عالمي ليسوا أطفالًا صغارًا بالأحرى. إنهم رجال أقوياء شجعان. يستحقّون أن يعرفوا وأن يقرّروا بأنفسهم، فكّر أنطونيو، بشيء من القدريّة يبعثه قلق نصف النهائي المتصاعد.

بعد العشاء استأذن غونسالفيس (كان أنطونيو ما يزال شديد الانتباه إلى حفظ المظاهر) في أن يأخذهم في نزهة لأجل طقس هنديّ اخترعه قبل أيام وكان يستعمله ذريعةً حين يريد أن يبقى وحده معهم.

«أتذكرون أنّي حكيت لكم أنّ كرة القدم لا تقتصر على المنتخبات الوطنية؟ هناك أيضًا فرق القرى وفرق القبائل. وفي هذه يمكن أن يلعب لاعبون من العالم كلّ، حتى لو وُلدوا في قرية مختلفة، حتى من الجهة الأخرى من العالم.»

استقبلت كلمات أنطونيو مهمةً تأكيد.

«والفرق الأقوى والأغنى تعطي نقودًا كثيرةً لأقوى لاعبي العالم لتقنعهم بأن يصيروا جزءًا من فريقها.»

صمت أنطونيو بضع ثوانٍ لأنّه لم يكن يعرف جيّدًا كيف يدير الحديث، ثمّ قرّر أن يكون مباشرًا.

«في الأيام الماضية علمت أنّ بعض أقوى فرق العالم تودّ أن تلعبوا معها.»

كانت هناك لحظة صمت قصيرة، ثمّ سأل بيراي: «ومن منّا؟»

«كلّكم.»

«كلّنا؟» اندهش أبيريرا «لكنّي لم ألعب ولا مرّة واحدة، كيف يعرفون أنّي لاعب بارع؟»

«الطلب أكبر على من لعب، صحيح. لكنّهم يظنّون أنّكم إن كنتم في الفريق نفسه مع ياماندي وكاوي وجاسي فلا بدّ أنّكم بارعون أنتم أيضًا.»

«وهو صحيح!» أضاف بريجاوفا ضاحكًا.

«يا خسارة أنّ علينا بعد كأس العالم أن نعود فورًا إلى القرية،» قال تايّني متأملاً «كنت أودّ أن أزور بعض الأماكن الأخرى. ثمّ إنّ اللعب كلّنا معًا في فريق كبير سيكون جميلًا، أليس كذلك؟»

«لن تلعبوا كلّكم معًا،» شرح أنطونيو، «فكلّ من هذه الفرق عنده أصلًا لاعبون أقوىاء جدًّا وهم لا يبحثون إلّا عن لاعب أو اثنين، ثلاثة على الأكثر، لإكمال الفريق، بحسب حاجاتهم. مثلًا هناك فريق قويّ جدًّا في إسبانيا يبحث عن حارس مرمى لأنّ السابق كفّ عن اللعب وهم مهتمّون جدًّا بمواسير.»

«لكنّ إسبانيا هي ذلك الفريق الضعيف جدًّا الذي أقصي، لا يمكن أن تكون هناك فرق قويّة في إسبانيا!» ردّ مواسير مستنكرًا.

«قد يبدو ذلك غريبًا، لكنّه كذلك، بعض أقوى الف...»

«وأنّا؟ من يريدني في فريقه؟» قاطعه جاسي.

«أنت يهتمّ بك فريقان من إنكلترا...»

«لكنّنا رأينا أيضًا أولئك الذين يُسمّون إنكلترا يلعبون وهم أيضًا ضعفاء! أنطونيو، هل تسخر منّا؟»

«دعني أنهي. اثنان من إنكلترا، وواحد من إيطاليا...»

«إنّه يسخر منّا» استنتج جاسي وسط ضحكات الآخرين الساخرة.

«وواحد من ألمانيا واثنان من البرازيل.»

«آه. حسن» ختم جاسي، فخورًا فجأةً.

مرّت بضع ثوانٍ من الصمت ثمّ سمع بيراي يتنحّج.

«أنا لا أريد أن أعود إلى القرية. كيف أفعل لأقول لفريق يريد أن يعطيني نقودًا لألعب إنّي موافق؟»

كان بياتا أسرعهم في الردّ: «لكن ماذا تقول؟ ماذا يعني أنّك لا تريد أن تعود إلى القرية؟ القرية تحتاج إلينا جميعًا. سنعود إلى القرية، بعد أن نكون قد جعلناها فخورةً بمأثرتنا.»

«عد أنت إلى القرية. أنت مرتاح فيها وتُحسن صنعًا إذ تعود إليها، أمّا أنا فأرتاح هنا أكثر وأبقى هنا.»

وبينما كان بياتا، بين الذهول والغضب، يبحث عن الكلمات المناسبة، تدخل إيتاونا على حين غرة: «وأنا أيضًا كنت أودّ أن أبقى هنا قليلًا. ربّما دون أن أذهب بعيدًا أكثر من اللازم، لكنّ اللعب في ماكابا أو في تلك المدينة الجميلة التي ذهبنا لنلعب فيها، ماناوس، سيكون جميلًا.»

«أنت؟ لكنك طوال الوقت تقول إنّ المكان هنا مقرف، ولم تكن تريد حتى أن تأتي إلى كأس العالم.»

«غيّرت رأيي. تغيير الرأي ذكاء.»

وفي غضون عشر دقائق عبّر كثيرون آخرون بصوت أعلى فأعلى عن تفضيلاتهم، واحتدّت النفوس أكثر فأكثر، وكاد بياتا وإيتاونا يتضاربان، وانقسم الفريق قسمين بوضوح.

ومواسير وياماندي، من القلائل الذين بقوا على حدة، هما من أعادا إلى المجموعة، إن لم يكن الصفاء، فالصمت على الأقل. أمّا أنطونيو، وهو في أزمة كاملة، فقد مضى دون أن يقول شيئًا مكتفيًا بأن يفكر، شبه مرتاح: **على الأقل لا يمكن أن تسير الأمور أسوأ من هذا.**

5.14 هذيان

إبييراتا، لا! لا تصعد على تلك الشجرة، لا! لا! تلك هي الشجرة الملعونة، لا! الكايمانان لا تأكل القروء، الكايمانان لا تأكل الأطفال، لا!

غداً، غداً، علينا أن نرحل، أن نركض، لا يهم كم هو خطر، إنه غداً. قولوا للسيد إيناسيو أن ينتظرنني، فأنا هذه المرة آتي أنا أيضاً إلى الكنيسة، إيناسيو، إيناسيو، انتظرنني يا إيناسيو، علي أن أعبّر الغابة لأتي إلى القدّاس أنا أيضاً لكنّي أقدر، سأرحل باكراً في الصباح، سأبني طوقاً، لكن يا إبييراتا عدني أنك على تلك الشجرة لا، لن تصعد، تذكر، الكايمانان لا تأكل القروء.

علي أن أعلمكم العدّ، لماذا لم أعلمكم العدّ قطّ؟ علي أن أعلمكم العدّ حتى مئة على الأقلّ، وربما حتى ألف. لو كنت علمتكم العدّ حتى ألف أنعرفون أيّ فرق؟ أنعرفون كم من الأشياء الأخرى كنّا سنستطيع أن نفعل؟ ألف يوم، ألف عام، ألف كيلومتر. لماذا لم أعلمكم العدّ قطّ؟

لنفعل هكذا، غداً نهرب جميعاً، نعود إلى غابتنا، نعود إلى إبييراتا، لا يهم نصف النهائي، لا يهم. ننتظر أن تشرق الشمس ثم نأخذ زورقاً، جيباً، شيئاً ما ونعود جميعاً معاً إلى شابونو قريتنا، إلى حياتنا، لا يهم نصف النهائي.

خوليو، خوليو!

يجب أن تنزل علينا روح فيلاسكو، إنّها الطريقة الوحيدة. خوليو، خوليو، تعال إلى الكنيسة، لثبارك أنت أيضاً، لكن لا تأكل المحارة! لا تأكل شيئاً، المحارة، السرطان، لا شيء، لا تأكل لأنّها مسمومة، سمّوها عمداً. خوليو ساعدني أنت، خوليو. غداً يجب أن يخرج دمي من عروقي وأن يدخل مكانه ثلج، ثلج وسمّ. خوليو ساعدني أنت، يجب أن يخرج الدم كله.

يا مدرّب أترك لك الفريق، أنا ذاهب إلى زوجتي، إلى ابني، أترك لك الفريق. لا تلعبوا القوس المشدود أكثر من اللازم، لا تلعبوا لعبة الحبال المضفورة، هم درسونا، يعرفوننا، كانوا كلّ هذا الوقت مختبئين خلف الأشجار ولم ننتبه. لهذا كفّ الجاكوار عن المجيء، ولمّ غير ذلك؟ كانوا يبعدونه ليراقبونا ويدرسونا. صاروا الآن يعرفوننا أكثر من اللازم، علينا أن نهرب، أن نترك القرية، أن ننقل إلى مكان آخر.

لكنّ الوقت متأخّر أكثر من اللازم، نصف النهائي غداً.

شجاعة يا فتیان، امنحوني شجاعة، أنا لا أقدر. عندي ألم في كاحل، عندي ألم في قدم، لا أستطيع أن أركض، لا أستطيع أن ألعب معكم، امنحوني شجاعة. من دوني لا تقدرون، الرواق الأيمن سيكون مكشوقاً تماماً، امنحوني شجاعة فأنا بهذه القدم لا أقدر. من سيلعب على اليمين؟ من سيلعب؟ سيكون الذنب ذنباً دائماً، صحيح؟

هل تحسّون روح الماراكاناسو تحوم فوقنا؟ لا نستطيع أن نفعل شيئاً، لا نستطيع أن نهرب، الروح قويّة ولا شيء يوقفها. اهربوا يا فتیان، إنّها الطريقة الوحيدة لتنجوا، اهربوا، سأوقفها أنا، سأقف أنا أمام آلات التصوير بينما تعودون أنتم إلى الغابة، تتفرّقون، تهربون.

ساعدوني.

ما كان ينبغي أن تُبقوا الأفعى السوداء الكبيرة قريبةً هكذا، يجب ألا يخدعكم هدوءها الظاهر، ففي اللحظة التي تجوع فيها لن تتردّد في مهاجمة أحدكم، عليكم أن تطردوها، أن تحبسوها. لا تنظروا في عينيها، ذلك الأصفر في قزحيّتها سامّ بحدّ ذاته، كما أنّ شذقيها الأحمرين سامّان. أنا أحبكم جميعاً، أنتم لا تدركون، عليكم أن تطردوها، لا تقفوا قريبين هكذا، ها هي تتحرّك، ها هي تهاجم، ها هي تهاجمني أنا!

طق! طق! طق! «ألميدا! سنيور ألميدا!»

في البداية ظلّ أنطونيو أنّ قلبه هو الذي يخفق بهذه القوّة.

طَق! طَق! طَق! «ألميدا، هل أنت هنا؟ الفريق يغادر الفندق ليذهب إلى المركز الفنّي...» طَق! طَق! طَق!

لكن كانت هناك تلك الكلمات.

طَق! طَق! طَق! «سنيور ألميدا، أعرف أنّك ما زلت في الغرفة، أجبني، أرجوك.»

لم يكن قلبه، وإن كان يخفق كالمجنون. كان أحدهم على الباب.

«نعم...» أجاب أنطونيو بخيط صوت. أين هو؟ أيّ يوم هذا؟

«آه، ألميدا، الحمد للسماء! الحمد للسماء! هل أنت بخير؟ هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟»

«نعم، أنا بخير، أنا بخير» كان الصوت يشقّ عليه أن يخرج. هو في فندق. لكن أين؟ ومتى؟

«آه يا للارتياح يا ألميدا، الفريق صار في الحافلة، إنهم ينطلقون إلى المركز الفنّي، ولا ينقص إلا أنت: تعرف، بما أنّ اليوم نصف النهائي وكلّ ذلك، لعلّ عليك أن تلحق بهم في أسرع وقت...»

«نصف النهائي؟ نصف النهائي!»

5.15 صافرة

تخلّص من عناق الريش والترتر: «هيا، كوني عاقلةً يا أليديدا، فبيبي خاصتك يريد أن يشاهد المباراة. لا، ليس هكذا، شعرك أمام عيني، هيا، ابتعدي عني قليلاً يا فراشتي فهذه مباراة مهمة، وإن كنت طفلةً عاقلةً أراك بيبي بعدها تلك الملابس الداخلية الدانتيل البنفسجية التي وعدك بها، لكن دعيني الآن أشاهد، فذاك هناك أنا أعرفه، أنا أنقذت حياته، ذاك هناك.»

فتحت الفتاة عينيها الكبيرتين المكحلتين على وسعهما، متأثرة: «إي، لولاي لكان ميئاً وانتهى، نعم. أنقذت حياته في الغابة، تلك المرة التي نجوت فيها بشعرة من الجاكوار الأبيض الكبير، حكيتها لك، أليس كذلك؟ ثم وجدت هذا هنا وقد ضاع، كان يموت جوعاً وعطشاً وكان يهاجمه قطيع من آكلات النمل الشرسة، لولاي... لكّتي أحكيها لك بعدها يا سكرتي، ربّما في غرفتك فنعيد تلك اللعبة، لعبة المرة الماضية، أمّا الآن فكوني هادئةً صامتةً فهي على وشك أن تبدأ.»

«اصمتوا، فهي على وشك أن تبدأ!» كانت تيريزا قد وضعت قرطبيها الأزرقين على شكل صدفة، اللذين جلبا لها الحظ دائماً، ورتبت فوق التلفاز صفّاً كاملاً من صور القديسين والأوريثاس وتمائيلهم الصغيرة. بل أشعلت «ديفومادور شاما فورتونا» اشترته للمناسبة، وقد أوصوها به بوصفه أفضل تعويذة في السوق رغم أنه ينشر رائحةً غامضةً كرائحة الأقدام. ووضعت في البراد صندوق جعة كاملاً، وكانت زجاجتان جديدتان من الرّم والبينغا جاهزتين على الطاولة الصغيرة إلى جانب خرطوشة سجائر وصينية بسكويت صغير. وكانت لويزا في غاية الأناقة برايون مخطّط بالأصفر والأخضر جالسةً بين جواو وسافيريو اللذين كان جاهزاً عندهما، مخبأً في درج، تشكيلة كاملة من الألعاب النارية اشترىها من الصيني في الزاوية.

«لا أراها لكنّ الصوت الذي تصنعه يعجبني كثيراً، خذ أيضاً بعضاً من تلك التي تصفّر، أرجوك،» كان سافيريو قد قال «لكن لا نقول شيئاً لتيريزا، فعندها كلّ تعاويذها ومن يدري لعلّها تظنّ أنها تجلب النحس، سنصنع لها مفاجأة.»

كان العلم الكبير قد نُشر خارج النافذة، وكانت تيريزا قد قضت كلّ ظفر خنصرها القرمزي حتى قبل صافرة البداية.

«لكن متى يصفّرون هذه البداية؟ يا إلهي، أنا كلّ عرق من الانفعال... ربّما ما كان ينبغي أن نأتي يا إيتالو، ربّما كان علينا أن نبقي في البيت ونشاهد هذه المباراة أيضاً في التلفاز... لا أدري إن كنت أقدر أن أنظر إليهم على الطبيعة، أنفعل أكثر من اللازم...»

«هيا يا مارسيليا، كيف كان يمكن ألا نأتي، يكفي أنّي صمدت حتى الآن: كنت أمرض وأنا أشاهد المباريات في التلفاز... ثمّ سترين كم سيُسّر أنطونيو حين يعلم أننا جننا، ومهما جرى سيكون والداه إلى جانبه!»

«آه لكّته في رأيي يعرف أننا هنا.»

«وكيف تريدونه أن يعرف؟ لم تقولي له، أليس كذلك؟ يجب أن تكون مفاجأة!»

«لا، لا، معاذ الله أن أقول له! لكّته في رأيي يحسّ، يحسّ قلب أمّه قريباً قريباً... انظر إليه – كيف يعمل هذا المنظار، لا أنجح أبداً في – ها هو، ها هو انظر إليه، يا أمّاه أيّ هالات تحت عينيّه، طفلي المسكين، لا بدّ أنّه ظلّ مستيقظاً الليل كلّهُ... لكن متى بيدأون، أنا لا أحتمل ساعةً ونصفاً هكذا!»

«استيقظ، هيا!»

«هممم، مم... لكن كيف، أتريدون أن نعيد الكرة؟ لم نعد صغاراً، ما هذا الحماس يا إيزابيل النمرة؟»

«هاها، لا يا روبرت، ارفع تلك الذراع، هيا، المباراة على وشك أن تبدأ، علينا أن نشاهدها! ثمّ نمرّة... أنا رأيت نفسي دائماً قطّة صغيرة، رومانسية، حنونة، مرحة ومجنونة قليلاً...»

«إنني يعني أنا يكون النمر الكبير، نمر ألماني كبير ياكل بلقمة واحدة برازيلية صغيرة ممثلة وكل أصحابها الصغار...»

«هاهاها، لا كَف، كَف! أريد أن أشاهد!»

«لا شيء تشاهدون، لا تقدرون شيء ضد ألمانيا الكبيرة، تدغدغوننا هكذا، وهكذا... هاها، على كل حال نفوز نحن!»

«نفوز نحن، صحيح يا أبي؟ ألمانيا هذه قويّة، عليّ أن أقول إنّها تخيف قليلاً.»

«بالطبع يا مانويليتو، تفوز البرازيل، يفوز أنطونيو.»

رفع كارلوس عينيه إلى السماء: «أبي...! أما زلت مع هذه الحكاية، حكاية أنّ المدرب الحقيقي لهذا الفريق في رأيك هو أنطونيو؟»

«ليست حكاية. أكرّر لك أنّي أعرفه جيّداً، وكثير من المخططات التي يستعملونها هي نفسها التي اخترعناها حين كنّا ندرّب ماكابا والتي كان الجميع يسخرون منّا بسببها.»

تبادل كارلوس ومانويليتو نظرة ثمّ بدأ يقهقهان.

«أبي، هيّا! السكّة المشقوقة، هاهاها، بالطبع كانوا يسخرون منكم، كيف يبقى المرء جاداً!»

انفجر مانويليتو ضاحكاً إلى حدّ أنّ الكوكا/كولا صعدت في أنفه فاضطرّ إلى أن يبصق قليلاً منها على سرواله.

عدّل إدواردو وضع حفيدته إيفيتا التي نامت بين ذراعيه وصرف بحركة يد التساهل الذي يصغي به ابنه إلى حكاياته. من يدري إن كان لأنطونيو أولاد، لم يكن يبدو لي من ذلك النوع كثيراً. من يدري إن كان قد وجد من يصغي بسرور إلى حكاياته. ومن يدري إن كان قد نجح في هزيمة ربع أنصاف النهائيّات، الكاميرا تلتقطه من بعيد أكثر من اللازم قليلاً لكنّي أعرفه، أعرف ذلك الوجه: ما زال يؤمن باللعنة. هيّا يا أنطونيو، أسرة بيزيروس كلّها معك.

«إنني؟ هل بدأت هذه المباراة؟ هل غُزفت الأناشيد؟» تدخلت زوجته روزا واضعةً نفسها أمام التلفاز فغاب خلف ردفها الوافرين.

«يا أمّي!» «روزا!» صرخ رجال بيزيروس الثلاثة معاً «شششش! تنحّي ودعينا نسمع!»

«شششش! أتكفّون عن هذه الجلبة؟ يكفي أنّي أجعلكم تشاهدون المباراة هنا في الصالون... رايموندو، ارفع قدميك عن الطاولة الصغيرة، بدينك الجزمتين القبيحتين. وأنت يا إيفانو، إن شربت تلك الزجاجات كلّها قبل البداية فلن تعود تميّز حتى التلفاز...»

«سيّد إيناسيو، السيّد المونديس على الهاتف، بشأن الشحنة التي...»

«لكنّ المباراة على وشك أن تبدأ! ماذا يريد بحقّ الشيطان؟»

«لا، ليست مباراة كرة القدم، إنّها بشأن شحنة الكوكا التي يجب أن تصل و...»

«ماذا، ماذا! قل له إنّني مشغول، وليعاود الاتصال! هؤلاء الناس، لا يفكّرون إلّا في العمل! لا وطنية عندهم، لا شعر عندهم! اسمع النشيد، إنّّه يؤثّر في أكثر بعد منذ صرت بعيداً عن برازيلي... ثمّ ذلك الشابّ، المدرب، أنا اكتشفته.»

«حقّاً يا سيّد إيناسيو؟»

«بالطبع. أنا ربّيته، إنّه من صنع يديّ، أنا وضعت الكرة في يده حين كان ما يزال فتّى صغيرًا. رأيت فورًا أنّ له مستقبلًا، أنا لا أخطئ في هذه الأمور، إيناسيو بعون العذراء لا يخطئ أبدًا، صحيح يا شباب؟»

«كان رئيسي على حقّ، كان السيّد إيناسيو على حقّ: هو لا يخطئ في الناس،» كان غوستافو يتطافو في لامبالاة مطلقة من الحاضرين، السجناء الاثنين والأربعين الذين نالوا الإذن بحضور المباريات في قاعة التلفاز، الرمادية بلينيولومها وأضوائها النيون «لا يخطئ أبدًا. انظر إليّ. متى سُوّيت هذه العثرة عدت إلى المكان الذي أَسْتَحَقُّه، مسألة ثلاث سنوات، لا أكثر. وانظر إليه هو، أنطونيو. الرئيس قال دائمًا إنّ ذلك الفتى موهوب، كان كابن له. أنا وهو، كابنين. نحن عمليًا أخوان في الرضاعة أنا وأنطونيو. عمليًا أنا أخ في الرضاعة لمنتخب كرة القدم، انظر أنت.»

إلى جانبه تتأب روموالدو، القاتل المتسلسل الذي كان يدرس النبات في السجن، بصوت عالٍ: «أغلق منقارك، فقد بدأت.»

«يا شباب، تعالوا، على وشك أن تبدأ!» كان ماركوس وسيباستياو وروي وعشرة فتیان صغار آخرون متزاحمين أمام واجهة محلّ الأجهزة الكهربائية في شارع ماديرا، حيث كانت خمسة تلفازات مشتعلة على الأقلّ تُظهر بكلّ المقاسات ملعب مينيراو.

«انظر، ذاك مواسير!» «حسنًا، بالطبع هو، إنّه بلباس حارس المرمى!» «إنّه هو، إنّه هو، وهو الأطول أيضًا! وذاك جاسي!» «آي، ولا تدفع!» «أنا يجب أن أقف في الأمام! أنا الأصغر، يجب أن أقف في الأمام! ثمّ إنّ جاسي وضع اسمي على القميص، لا اسمكم.» «نعمهم، تصوّر، اسمك! من يدري من يكون ماركوس ذاك، ربّما هو أبوه.» «لكنّ أباه هنديّ! لا بدّ أنّ اسمه إيكاييتورجورشانوتكي أو واحد من تلك الأسماء التي عندهم، أقول لك إنّه وضع ماركوس على القميص من أجلي! إنّه صديقي!» «هيا اذهب يا ضفدعًا مقملاً، من تظنّ نفسك!»

«لكن انظروا إلى هؤلاء الألمان أيّ هيئة متبجّحة، من يدري من يظنّون أنفسهم.»

«حسنًا يا رومينيو، أمّا أقوياء فأقوياء، وأيّما قوّة. وأنك لا تطيقهم فليس بجديد.»

«الجديد أن يروق لك أحد يا فاليريو.»

«ومن يعبأ بمن نحبّ ومن نكره، المشكلة أنّ كاوي على الدكّة، انظروا!»

«تبّا. هذا ما كان ينقصنا!»

«فعلًا، هذا ما كان ينقصنا. وذلك التايني مكان بياتا أيضًا، لا أدري. يا إلهي كم أودّ أن أكون هناك» كانت ساقا فابري المجبّستان كلّهما ارتجافًا. وكان فاليريو يطبل على ركبتيه، وديفيل يؤدّي دون أن ينتبه تمارين التنفّس التي اعتاد أن يؤدّيها قبل النزول إلى الملعب، وكارلوس لا ينجح في إبقاء قدميه ساكنتين. وفي الغرفة البيضاء في العيادة كانت تُتنفّس رائحة أدريينالين كثيفة إلى حدّ أنّ الممرّضة كادت تُصاب بدوار.

«لا أدري عنكم يا شباب، أمّا أنا فكأنّي هناك، أشمّ حتى رائحة العشب...»

«تلك مزيل عرق ديفيل. لكنّي أنا أيضًا أحسّ كأنّي على وشك أن ألعب، أهنّز كلّ.»

«لنركّز، لعلّ طاقتنا تصلهم أيضًا، معصوبةً ومجبّرةً لكنّها طاقة على كلّ حال. هيا يا برازيل.»

كان عذاب في غاية التركيز. فلمرّة الأولى على الإطلاق أذن له بدخول قاعة البوزادا وكان يحاول أن يكون بالغ الأدب. وكان غامبوني يبقي يدًا على رأسه، احتياطيًا، ويروح نفسه بقبّعة القبطان.

«الجوّ حارّ يا جيزيتا. كان عليّ أن أشتري تلفازًا للقارب. من تلك المسطّحة، جميل جدًّا، أشتري واحدًا غدًا. على الأقلّ أشاهده في مكان بارد.»

«إي، ربّما نضع التكييف السنة القادمة، سنرى. لكنّي أتصبّب عرقًا من الانفعال، هكذا. أن أفكّر أنّي كنت أوّل من عرفهم، والآن يشاهدهم العالم كلّهُ. أنا كسوتهم، أنا كسوتهم.»

جفّفت عينيها: «لنشرب جعةً صغيرة، هيّا، وإلاّ تأثّرت. أرماندينيو، أتريد واحدةً أنت أيضًا؟»

أوما أرماندو بنعم برأسه، دون أن ينزع عينيه عن الشاشة. كان محتقنًا هو أيضًا، لكن لم تكن لديه أيّ نيّة في خلع ربطة العنق التي وضعها للمناسبة، السوداء ذات البقعة الصغيرة من الدهن التي تعود إلى زفافه قبل خمسة عقود.

ذهب الحكم إلى وسط الملعب. صمت بيبي، وترترة أرجوانية عالقة في لحية ذقنه الخشنة. قضمت تيريزا ظفر بنصرها، ورسمت لويزا إشارة الصليب، وعقد سافيريو أصابعه. حبس إيتالو أنفاسه، بينما كانت مارسيلّا تعضّ شفّتها وتروّح نفسها بعنف بالمروحة اليابانية المقلّدة. سحبت إيزابيل الملاءة حتى ذقنها، محدّقةً في الشاشة من فوق كتف روبرت الذي كان يغني «دويتشلاند أوبر أليس»، وبقي إدواردو بلا حراك، وخيط من لعاب الرضيعة يسيل على عنقه. جفّف إيناسيو عرقه، مشعلًا من جديد سيجاره المشتعل أصلًا، وتجنّسًا غوستافو، وصمت الأطفال بينما كان ماركوس يدسّ سبّابته في أنفه. وحلّ الصمت في الغرفة البيضاء المكتظة، وبصق غامبوني على الأرض، وزمجر عذاب. وصقّر الحكم البداية.

5.16 طبول

كان غسقًا مضيئًا صافيًا، وقمر كبير جدًا قد أطلّ للتوّ فوق أعلى أغصان الأشجار حين بدأ كيريمًا يحكي. كان يمكن أن يخطئ في أشياء كثيرة، لكنّه كان يعرف متى تحتاج القبيلة إلى أن تسمع حكاية. الفتيان، ذكورهم الشبان كلّهم تقريبًا، بعيدون هكذا، بعيدون عن كلّ متناول، يخوضون من يدري أيّ أخطار في أماكن لا ينجح أحد في القرية حتى في تخيلها: لم يكن هناك بالغ لا يقلق على ابنه أو حفيده، ولا فتاة لا تفكر في حبيب أو أخ، ولا واحد من الفتيان القلائل الباقين لا يتساءل في كلّ لحظة أين هم الأصدقاء الذين شبّ معهم وماذا يفعلون. وكان الجهل بأخبارهم، أكثر حتى من غيابهم، يثقل على أذهان الجميع. نعم، كانت القرية بحاجة إلى أن تسمع حكاية.

نظر كيريمًا إلى السماء والأشجار، وبذل جهدًا ليتخيّل ذلك المكان البعيد وتساءل إن كان القمر الذي يرى من هناك هو القمر نفسه. ثمّ بدأ حكايته.

«بعيدًا بعيدًا، حيث يصير النهر عريضًا وأعرض بعد، هناك قرية كبيرة وسط النخيل، وفي تلك القرية متسع كبير، كبير حقًا، أتذكرون المتسعات في حكايات أنطونيو؟»

سرت في القبيلة همهمة موافقة، بالطبع يذكرون حكايات أنطونيو.

«حسنًا، هذا أكبر بعد، كبير بقدر عشرة من متسعاتنا. وفتياننا على حافة ذلك المتسع، الآن بالذات: مدهونون بألوان التحديّ ويصغون إلى الطبول التي تُقرع بأقصى قوّة لتحرّضهم على الركض والفوز. وقد جاءت قبائل من كلّ القرى لتراهم يلعبون، من كلّ قرى العالم، وهناك عشرون مرّة عشرون مرّة عشرون شخصًا كلّهم ينتظرون أن تبدأ اللعبة. وقد أشعلوا نيرانًا لا تُحصى من حوله، والمتسع مضاء كأنه نهار. الجميع يغنون ويرقصون، ويضربون الحجارة والعصي: إنها أمسية عظيمة، واللعبة التي ستبدأ بعد قليل هي أهمّ الألعاب كلّها، وللخصوم نقوش حمراء كالدّم، وهم كثيرون وأشرار جدًّا.»

تضامّ الأطفال الصغار إلى والديهم، فكلّ أولئك الخصوم المدهونين بالأحمر والأشجار هكذا أثّروا فيهم قليلًا. لم يكونوا يصدّقون إطلاقًا وصف كيريمًا، فتصوّر أن يوجد متسع بهذا الكبر، ومضاء كالنهار فوق ذلك، وتصوّر أن يكون هناك كلّ هؤلاء الناس، كم قال، عشرون مرّة عشرون مرّة... لا يمكن أن يكون في العالم كلّ هؤلاء. لكنّها حكاية جميلة، فكروا، وجلسوا، كالجميع، أكثر ارتياحًا ليصغوا على نحو أفضل.

وصف كيريمًا كلّ واحد من الفتيان، والرسوم التي على وجه كلّ منهم وجسده، وعدّد الحلي وتكلّم عن وجوههم المرّزة، وجوه محاربين عظام. ومطّبلًا بعصوين على جذع مجوّف ليعطي نفسه الإيقاع وصف تسريحة أنطونيو الريشية، التي لا تفوقها مهابة إلا تسريحة الشامان الكبير الذي سيعطي إشارة بدء المباراة. وأسمعهم أصوات الضفادع في النهر والقرود على الأشجار المحيطة بالمتسع شارحًا أنّها تبدو كأنّها تغني على إيقاع الطبول، ورسم بإصبعه في السماء مسارات عشر مرّات عشرة من الطيور الكبيرة المضيئة، تلك التي تكلّم عنها أنطونيو كثيرًا، وقال إنّ الطيور المضيئة في تلك القرية الكبيرة كثيرة ككثرة الببغاوات، وإنّها تذهب وتعود من القمر حيث أعشاشها الساطعة.

نظر حوله، فالوجوه التي تتحرّك عليها ظلال النار كانت كلّها متّجهة إليه، ونظر إلى الأطفال فاغري الأفواه وإلى الذين يمسّون أصابعهم، ورأى عيون البالغين كلّهم تتلألًا بانعكاس اللهب، وهم يحبسون أنفاسهم محدّقين فيه: لم ينل قطّ، كلّ هذا الانتباه. ستكون حكاية على الإطلاق، قرّر، سأحكي أجمل حكاية حكيها في حياتي.

«الجميع يغنون نشيد التحديّ، عشرون مرّة عشرون مرّة عشرون صوتًا ترتفع وتجعل الأرض ترتعش، وتهزّ الأوراق على الأشجار بينما تطير شرارات كلّ النيران في السماء كأسراب من اليراعات المجنونة. وعندئذ يطلق شامان الرجال الصفر صرخة البداية ويرمي الكرة في وسط المتسع. ياماندي هو أول من يضربها، وركلته قويّة جدًّا وترسم قوسًا مثاليًا كقوس قزح: يفهم الخصوم كم فتياننا أقوياء فيرتعبون.»

تغامز الأطفال بمرافقهم، مسرورين كلّهم.

«لكنّ الرجال الحمر أقوياء وقساة جدًّا، لا يسمحون لفتياننا بالركض، يطوّقونهم من كلّ جهة. إنهم سريعون خبثاء، وغدّارون كالعناكب، وما إن يقتربوا منهم حتى يضربوا الفتيان بالمرافق والركلات.»

ارتفعت من المستمعين همهمة سخط، وغمغمت طفلة «مااااااااااا!» وأخفت وجهها بين ركبتي أمها.

«رجل كبير ضخم، وريشة غراب مغروزة خلف أذنه، يضرب جاسي في ساقه فيقع على الأرض.»

ضَجَّت القَبيلة للإِهانة، لكنَّ كيرِيما كان قد عاد إلى الكلام: «جاسي شجاع جدًّا وينهض فورًا، لكنَّ الخصوم يستغلُّون رؤيتهم فتَياننا مشوَّشين، ينزلون كالأفاعي السامة، وواحد منهم، بعد أن يصدِّم إيتانوا من الخلف حتى يكاد يُوقعه، يسدُّ الكرة فيرسلها لتصيب الشجرة المقدَّسة، عاليةً أكثر من أن تبلغها قفزة مواسير اليائسة.»

«لا... لا...» صوت واحد، خذلانُ الجميع.

«فتياننا ينظر بعضهم إلى بعض، يودّون أن يردّوا لكنّ ساحرًا غير مرئيّ يُلقي عليهم سحرًا بالغ القوّة، فتلين سيقانهم، ويبدو أنّهم لم يعودوا يرون أين يضعون أقدامهم، إنّهم متردّدون، ذاهلون من التعويذة. وها هو رجل أحمر آخر يشرع في الركض، يتجاوز أوبيراجارا وبيري ويغيثها كأنّها ضائعة في الفراغ، ويركل الكرة التي بأجنحة سحر تتجاوز مواسير وتصيب الشجرة المقدّسة من جديد.»

«!!!لا»

«جاسي يعرج، لا يدري ما يفعل، والآخرين يبدون كأنهم لم يعودوا يعرفون إلى أين يذهبون، ويبدو أن عيونهم لم تعد ترى الكرة، وياماندي ومواسير يحاولان أن ينتفضا لكنهما لا يقدران، إنهم جميعاً فريسة السحر.»

كان إيقاع عصوي كيريمًا قد ازداد، والعيون كلها مفتوحة على وسعها، وإبتاتاكوارا يتململ في غاية الاضطراب، جالسًا على الجذع يا لي من غبيٍّ، ولا تعويذة واحدة علّمَهم إياها قبل أن يرحلوا، كيف يُفعل ذلك، كيف يُرسل الناس في مغامرة بهذا الخطر دون أن يعرفوا ولو سحرًا واحدًا، كيف يُفعل.

«ورجلان بقلائد من أسنان البوما يحيطان بأوبيراتان، ويضربانه بقوة في الركبة، ها هو يقع، لا ينجح في النهوض. يحملونه خارج المتسع، لن يستطيع أن يلعب بعد الليلة. ويدخل مكانه جيروجيرو لكنّ السحر عليه هو أيضًا، يتعثّر على ساقين لا تبدوان ساقيه، ويترك رجلًا أحمر صغيرًا قبيحًا جدًّا وشرييرًا يمرّ فيصير في لحظة أمام الشجرتين المقدستين، ينظر في عينيّ مواسير مباشرة فيرسله ليرمي بنفسه في الجهة الخطأ بينما يركل هو ويسجّل نقطة أخرى!»

«!!!lllllלא !llלא»

دَوَّت صرخة القبيلة بقوة جعلت طيور الطوقان على الأشجار، وقد أيقظها ذلك من نومها، تطير بعيداً برفرقة أجنحة عظيمة. عَصَّت النساء شفاههنّ، وكان كثير من الأطفال يبكون. تضاَمَّت أُمُّ أوبيرتان إلى المرأة المجاورة لها، خائفةً من الإصابة لكن شبه مرتاحة لأنّ ابنها لم يعد مضطرباً إلى اللعب، إلى أن يقيس نفسه بتلك الوحوش الغادرة.

«فتياننا كالمذهولين، لا يعرفون كيف يردّون، والوقت يمضي: فحين تبلغ نجمة عين الأناكوندا القمر تكون المباراة قد انتهت، ولم يبقَ كثير. والرجال الحمر يسجلون نقاطًا أخرى، ولعدّها كلّها تلزم يد كاملة وإصبعان من الأخرى. صاروا يحسّون الفوز على جلودهم، يضحكون متًا ومن عجزنا، ولهم عيون مدوّرة عنيفة.»

كان الرجال، في غاية التوتر، يداعبون السكاكين التي على جنوبهم، وإيتاتاكوارا يعضّ مفاصل أصابعه، ولا أحد يجرؤ على أن يطلق نفساً. وكيريما، وقد تصبّب عرقاً من التوتر، سرّع إيقاع العصوين أكثر، فصار الآن خفقان قلب مجنون.

«يبدو أن كل شيء انتهى، والخصوم يصرخون منقّضين على الكرة، يعرفون أنهم سيستطيعون أن يسجلوا نقاطًا كثيرة بعد. وإذا فجأة...»

وإذا بياماندي فجأة يتقدّم إلى الكرة ويصرخ: «يانياهبي تيليبييه هويسيببي!!!»

إنّها صرخة جبارة، تنجح في ثقب ضجيج الثمانين ألف متفرّج في مينيراو الذين يصمتون ليسمعوها على نحو أفضل. ومن جديد ياماندي، ناظرًا إلى الرفاق، ليتأكّد أنّه فهم: «يانياهبي تيليبييه هويسيببي!»

في غرف الملابس، قيل قليل، كان قد ساد صمت. كان الفتیان صامتين. ولم تكن عند المدرب رغبة في الكلام، فقد سئم كل هذه التمثيلية ولم يعد يهتم حتى حفظ المظاهر. وفاجأ نفسه يفكر أنّه لا يطيق صبرًا حتى تنتهي، مهما جرى. لكن أنطونيو بدا - كان - مشلولًا من الذعر. كان يواصل الغمغمة: نصف النهائي، من بين كل ما كان يمكن أن أنقله إليهم نقلت إليهم خوفي من أنصاف النهائيات، فتكلّم المدرب عندئذ، ولو لمجرد إسكاته.

«الوضع قاسٍ. لكننا نخسر ثلاثة صفر، لا سبعة ولا عشرة. ثلاثة أحوال يمكن تعويضها. أعرف أنّ أنطونيو حكى لكم حكايات كثيرة عن كرة القدم، لا أدري إن كان حكى لكم حكايات العودة من صفر/ثلاثة. قليلة، لكنّها حدثت. بل حدث نصف نهائيّ لكأس العالم خسرت فيه ألمانيا بالذات أربعة/ثلاثة. أن تسجّلوا أربعة أحوال متفرقة هنا وهناك أو أن تسجّلوها كلّها على التوالي ليس بينهما كلّ هذا الفرق. أنتم الآن خائفون. لكن حين تسجّلون الغول الأول ثمّ الثاني... وانتبهوا جيّدًا، لا “إن”؛ حين تسجّلون الغول الأوّل والثاني ستظلّون متأخرين لكنّ الخوف سيكون قد انتقل إلى عيونهم، لا إلى عيونكم بعد اليوم. وكيف تفعلون ذلك؟ عليكم أنتم أن تعرفوا. كلّما تقدّمنا في كأس العالم صرتم تلعبون أكثر مثل الآخرين. وبذنبني أنا أيضًا. لكنكم لستم الآخرين. أنتم أنتم. كفّوا عن تقليد الآخرين والعبوا كما تعرفون. وعودوا لتكونوا فريقًا، بحقّ الله! حتى قبل أيّام كنتم أشدّ فريق تلاحمًا رأيته في حياتي، واليوم يبدو أنكم لا تنجحون حتى في النظر في عيون بعضكم. أفيقوا، يا الله القدّوس. وكفّوا عن إزعاج الدكّة! هل فهمتم؟»

ساد لحظة صمت مطلق. وانتقلت نظرات كثيرة من وجهه إلى آخر. ثمّ حنى غونسالفيس زاويّتي فمه إلى الأسفل أكثر بعد، والتفت نحو أنطونيو هارًا رأسه وقال، له قليلًا لكن لنفسه قبل كلّ شيء: «لا. طبعًا لم يفهموا. يا له من وضع لعين.»

وبينما كان غونسالفيس يجلس، شجّعه ثياغو «خطاب جميل يا مدرب.»

«اذهب إلى الجحيم!» أجابه ذاك. ألقى أنطونيو عليه نظرة وأومأ ثمّ تكلم بدوره.

«ماذا قلت لهم؟» سأله المدرب.

«ترجمت ما قلته لهم أنت.»

«لا، بجّد.»

«بجّد. كان خطابًا جميلًا.»

نظر المدرب إلى أنطونيو بهيئة مستفهمة، وهزّ رأسه، ونظر إلى كاوي: «يا فتى! أتقدر على الدخول؟»

ثمّ خرج من غرف الملابس واتّجه إلى الدكّة، يتبعه أنطونيو.

وبينما كان كاوي يستعدّ، بقي اللاعبون في غرف الملابس يتشاورون بضع ثوانٍ ثمّ عادوا إلى الملعب.

«يانياهبي تيليبييه هويسيببي!!!»

«ماذا قال؟» يسأل المدرب فضوليًا.

«لنعمل حركة التاير.»

«وما هي؟»

«ما سمعت بها قط من قبل» يجيب أنطونيو مبتسمًا.

بدأ الشوط الثاني منذ قليل جدًا وارتكبت ألمانيا للتوّ مخالفةً في الهجوم. وقبل أن ينقذ ياماندي، يتقدّم تسعة من لاعبي البرازيل في نفس واحد ويصطقون على طول خط منتصف الملعب. **مخطط جديد!** يهملهم المتفرجون متحمسين. **أخيرًا! كنت أعلم أنهم لا يمكن أن يستسلموا هكذا!** يقول ذلك حتى أشدّ المتشكّكين، أولئك الذين كانوا حتى قبل دقيقة يفكرون في الانصراف، أولئك الذين بدأوا يترحمون على البرازيل التقليدية. كان الألمان يتوقعون شيئًا، لكنّ هذا يربكهم. فترك الدفاع مكشوفًا هكذا جنون، ولعلّه تكتيك ما، لكنّه يبدو قبل كلّ شيء حركةً يائسة. وفي حيرتهم، لا يعرف اللاعبون الحمر والسود جيّدًا ماذا يفعلون، فيكتفون برقابة لصيقة لكلّ خصم في انتظار تطوّر الوضع.

«أتعرف كيف يُصاد التابير؟» يسأل أنطونيو المدرب.

«هل تسخر منّي؟»

يركل ياماندي. إنّها ركلة طويلة مشدودة نحو جاسي. وبينما يقفز جاسي كأنّه سيضرب، يخطئ الكرة عمدًا فتصل إلى قدم كاوي، على خطّ منتصف الملعب بالذات.

«هناك نبتة متسلّقة في داخلها، بدل الماء، مادّة لزجة نتنة، رائحتها تذكر براائحة جوز الهند لكن أزنخ.»

يضرب كاوي الكرة طائرةً سابقًا للحظة ألهرمان، الذي يتلقّى منه ضربةً قاسية. يبقى على الأرض، لكنّ الكرة موجّهة توجيهاً صحيحاً نحو أوبيراتان، الذي يحولها طائرةً إلى جيروجيرو المنطلق أصلاً نحو المرمى.

«يجب أخذ هذه المادّة ودهنها جيّدًا على المؤخّرة ومن الأمام على الحوض، ولا يجب إهمال أيّ ثقب أو شق.»

لكنّ التمريرة قصيرة بشعرة، وكونتس حدس كلّ شيء فاعترضها. الكرة لألمانيا والبرازيل مكشوفة انكشافًا لا مزيد عليه.

«لأنّ المشكلة مع التابير أنّه ليس صعب الصيد لكنّه مليء بالفُراد، الذي يُسمّى بالضبط فُراد التابير.»

فرصة الهجمة المرتدّة مغرية جدًا ومن عساه لا يغتنمها؟ تطير الكرة من قدم إلى قدم بين اللاعبين بالقميص الأحمر وهم يتقدّمون سريعًا نحو مرمى البرازيل. إنّهم أربعة ضدّ ياماندي: البرازيل كلّها تركض بأقصى سرعة إلى الوراء لنجدته، وأفضلية الألمان قليلة لكنّها قد تكفي.

«وهذا الفُراد، وهو مروّع، تكيف ليصعد على الأرجل أو السيقان ويتسلّل إلى الحوض، وذلك لأنّ التابير يحكّ نفسه بلحاء الأشجار لكنّه بدهاءة لا يحكّ نفسه في تلك النقطة بالذات.»

يحافظ ياماندي على موقعه جيّدًا، ويتمهّل بالقدر الذي يجعل عودة إيتاونا مخيفةً ويضع الخصوم تحت الضغط: يختار باور أن يحرق المراحل فيفجر يسرى قويّة على بعد خطوات قليلة خارج المنطقة. لحظة ثمّ يغطس مواسير. الاتجاه هو الصحيح والرشاقة هي التي تعلّم الجميع أن يعجبوا بها في هذه الأسابيع. لعلّه يصل إليها.

إنّها مسألة منظور، يفكر أنطونيو مصوّرًا تلك اللحظة. **كلّ شيء يعتمد.** ثمّ في لحظة ما تنتهي الكرة خارجًا، أو على القائم، أو في الشباك، أو على أصابع الحارس ولا يعود شيء يعتمد.

يخطف مواسير الكرة بيده اليمنى. يقع. وما إن ينهض حتى يعيد إرسال الكرة دون أن ينظر حتى، واضعًا إيّاها مباشرةً على قدمي ياماندي.

«هذه هي نقطة التابير: تراه، يبدو حيوانًا أعزل، مهزومًا سلفًا. تظنّ أنّ هزيمته لعبة أطفال، لكنك إن لم تنتبه حتى إلى أدقّ التفاصيل فهو من سيهزمك أنت.»

يرسل ياماندي كرةً طويلة. في تلك النقطة لا يوجد إلا كاوي، الذي كان حتى قبل ثانية ما يزال على الأرض، لكنه ينهض الآن برشاقة جاكوار ويلتقط الكرة بامتصاص مثالي. أكانت خدعة؟ أم قام محققًا بالفرصة الذهبية؟ لا يُعرف وفي تلك اللحظة لا يهم أحدًا. يركض كاوي كالبرق نحو المرمى الألماني، إنه وحده تمامًا، وأمامه الحارس فقط. يغلي مينيراو بأمل متجدد كأن فيه خمسمئة ألف متفرج، إنهم يصرخون منذ الآن بقوة تجعل المرء يتساءل ماذا سيحدث لو سجّل.

يُكتشف ذلك بعد ثوانٍ قليلة: يخرج كروغنشتاين في محاولة يائسة، لكن كاوي بمراوغة يُجلسه على الأرض ويودعها في مرمى خالٍ.

أنطونيو سعيد، فالمباراة عادت مفتوحة، ولعنة نصف النهائي انكسرت، لكن قبل كل شيء بلغ قدره كمدرب تمامه: فقد نجحت حركة التابير وصار هو عديم الفائدة، كما بشر دائمًا.

يجفّ كيريمًا جبينه. النقطة سُجّلت وستتبعها نقاط أخرى: القرية كلّها الآن تضحك وتبكي وتغني. القصة الجميلة تنتهي نهايةً حسنة، هذا ما يعرفه.

ويعرفه أنطونيو أيضًا، وهو يضحك عند الصافرة الأخيرة في هدير الملعب المبتهج.

كيف تُرجم هذا الكتاب

صدر كتاب **La mossa del tapiro** عام 2014 بالإيطالية، في نشرٍ ذاتي. لم تكن نظن أنه سيصبح ظاهرةً في عالم النشر، لكننا آمنًا دائمًا بجمال النص، وتمنّينا دائمًا أن نروي هذه الحكاية لأكبر عددٍ ممكن من الناس. لم نربح منه شيئًا، بل خسّرنا، لكنه كتابٌ نحبه، وقد منحنا رضا لا يقيسه أيّ رقم.

تُرجمت النسخة العربية بالذكاء الاصطناعي، مع مقابلتها دائمًا بالأصل الإيطالي: مسودة أولى مع Claude (Anthropic) على مقاطع قصيرة، وحين كانت مرشحات الأمان في Claude تحجب بعض المقاطع أكملت مع Gemini (Google)، ثم مراجعة كاملة من جديد مع Claude. لم يراجعها أيّ مترجمٍ من الناطقين بالعربية. إن وجدت خطأً فراسلنا، وإن كنّا لا نرى ما يدعوك إلى ذلك.

نعرف أن الذكاء الاصطناعي يثير الانقسام، ولا نتظاهر بأننا لا نعرف. نحن ضدّ استخدامه لإنتاج المحتوى بالجملة ودون عناية، ونكاد نكون ضدّ استخدامه أصلًا. ونحن قبل كل شيء ضدّ التيار الذي يدفع به، وAnthropic منه: نزعةً كوربوراتية فيها الكثير من الفاشية، ولها أثرٌ على الكوكب قد يكون قاتلًا لنا جميعًا.

لكننا استخدمنا الأداة، ومن الإنصاف أن نقول ذلك.

هل نحن متناقضون؟ أنطونيو سيرى على الأرجح أننا كذلك. غونسالفيس سيقول لنا ألا نُتعب رؤوسنا. أوبيراتان سيطلب منا أن نستهلك مزيدًا من الماء، فلعلّ ذلك الشلال اللعين يصبح أسهل عبورًا. غامبوني سيعترض على أن النسخة الرقمية مجانية. تيريزا...

للتواصل

إذا أردتم معرفة المزيد عن بعض الوقائع والعادات المذكورة هنا وهناك في السرد، زوروا <http://lamossadeltapiro.wordpress.com>

يمكنكم أيضًا أن تجدونا على:

Facebook : www.facebook.com/lamossadeltapiro

Twitter : twitter.com/MossaDelTapiro

للكتاباة إلى المؤلفين: lamossadeltapiro@gmail.com

من مؤلفات الكتاب أنفسهم

Leonardo Poggi, Sonda Editore ,**Ingegneri, però simpatici**

Leonardo Poggi ,**Da bambino ero sovietico**

Miki Fossati, Blonk Editore ,**Doppler**

Miki Fossati, Zona42 ,**Finalmente è troppo tardi**